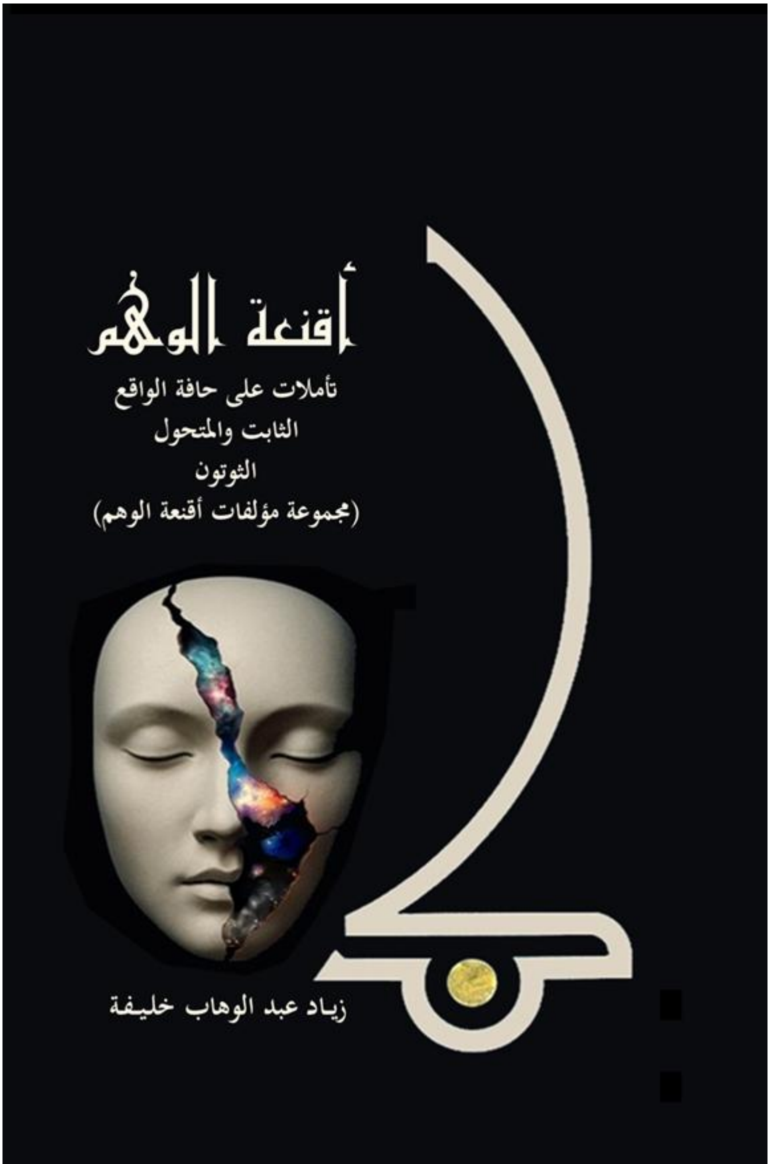
أقنعة الوهم
تأملات على حافة الواقع
الثابت والمتحول
الثوتون
(مجموعة مؤلفات أقنعة الوهم)
زيـاد عبد الوهاب خليـفة

مجموعة مؤلفات أقنعة الوهم

(ثلاث مجلدات)

أقنعة الوهم: تأملات على حافة الواقع

فيزياء الميتافيزيقا – الثوتون – التوازن العالمي

الثابت والمتحول

عن الشكل، الوظيفة، الطبيعة، التوازن الديناميكي ومصير البشرية

الثوتون Thoughton

جسيم مجال الوعي الكوني

تأملات في وحدة الوجود والتفاعل بين العقل والجسد

زياد عبد الوهاب خليفة

هيرتفوردشير، 2026

أقنعة الوهم 7 الثابت والمتحول 271 الثوتون 365

ARWAD PUBLISHING

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر. حقوق النشر © 2026

زياد عبد الوهاب خليفة (المؤلف)، دار أرواد للنشر (الناشر). لا يجوز إعادة إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال دون إذن كتابي صريح من الناشر، باستثناء استخدام اقتباسات موجزة في بعض الكتب.

طبع في المملكة المتحدة

مجموعة مؤلفات أقنعة الوهم

الطبعة الأولى، 2026

ISBN: 978-1-80605-673-6

أقنعة الوهم	ISBN 9781806055326
الثابت والمتحول	ISBN 9781806056163
الثوتون	ISBN 9781806055869

دار أرواد للنشر

6 Folly View, Stanstead Abbotts, Hertfordshire

SG12 8AX – United Kingdom

Ziad.a.khalifeh@gmail.com

أَقنِعَة الوَهْم

تأملات على حافة الواقع

فيزياء الميتافيزيقا

الثوتون

التوازُن العالمي

زياد عبد الوهّاب خليفة

لندن 2025

حقوق الطبع والنشر © 2025 جميع الحقوق محفوظة للمؤلِّف والناشر

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو نقله بأي وسيلة، إلا بإذن خطيّ صريح من الناشر، باستثناء الاقتباسات القصيرة في سياق مراجعة أو بحث علمي.

طُبع في المملكة المتحدة
الطبعة الأولى، 2025

رقم الإيداع الدولي: ISBN 9781806055326

دار أرواد للنشر Arwad Publishing

6 Folly View, Stanstead Abbotts,

Hertfordshire - SG12 8AX – UK

Ziad.a.khalifeh @gmail.com

الإهداء

إلى والديّ

زهرة وعبد الوهاب

إلى حفيديّ

لونا وآشتون

اللذان تُذكرني عيونهما بأن المستقبل ليس مجرد فكرة، بل إرثٌ حيّ ينبض بالحياة. عسى أن يرثوا عالماً أكثر حكمة من الذي بنيناه.

إلى بناتي سارة وأرواد ونور

اللَّائِي أثبتَ حبهن وصمودهن أن التوازن يبدأ في القلب قبل أن يصبح فلسفة.

إلى قمر وفادية خليفة

أخوةٌ دافئةٌ وسيرة عطرة ومُحبّةٌ مدى الحياة.

إلى سهاد جرار

البدايات والنهايات – على لطفكِ، وقوتكِ، والسنوات التي شكّلت عائلتنا برشاقة. رحلت، ولكنها لم تغب. في أيامكِ الأخيرة، علّمتني الشجاعة. في ذكراكِ، أجد السلام. قصتكِ مستمرة من خلال بناتنا وأحفادنا.

إلى كل باحثٍ شعر بثقل الأسئلة التي لم تُجب واستمر في البحث على أي حال – هذا الكتاب يسير بجانبك. وإلى الواحد – الوحدة وراء التعدد، والتوازن وراء كل الأشياء – هذا العمل هو عرض غير كامل للانسجام الذي قضيت حياتي أحاول فهمه.

فهرس المحتويات

الإهداء 11
المقدّمة 17

بيانٌ حول تعريفي الخاص للمفاهيم موضوع هذا الكتاب: وحدَة الوُجود والوَعي والشَّكل والوَظيفة ومفهوم الثوتون 25

الفصل الأول: تكويـن 31
صيرورة ومعتقدات 31
آمال كبار 73
ظلمات ... ربما إلى الأبد 79

الفصل الثاني: فيزياء الميتافيزيقا 87
التوحيد وبنية التوازُن 87
المُجَرَّدْ المشترك 95
إناء الأقدار 103
الشكل والوظيفة 107
هندسة القدر 108
نور على نور: هندسة الاستنارة في كون ثنائي الحالة 113
حقل الوعي: حيث تلتقي الفيزياء والعقل والميتافيزيقا 120
مجرد تأملات 121
الإرادة الحرة في كونٍ مُحدَّد مسبقاً 131
بين الفلسفة والعلم والفضاء القرآني: المجاز القرآني كمعادِل موضوعي للحقيقة العلمية 141

الفصل الثالث: أقنعة الرأسمالية 149
القناع الرأسمالي: النشأة 151
تشريح السُلطة الرأسمالية 161
السلطة التكنولوجية – إمبراطورية الرأسمالية الجديدة 161
أقنعة الأيديولوجية الرأسمالية – صناعة الموافقة 170
ما بعد الرأسمالية: مخطّط حضارة متوازنة 182

الفصل الرابع: أقنعة التكنولوجيا 187
الوعد والخيانة – التكنولوجيا ليسَ لها وفاءُ 187
العقل الرقمي – إعادة تصمم الدماغ 190
ما بعد الإنسان – نظريات التطور والارتقاء والنشوء الاصطناعي 193
الدولة الخوارزمية 196

الفصل الخامس: الهدف عام 2100 207
خرافة "العمل سيصبح اختياريًا" 211
حال العالم بعد 50 عامًا 213
وهم استعمار المريخ: الحلم الأحمر والهروب من الأزرق 218

الفصل السادس: سقوط الأقنعة 221
تشخيص: الأرض في حالة حرجة 222
تصدعات الأقنعة الكوكبية 222
المتلازمة – عصر الفوضى 223
الجيل الأخير 223
أماني جلجامش – الذكاء الاصطناعي والتفرُّد (السنجيولاريتي) 227
في بلاط الملك ميداس – النانو تكنولوجي 229
الجزء الرابع: تلميع صورة الوحشية المعاصرة 230
القناع الأخير: طقوس الإنكار 231

المراجع 237
المصطلحات 241

"تمثال نصفي لرجل يكتب" – بابلو بيكاسو

المقدمة

منذ أن وعيت على نفسي، كانت الأسئلة تسكنني ولا تغادر، أسئلة عن الوجود، والوعي، والله، والعِلم، والسلطة، والحضارة، ومصير العقل البشري. مع ذلك التفكر بدأ هذا الكتاب، محاولة شخصية، رحلة عمرٍ لإدراك التناقضات والمفارقات، لماذا يبدو العالم أكثر تشظياً، ولماذا يغدو العِلم – رغم اتّساعه – عاجزاً أحياناً، ولماذا تقف الإنسانية، بالرغم من عبقريها، على شفا جُرف هارٍ، تفصلها برهة قصيرة عن الانهيار والدمار التي صنعته بيديها. رحلةٌ فكرية تمتدّ عبر العلم والفلسفة والميتافيزيقا وتكنولوجيا المستقبل، لتكشف أنّ أزمات عصرنا المتشابكة ليست سوى وجوه مختلفة يمكنكم اختزالها في خلل واحد: تجاهل قانون التوازن. جميع أشكال الانهيار الاجتماعي، النفسي، التقني، الاقتصادي، والبيئي تُجسّد بوضوحٍ أن العالم ينهار ليس بسبب الضعف، بل لأنّ أقنعته لم تعد قادرة على إخفاء التعب والاحتراق الداخلي للنظام العالمي.

يتتبّع الكتاب تشقّقات الحداثة من خمس زوايا: وهم السيطرة على الطبيعة، ووهم التقدّم اللامحدود، ووهم الهوية الثابتة، ووهم العقلانية المطلقة، ووهم الاستقرار الدائم. غير أن البقاء ليس رهين القوة ولا الذكاء، بل رهين التوازن. التوازن في العقل، في المجتمع، في الاقتصاد، وفي علاقتنا بالكوكب مانح الحياة.

في زمن تتسارع فيه التكنولوجيا بوتيرة تفوق بأضعاف سرعة اتساع حكمة الإنسان، وتفقد فيه الحضارة قدرتها على قراءة نفسها، يأتي هذا الكتاب ليطرح سؤالًا مصيريًّا: هل تستطيع البشرية استعادة التوازن الداعم للحياة الذي كان سائداً في عصر ما قبل الصناعة قبل أن تتفاعل قوانين الطبيعة بعنف أكبر وتستقر، بالقوة، على توازن جديد "معادٍ للحياة"؟

أقنعة الوهم عمل فريد يمنح القارئ مفاتيح فهمٍ جديدة لعصر الفوضى، ويقدّم رؤية واقعية ومُلهمة في آنٍ معًا لما يمكن أن تكون عليه حضارة إنسانية أكثر وعيًا، أكثر نُضجًا، وأكثر توازنًا.

على مدى سنوات من القراءة، والتأمّل، والتيه، والانهيار، والعودة من جديد، لم تتشكّل عندي عقيدة، بل تشخيص:

نحن نعيش في حضارة مبنيّة على الأقنعة – أقنعة العلم، والدين، والرأسمالية، والتكنولوجيا، والهوية، والتقدّم. كل قناع يعدنا بالحقيقة والمعنى والخلاص، وفي الوقت نفسه يُخفي خللاً أعمق.

وتحت كل تلك الأقنعة، تكمن حقيقة واحدة – قانون أقدم من اللغة، وأوسع من العِلم: التوازُن. جميع مكونات الوجود من الكواركات إلى المجرّات، إلى الحضارات، ومن النفس البشرية إلى البنية الميتافيزيقية – لا تقوم إلا على التوازُن. وكل ما ينهار، ينهار بسبَب اختلاله.

الحقيقة جوهرها الخفاء، وهي عصية أبداً على الإحاطة بها أو تَكشُّف ماهيتها، إنها تنطوي على ما لا يستطيع عقل الإنسان والمنطق على أن يحاكمها، ناهيك عن محدودية الحواس، للحقيقة تجليات عديدة، غير أن أي من هذه التجليات التي يدركها عقل الإنسان ويتفكر فيها لا تقوده إلى يقين مطلق بخصوص جوهرها، فعقل الإنسان المتصل بالحواس عاجز عن تجاوز حدود الكم والزمان والمكان، لا عن طريق العلوم الطبيعية ومنهجها التجريبي، ولا عن طريق الشعور والإلهام المنفصل عن حواسه المادية، ولا عن طريق بصيرة داخلية خفية، فالوجود يتضمن مفاهيم لا ينفيها العقل تتصف باللامحدود والسرمدي واللانهائي، أو أبعاداً تتصف بخاصية المُجَرَّدْ الذي يتجاوز المادة بمفهومها الفيزيقي وطرائق تفاعل أجزائها بعضها ببعض. ولو كان عكس ذلك لما كنا اليوم نناقش هذا الموضوع. كانت علوم الطبيعة تعتقد أنها في طريقها إلى اكتشاف الحقيقة عن طريق تقدم الكشف العلمي وتراكم الحقائق العلمية من مختلف فروع المعرفة وتعاظم البراهين المستندة إلى التجربة بما يعزز من اليقين العلمي بمادية الوجود، وذهب غالبية هؤلاء بنقد ونفي فكرة الإله الخالق، إلا أن منعطف القرن العشرين والعقود التي تلته حتى هذه اللحظة أيقنت أن العلوم عاجزة عن تحقيق ذلك، لا بل يستحيل إدراك الحقيقة، كما يستحيل أيضاً معرفة الكثير من الظواهر الفيزيائية عن طريق التجربة العلمية. لقد رفعت العلوم الطبيعية الراية البيضاء استناداً إلى العلم ذاته. أما الأديان، الإبراهيمية منها على وجه الخصوص، فلقد أقرت بهذه النتيجة منذ زمن بعيد، ولم يرد في أي منها ما يشير إلى وجود برهان قاطع على نظرتها نحو الوجود، فالله يتجلى فقط في مخلوقاته، وهو لم يشأ أن يهدي الناس جميعاً ولا أن ينزل ملائكة تمشي على الأرض ليبرهنوا للناس على وجود الله.

الأمر كذلك في الفلسفات والأديان الشرقية والغربية، تعددت الرؤى والإيحاءات بينما استمر اليقين في قيد المجهول. الفلسفات والأديان موضوعها الأساسي هو

الأخلاق، وهذه واحدة مشتركة بينها جميعا. في المقابل، موضوع العلم مختلف، إنه معني بتفسير كيف تحدث الظواهر الطبيعية المختلفة وليس لماذا تحدث – لا يوجد في العلم غاية ميتافيزيقية، غير أن ذلك لا يعني عدم تأثر الأخلاق والثقافة بوجه عام بانعكاس الابتكارات العلمية على حياة البشر وتكوين وبنية المجتمعات وأنظمتها.

ما هو إذاً انعكاس جميع ذلك على الهدف من حديثنا وموضوع "الأخلاق" طالما أن المسعى الأول والأخير هو تنظيم حياة البشر؟ الغاية هنا هي تبيان زيف الجدار الفاصل بين العلم والدين، بين المادي والميتافيزيقي، كلاهما وجهان مختلفان لحقيقة واحدة. ومن واجب العلم أن يشارك في بلورة الأخلاق ومعاييرها. فالمشترك الأخلاقي التاريخي بين مختلف الديانات والفلسفات الشرقية والغربية يستند الى حقيقة لا خلاف عليها، لا تحتمل النسبية ولا الاحتمالات ولا التغيير، ألا وهي الحقيقة العلمية المتعلقة بمفهوم "التوازن" – وبثابت "الوظيفة البيولوجية" "والعلة الغائية"، فهذه جميعها مطلقة، بينما المتحول دائماً هو "العلة الصورية" أو "الشكل". وهذه مفاهيم ومواضيع ليست خاصة بالدين والفلسفة وحدها، بل هي في صلب الاختصاص العلمي.

ما هي القاعدة المشتركة بين العلم والدين والفلسفة وفلسفة العلم التي بالإمكان تأسيس الأخلاق عليها استناداً إلى حقائق علمية لا تتناقض مع النصوص الأخلاقية الدينية، وباطن القصص الديني عند الإضاءة عليه بالتأويل الرمزي.

هذا ما اصطلحت تسميته " المُجَرَّدْ المُشتَرَك"، و"إناء الأقدار" داخل إطار حقيقة التوازن وشروطه المبدئية: "الشكل" و"الوظيفة" بين الثابت والمتحول، حيث "الشكل" بوصفه الإناء (الجسد البيولوجي وتشكيلات الأنظمة الاجتماعية على سبيل المثال) والتوازن بوصفه غاية تسعى اليها جميع مكونات الوجود وتُؤَطِّر النسبي والمتحول – فالشكل خاضع لقوانين الطبيعة والثوابت الكونية التي تمنح مكونات الوجود صورها الابتدائية من مكونات الجسيمات الذرية الى المجرات، فالثوابت الكونية مطلقة لا تتغير، وكذلك الغاية الكامنة في "الوظيفة"، لكن "الشكل" وطرائق تركيب الجزيئات يتخذ اشكال متعددة متغيرة ومتحولة، فهو نسبي. ظاهرة الحياة والوظائف البيولوجية مطلقة لا نسبية، لذلك، مهما تبدل وتطور الشكل بسبب العوامل الخارجية أو الطفرات الجينية فإنه يبقى خاضعاً للمطلق الكامن في الوظيفة البيولوجية. إذا حافظ الشكل المتغير على الوظيفة فإن الحياة تستمر، أما إذا لم يعد ملائما للوظيفة فإن الحياة تنقرض، ذلك لأن "الشكل"

المتغير يجب أن يلبي خدمة "الوظيفة" الثابتة داخل إطار ثوابت قوانين الطبيعة والثوابت الكونية. مفهوم "الوظيفة" هذا لا يقتصر على الحياة ووظائفها البيولوجية، بل يشمل أيضاً جميع الأنظمة الاجتماعية والظواهر الثقافية المتعلقة بالبشرية، فهي أيضا ثابت من حيث الغاية، ومتحوّل من حيث "الشكل". مثل بسيط على ذلك وظيفة التبريد التي كانت الجرات الفخارية تحققها في ماضي الزمان، ثم تغير الشكل حتى وصل إلى الثلاجة الكهربائية التي تحقق ذات الغاية. إذا لم تحقق بنية الشكل الجديد الغاية أو الوظيفة فإن البنية الشكلية الجديدة تندثر، كذلك الأنظمة الاقتصادية والمؤسسات الاجتماعية وسائر الظواهر الثقافية المتعلقة بالبشرية وحضارة الإنسان، تستمر طالما حققت الغايات الأساسية الثابتة، أو تندثر إذا خرجت عن تلك الغاية. أما حقيقة التوازن فهي المعيار الذي بدونه يفقد "الشكل" وتفقد "الوظيفة" المعنى والوجود.

من هنا يأتي موضوع هذا البحث: تأسيس الأخلاق على فلسفة العلم والدين، بعد تبيان نقاط الالتقاء والقواعد المشتركة بين العلم والدين والفلسفة. وتحديد الأخطاء التاريخية التي سارت بالبشرية في طريق الصدام، والمنهج الرأسمالي الذي وظف التكنولوجيا والمفاهيم الثقافية حتى انتهت بكارثة حال العالم اليوم.

هذا الكتاب ليس دعوة إلى دين أو نظام سياسي أو مدرسة فلسفية. إنه خريطة لمن يشعر بكسور عصرنا في عظامه، ويعرف – دون برهان – أنّ شيئاً جوهرياً قد انكسر. إنه نداء لاستعادة هندسة الواقع –الوحدة خلف التعدّد، والتوازُن خلف العاصفة. وإن نجح هذا الكتاب في شيء، فليكن بالتواضع – وأنّ بقاء الإنسانية لا يتوقّف على الذكاء وحده، بل على شجاعة إعادة التوازُن حيثما انتهكناه. هذا العمل شهادة وإنذار، اعتراف وتقدمة. أضعه الآن بين أياديكم. اقرؤوه بعقولكم ...ولكن أيضاً بضمائركم.

يسترشد هذا الكتاب بسؤال محوري واحد: لماذا دخلت الحضارة الحديثة، رغم ما بلغته من معرفة علمية وقوة تكنولوجية غير مسبوقة، في أزمة أخلاقية وبيئية ووجودية عميقة؟

ينطلق الكتاب من فرضية أن البشرية فقدت إحساسها بالتوازن - بين الشكل والوظيفة، والمعرفة والحكمة، وبين الوعي والقوة المادية.

عندما ينفصل الدين أو العلم أو الاقتصاد أو التكنولوجيا عن هذا التوازن، فإنها تتحول إلى أقنعة تخفي تصدعات أعمق في فهم البشرية لذاتها وللعالم.

لا يتناول كل فصل موضوعًا منعزلًا، بل يكشف عن وجه واحد من هذا التمزق الجوهري. ما يبدو تنوعًا في المواضيع هو في الواقع استكشاف موحد لتساؤل واحد: كيف يمكن لحضارة ما أن تستعيد توازنها قبل أن تقوض شروط بقائها؟

يتنقل هذا الكتاب بين جوانب متعددة - الإيمان والشك، والعلم والغموض، والثروة والسلطة، والآلة والعقل - لكنها جميعًا تنتمي إلى كيان واحد. ينبض السؤال نفسه في كل فصل: كيف فقدت البشرية توازنها؟ هذا ليس كتابًا يقدم إجابات جاهزة، بل دعوة لإعادة اكتشاف المقياس الذي تصمد به الحضارات، قبل أن يصبح التقدم نفسه قناعًا آخر من أقنعة الوهم.

زياد خليفة

توضيح المؤلف

"لا شرعية لأي أيديولوجية ما لم تجتاز اختبار التوازن."

لا يُقدّم هذا الكتاب أيديولوجية سياسية، أو برنامجًا اقتصاديًا، أو مخططًا تشريعيًا، كما لا يدّعي تقديم حلول تقنية للأزمة العالمية المعاصرة. تتطلب هذه المهام معرفة تجريبية متخصصة، وسلطة مؤسسية، ومداولات جماعية عبر مختلف التخصصات.

يهدف كتاب "أقنعة الوهم" إلى تحقيق غاية أساسية. فهو يسعى إلى تحديد الأرضية الهيكلية المشتركة بين العلم والفلسفة والأخلاق الدينية: مبدأ التوازن. فعلى مر التاريخ، لم تصمد الحضارات والنظم البيئية وأنظمة الفكر إلا بقدر احترامها لشروط التوازن التي تقوم عليها الحياة.

لا تكمن الحجة المطروحة هنا في إمكانية حلّ التحديات العالمية المعقدة ببساطة، بل في أنه لا يمكن لأي حل –مهما بلغ من التعقيد– أن ينجح إذا انتهك الشروط الأساسية للتوازن. ولذلك، يُقدّم الكتاب معيارًا لا برنامجًا: إطارًا أخلاقيًا شاملًا يُمكن من خلاله تقييم الأنظمة والأيديولوجيات والتقنيات والسياسات المقترحة.

تقع مسؤولية ترجمة هذه الرؤية الأساسية إلى استراتيجيات وقوانين وتصاميم مؤسسية ملموسة على عاتق الأكاديميين والعلماء وعلماء الأخلاق والمشرعين العاملين في مجالاتهم. هذا العمل لا يحل محل تلك المهمة، بل يسبقها.

يُقدَّم كتاب "أقنعة الوهم" كدعوة للتأمل لا كعقيدة جامدة، وكخريطة للفهم لا كادعاء للمعرفة المطلقة، في محاولة لإعادة التوازن كنقطة انطلاق للفكر، لا كغاية للنقاش.

كل قناع يُفحص في هذا الكتاب هو عرض لفقدان أعمق للتوازن.

عندما تنمو القوة بوتيرة أسرع من الحكمة، تبدأ الحضارات بالانهيار.

بيانٌ حول تعريفي الخاص لبعض المفاهيم موضوع هذا الكتاب: وحدَة الوُجود والوَعي والشَّكل والوَظيفة ومفهوم الثوتون.

1. التواضع المعرفي

ينطلق البحث الفلسفي برمته من العقل البشري وأنماط إدراكه. لذا، فإن أي وصف للواقع يُقدَّم هنا يتعلق بالواقع كما يُدرَك ويُفسَّر ويُتصوَّر، لا كما قد يوجد بمعزل عن أي معرفة.

لا ينفي هذا الموقف وجود واقع خارجي، ولا يدّعي الوصول إلى الحقيقة المطلقة؛ بل يؤكد أن المعرفة البشرية تتوسطها دائمًا الإدراك واللغة والأطر المفاهيمية.

2. وحدة الواقع

انطلاقًا من مذهب سبينوزا الواحدّي، يُفهم الواقع على أنه جوهر واحد (الله)، وجود واحد موحد. يُدرَك الواقع من خلال أنماط معرفية مختلفة، وكل ما عداه – بما في ذلك البشر والأفكار والأشياء المادية – ليس كيانات منفصلة، بل أنماط (امتدادات أو تعبيرات) متأصلة في الإلهي، مع بقائه عرضيًا وقابلًا للتفسير من خلال الفهم البشري المحدود. يختلف رأيي عن رأي سبينوزا في عدم دمج الله في الكون المادي، أو وضعه خارجه تمامًا.

ما يُعرف عادةً بالمادي والمجرد ليسا جوهرين منفصلين، بل جانبين إدراكيين لحقيقة واحدة كامنة. إنهما متطابقان جوهريًا في الوجود، لكنهما يختلفان في كيفية إدراكهما ووصفهما.

3. الشكل والوظيفة (الجوهر)

تصف العلوم الفيزيائية الواقع أساسًا من حيث "الشكل": البنية، والسلوك، والعلاقات القابلة للقياس، والمظاهر الخارجية.

مع ذلك، فإن الشكل لا ينفصل عن "الوظيفة" (أو الجوهر): التماسك الداخلي، والتنظيم المعلوماتي، والدور الدلالي الذي يمنح الشكل قابليته للفهم.

الشكل هو تجسيد الوظيفة. الوظيفة بدون شكل غير مفهومة. الشكل بدون وظيفة لا معنى له.

هذه الفروق أدوات مفاهيمية، وليست كيانات وجودية مستقلة. تنشأ هذه المفاهيم من حاجة العقل إلى تنظيم التجربة، ولا ينبغي الخلط بينها وبين التقسيمات المطلقة.

4. التعددية المنهجية

لا يوجد تخصص واحد – علمي، أو فلسفي، أو لاهوتي – يستوعب الواقع بالكامل.

يمكن استخدام العلوم، والفيزياء، والميتافيزيقا، والتقاليد الفلسفية لتفسير الوجود، شريطة ألا تُشوَّه مفاهيمها أو تُقصى عن نطاقاتها المقصودة.

يجب عدم الخلط بين اللغة العلمية والبرهان الميتافيزيقي، ولا بين البصيرة الميتافيزيقية والاكتشاف التجريبي.

5. الأساس الإلهي للوجود

يُفهم الوجود، في كليته الموحدة، على أنه تجلٍّ لله: العقل اللامتناهي، الذي يشمل كل المعرفة، وكل الاحتمالات، وكل الإمكانات المعلوماتية.

لا يُختزل الله في الكون المادي، ولا يُوضع خارجه تمامًا. بل يُفهم الوجود على أنه متجذر في الإلهي، مع بقائه عرضيًا وقابلًا للتفسير من خلال الفهم البشري المحدود.

6. الوعي والحقول الأساسية

بحسب ما وصل إليه العلم البشري حتى الآن، يبدو أن الوجود مُنظَّمٌ عبر حقول أساسية، بما فيها الحقول الفيزيائية التي يصفها علم الفيزياء الحديث. في هذا الإطار، يُطرح الوعي كحقل أساسي للواقع، يتفاعل مع الأنظمة الفيزيائية ولكن ليس بالضرورة أن يُختزل إليها.

يبقى مجهولاً ما إذا كان هذا الحقل هو نفسه الإله، أو أحد مظاهره، أو انبثاقه، أو بنية مخلوقة مُفعمة بالمعنى. يُعتبر هذا الموقف اعتقادًا ميتافيزيقيًا، وليس ادعاءً علميًا.

من الناحية اللاهوتية، يمكن ربط حقل الوعي هذا رمزيًا بمفهوم النظام المعلوماتي المحفوظ (اللوحِ المحفوظ)، الذي يُفهم فلسفيًا لا فيزيائيًا.

7. الظهور والتعقيد

تُنتج البنى المجردة أشكالًا فيزيائية؛ وتتحد الأشكال الفيزيائية وتزداد تعقيدًا. على كل مستوى، يخضع الوجود لتفاعل الشكل والوظيفة. لا ينفي التعقيد الوحدة، بل يُعبِّر عنها.

8. الوعي والكون

لا يُزعم أن الكون المادي ككل واعٍ بالمعنى البشري. مع ذلك، يُفهم أن الوعي يتفاعل مع جميع مكونات الواقع، ويتجلى بدرجات تتناسب مع التعقيد البنيوي والتنظيم المعلوماتي.

يتوافق هذا الرأي مع التقاليد التأملية والنصوص الدينية التي تصف الطبيعة بأنها متجاوبة ومنظمة وذات معنى، دون الحاجة إلى تجسيدها حرفيًا.

9. العقل البشري

يمثل الدماغ البشري، على حد علمنا الحالي، أكثر البنى الفيزيائية تعقيدًا في الكون. ينبثق أو يَحُل الوعي البشري من خلال التفاعل بين هذا التعقيد ومجال الوعي، مما يُتيح الإدراك والمعنى والتأمل الذاتي.

يُستخدم مفهوم "الثوتون" هنا كبنية فلسفية واستكشافية، لا كادعاء يتعلق بالجسيمات الفيزيائية أو العمليات الكمومية أو الآليات العصبية البيولوجية. وهو يعمل بشكل مشابه للأدوات المفاهيمية المستخدمة في الظواهرية وفلسفة العمليات، حيث يُسهم في توضيح العلاقات التي لا تزال المصطلحات العلمية الحالية عاجزة عن استيعابها بشكل كافٍ. ومع ذلك، إذا كان موجودًا بالفعل، فإن طبيعته الحقيقية تظل مفتوحة لجميع الاحتمالات، بما في ذلك الاحتمالات الفيزيائية أو المجردة. ولا يُقصد هنا، حتى الآن، أي ادعاءات تجريبية أو سببية.

وبالتالي، فإن المعرفة واللغة والفهم ليست مجرد نتائج حسابية، بل هي تعبيرات عن نظام ذي معنى كامن، متجذر في نهاية المطاف في المصدر الإلهي للفهم.

10. الموقف الختامي

لا تدّعي هذه الفلسفة أي اكتشاف علمي، أو يقين نهائي، أو سلطة حصرية.

إنها تقدم إطارًا ميتافيزيقيًا متماسكًا متجذرًا في التواضع المعرفي، ووحدة الوجود، وعدم انفصال الشكل والمعنى والوعي.

إنها دعوة للتأمل، لا عقيدة جامدة؛ خريطة للفهم، لا ادعاء للمعرفة المطلقة.

لا يقترح هذا العمل أيديولوجية جاهزة، أو برنامجًا سياسيًا، أو مخططًا اقتصاديًا. تتطلب مثل هذه البنى معرفة متخصصة، وبيانات تجريبية، ومداولات جماعية.

يُقدّم هذا الكتاب معيارًا أساسيًا – أرضية مشتركة – يجب أن تُستمد منها الأيديولوجيات والسياسات والأخلاقيات المسؤولة لكي تبقى قابلة للتطبيق.

تقع مهمة ترجمة التوازن إلى قانون واقتصاد وحوكمة على عاتق الباحثين والعلماء والمشرّعين. وتتمثل مهمة هذا الكتاب في تذكيرهم بالشروط الأساسية التي لا تقبل المساومة والتي تُمكّن أي ترجمة من هذا القبيل من النجاح.

الفصل الأول: تكوين

الفصل الأول: تكوين

صيرورة

انطلقت عربة الحنطور يجرها حصان اشهب يسوسه شاب في مقتبل العمر، وفي العربة جلس الطبيب برفقة صبي وفتاة استغاثا به لنجدة والدهما التي تعسرت ولادتها لعدة ايام حتى جاءها المخاض قبل قليل، وكان الحنطور يشق طريقه تحت وابل من الأمطار التي انهمرت فجأة بعد طول احتباس المطر فيما سمي بالجفاف الكبير لأعوام ١٩٥٨ حتى ١٩٦١ في سوريا، كان يسابق الريح في مساء تلفه لجج من الضباب وسط الشوارع الضيقة لزقاق الجن باتجاه جادة ست الملوك في حي الشريبشات دمشق الشام، حيث كانت زهرة المرهقة تنتظر بلهفة وصول الطبيب لتضع مولودها الثاني عشر، المتم لست اخوات وخمسة اخوة، أكبرهم يفصله عن المولود المنتظر ثلاثة وعشرون عاماً. اخيرا وضعت العربة أوزارها وتوقف الحصان عن اللهاث امام مبنى من ثلاث طبقات، حيث كانت زهرة وعائلتها الكبيرة تقطن في احدى شقتين من الطابق الاول. استقبل عدة اولاد وبنات الطبيب عند المدخل، كانوا في انتظاره قبالة مطلع الدرج، صعدوا جميعا إلى شقة بسيطة صغيرة مكونة من ليوان (غرفة جلوس) يقابلها باب كبير من الخشب والزجاج يفصل غرفة الوالدة الرئيسية، وغرفتان صغيرتان، واحدة للذكور والثانية للإناث، ومطبخ صغير وحمام تعلوه سدة للخزين. كان البيت يعج بالأطفال والفتيات من مختلف الاعمار، شقيقات وأشقاء وأصدقاء، جميعهم بانتظار الحدث المثير مساء الخامس من كانون الثاني عام ١٩٥٩ . دخل الطبيب غرفة زهرة، ألقى التحية وطمئنها ببضعة كلمات، وانطلقت احدى الاخوات لتصب الماء الدافئ في وعاء وتعاون الطبيب في تناول البشاكير والضمادات. بعد عناء وآلام، وضعت الام الأربعينية مولودها الجديد الذي استقبل العالم بالبكاء. رفرفت الفرحة في ارجاء الدار وتطايرت لتشمل الجيران ابتهاجا بسلامة زهرة وقدوم المولود الصغير. رفعت احدى الاخوات على يديها المولود وخرجت به من الغرفة ليشاهده الجمع الذين بادروا بالتصفيق والتعليقات المرحة.

لم يكن لي وجودٌ بعد، ولا ذاكرة، ولا خوف .ومع ذلك، فإن هذه العجلة، وهذا المطر، وهذا القلق المتراكم في صدور الآخرين، كان أول ما استقبلني به العالم قبل أن أراه.

لم يكن عبد الوهاب، رب العائلة مقيما في دمشق. كان يشق طريقه في عمان الأردن، ليستعيد تجارة فقدها عام ١٩٤٨ بعد اضطراره للجوء إلى سوريا أسوة بمئات الالوف من الفلسطينيين الذين فروا من بطش رب الحرب إسرائيل. كان لديه في حيفا متجر كبير لبيع الأصواف ولوازم الخياطة والاكسسوارات، وكان يملك في قرية ام الفحم ومرج بن عامر ومجدون مئات الدونمات من الأراضي الخصبة المزروعة بأشجار الزيتون وحقول أزهار عباد الشمس، ورثها عن والده. ومع اقتراب سقوط حيفا، هاجر عبد الوهاب وزهرة مصطحبين أولادهم السبعة وبرفقة شقيقه الأصغر موسى وزوجته أميرة وثلاث اولاد، خرجوا جميعا إلى مدينة دمشق، على امل العودة، ثم استقر بهم الحال هناك. رفض الاب كرت المؤمن الذي كانت توزعه وكالة غوث اللاجئين، وأصر على إعالة أولاده وأقرباءه من عرق جبينه، فاسكن العائلة في الشقة المذكورة، وغادر إلى الأردن حيث كان مناخ العمل اقل تنافسا وأوسع أفقاً، فسكن في غرفة صغيرة على سطح مبنى في شارع خرفان ومنكو المطل على وسط البلد من جهة جبل عمان. هناك، انطلق كبائع متجول يجوب المدن الأردنية ومدن الضفة الغربية، في رحلة دؤوبة أثمرت عن اعادة تأسيس وإعمار مؤسسة تجارية سباقة كما سيأتي معنا فيما بعد.

كانت هذه الغيابات المبكرة جزءًا من العالم الذي تشكّل حولي، قبل أن أعي معنى الفقد أو أفهم سببه.

بعد انبثاق الفجر وانتشار العباد طلبا للرزق صبيحة اليوم التالي للولادة، أسرعت نجوى صديقة العائلة، وكانت تبلغ من العمر ستة عشر عاما، إلى احدى البقالات التي تمتلك هاتف لكي تتصل بالأردن وتسبق الجميع بنقل البشارة إلى العم عبد الوهاب، ويكون الحلوان من نصيبها. استقبل الوالد خبر آخر العنقود ابن شيخوخته بفرح وارتياح، وطلب صدر كنافة كبير من جبري وسط البلد حلوان للموظفين العاملين لديه.

كان محمد الأخ الأكبر للمولود يقيم في المانيا حيث يدرس الهندسة الميكانيكية، فقرر ان يطلق اسم زياد على أخيه الصغير، ربما على اسم احد أصدقاءه المقربين، او ربما لان مجيئه إلى هذه الدنيا كان زيادة على عائلة كبيرة وفي وقت متأخر لأم بلغت الثالثة والأربعين وأب شارف على منتصف الخمسينات، او ربما تحاشياً للاسم ذات الدلالة الفكاهية عند نطقه بالعربية الذي كانت العائلة متحمسة لإطلاقه عليه وهو تيتو، على اسم الرئيس اليوغسلافي جوزيف تيتو الذي كان يزور الشام في ذلك الوقت، سوريا الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة التي اقامها جمال

عبد الناصر ولم تدم طويلا. في جميع الاحوال، ذهب احمد، الشقيق الأكبر الثاني في الترتيب لتسجيل المولود لدى مختار الحي وإصدار شهادة ميلاد لاجئ فلسطيني من أهالي حيفا لآخر اخوته. كان احمد يبلغ الثانية والعشرون من عمره وقد عاد لتوه من الهند بعد ان تخلى عن بعثة فاز بها لدراسة الأدب الإنجليزي في بومبي. لم تناسبه المعيشة في الهند وآثر استكمال دراسته في جامعة حلب، حيث يكون باستطاعته ايضا ممارسة السياسة كونه من نشطاء حركة القوميين العرب. حنان الأخت الكبرى كانت تبلغ من العمر عشرون عاما، حالمة ورومانسية وقارئة شغوفة بالآداب العالمية والعربية. صلاح الدين كان يبلغ من العمر سبعة عشر عاما، يستعد لاجتياز شهادة البكالوريا والسفر إلى فرنسا لدراسة إدارة الأعمال. اما سلوى فكانت في السادسة عشر من عمرها، والساعد الأيمن للوالدة في تدبير شؤون المنزل والعائلة. خالد كان في الخامسة عشرة ويطمح لدراسة الطب في القاهرة، تليه نهلة في الثالثة عشر من عمرها، متمردة منذ نعومة أظفارها، وموهوبة في الفنون الجميلة وعشق الحرية وحب الحياة. قمر، في الحادية عشر من عمرها، كانت تغلب عليها عاطفة الأمومة المبكرة، وكانت بمثابة الأم للمولود الجديد. وليد كان في التاسعة من عمره، صاحب نكتة ورياضي ومغامر صغير، اما فادية فكانت في السابعة من عمرها، طفلة جميلة في مرحلة التكوين، تلتها نادية في الخامسة من عمرها، هي الأخرى في طور التكوين. هذه كانت العائلة بجميع أفرادها، وغالبا ما تجتمع إليهم بنات عمي المتوفي، وهن مهى ومنى ونهى وسهى، اما ابن عمي ماهر، شقيقهن الأكبر من والدة أخرى توفيت بعد ولادته مباشرة، فتربى وسط اخوتي حيث ضمه والداي لأولادهم وكان في عمر اخي خالد.

هكذا وُلدتُ داخل عائلةٍ مكتملة الملامح، قبل أن أتعلم كيف يكون للمرء مكانٌ خاص به.

مما سلف ذكره، يتضح انه كان يقطن بيت العائلة الصغير فيما بين ثلاثة عشر إلى سبعة عشر فردا في معظم الأحيان، بينما يأتي الوالد رب العائلة مرة واحدة في نهاية كل شهر لزيارة زوجته ولتفقد أولاده، ودفع حساب البقالة واللحام وباقي المصاريف، وإيداع مبلغ لمصاريف الشهر القادم مع أكبر أبناء العائلة ليتصرف به حسب الحاجة.

لم يكن زياد يكف عن البكاء، لم يكن يرغب في الرضاعة، لا بد انه كان مصدر الإزعاج الأوحد في سكون طيف الأحلام المتنوع لأفراد عائلة متعددة المواهب والتطلعات. كان غذائه جرعات شراب الينسون المهدئ الطبيعي لتسكين بكاء

المولود الجديد، وحليب البودرة البديل الإجباري لطفل ينأى عن ثدي أمه، اما قمر ونهلة فكانتا تتناوبان على حمل المولود وأرجحته بين أياديهن لحمله على النوم. اما نهلة فكانت تصعد به إلى سطح المنزل وتعرضه لأشعة الشمس الساطعة إلى ان يغشى عليه من الحرارة والنعاس، واستمرت باستخدام هذا التكتيك إلى ان سقط من يدها في أحد الايام وهي تهبط الدرج من السطح وتدحرج مما تسبب في تورم جانب من رأسه الطري وامتلاءه بالسوائل، وبعد ان أسعفته الصدفة واحد الاطباء، تم إعفاء نهلة من مهمة العناية بزياد.

كان جسدي أوّل ما تعلّم العالم من خلاله، قبل أن أتعلم أنا شيئًا عن العالم.

اما أم حسني فكانت امرأة في متوسط العمر تأتي لمساعدة الوالدة في قضاء شؤون هذه الدولة الصغيرة، ابتداء من غلي وعاء الماء على بابور الكيروسين لغسيل الملابس الشبه يدوي منذ بزوغ الفجر، ومرورا بشراء الحاجيات وتحضير كميات الطعام، وكي الملابس وتنظيف البيت، وانتهاء بتركين وتوضيب السرائر والفرشات عندما يحل الظلام. اما حكايات الجن والأدب الغرائبي وألف ليلة وليلة فقد كانت جميعها سرديات ام حسني لأفراد العائلة، منها ما هو مرعب ومنها المضحك، كانت مسرحاً مصغرا في غياب التلفزيون وندرة الراديو في خمسينيات القرن العشرين.

من تلك الحكايات تعلّم الخيال أن يسبق الواقع، وأن الخوف يمكن أن يكون مسليًا بقدر ما هو مقلق.

في الأردن والضفة الغربية، تمكن عبد الوهاب من افتتاح بعض المحلات التجارية، واستقرت تجارته وازدهرت، فقرر سنة ١٩٦٠ جلب عائلته للعيش معه في عمان. كان زياد قد بلغ السنة الاولى من عمره عندما انتقلت العائلة للسكن في جبل اللويبدة في عمان. زهرة وعبد الوهاب والاخوات الست، ووليد، وماهر وزياد. اما محمد فكان في المانيا واحمد بين سوريا ولبنان وصلاح الدين في باريس وخالد في القسم الداخلي لمدرسة النجاح في نابلس استعداداً للانتقال إلى القاهرة لدراسة الطب.

كان جبل اللويبدة لوحة فنية انطباعية تنبض ألوانها بالحياة والمشاعر المكثفة الفياضة، اجتمعت فيه العائلات من مختلف الديانات والعرقيات، العربي والمسلم والمسيحي والشركسي والكردي والأرمني واليوناني والشرق أوروبي والاميركي، نسيج متنوع في منتهى الانسجام والتناغم. المساجد وصوت الآذان كتابا موقوتا مرتبط بحركة الشمس وطول الظل وتنفس الصبح أو درجة العتمة من الليل، ويختلف فقط

باختلاف الأوتار الصوتية لحناجر المؤذنين وقدراتهم على التنغيم ومد الكلام، أما الكنائس، الروم الأرثوذكس والكاثوليك، فكان لأصوات أجراسها إيقاع مهيب خفي، تنشر الفرح او تبعث الحزن، أيام الأحد أو في الأفراح والأتراح، لكل مناسبة قرع وايقاع.

في ذلك المكان، تعلّم السمع أن يسبق الفهم، وأن الزمن يمكن أن يُقاس بالصوت.

وُلدت "معتقداتي" مع أوّل ذاكرة احتفظت بها – أوّل مواجهة مباشرة مع الوعي. ليست حكاية رُويت لي، بل مشهد منقوش في ذاكرتي منذ سنّ الثانية: شيبا، قطة طويلة الشعر بلون النمر التايلندي، تمشي برزانة وخفة لا مثيل لهما فوق حافة السور الحجري لحديقة والديّ. كانت تحمل في فمها هرّاً صغيراً، يتدلى بأمان في الهواء دون أن يسقط، باحثة عن مأوى وانتماء بعد أن عادَت العائلة الأمريكية المجاورة لمنزلنا – التي جاءت بها من الهند – إلى الولايات المتحدة.

أتذكّر الاستعدادات: حقيبة سفر كبيرة ومسطّحة، فُرشَت ببطانية؛ أوعية الحليب والطعام لتغذية الأم حديثة الولادة؛ إخوتي وأخواتي يحيطون بالمشهد. لحظات منقوشة في ذاكرتي مثل سلسلة من الصور ... مبهجة آنذاك، لكن معناها لم يتّضح إلا بعد سنوات طويلة.

منذ تلك اللحظة، صار الانتماء عندي فعلَ رعاية قبل أن يكون فكرة.

أمسكت والدتي بيدي الصغيرة واصطحبتني معها إلى دعوة نسوية في منزل الجيران، المبنى المجاور لمنزلنا والمكون من أربع طبقات يقطنها الجدّ الأكبر لعائلة خليلية عريقة وأبناءه وعائلاتهم، كانت العائلة قد هاجرت من مدينة خليل الرحمن إلى عمان واسست تجارة بيع الأقمشة والسجاجيد الفاخرة. لا أذكر من تلك الحفلة النسوية سوى صالة واسعة امتلأت بأصوات أحاديث انثوية وضحكات وغابة من السيقان ترتدي جوارب طويلة شفافة يعلوها مرابط مطاطية، أو مرابط الدانتيل، أحاطت بي من جميع الجوانب. طربيزات تحمل كؤوس العصائر وصحون المعجنات والتبولة والبيتيفور، فقدت طريقي وسط الزحام ولم يسعفني طولي في عمر يناهز الثلاث سنوات من أن أجد أمي، فقدت الأمان وشعرت بالقلق والضياع، أين أنا وأين أمي؟ دقائق معدودات حتى احسست بذراعيها تحيط بي ودفء صدرها يغمرني براحة فردوسيه. لا شيء يعدل صدر الأم، إنه أفيون الطفولة.

صار الأمان عندي حضورًا جسديًا قبل أن يكون فكرة أو وعدًا.

كان أبو محمد عبد الوهاب رجل يتصف بجميع ميزات دقة الساعة السويسرية ومتانتها، ورتابة ايقاعها، باستثناء أنه كان سريع الغضب. كان الجميع يضبطون اوقاتهم وفقاً لمواعيد تحركاته، موعد الاستيقاظ فجراً للوضوء بالماء البارد وأداء الصلاة، موعد الإفطار، التوجه إلى العمل، العودة الى المنزل تمام الساعة الثانية ظهراً لتناول وجبة الغذاء والاستلقاء في قيلولة يعود بعدها إلى العمل وسط البلد حتى السابعة مساء، ثم يعود إلى منزله، يرتدي بيجامته، يتناول طعام العشاء ويشاهد بعض المقاطع مما يصل الأردن من بث تلفزيوني صادر عن دول مجاورة، على شاشة التلفزيون الأبيض والأسود، بينما تحاول الأخوات تجنب الجلوس معه في الليوان خشية ظهور مشهد مباغت "غير مألوف" على التلفاز، ثم يستمع على الراديو الترانزستور الصغير إلى أخبار هيئة الإذاعة البريطانية بعد دقات ساعة بغ بن، ثم يتجه إلى النوم تمام الساعة العاشرة، يستلقي على الجانب الأيسر من السرير، وزهرة على الجانب الأيمن، وكنت أنا أتوسط المشهد، بين الصخب والحرير، أنام بينهما ملاصقاً لظهر أمي الدافئ وملمس ثياب نومها الحريرية، بينما يخترق تلك السكينة البوذية صخب شخير أوديب، الذي أعلن يوماً أن الوقت قد حان لأن أنام في سرير صغير خاص بي، وضع في إحدى غرفتي أخواتي.

في ذلك التوقيت المضبوط، تعلّمتُ أن الزمن يمكن أن يكون حاميًا وقاسيًا في آنٍ واحد.

عائشة امرأة بدوية من "وادي صقرة". كل صباح، كانت عائشة تترك جماعتها من العرب التعامرة وتأتي لمساعدة والدتي في العمل الشاق المتمثل في تربية وتأمين احتياجات منزل العائلة.

عائشة كانت تُثير الدفء والسكينة: طيفٌ طويل نحيل أسود اللون خلفه السماء الزرقاء، مُرتديةً ثوبًا تقليديًا طويلًا، تحملني بين ذراعيها ونحن نهبط الطريق الوعر غير المُعبّد إلى الوادي القريب.

في وادي صقرة، ازدهرت الحياة الجماعية في بساطتها، تؤدي ببدائية ذات الوظائف المعقدة التي تؤديها عائلتي. امتلأ الهواء بروائح برية – حطب محترق، خبز التنور الطازِج. كان هناك ماعز، خروف، دجاج، بيض. أكواخ طينية. مصابيح زيتية تُنير بطانيات صوفية ووسائد قطنية. تين وبامية مجففة معلقة كالعقد في حبال قطنية قرب عناقيد الثوم. جرة فخارية كبيرة، على شكل امرأة، تُبقي الماء باردًا.

كانت عائشة تُعيدني دائمًا إلى منتصف سرير والديّ. لم أُرِدها أن تُغادر أبدًا. وحده دفء أمي كان يُغنيني عن الراحة التي كانت تُقدمها لي. كنتُ أتشبث بها طوال الليل فيما أسميته لاحقاً "سرير أوديب" على رأي فرويد.

قبل "روضة السعادة"، كانت حكايات أمي منهجًا دراسيًا لي – نافذة على العالم.

"كان يا ما كان في قديم الزمان..."

حكت لي قصة الإبهام الصغير (عقلة الأصبع)، الذي تسلل إلى قن الدجاج ليستولي على بعضها لإطعام أخواته الجائعات، ليكشفه صياح الديك الأحمر: "نص مصيص في الخم عم ياكل ويلم" .... وتلا ذلك أناشيد العيد:

"بكرة العيد ونعيد، وبنذبح بقرة السيد! والسيد مالو بقرة – بنذبح بنته الشقراء! والشقراء مافيها دم بنذبح بنته بنت العم ..."من كان من؟ ما هذا المنطق الغريب الذي جعل الفتاة تُعادل البقرة وتُذبح؟[1]

منذ تلك الأغاني، بدأتُ أُدرك أن الكلمات قد تُخفي قسوةً أكثر مما تُظهر براءة.

ثم جاء "إلهي" الأول: جارنا.

كنت أعتقد أنه الله الذي يتحدثون عنه، رجل دين مهيب ذو لحية بيضاء طويلة وثوب أسود وعمامة بيضاء يتوسطها طربوش أحمر على رأسه، يقدره ويحترمه الجميع – بمن فيهم والداي، قدوتي في الحياة. كنت أخشى ذلك الرمز، ولكني أحببته أسوة بغيري، في أحد الأيام تداول الناس خبر مفجع، مات "إلهي" الأول.

[1] وُلدت أول معادلة "نوع اجتماعي" (جندر) لي من رحم الحيرة والارتباك. عندما كبرت، عرفتُ أن هذه الأغنية رمزية تعود إلى عصر الاستعمار الأوروبي للشرق الأوسط، ترمز لمقاومة الاحتلال (أغنية السيد وابنته الشقراء).

اصطحبني والدي إلى مجلس العزاء. القهوة المرة السوداء وتردد صدى تلاوة القرآن بصوت عالٍ. ومنذ ذلك الحين، أصبح صوت تلاوة القرآن، بالنسبة لي، ذكرى للموت.

هكذا اقترن المقدّس في ذاكرتي الأولى بالفقد، قبل أن أعرف معنى الإيمان.

عرّفتني سَمر، جارتي ورفيقتي في روضة الأطفال على اكتشاف آخر. منزلنا تحت الطاولة، لعبنا الزوج والزوجة. أعدّت لي "وجبة" من لبن الزبادي الممزوج بالنعناع الجاف وزيت الزيتون – الطبق الوحيد الذي سُمح لنا بإعداده.

لعبنا دور الطبيب والممرضة. حقنتها بإبرة لعبة، يغمرني الفضول لرؤيتها ترفع تنورتها. وعندما جاء دورها لحقني، خجلتُ من إظهار ظهري.

سمعت إحدى أخواتي من خلف الباب تقول: "دعوهم يلعبون؛ ما زالوا صغارًا جدًا..."

كان شعوري مع سَمر مختلفًا عن لقائي المقلق مع النجّار الذي جاء لبعض الأعمال في قبو منزلنا، أنزل سروالي بحجة تعليمي استخدام مفك براغي، وأجلسني على ساقيه الدافئتين الممسوحتين بزيت الزيتون. عندما أخبرت والدي، كاد أن يكسر عنق الرجل.

تعلمتُ أن الذكر والأنثى يتميزان بغرائز مختلفة، ومخاطر مختلفة، وحماية مختلفة.

هناك، للمرّة الأولى، تعلّمتُ أن البراءة لا تحمي دائمًا، وأن الحماية تحتاج إلى يقظةٍ خارجية.

في روضة السعادة، تسللت البربرية إلى يد المعلمة – صفعة مؤلمة على خدي أجبرتني على إنهاء أكل شطيرتي.

بعد الخروج من الروضة، لعبنا لعبة الاستغماية والزقطة والشرطة واللصوص في الشارع. كانت الفتيات يقفزن بالحبل، منغمسات في إيقاعاتهن الخاصة، وكن يشاركننا في العابنا أحياناً.

منذ تلك الأيام، صار العنف واللعب والجمال يتجاورون في ذاكرتي بلا حدود واضحة.

الحديقة التي تنزل إلى المدينة

كان بيت صديقة أمي أعلى من بيوتنا، لكنه كان ينظر إلى أسفل ... إلى المدينة. كنت أمشي خلف الكبار، وأتوقف فجأة عند حافة الحديقة. لم تكن حديقة واحدة. كانت حدائق كثيرة، واحدة تحت الأخرى، تنزل بهدوء نحو وسط البلد، كما لو أن الأرض قررت أن تمشي. الأشجار لا تقف مستقيمة هناك، تميل قليلًا، كأنها تنظر معي.

كنت أرى السيارات صغيرة جدًا، والناس نقطًا تتحرك، وأسمع أصواتًا بعيدة، لا أعرف من أين تأتي، لكنها تصعد إليّ. في رأسي، لم تكن عمّان. كانت مدينة أخرى، مدينة في قصة.

قلت لأمي إن هذه حديقة معلّقة. لم أعرف ماذا تعني الكلمة تمامًا، لكنني شعرت أن الأشياء لا تسقط هنا، بل تبقى معلّقة في الهواء، مثل الحلم عندما لا ينتهي. وقفت طويلًا. لم أجرِ. لم أتكلم. كنت خائفًا قليلًا أن أتحرك فتنزل المدينة أكثر.

هناك، تعلّمتُ أن الارتفاع ليس دائمًا طمأنينة، وأن النظر إلى الأسفل قد يفتح باب الخوف والدهشة معًا.

بيت الحاجة مستو

بيت الحاجة مستو لا يشبه البيوت. كان يشبه صندوقًا مليئًا بالألوان. الأرض مغطاة بسجاد ناعم، والوسائد كثيرة، خضراء، زهرية، مزركشة، كأنها تعرف أسماء بعضها.

الهواء له رائحة. ليس هواءً فقط. رائحة حلوة... ماء زهر، وبخور، وشيء آخر لا أعرفه لكنه يجعل صدري أوسع.

الحاجة مستو كانت كبيرة جدًا. ليست طويلة، بل كبيرة ... كأن الزمن جلس معها. عندما تتكلم، أصمت. ليس خوفًا، بل لأن صوتها بطيء، وأنا أحب البطء.

كان جميع من في بيتها عيونهن خضراء فستقية تبعث الراحة في النفوس.

كانت تملأ طاسة نحاسية، مكتوب عليها كلام لا أستطيع قراءته، وتضع فيها ماءً، ثم تعطيني لأشرب. أشرب وأنا أنظر إلى أمي. إذا ابتسمت، أشرب أكثر. كانت تقول إن هذا يطرد الخوف. لم أكن أعرف أين يسكن الخوف، لكنني شعرت أنه خرج قليلًا عندما ابتلعت الماء.

كان لديها سبحة طويلة جدًا. طويلة لدرجة أنني اعتقدت أنها لا تنتهي. كنت أتخيل أنها إذا انتهت، سينتهي معها شيء مهم في العالم.

هناك، تعلّمتُ أن الطمأنينة قد تأتي أحيانًا في شكل طقس، قبل أن تصبح فكرة.

الماء الذي يطيعني

في الحديقة، كان لدي عمل. أجلس على الأرض، وأحفر بإصبعي أو بقطعة خشب. قناة هنا، وأخرى هناك. أصنع جسرًا صغيرًا من حجرين. لا أحد يساعدني. هذا عالمي. أفتح الحنفية ببطء. أحب الصوت قبل الماء. ثم يأتي الماء ... يمشي. أنظر إليه وهو يسير في القنوات. أحيانًا يهرب. أحيانًا يتوقف. أغضب منه قليلًا، ثم أصلحه. كنت أشعر أنني أتحكم بشيء مهم. الماء يسمع لي.

زرعت فولًا أخضر. قالوا لي إنه يكبر بسرعة. كنت أذهب كل يوم لأراه. أحيانًا لا يكبر. أحيانًا يكبر قليلًا. كنت أفرح حتى بالقليل. لم أكن أفكر في الزراعة. كنت أفكر في أن الأشياء إذا اعتنيت بها، تطلع.

وعندما يتسخ ثوبي، لا أهتم. الماء على يديّ، والأرض تحتي، والوقت لا يطلب مني شيئًا.

هناك، تعلّمتُ أن السيطرة قد تكون رعاية، لا قهرًا.

البستنجي حمدان

كان اسمه حمدان. أحببته في البداية، لأنه كان يحمل صناديق خضراء مليئة بالألوان. كان يقول أسماء الخضار بصوت عالٍ، لكنها لم تكن تشبه الأسماء التي أعرفها. أسمع الكبار يضحكون فجأة، ثم يسكتون. وأرى أمي تنظر بعيدًا، وأشعر أن هناك شيئًا خطأ لكن لا أحد يشرحه لي. الكلمات تخرج من فمه وتتحول في الهواء. ليست خضارًا بعد الآن. شيء آخر... شيء يجعل الجو ثقيلاً.

لم أفهم لماذا لا يجوز قولها، ولا لماذا يضحك الكبار ثم يغضبون.

في يوم ما، لم يعد حمدان يأتي. قالوا إن أبي استبدله. شعرت بالراحة، رغم أنني لم أكن أعرف السبب.

تعلمت يومها أن بعض الكلمات لا تشبه شكلها، وأن الصوت أحيانًا يخفي شيئًا لا يُرى.

هناك، بدأتُ أفهم أن اللغة ليست بريئة دائمًا، حتى عندما تبدو عادية.

هنا، بدأ التصدّع الهادئ .لم تعد الأم والعائلة النووية وحدهما إطار التجربة، بل صار العالم أوسع، وأقلّ حميمية، وأكثر احتكاكًا. خرجتُ من بوتقة الحماية الأولى إلى فضاءٍ تتقاطع فيه السلطة واللعب، العنف والجمال، القسوة والدهشة. لم يكن خروجًا واعيًا، بل انجرافًا تدريجيًا، حيث تتعلّم الذات أن ترى نفسها خارج الذراع التي كانت تضمّها.

إسماعيل... والخط الأحمر

كان إسماعيل يأتي كل صباح على دراجته الهوائية. الدراجة لها صندوق معلق في مقدمتها ممتلئ بالصحف والمجلات. كنت أحب الدراجة.

يضع الجريدة عند عتبة باب البيت، وأنا أحملها بيديّ الصغيرتين كأنني أحمل شيئًا مهمًا جدًا. أعطيها لأبي، فيجلس ويشرب الحليب بالقهوة. أجلس قريبًا منه وأراقب الصفحات.

في يوم ما، كان هناك لون مختلف. أحمر. أحمر كبير. أكبر من كل الكلمات. لم أستطع قراءته، لكنني سمعتهم يقولون: "ساعة الصفر... نهاية العالم". توقفت عن التنفس قليلًا. نظرت إلى الباب، إلى الحديقة، إلى السماء. لم يكن هناك شيء مختلف. لكن الخط الأحمر قال لي إن شيئًا ما قادم. لم أعرف أين تقع "نهاية العالم"، لكنني شعرت أنها قريبة، قريبة جدًا من البيت. منذ ذلك اليوم، صرت أخاف من اللون الأحمر إذا كان كبيرًا جدًا[2].

فيما بعد، صار إسماعيل يحضر لي إصدارات المجلات الأسبوعية، مجلة ميكي، مجلة سمير، سوبرمان، الوطواط، لولو الصغيرة، تان تان —كانت جميلة، انتظرتها بفارغ الصبر وتصفحتها بشغف، وساعدتني على تعلم القراءة.

هناك، أدركتُ أن الخوف قد يأتي أحيانًا مطبوعًا على ورق، قبل أن نفهم ما يريده منّا.

أصوات الشارع

الشارع لا يصمت أبدًا. تأتي العربات ببطء، تجرها الدواب، وتترك خلفها أثرًا على الإسفلت. النداء يبدأ بعيدًا، ثم يقترب.

"يالله يا بطيخ"...
"يافاوي يا برتقال"...
"ريحاوي يا موز"...

الأصوات ترتفع، وتدخل البيوت من النوافذ. أقف قرب السور وأستمع. لا أفهم كل الكلمات، لكنني أفهم الإيقاع.

الدواب تمشي بثقل، والعجلات تئن، والشارع يحمل كل ذلك ولا يشكو.

---

[2] أزمة الصواريخ في كوبا عام 1962

بعد أن يذهبوا، تبقى آثارهم. علامات على الأرض. كنت أظن أن الشارع يتذكرهم، كما أتذكر أنا أصواتهم.

وفي الليل، عندما يهدأ كل شيء، أسمع صدى تلك النداءات في رأسي، كأن المدينة لم تنم بعد.

هناك، تعلّمتُ أن المدينة تتكلّم حتى حين يبدو كلّ شيء ساكنًا.

السوق مع أبي

أمسك بيد أبي، ونمشي بين الناس. السوق كبير. أكبر من ذراعيّ. أصوات كثيرة، ألوان كثيرة، وكل شيء يتحرك.

أبي لا يشتري بسرعة. يتوقف. ينظر. يقلب الحبة بيده كأنها سرّ. أشاهد الباعة يراقبونه. لا يبتسمون كثيرًا. أشعر أنهم لا يحبون انتظاره.

أبي يختار الأفضل. دائمًا الأفضل.

يأتي الحمال، يحمل سلة كبيرة على ظهره. أفكر: كيف لا يقع؟ أمشي خلفهم، وأشعر أنني جزء من شيء مهم. كأن السوق يعرف أننا قادمون.

أحب هذه الرحلات. لأن أبي هنا، ولأنني أتعلم أن الأشياء لا تُؤخذ كيفما اتفق.

هناك، تعلّمتُ أن الصبر شكلٌ من أشكال الاحترام.

الخبز أمام اللحّام

أمام محل اللحّام يوجد شيء أقوى من اللحم. الخبز. رائحته تسبقنا. أشمها قبل أن أراها. الخبازون يتحركون بسرعة. يدخلون العجين، ويخرج الخبز. النار ليست مخيفة

هنا. هي تعمل معنا. أقف وأراقب. الخبز ينتفخ، ثم يهدأ. أريد أن ألمسه، لكن أبي يقول: حار.

أصدق الكلمة، لكنني لا أبتعد كثيرًا. أشعر أن الخبز حيّ. خرج للتو من شيء لا أراه.

تكسي الرشيد

عندما ننتهي، نركب تكسي الرشيد. ليس أي تكسي. هذا تكسي يعرفنا. السائق يعرف أبي، ويضحك. نضع المشتريات بجانبي. أشعر أنني محاط بأشياء اشتُريت خصيصًا لنا.

السيارة تتحرك ببطء، وأنا أراقب الشارع من النافذة. أحب العودة أكثر من الذهاب. لأننا نحمل معنا السوق كله. وعندما نصل البيت، يخرج والدي الأرغفة الساخنة من الكيس الورقي ويفردها على الطاولة، يقول كي لا تتعجن من البخار، أشعر أن الرحلة، انتهت كما يجب.

هناك، اكتملت الدائرة: اختيار، نار، خبز، وعودة آمنة إلى البيت.

في المطبخ الصغير، طاولة خشبية متوسطة الارتفاع، نملية الطعام، كوة من الرخام معتمة غامضة في زاوية المطبخ مفتوحة من الأعلى على مدخنة، ثلاجة بسيطة، موقد طهي الطعام يعمل بالغاز.

كانت أخواتي تجمعن بزر البطيخ ثم يقومون بتحميصه مع عصير الليمون والملح والفلفل الأسود واستمتع بشرب ما تبقى من ليمون مبهر.

كان لعمل الكبة طقوس خاصة، ماكينة طحن يدوية، كنت أطلب من أمي أن أدير اليد الخشبية لأساعد في طحن البرغل والبصل واللحمة، أثناء ذلك يقلون اللحم المفروم مع بصل ويضيفون الصنوبر لكي يحشوا به حبات عجينة الكبة، ثم يقلون بعضها، ويمدون بعضها في صواني بالفرن، ويطبخون بعضها مع اللبن المغلي والثوم.

حلويات العوامة والاينر والعصيدة تجتمع الأخوات لصنعهم وقليهم.

المقالي من البطاطس والباذنجان والزهرة والكوسى وسلطة بندورة بطحينة وإلى جانبهم سلطة اليهود (قلاية بندورة) وكان أهل حيفا يسمونها سلطة يهود لأن موادها بسيطة ورخيصة جداً مقارنة بطعمها الشهي، وهي مكونة من بندورة وثوم وفلفل حار وزيت زيتون.

في ذلك المطبخ، تعلّمتُ أن الجماعة قد تُصنع من يدٍ تُدير، ورائحةٍ تنتظر، ووقتٍ لا يستعجل أحدًا.

مائدة الشتاء

كان الشتاء في الخارج. الغيوم منخفضة، والطريق مبلل. أدخل البيت، وأعرف قبل أن أرى أن الطعام جاهز. الرائحة تستقبلني. دافئة. تشبه الغطاء. أجلس. أمي هنا. أخواتي هنا. وأبي في صدر المائدة.

لا أحد يتكلم كثيرًا. ليس لأننا حزينون، بل لأن كل شيء في مكانه. يخنة الزهرة باللحم، والأرز بجانبها. الزيتون الأخضر، الفجل، البصل، الليمون. الخبز مقطع مثلثات. أحب شكله. أمد يدي، وأعرف أنني مسموح لي. في هذه اللحظة، لا يوجد شتاء، ولا غيوم، ولا خوف. فقط البيت، والطعام، وأبي جالس كما يجب أن يكون.

هناك، فهمتُ أن الطمأنينة قد تكون لحظةً كاملة، لا تحتاج إلى تفسير.

الحديقة بعد الغروب

بعد أن تغيب الشمس، يخرج البيت إلى الحديقة. أمي وأخواتي يجلسن قرب باب البرندة، على الأرض المبلطة. القهوة، الشاي، الفاكهة، رائحة المندلينا، والتسالي. الأحاديث لا تصلني كلها، لكن الضحك يصل.

رائحة الياسمين والفل تمشي بيننا. أجلس قريبًا، لا أشارك كثيرًا، لكنني أسمع.

السور ليس عاليًا. الناس يمرّون، ينظرون قليلًا، ثم يمشون. لا أحد يغضب. كأن البيت يقول: نحن هنا.

الليل لطيف. والهواء بارد قليلًا. لكنني لا أشعر بالبرد. في هذا الوقت، أشعر أن العالم صغير، وموجود داخل هذا المكان.

هناك، صار الخارج امتدادًا للداخل، بلا خوف ولا حاجة إلى أبواب مغلقة.

الكلمات التي تحترق

في روضة الأطفال، نجلس معًا. نفتح كتاب القرآن. نقرأ بصوت واحد. الصوت عالٍ. كثير. يدخل أذني ولا يخرج. أسمع كلمات لا أعرف شكلها، لكنها مخيفة.

نار.

حبل.

مسد.

حطب.

لهب.

جهنم.

أحاول أن أتخيل، فتأتي الصور وحدها. أشخاص يحترقون. حبال تلتف. ظلام واسع. أقرأ مع الآخرين، لكن قلبي يقرأ شيئًا آخر. أخاف أن أتوقف، وأخاف أن أستمر. عندما أعود إلى البيت، تبقى الكلمات معي. تجلس في رأسي. لا أعرف لماذا يجب أن أخاف لكي أكون جيدًا. لكنني أخاف. وهذا يكفي.

هناك، بدأتُ أفهم أن بعض الكلمات لا تُقال فقط، بل تشتعل.

الضوء تحت الطاولة

المعلمة تتكلم. صوتها ناعم. أجلس في مكاني وأرفع رأسي أحيانًا. تنورتها سوداء. ثم يحدث شيء. شق صغير. ضوء. لون مختلف. أشعر بشيء يتحرك داخلي. ليس خوفًا. ليس فرحًا. شيء جديد. لا أتكلم. لا أضحك. أنظر فقط. لا أعرف لماذا لا أستطيع أن أتوقف عن النظر. في رأسي أسئلة، لكن بلا كلمات. أعرف فقط أن هذا الشعور ليس مثل أي شيء آخر. وأحتفظ به لنفسي.

هناك، تعلّمتُ أن بعض الاكتشافات لا تطلب تفسيرًا، بل صمتًا.

الملوخية... والبامية

الصيف له عمل كثير. تنزل أعواد الملوخية إلى القبو. كثيرة. طويلة. النسوة يجلسن. يقطفن الأوراق. يغسلنها. ينشرنها على الشراشف فوق السطح. الشمس تفعل الباقي. مهمتنا نحن الأطفال الأعواد العارية. نحملها. نرميها. نحتفظ ببعضها. نجففها ونصنع منها أشياء تشبه السجائر. نضحك. نقلد الكبار.

البامية أيضًا لها طقس. يقطعون رؤوسها. يغسلونها. يخيطونها بالخيط. تصبح مثل السبحات. تُعلّق على الجدار. نأخذ الرؤوس المقطوعة. صغيرة. هرمية. نلصقها على وجوهنا. على أيدينا. تلتصق. تحكّ. لكننا لا نهتم. نضحك، نركض، ونتحمّل الحكة لأن اللعب أقوى.

هناك، تعلّمتُ أن الجسد قد يحتمل الضيق حين يكون المعنى لعبًا.

كانت أولى حروب الشوارع. جمعنا الحجارة، وشكلنا عصابات، وحاولنا غزو الشوارع المجاورة، وتشاجرنا على المياه، من يملأ "المطرة البلاستيكية" قبل أن ينضب ماء الحنفية.

مدام جريس

كانت سيدة كبيرة في السن، بيضاء الشعر، ميسورة الحال، أرملة مدير أحد البنوك، لطيفة جداً، تزورنا في أعياد المسلمين ويزورها والداي في أعياد المسيحيين، وكانت تحمل لي الشوكولاتة كلما زارت منزلنا ...، كانت تطل دائما من خلف الستائر في شقتها في الطابق الثالث لمشاهدة الحارة والجيران. لا أدري لماذا قررت مع أصدقائي أن نمزق الغطاء البلاستيكي الواقي لموقف سيارتها، غضبت مدام جريس، ثم شعرت بالذنب والندم، لماذا فعلنا ذلك؟ كان رد فعلي أنني زحفت أسفل سيارتها خمرية اللون، مكثت تحتها واستغرقت في النوم، بينما كان الآخرون يبحثون عني.

كانت تلك الحادثة أوّل مرّة شعرتَ فيها بالذنب دون أن أفهم لماذا

الكرسمس

ستيلا، الفتاة اليونانية التي تسكن جواري، كانت إلهة الجمال في حيّي اللويبدة. أدارت بوصلتي نحو الغرب. دعتني إلى احتفال ليلة عيد الميلاد – مختلف، ولكنه دافئ – أشعلت فيّ تعاطفًا مبكرًا مع أثينا.

الكذبة الأولى

كنت مدللا جدا عند والدي، مغفور لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، حتى أن أخواتي كن ينسبن إليّ أي خلل قد يحدث في المنزل لكيلا يستشيط أبي غضباً، وهذا ما حصل عندما انكسر لوح زجاج النافذة لسبب ما وادعت أختي أن زياد القى عليه سيارة معدنية صغيرة،

كانت تلك أوّل كذبة قيلت عني، أدركت بعدها أن الكبار لا يقولون كل شيء وأن الحقيقة يمكن تعديلها.

إحساس الخجل

أثناء أداء مسرحية سواري كسرى على مسرح الكلية في مرحلة الروضة، كنا مجموعة أطفال نلبس ملابس تنكرية تمثل عرب البادية زمن الفتوحات الإسلامية، نضع عمائم والصقنا لحى صناعية، حفظ كل منا الدور الذي عليه تقديمه والجمل التي سيقولها، وبعد أن وضعنا صندوق الغنائم ودعونا رجل اسمه سراقة لإعطائه سواري كسرى اللتان وعده بهما الرسول، شعرت بحاجة ماسة إلى التبول، لم أستطيع أن أمسك نفسي، حبست البول وكان واضحا أنني أمسك بعضوي، بينما الصالة مليئة بالحضور وبينهم والدتي وبعض من اخواتي. شعرت بالخجل لأول مرة في طفولتي.

أريحا

قالوا إننا ذاهبون إلى أريحا. الطريق طويل، والهواء يتغير. المدينة دافئة، حتى عندما لا تشرق الشمس. أختي تسكن قرب بساتين. أشجار طويلة، أوراق عريضة، وثمار صفراء. الموز ينمو معكوساً نحو الأعلى، لا يتدلى، كأنه يعرف ماذا يفعل. لا يتردد.

أعطوني صندوقًا خشبيًا. ثقيلًا قليلًا. من خشب له رائحة. أفتحه. تصدر موسيقى جميلة بمجرد أن افتحه، داخله طبقات. مخمل خمري ناعم. في داخله أشياء للكبار: سيجار، سجائر، ولاعة فضية. لا أفهم لماذا الصندوق جميل وهذه الأشياء داخله. لكنني أحب ملمسه، وأحب الصوت عندما يُغلق.

نبات الليفة

رأيت نباتًا غريبا طويلاً يتدلى. ليس خضارًا. ليس شجرًا. قالوا: هذه ليفة. نستحم بها. نبات يصبح شيئًا آخر. لا يؤكل. يُفرك. لم أفهم كيف يتحول. لكنني أحببت الفكرة. أن يكون للنبات حياة ثانية.

الفحيح

كنت أمشي، ثم سمعت صوتًا. ليس عاليًا. ليس واضحًا. فحيح.

توقف جسدي قبل رأسي. بردت قدماي. قالوا: أفعى. لم أرها. لكن الصوت كان كافيًا.

منذ ذلك اليوم، تعلمت أن بعض الأصوات لا تحتاج صورة.

دير قرنطل والنهر

صعدنا الجبل. الدير معلق كأنه محفور على طول جرف يطل على مدينة أريحا ووادي الأردن. الراهبات هادئات. الرهبان صامتون. الحجارة قديمة. صامتة أكثر منهم. قالوا: هنا مكان مهم. هناك في الأسفل تعمّد المسيح. نظرت إلى الماء. يمشي ببطء. لم أفهم المعمودية، لكنني شعرت أن الماء ليس مثل أي ماء. وقفت بهدوء، كما يقفون.

في أريحا، بدأتُ أفهم أن العالم يعلّمنا عبر المكان، قبل أن نملك لغة للسؤال.

الحِمّة

رائحة الكبريت تسبق المكان. قوية. تحرق الأنف. مياه ساخنة. بخار. مغاطس. مقاهٍ مظلمة. قناديل ملونة باهته. أصوات أراجيل. الليل هنا أثقل. حتى القبور قريبة.

في مساء ما، كنا نسير في شوارع الحمة، قال أبي إنني أخذت نقودًا دون إذنه. لم أفعل. لكن صوته كان جادًا. خفت. كثيرًا. ظل الخوف معي حتى عندما قال إنّه كان يمزح لكي يوقف حزقة كانت تخرج مني، لم يخرج الخوف بسرعة. كان هذا أول قلق لا أعرف كيف أُعيده إلى مكانه.

هناك، تعلّمتُ أن الخوف قد يولد من كلمة، ويعيش أطول من سببها.

مصر

في السادسة من عمري، دخلتُ مصر من بابين متقابلين: الموت والحياة. رأيتُ الأهرامات، عمالقة حجرية داكنة، صامتة، وفي غرفة باردة يتوسطها تابوت حجري تعرّفتُ للمرّة الأولى على فكرة النهاية.

خرجتُ إلى القاهرة، مدينة فقيرة ومضيئة، تدفعك بقوة إلى الاحتفال: مسرح عرائس في الشارع، أراجوز بشاربه الطويل، زوجتاه، جني، لص، شرطي، ضحك وسخرية وتمرد بريء تحت هلال العيد. كان ذلك مدخلي الأول إلى المجتمع، والسلطة والزواج والفرح.

في دار الأوبرا، أمام مسرح شاسع ومقاعد لا تنتهي، شاهدتُ التاريخ يُغنّى: السد العالي، قناة السويس، سفن مجسّمة، هتاف جماعي وورود تتساقط من فتاتين معلّقتين تنزلقان على حبال قرب السقف، فبدا الماضي احتفالًا لا درسًا.

في متحف الآثار شممتُ رائحة لم أعرفها من قبل، رائحة عتيقة وحقيقية، رائحة التاريخ نفسه.

في حديقة الحيوان، بين التماسيح والزراف والأسود والأفاعي الضخمة، أيقظت الروائح الطبيعية غرائز نائمة في داخلي.

على ضفاف النيل، عند الغروب، بقي في فمي مذاق جبنة كشكوان وليمون بالنعناع – طعم بسيط، وسحر لا يُنسى. شيئًا ما في داخلي كبر هناك، وبقي.

في مصر، تعلّمتُ أن التاريخ قد يُروى أحيانًا بالدهشة، لا بالخوف.

الهلال الخصيب

بين الثالثة والسادسة من عمري، كانت بيروت تفاحتي الحمراء على شاطئ المتوسّط الفيروزي؛ هناك رأيتُ قوس قزح لأول مرة، وتعلّمتُ السباحة على يد خالي سعيد وخالي عثمان، وأكلتُ السمك الحار من يد خالتي، ولبنة شتورة بخبز الصاج كانت زوجة خالي تسميها كدوشة او عروسة، تعدها لنا الى جانب الفاكهة والشراب ونحن

نحدّق في تلفزيون أبيض وأسود، بينما كانت جدتي النحيلة، بعينٍ أطفأها المرض، تجلس على سريرها كذكرى مبكرة للفقد.

ثم جاءت دمشق، مسقط رأسي، ياسمينها وماء بردى، وحقول القمح الذهبية التي عرّفتني باكرًا على الهلال الخصيب، حاضرًا وغائبًا معًا. لا مذاق يشبه طعم عصير الفاكهة البارد المنعش عند الباعة، ولا طعم النقانق مع المخلل الذي يبيعه الباعة المتجولون في عربات، ولا بوظة بقداش بالفستق الحلبي من سوق الحميدية ... للشام نكهة خاصة لا ينافسها فيها أي مكان آخر.

في طريقي إلى الزبداني، ركبتُ قطارًا خشبيًا يعمل على الفحم والبخار، مزدحمًا بالحياة، لأصل إلى مصيفٍ تحرسه أشجار التوت، نأكل حتى الشبع، ونمشي حفاة في جدول ماء بارد، بينما كانت الفتيات يرفرفن كفراشات ملوّنة، يبدّلن الثياب بعيدًا عن عيون الأهل.

عندما عدتُ إلى بيروت في التاسعة، شممتُ عبير الحضارة في مكتباتها، مدينةٍ ستغدو في مخيلتي طائر فينيق، يُنهكها الرماد مرارًا، وتنهض في كل مرة.

بين هذه المدن، تعلّمتُ أن الانتماء قد يتعدّد، من دون أن يتناقض.

حزنتُ يوم انقسم العالم فجأة إلى قسمين: ذكور وإناث. كان ذلك في بداية الصف الثاني، حين انتقلنا من فضاء الروضة الخفيف إلى مباني المدرسة الابتدائية، المتلاصقة مع الإعدادية والثانوية، تتوسطها ساحة واسعة، مسجد في طرفها، وملاعب كرة القدم في الطرف المقابل، وأسوار عالية تفصل كل شيء عن كل شيء. خلف ملعب الكرة، كانت مباني مدرسة الإناث، بعيدة وقريبة في آن، وكنت أحاول عبثًا أن أتسلّق سور الروضة لألمح معلمتي في الروضة، كأنني أبحث عن زمنٍ مُنع فجأة.

هناك، فهمتُ أن بعض القوانين لا تُشرح، بل تُفرض، وتترك في النفس فراغًا صامتًا.

ثم جاءت السينما، نافذتي الأولى على العوالم الكبرى: فيلم حرب وسلام – قصور، ثلوج، جنود، حب وقُبَل تُرى للمرة الأولى، فصرختُ ببراءة فضحت الدهشة، وضحك الحضور. تلاها الدكتور زيفاغو، والسندباد، وعلاء الدين والفانوس السحري، والأفلام الهندية التي فتحت الجغرافيا بلا حدود، بانوراما لا تنتهي، وما زالت الطبيعة فيها، حتى اليوم، تبدو أوسع من أي مكان. بعد حرب وسلام، ملأتُ وحدتي بجنود بلاستيكيين، أسلحة، خيام، حروب صغيرة أرتّبها بيدي. كنتُ أقضي

معظم الوقت وحيدًا، لا أرغب كثيرًا في مرافقة أولاد الجيران، وأخواتي – أصغرهن تكبرني بخمس سنوات – كنّ بعيدات ككواكب أخرى. *هكذا تعلّمتُ باكرًا أن العزلة يمكن أن تكون ملعبًا، وأن الخيال، حين يُغلق عليه باب، يتعلّم كيف يبني عالمه بنفسه.*

هناك، أدركتُ أن العالم قد يدخل من نافذة، لكنّه لا يستقرّ إلا إذا وجد مكانًا في الداخل.

في السادسة من عمري، سمعتُ أن أخي الأكبر محمد عائد من ألمانيا مع عروسه الألمانية أولريكا، وكانت تلك أول مرة أدرك فيها أن العالم أوسع من لغتنا، وأن الحب يمكن أن يعبر الحدود. من بين جميع استعدادات الزفاف، تبقى ذكرى واحدة هي الأبرز: علب الحلوى الفضية المزخرفة. نُقشت على أغطيتها مجسّم روميو وجولييت. في الداخل، كان المخمل الخمري الدافئ يحتضن سكاكر اللوز بيضاء اللون وقطعة شوكولاتة واحدة تتوسطها.

أخذ والدي علبةً وشرح لي رمزيتها:

"الرسم المجسم على غطاء علبة الحلوى الفضية هو المودة والرحمة بين الزوجين. المخمل الناعم في الداخل هو الراحة والسكينة. العروس قطعة الشوكولاتة والسكاكر المحيطة بالعروس هم أطفالها المستقبليون. وماذا عن العريس؟" نقر على العلبة وقال: "العريس هو العلبة الفضية، ربّ البيت والمسؤول عن تماسكه."

ثم سافرنا إلى مطار القدس لتوديعهم، مدينةٌ لم أرها بعد ذلك إلا في الذاكرة، قبل أن يغيّرها الزمن والحرب. القدس عندي ضبابٌ من زيتون عتيق، وأسوار حجرية، وقبة ذهبية تلمع، وأخرى فضية، ومغارة تحت الصخرة، درج وسجاد وقناديل، رائحة بخور تخفّض الأصوات وتمنح المكان هيبة غامضة، إحساسًا بأبعاد لا تُرى.

انتهت الرحلة بدموع سالت من عينيّ الملتهبتين بعد أن أخرجت رأسي من نافذة السيارة في الريح البَاردة، ومسحتها أمي بقطعة قطن مبللة بشاي داكن دافئ – فبقي في الذاكرة مزيج الخشية، والحنان، والعالم وهو يتشكّل لأول مرة.

هناك، تعلّمتُ أن الوداع قد يكون درسًا مبكّرًا في معنى الاتّساع، لا الفقد فقط.

كان العالم يتّسع، بينما الداخل يستعدّ للارتجاج.

كان أبي سريع الغضب، إذا خرج أي أمر عن النظام أو الايقاع الذي وضعه له فإنه سينفجر بالتوبيخ والانتقاد بصوت مرتفع، وأحيانا بكلمات ونعوت لا تليق به ولا يجوز أي يطلقها في حق أمي، كان ذلك يحزنني كثيراً، أما هي فكانت صابرة مطيعة حمالة للصخب والغضب، تبذل قصارى جهدها أن تحول دون حدوث أي تقصير أو خطأ، وكذلك كانت تفعل أخواتي، يجهزن كل شيء كما يروق له، مع أنه لم يكن متعصباً جداً أو متشدداً من الناحية الدينية، لم يطلب منهن ارتداء الحجاب، مثلاً، لكن كانت لديه حساسية مفرطة تجاه النظام واتباع بروتوكولات صارمة. غير أن هذا الأمر لم يكن يسري على الذكور في العائلة، كان لديهم مطلق الحرية، كانت عاطفته المفرطة تجاههم نقطة ضعفه الوحيدة.

لم يقتصر غضبه على منزله، بل امتد ليشمل جميع الموظفين العاملين لديه. كان إذا أحدهم لمح طيفه قادما من بعيد، أو اتصل به أحد الموظفين من أحد الفروع الأخرى منبها إياهم إلى أن أبا محمد في الطريق اليكم، كان الجميع ينهض ويتقمص دور العامل النشط، فهذا يرتب البضائع وذاك يمسح زجاج الواجهة، وذلك يحرص على إنارة اللوحة الاعلانية إذا كان الوقت المحدد لإضاءتها قد حان.

كان لديه اثني عشر فرعاً، ومصنع للتريكو، مشغل حياكة البلايز والملابس الصوفية، كان معتدلا ومنصفا في معاملة الموظفين، لولا عيب الغضب.

هناك، تعلّمتُ أن النظام قد يحفظ العالم، لكنّ الغضب يترك فيه تصدّعات صامتة.

كانت الوالدة تقيم مأدبة رمضانية في السابع والعشرين من كل رمضان كل سنة، يدعوا الوالد جميع الموظفين العاملين لديه، يأتون من القدس ونابلس ورام الله وبيت لحم في الضفة الغربية، ومن عمان واربد والزرقاء في الضفة الشرقية، ويجتمعون في منزلنا في جبل اللويبدة حيث تمتد الموائد من أول المنزل حتى نهايته، وتطهو الوالدة الوجبات التقليدية التي اتقنتها، الكبة بأشكالها المختلفة، شيخ المحشي، الملوخية بالدجاج والأرز، الكفتة، السلطات وشوربة الشعيرية وما لذ وطاب من المقبلات، ويعقب ذلك تحلية الكنافة النابلسية الجاهزة من جبري. كانت هذه الدعوة السنوية من أجمل العادات التي تجمعنا كعائلة واحدة.

هناك، رأيتُ كيف يمكن للبيت أن يتّسع، فيصير وطنًا مؤقّتًا للجميع.

مطلع الستينات مدخل الحداثة في الأردن ومعظم العالم العربي.

في ذلك النسيج الغني المضاء بالألوان أصبح لعيناي حاسة التذوق وصار لسمعي عينان، وعلى قول الشاعر محمود درويش، اصبحت "المس فتنة الدنيا لأول مرة في العمر، هذا الفجر ازرق، والهواء يُرى ويُأكل مثل حب التين"، بدأت رحلة إدراك ذاتي والاشياء، منذ الولادة إلى السنة الثانية من عمري، ابتدأت رحلة العقد الاول من الحياة، نعم، الحياة بصفائها ونقائها وشدة مشاعرها ودهشتها وطهورها، الحياة "حليب الروح" الذي جفَّ مبكرا مع انتهاء السنة العاشرة من عمري.

تكوينات من رموز أو أشكال وألوان وأصوات وروائح وأحاسيس، شبكة علائقية ترتبط فيها تلك الرموز وتتجمع في تشكيلات بنيوية تولد منها المعاني، ومن بنية الى بنية، منها المشترك العام ومنها الذاتي الخاص، يتكون العقل والمفاهيم والتفكير.

ما كُتب هنا ليس سيرةً، بل خريطة تشكّل الوعي قبل أن يعرف اسمه.

دير علا – يوم رحيل الطفولة

في عام ١٩٧٠، أُطلق سراح أخي أحمد، القائد السياسي الفلسطيني، من سجون الاحتلال الإسرائيلي. دعا جارنا مبارك الفاعور "أبو سلطان" عائلتنا بأكملها إلى وليمة في مزرعته بدير علّا، وهي قرية في وادي الأردن قرب موقع معمودية السيد المسيح.

كنت في العاشرة من عمري. كان الربيع في بدايته. كانت الطبيعة أشبه بسيمفونية: ورود حمراء، وأزهار بيضاء كفساتين الزفاف، ورائحة أشجار البرتقال، وتغريد الطيور.

ذهبت قبل يوم من موعد الدعوة مع عائلة أبو سلطان إلى المزرعة. في ذلك الجو الجميل، قفزتُ أنا وأصدقائي ولعبنا.

في صباح الجمعة الباكر، وقف أبو سلطان يراقب العمال وهم يُعدّون الوليمة. كان يرتدي رداءً بدويًا أبيض ناصعًا، حريصًا على ألا يعلق به شيء. كانت عائلتي بأكملها في طريقها.

غادرتُ الكوخ مع أصدقائي أبناء أبو سلطان لنعلب في ساحة القرية.

ثم، فجأةً، اهتزت الأرض. مزق صوت معدني مروّع السماء بينما كانت الطائرات النفاثة المقاتلة تُحلّق فوقنا. هزّت سلسلة من الانفجارات العالم. أُلقيتُ في فوضى عارمة، ركضتُ مع قرويين آخرين حتى تعثرتُ بغرفة طينية صغيرة لجأ إليها بضعة مزارعين.

خرج رجل عجوز حاملاً راية بيضاء، أملاً عقيماً في وجه القذائف. اصفرّت وجوهنا من الخوف. سلسلة أخرى من الانفجارات. خنقت رائحة الدخان رائحة الأزهار.

ساد صمتٌ مفاجئٌ ثقيل، لم يكسره إلا صداعٌ شديدٌ ارتجف منه جسدي. ثم سمعتُ من بعيد بكاءً. أصوات:

"أبو سلطان مات!" (مات أبو سلطان!) "قصفوا المزرعة!" "هناك حُفر كبيرة في الأرض!"

خرجتُ متعثراً من الغرفة. ركض الناس عبر أرض طينية عشبية رطبة مفعمة برائحة البارود باتجاه أعمدة الدخان الأسود اللاذع. وجدتُ نفسي أركض معهم، ثم انهرتُ على صخرةٍ، وعقلي عاجزٌ عن استيعاب هول المأساة.

تمزق أبو سلطان وابنته الكبرى وأحد أبنائه وأربعة وثلاثون مزارعاً وبضعة فدائيين إرباً. كان أبو سلطان المتعاطف مع قضية فلسطين سمح لبضعة فدائيين بالإقامة في أحد أكواخ المزرعة. سقط طوب البيت المهشم على ظهر زوجته وهي تستلقي فوق ابنهما الأصغر لحمايته؛ نجت وحدها وبقيّة أبنائها.

تلقّت عائلتي، المتوقفة عند حاجز عسكري، الخبر المحزن. وصفوني للجنود معتقدين أنني ميت. لم نلتقِ إلا في منزل العائلة، وقد خُتم فرحنا بحزنٍ خانقٍ كبير.

كان ذلك اليوم بمثابة مقدمتي الحقيقية للموت. كان ميلاد قلقي، وولادة عصف عقلي العنيف والمبكر.

في دير علّا، انتهت الطفولة لا بالزمن، بل بالانفجار.

عندما بلغت التاسعة من عمري، كنتُ قد انضممت إلى معسكر أشبال حركة المقاومة فتح الذي كان يقام أثناء عطلة المدارس الصيفية في إحدى المدارس الكبرى – مدرسة الأميرة عالية – القريبة من منزلنا في اللويبدة. كنا نقيم في غرف الصف، ننام في المعسكر ونتدرب على التمارين الرياضية واستخدام السلاح أثناء النهار وفي الليل، ونخرج كل صباح باكر في مسيرة هرولة في شوارع جبل اللويبدة منشدين الأناشيد الوطنية: فتح ثورة عاصفة نصر، لا تحزني يا فلسطين عندك أشبال مدربين أشبال تريد الموت، واللي يموت خليه يموت خليه يزور المقبرة يبقى شهيد العاصفة، يا بنت ياللي في القصر أنتي هواكِ شعركِ واحنا هوانا اوطاننا.

أما أبو أحمد آمر المعسكر، ضابط وسيم في عنفوان شبابه، فقد كانت هواه احدى الفتيات المقيمات في أحد المنازل قبالة المدرسة، كان مولعا بحبها، لم استوعب لماذا كان يستلقي للنوم بيني وبين صديقي أحد الأشبال، ويتخيل أنه يلامس هوى أحلامه، حتى انه كان يلامس شفاهنا ونحن نيام، عله كان يتخيل حبيبته.

قرب فجر إحدى الليالي، صحونا من النوم على ركلات قدمي أحد الفدائيين وهو يصرخ، انهضوا، لقد اغتالوا أبو أحمد، قتله جنود البادية حرس السفارة الأميركية وهو ماراً في طريقه لتوصيل أحد الأشبال إلى منزل والديه. كان الأمر مرعبا وصادما. تجمع رفاق السلاح يخططون كيف يكون الرد ومتى، وطُلب مني ومن رفيق لي أن نتسلل في الظلام لإخبار مركز قيادة قريب بما حدث، وقبل الظهيرة من ذاك اليوم، خرجنا في مسيرة كبيرة لتشييع جثمان الشهيد إلى مثواه الأخير وسط الهتافات وإطلاق الرصاص في الهواء. لم تمض بضعة أيام حتى اشتعلت أحداث أيلول الأسود عام 1970 على أوسع نطاق.

لم يستغرق الأمر طويلا حتى اقتحمت قوات الجيش الأردني جبل اللويبدة، سقط شهداء من الطرفين، لا أزال أذكر أصوات ولولة جنود البادية عندما كان يسقط لهم شهيداً، كان الصوت ثقيلا يهبط علينا من نافذة القبو المعتم أسفل منزلنا حيث كانت تختبئ جميع العائلة حذر الرصاص المتطاير والشظايا. بلا كهرباء ولا ما يكفي من الطعام والماء، اجتمعت العائلة في ذلك القبو الصغير طيلة فترة الأحداث.

تمكنت أم سلطان الفاعور، جارتنا الماجدة، من أن تتخلص من قطعتي سلاح كنا نحتفظ بهما في المنزل لكيلا يكتشفها جنود الجيش، كما وقفت للجنود بالمرصاد عندما اخرجوا والدي وأحد اخوتي من القبو واتهموهم بدعم المقاومة، اسندوهم إلى

الحائط وقد عزموا اعدامهم ميدانيا لولا تدخل أم سلطان الفاعور، زوجة الشهيد مبارك الذي استشهد قبل بضعة أشهر في دير علا وهو في انتظار عائلتي التي دعاها للغذاء.

رغم الصدامات الدامية، الا أن اللحمة بين الأردنيين والفلسطينيين كانت قائمة ما استطاعت اليها مجريات الاحداث سبيلا. كان أخي خالد يعمل طبيبا مقيما في مستشفى لوزميلا في جبل اللويبدة أثناء الأحداث، وكانت المستشفى تحت سيطرة الفدائيين الفلسطينيين، وقد عالج بعض المصابين من جنود وضباط أردنيين، إلا أنه رفض تسليمهم للقوات الفلسطينية، حتى تحرروا عندما وقع جبل اللويبدة بأجمعه تحت سيطرة الجيش.

صوت الانفجارات والرصاص والقذائف وجنازير الدبابات كان مرعباً تهتز له المباني والمشاعر ويشيب له الولدان. سكتت المدافع رويدا رويدا مع انسحاب الفدائيين من عمان. تمكن جمال عبد الناصر من عقد قمة لحل النزاع. أذكر ليلاً صوت أختي التي كانت تسكن في البيت المجاور لنا وقد جاءت إلى القبو باكية صارخة بأعلى صوتها: عبد الناصر مات.

لا أعتقد أن الأحداث أثرت على صداقتي مع أولاد أبو سلطان، أو مع الأردنيين بشكل عام، ولكن كان هناك شيئاً ما قد تصدع في علاقات الأردني بالفلسطيني، لكنه صدع في حدود الفوارق التقليدية الطبيعية ومجسور في جميع الأحوال.

مع نهاية خريف أحداث أيلول، أسدل الستار على العقد الأول من الحياة، وتلاشت الطفولة.

في أيلول، لم تنتهِ الطفولة لأنّها كبرت، بل لأنّ العالم اقتحمها.

ما بقي

ما بقي ليس صورًا كاملة، بل آثارًا.

بقي الصوت قبل المعنى، والرائحة قبل الاسم، والخوف قبل سببه.

بقي إحساسٌ مبكّر بأن العالم يمكن أن يكون واسعًا ودافئًا، ثم يضيق فجأة دون إنذار.

بقي أن النظام يمنح الأمان، لكنّ الصرامة تزرع القلق. أن اليد التي تطبخ وتجمع قد تعيش في ظلّ صوتٍ مرتفع من دون أن تنكسر.

بقي أنّ الكلمات ليست بريئة دائمًا، وأن بعض الأصوات تخيف حتى بعد أن تصمت.

بقي أنّ الطمأنينة كانت ممكنة: مائدة، حديقة بعد الغروب، خبز ساخن، ضحكة تصل دون شرح.

بقي أنّ الخوف الأكبر لم يأتِ من الظلام، بل من الضوء المفاجئ، ومن السماء حين انفتحت على انفجار.

بقي أنّ الانتماء ليس مكانًا واحدًا، بل طبقات: بيت، حيّ، مدينة، وأثر لا يُرى.

وبقي أنّ الطفولة لا تنتهي حين نكبر، بل حين يدخل العالم دفعة واحدة إلى القلب.

معتقدات

وُلدت "معتقداتي" مع شيبا، القطة طويلة الشعر. الأم، الطفل، الطعام، المأوى، الرضاعة، الهررة الضعيفة بعيون مغلقة، صوت المواء... كانت تلك أولى خبراتي الإدراكية، أوّل بنية تحتية للمعتقد تتشكّل في داخلي.

اختزلت المراحل الثلاث الكبرى لتطوّر المجتمعات – الهمجية، البربرية، الحضارة – داخل طفولتي المبكرة، مررت بها وكان وعيي يتطور بسرعة مذهلة، كأنه نسخة مصغّرة من رحلة الإنسانية الكبرى، ودفعه نحو التسارع فجرُ عصر المعلومات والاتصال. بعد "العصر" ما قبل الوعي، العصر ذاتي السلوك المبرمج في الجينات، بدأت يقظتي مع شيبا. ثم صرت أتعلّم من التجربة في العقد الأول من الحياة. بدأت أستخدم العلامات وأُنشئ المنطق. كانت أخواتي الأكبر يفرحن بتعليمي رسم الرموز، تكوين الحروف، وكتابة الكلمات.

كانت أمي الركيزة الصلبة لعائلة من اثني عشر فرداً أصحاء وسليمي التكوين، وكان أبي يعيش على إيقاع ساعة "بيغ بن" التي كانت تدقّ كل تمام الساعة من الراديو الترانزستور المرافق له، كأنها تعدّ ثواني أزمة مأساة اللجوء الفلسطيني المستمرة. كان مستغرقاً في الواجب الأساسي لتسخير الطاقة – بتعبير ليزلي وايت —– لتأمين الخبز والمأوى والنفقة لعائلتنا الكبيرة المجزأة، ولأقارب آخرين جرفهم قدرُ فلسطين إلى ذات المصير.

كانت معتقداتي الأولى – إن صح التعبير – آلياتٍ لا واعية، مُشفّرة في جيناتي بواسطة خالق أو عن طريق الانتقاء الطبيعي – لم أكن أعرف ذلك بعد. كانت هذه معرفةً سابقةً للتجربة. أرشدتني إلى صدر أمي، وساعدتني على مسك الأشياء، وأسست لي فهمي الأول للسبب والنتيجة. ثم جاء قلق تعلم المشي: صراع التوازن، والسقوط المتكرر، وارتطام الوجه بالأرض. واجهت التوقعات الواقع. عندها أصبحت المعتقدات لعبةً مستمرةً مع التوازن.

كانت الطبيعة معلمتي الأولى. علّمتني التفريق بين الدرجات والأشكال: الحر والبرد، الجوع والشبع. علّمتني التوازن من خلال الاستجابة. تعلمت المشي والجري. تعلمت لماذا أبكي ولماذا أبتسم، لماذا أشعر بالبرد وكيف يعود الدفء. كان كل ذلك جزءًا من لعبة التوازن التي لا هوادة فيها.

بدا لي أن وجودي كله مُقدّرٌ له أن يسعى وراء هذا الواقع من التوازن. بدأ الأمر بالشفرة الجينية في الحمض النووي – نتاج حياةٍ مُهيأةٍ للتوازن – ونما مع كل تجربة، وكل معلومةٍ من والديّ، وكل تفاعلٍ مع البيئة. بدأتُ أرى الكون كشبكةٍ مترابطةٍ ومتشابكة – نسيجٍ شاسعٍ يسعى بلَا انقطاعٍ إلى التوازن.

أثناء ممارستي للعبة، أدركتُ القوة التي كنتُ أستخدمها دائمًا: الإرادة الحرة، لا تنفصل عن الاختيار. قوةٌ تُمكّنني من التوافق مع التوازن أو التمرد عليه.

ومن هنا انبثقت مفاهيم الصواب والخطأ، الخير والشر. الخير هو ما حافظ على التوازن أو أعاده. الشر هو ما أزعجه – في داخلي، أو في والديّ، أو في العالم من حولي.

كانت الدورة:

أُطروحة تُمثّل اختلالًا في التوازن / تَنشَأ أُطروحة معارضة نقيضاً ضدي لها / يَنشأ عن تَصادمُهما توليفةً جديدة متوازنة، تتحول مع مرور الوقت إلى أطروحة حاضر جديد أصابه الخلل.

أصبح هذا الإطارَ الهيجلي مُحرّك جميع الجدليات في عقلي الصغير.

تطور وعيي، مُشكّلاً مفاهيم من الظواهر المحيطة بي: حار/بارد، نعم/لا، صواب/خطأ، متعة/ألم، فرح/حزن، ومن، لماذا، أين، متى، وكيف. هذه التناقضات الثنائية للمفاهيم المتناقضة خلقت صراعاً وتحولت إلى معاني، كالخير مقابل الشر، أو الذكر مقابل الأنثى؛ وتدفقت المعاني من الداخل والخارج، وكان جميع الناس يشتركون بها ... شعرت بأن هذا الواقع المتناقض لا بد أن يحمل في طياته غرضاً كامناً وراءه، ويشير إليه.

بعد العقد الأول من الحياة وتلاشي الطفولة، أصبحت المدرسة تلعب الدور الرئيس في إرساء المفاهيم وتوزيع الأدوار.

في المدرسة، علمتني الكيمياء قوة الإرادة الحرة لتسخير قوى الطبيعة – وخطر الأخطاء العلمية، عندما تذوق صديق لي "ملحاً" صنعناه في المختبر، وصرخ بينما كان الصوديوم يحرق لسانه.

أهدتنا السفارة الروسية كتبًا مجانية: كانت بمثابة مدخل لي إلى الأدب والعلوم والاشتراكية الروسية. وفعلت السفارة الصينية الشيء نفسه، لكن الصين ظلت خيالًا في أقصى الشرق.

مُثقلًا بقلق وجودي، انتابني انفصال مُرعب في إحدى ليالي الشتاء بينما كنت أقرأ بالقرب من مدفأة كيروسين متّقدة. وبينما كنت أحدق في يدي، شعرتُ بانفصال عن يدي، بدت غريبة كأنها لا تنتمي إلى ذاتي. ذعرت وتسارعت خفقات قلبي. كان هذا أول لقاء لي مع المجرّد، مع ثنائية الجسد والعقل.

شخّص الطبيب النفسي حالتي بـ "جنون العظمة"! ووصف لي مهدئات. لكنها لم تُجدِ نفعًا؛ ولا تعاويذ شيخ في وادي السير، شخّص حالتي الروحية وأهداني تميمة قرآنية لأرتديها، ولا تعاويذ رجل دين يهودي سامري ادعى أن لي قريناً من الجن، وكلاهما معروف بـ "قدرتهما على الشفاء".

في حالة من العذابات واليأس، طرحتُ أسئلتي على إمام مسلم ذائع الصيت:

"إذا كان الله عدلاً كاملاً ويعلم المستقبل، فلماذا خلق مَن عَلِمَ مسبقاً أنه سيعاني؟"

أجابني:

"أنت هالكٌ يا زياد، مصيرك الجحيم أيها الفتى. أنتَ لسان الشيطان".

أصبح بحثي عن المعنى جرحًا نازفاً.

الشباب: إنجلترا، أمريكا، الحب، الفقد

خلال سنوات مراهقتي، كان السفر العامل الأبرز في تشكيل معتقداتي. في سن الثالثة عشرة، عرّفتني دورة صيفية لمدة شهرين في بورنموث، إنجلترا، على مفهوم الآخر واختلاف الثقافات. أُعجبتُ بإنجلترا وانبهرتُ بها. كان متحف التاريخ الطبيعي ومتحف العلوم في لندن بمثابة مدخلي إلى عالم حديث من البحث والاكتشاف، وبوابتي إلى مفهوم الحوار بين الثقافات.

لم أجد الشعب والثقافة الإنجليزية مختلفين تمامًا عن ثقافة الشرق الأوسط. شعرتُ أننا كبشر نحمل في أعماقنا جذورًا مشتركة.

بعد حصولي على شهادة التعليم العامة، سافرتُ إلى الولايات المتحدة سعيًا وراء الدراسة الجامعية. منذ اللحظة التي رأيتُ فيها، من نافذة الطائرة، أنهار الضوء المنسابة التي تُشكّل شوارع نيويورك ليلًا، أدركتُ مدى ضخامة وروعة ظاهرة الولايات المتحدة. في جامعة سيراكيوز، تعرفتُ على أساليب جديدة للبحث والإبداع والابتكار، مختلفة تمامًا عن أساليب التدريس التلقيني، وعرفت البحث العلمي المنهجي المغيبة تماماً في مدارس الشرق الأوسط آنذاك، ولا تزال كذلك في أماكن كثيرة حتى اليوم. لم يَسمح لي إيقاع الحياة السريع، وحيوية الثقافة الأمريكية، بتكوين شعور بالارتباط بالقارة. شعرتُ وكأنني مُغروس في إناء مملوء بالماء دون تراب. بالنسبة لي، كان الأمر مختلفًا تمامًا عن إنجلترا والشرق الأوسط، وكان ذلك مدخلي إلى مفهوم النسبية.

في صباح أحد أيام الشتاء، أثناء عودتي من واشنطن العاصمة إلى نوكسفيل – تينيسي التي كنت قد انتقلت اليها، تعرضتُ مع صديق العمر جمال لحادث سيارة على الطريق السريع ونحن نسير بسرعة تقارب سبعين ميلًا في الساعة. ومرة أخرى، وجدتُ نفسي وجهًا لوجه أمام الموت. غارقًا في الدماء وبالكاد أستطيع الوقوف، حاولتُ أن أشير للسيارات المارّة طلبًا للمساعدة. استغرق الأمر بعض الوقت إلى أن توقف سائق شاحنة واستدعي سيارة إسعاف. كان ذلك مدخلي إلى تنوع ردود الأفعال وثقافة الأخلاقيات الظرفية.

أعجبت بمعجزة القارة الجديدة، ولكنني فشلت في ترسيخ أي شعور بالانتماء كما ذكرت قبل قليل. شعرت بالغربة حتى في الشقة التي كنت أعيش فيها مع صديقي جمال في ميامي التي انتهى اليها المقام. وهناك في عام 1979، شهدت إعصار ديفيد المدمِّر وأصبحت لأول مرة على دراية حقيقية بغضب الطبيعة.

بالعودة إلى الشرق الأوسط بعد أربع سنوات، التحقتُ بجامعة اليرموك. كانت تجربتي هناك متوافقة مع نصوص مقدسة ومناهج صارمة مصممة لإنتاج عمالة ومهن لثقافة استهلاكية عالمية سريعة التطور. تعرفتُ على مفهوم جديد للتعليم العالي: الجامعات كآلات إعداد عمالة للرأسمالية النيو ليبرالية الحديثة، وانحسار الآداب والعلوم الإنسانية.

شهدتُ إذلال علماء بارزين وإنهاء عقودهم بسبب آرائهم السياسية. أُجبر عميد الدراسات البنيوية العربية، وهو أستاذ من جامعة أكسفورد، على الذهاب إلى الحدود السورية دون أن يُمنح وقتًا لتغيير بيجامته البيضاء. وعومل آخرون بطرق متنوعة.

في الجامعة، عشتُ أول حب أفلاطوني في حياتي – من أول نظرة إلى أول تنهيدة وحسرة. من الفراق إلى المنقذة الرحيمة إلى أول زواج، انقضت أشهر قليلة.

أبقى اختبار الحمل، وهو أنبوب بلوري ترسبت في قعره حلقة ذهبية لامعة، الزواج حيًا لأكثر من بضع سنوات. وُلدت بناتي الغاليات سارة وأرواد ونور: بهجة أبدية ومعنىً خصيب. وضعت الخشية من "عقدة الطفولة" مؤسسة الزواج فوق الخلافات والاعتبارات الشخصية، لكنها في نهاية المطاف لم تنجح إلا في إشعال أوهام خارج إطار الزواج.

جاءت الشهوة متخفية في قناع الحب، وسرعان ما اتسعت الخلافات الزوجية لتتحول إلى صراع واعتبارات أوسع.

وصلت إيميليا، راقصة الفلكلور البلغارية، إلى عمّان مع فرقتها، بدعوة من جمعية الصداقة الأردنية البلغارية. كانت حراسة مشددة تصحب فريق التراث الشعبي، بنكهة الكي جي بي، حاضرين على المسرح.

قالت لي وهي عائدة إلى المطار مع ملائكتها الحارسين: "تجدد لقاءنا يعتمد عليك وحدك".

كانت علاقتي العاطفية الثانية الدائمة مبنية على ما افتقر إليه زواجي الأول: ألم تكن مختلفة؟ اشتركنا بمشاكل القلب وتسارعِ النبضات – وهو أساس غريب للتعاطف المتبادل. كانت تلك العلاقة الصريحة والوجودية والبوهيمية، والتي قاومتها جميع الهياكل الاجتماعية والدينية آنذاك، قد قادتها الظروف إلى حفل زفاف في عشية حداد عام ١٩٩٩، تزامنًا مع وفاة الملك حسين ملك الأردن. سعيدةً بارتداء فستان العروس الأبيض أخيرًا في سن الأربعين، سرعان ما بدأت تتحدى مرضها وعمرها: أرادت طفلًا. ومع إصابتها بمتلازمة آيزنمنغر، وارتفاع ضغط الدم الرئوي الحاد، وعيب الحاجز البطيني، أصرت على أن الله فوق كل علمٍ وخبير: لو شاء، لتجاوزت الحمل المتهور الذي مررنا به.

أصرّ طبيب قلب بارز، يحمل أعلى الشهادات العلمية ويشغل منصبًا مرموقًا في أحد المعابد المقدسة الطبية في ربة عمون، على أنها ستنجو من "الحادث" تحت إشرافه المباشر. لقد منحها "الأمل".

جلستُ على طاولة مستديرة مع أطباء آخرين، وسألته عن المخاطر. أجاب: "خطر على الجنين بنسبة 20%".

قلتُ إنني أسأل عن الأم، لا عن الجنين.

أجاب: "خطر الأم هو خطر على حياتها بنسبة 50%، لكن بإشرافي، سنتجاوز ذلك."

توقف قلب "حمزة" الصغير، كما أسمته، والذي كان قد بدأ بالتشكّل، في غرفة الإجهاض، بينما كانت تحت التخدير الموضعي (لم تكن صحتها تتحمل التخدير العام). استمر الزواج خمس سنوات، وبعدها دخل قلبها المتْعَب في هبوط لا رجعة فيه.

في سن الخامسة والأربعين، اسْلَمَت شهوتي/توأم روحي، عصفورة الدار، روحها الشفافة، النابضة بالحياة، الضاحكة، في أحضان آلة التنفس الاصطناعي أثناء معركتها الأخيرة في وحدة العناية المركزة.

بدأت المعركة الثانية فورًا: التعازي، الطقوس، القرارات.

أي الملابس يرتدون وأين يحزنون؟ أسود أم أبيض، أم شيء بين هذا وذاك مع شَكلة حمراء؟

وفقًا للتقاليد الإسلامية، يجب غسل الميت قبل دفنه (يُقال إن الشهداء لا يُغسلون لأن الملائكة تغسلهم بالماء والثلج والبَرَدْ)؛ وكثيرًا ما أتساءل عن مفهوم الشهادة، في مثل واقع هذا العالم، كم هناك من شهيد؟

فوق طاولة خشبية باردة مدد الجسد، غسلت شقيقتاها الأكبر سنًا – بيداء (اسمها يعني ساحة معركة في الصحراء) وروضة (اسمها يعني بستان في الجنة) – الجثة وجمعتا شعرها الأسود الحريري الطويل في ضفيرتين. وقفتا بجانب الطاولة، وبدأتا بتلاوة القرآن بصوت مرتفع.

بدا صِدق ذلك المشهد كما لو أنه أطفال الروضة يغنون أغنية خيالية، فـ" المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق".

خرجت الُمدَرِّسة روضة، وهي تعتبرني رجل الخطيئة، من غرفة الغسيل وبدأت تُلقي خطابها وفقًا لنسخة روايتها الإسلامية:

"لا يجوز لك المشاركة في إنزالها إلى القبر. أنتَ الآن أصبحت غريب عنها. لا يمكن إلا لقريب مُحرّم عليه الزواج منها أن يصل إلى هذا المثوى الأخير." في طريقنا إلى المقبرة الإسلامية، في مركبة بيضاء صغيرة حيث يرقد جثمانها ملفوفًا بقماش أبيض بجانبي، اتجهنا جنوبًا على نفس الطريق المؤدي إلى شواطئ العقبة الزرقاء – تلك المياه التي لطالما اشتاقت لزيارتها، لتلتقي بالأفق المفتوح المليء بالنجوم المتلألئة وتراقص ضوء القمر في الأمواج.

من خلفي، جاء صوت أجش: ابن خالها، يُبلغني:

"أخي زياد، اعلم أنه لا يُسمح لك بالنزول معي إلى القبر لأنك الآن غريب عن تغريد؛ أنا وابن أخيها فقط سَنُدليها فيه."

دهشتُ من إصرارهم على تصعيد الخلاف بيننا حتى اللحظة الأخيرة في حفرة الموت، فقلت له:

"لكنك قريبٌ غير محرمٍ عليها الزواج منه. كيف يمكنك أن تحل محلّي؟ وخلال مرضها، كانت تغريد ترفض أن يُغسلها أحدٌ غيري، أو يُدخلها إلى الحمام، أو يُدلك ظهرها ويناولها الطعام – ولا حتى أخواتها."

أجاب الرجل المكلّف بالمهمة: "خالها شيخٌ كبير، وأنا وكيله في هذه المهمة. الله يبيح ذلك."

في القبر، وبينما كانا ابن الخال وابن الشقيق يتلقيان الجثمان، كاد الرجلان أن يُغمى عليهما وصاحا بصوت واحد: "انزل، أرجوك ساعدنا قبل أن يسقط الجثمان من بين أيدينا!"

كانت تلك أول مرة أجد فيها نفسي داخل حفرة ضيقة مُجهزة لِتضُم إلى الأبد عزيزاَ على قلبي.

"لكن الآلهة شاءت أن تُلقي بالنرد، خبط عشواء، قلوبهم باردة كالجليد، بينما شخصٌ ما هنا على هذه الأرض يفقد شخصاً عزيز."

وَضَعتُ تغريد على جانبها الأيمن، كما كانت تشعر دائمًا براحة أكبر أثناء النوم، وقبّلتها وداعًا، وشعرتُ أنني تركتُ قلبي بجانبها هناك.

وتستمر الحياة ... تساءلتُ هل كان الشاعر الإنكليزي جون دون مُحقًا عندما قال: "أيها الموت، لا تتباهى، وإن وصفك البعض بالقويّ والمهيب، فأنتَ لست كذلك،" أم أن الموت فناء أبدي لا قيامة بعده.

في طريق عودتي إلى المدينة، اجتاحتني شوارع مزدحمة بالصخب والضجيج – وجوهٌ متلهفةٌ للتبادل والاقتناء، وأبواق سياراتٍ تُدوّي، وشاحناتٌ محملةٌ بالأثاث وسلال الخضراوات، وأناسٌ يصرخون ويتسابقون – تزاحم وغضب.

تمنيتُ لو كان كل ذلك الحشد معي في هدوء تلك الحفرة مطبقة الصّمتْ. ربما لو لم تنجح الطبيعة الحية كمعلمٍ لنا، فقد ينجح الموت.

ماذا عسانا أن نفعل؟ نتبع وصية البغيّ عندما كلمت أنكيدو صديق جلجامش: "إذاً، عودوا إلى دياركم، أحبوا أطفالكم، استمتعوا بالاستحمام، البسوا أزهى الحلل، تعطروا، املوا بطونكم بأطيب الطعام، تمشّوا تحت المطر، اشعروا بأشعة الشمس على وجوهكم، واضحكوا بصوتٍ عالٍ،" كما كانت تفعل تغريد. ترياق الموت هو الحياة – معنى الحياة.

ذكّرتني المصيبة بوفاتين سابقتين: أمي وأبي.

ادّعى والدي أنه رأى في منامه رجلاً مهيباً ملتحياً، واسع العينان، يرتدي ثوباً أخضراً طويلاً وعمامة خضراء، يقف عند باب داره يطلب الإذن باصطحاب أمي المريضة معه قائلاً: "وفاة / شفاء." بعد خمسة وخمسين عاماً من الزواج، بعد أيام قليلة من الحلم، رحلت والدتي عن هذه الدنيا. كانت نبيّةً من نوعٍ ما، حكيمةً بالفطرة، طيبةً للغاية وزاهدة.

لم تُحب الظلام قط؛ ولعل هذا هو سبب بقاء عينيها مفتوحتين بعد وفاتها. بَدَتَا بُنيّتين هادئتين، مطمئنتين، طيبتين، ورحيمتين كما كانتا دائماً – لكن شيئاً ما كان مفقوداً من حُجريهما، فراغ. شيءٌ مُجرَّد لا أستطيع وصفه.

بعد عدة أعوام من تلك الخسارة الفادحة، أغلق والدي الأفق الأزرق الشاسع في عينيه، هو الآخر كان مطمئناً واثقاً، لم يهاب الموت.

بدأت مع مراسم العزاء معركةٌ ذات أهواء مختلفة: الملكية والميراث.

عندما نزلتُ من الطائرة في مطار هونغ كونغ المشيّد فوق مياه البحر، غمرتني رائحة المال الطحلبية المداريّة. كنتُ قد ذهبتُ إلى هناك مع أحد إخوتي في تجارة عائلية. كان الهدف إنتاج ملابس وسراويل جينز زرقاء تحت العلامة التجارية AIM، بواسطة رجل أعمال أرمني استقر هناك، وتزوج من صينية، وتاجر في كل شيء من الألماس إلى الأحذية.

كانت الرحلة بمثابة هروب من رتابة الحياة التي كنت أمضي فيها الوقت في الترجمة تحت ضغط العمل وتعقيدات الحياة وغلاء المعيشة المتصاعد.

انتهت رحلتي، بعد عودتي ببضعة سنوات، محتجزاً في "طابق النرجس" بمستشفى الرشيد للأمراض النفسية. كان اضطراب القلق والاكتئاب الحاد قد أقعداني عن الحركة. أشرف على تشخيص حالتي وعلاجي الدكتور سرحان. أضحت توليفة كيمياء البروزاك والبيتابلوكير والديازيبام من "النعم" الدوائية للحالات النفسية.

في طابق النرجس، كان الجميع على سجيتهم – حتى الأطباء والممرضات.

التقيتُ بصحفي دفعه إدراكه العميق للواقع إلى إدمان الكحول هربًا من شلل الصحافة الحتمي في ظل قبضة حديدية في بلد يفتقر إلى حرية الصحافة. التقيتُ بقنصل دبلوماسي دفعه الكوكايين إلى بيع الآيس كريم على ضفاف بحيرة جنيف، مُحرجًا الحكومة التي احتجزته في طابق النرجس لـ "كتم" الهيجان والانفعال أثناء الفُطام. التقيت بطيّار يمني أدمن على شرب الكحول واستوجب العلاج بعد أن طار بطائرة بوينغ تحت تأثير مشروب "ضوء القمر".

باحثون اجتماعيون، وطلاب جامعيون، وأطباء متدربون، وزوار مُحرَجون، وحراس أمن، وممرضات وممرضين مُدرّبين على قمع احتجاجات المرضى؛ نساء مُحتجزات في الطابق السفلي – "طابق الأقحوان"؛ ورجل مسالم مُنح حرية التجوّل كما يشاء في الطوابق المُقفلة – لم يكن يطلب سوى سيجارة ثم يواصل رحلته الصامتة.

دخّنا الماريجوانا التي جلبها أحد المرضى الذين تحسنت حالتهم قليلاً وتمكنوا من الحصول على إجازات قصيرة في العالم الخارجي.

بعد خمسة وأربعين يومًا، مُنحتُ شهادة سلامة عقلية وأُطلق سراحي مع شهادة بروزاك الفخرية.

بعد أن تمكنت بناتي من الالتحاق بوالدتهن سهاد في المملكة المتحدة، بعد أن جاهدت لضمهم إلى جنسيتها البريطانية وانقاذ ما تبقى، وبعد فقدان تغريد، وجدت نفسي أقف أمام "طريقان متفرعان في غابة":

هل أختار أخيرًا الطريق الأكثر قسوة، من أجل البقاء؟ أصبح "أكون أو لا أكون"، المثقلة باضطراب القلق على أعتاب الخمسينيات – "شباب بداية الشيخوخة" و"السنوات الفاضلة"، كما يُقال – إما البقاء في فقر مدقع أو الهجرة على دَرْب العولمة.

لم أكن مغرماً بالجزيرة العربية ولا بمدن الملح، لكن يبدو أن جذوري الجينية للعرق السامي قادتني إلى أبو ظبي في الإمارات العربية المتحدة، بوتقة العولمة والانصهار العالمي عند درجة الغليان.

وصلت بمشاعر ومعتقدات متضاربة، قديمة وحديثة. كانت العقبة الرئيسية – إلى جانب المرض والتقدم في السن – هي كيفية غرس ذاتي الزاهدة في تربة عالم الأعمال. "حاصرني واقع لا أفهمه" واستمرت تساؤلاتي الوجودية بإرباكي.

كان قطاع العقارات، أحد مظاهر فائض النفط، المجال الذي انتهى به المطاف. تذكرتُ ماركس يتحدث عن عدم شرعية الريع لأنه عمل غير مكتسب، بينما كنتُ أجلس وأُعِد شروط وأحكام إدارة العقارات وعقود الإيجار. ماذا كنتُ أفعل هناك بحق السماء؟

شاهدتُ ألف ليلة وليلة ترتدي أزياءً عصرية. المباني شاهقة الارتفاع تتكدس فيها الشقق فوق بعضها البعض كصناديق مغلقة في كل صندوق حكاية ما. أحزنني العمال الآسيويون. ارتفاع درجات حرارة الجو والرطوبة المرتفعة قدمتا لي تصوراً عن حال العالم في المستقبل القريب بسبب الاحتباس الحراري وذوبان الجليد وارتفاع منسوب مياه البحار، بينما استمر المقاولون في زحفهم المستمر في "تبليط البحر" وبناء جزر اصطناعية وناطحات سحاب. كانت الرافعات تعلو بالبناء وتهبط بقيمة العمال.

لم يكن شعب الإمارات العربية المتحدة هو السبب؛ الإماراتيون طيبون وخلوقين، بل كان تحالف النظام الحاكم مع النظام العالمي عابر القوميات وحساباته الرأسمالية لكمية الخبز المصرّح للفرد تناولها. كان الإقصاء والشمول العالميان للشعوب والأفراد في أوضح تجلياته هناك: "ما زلتم فلاحين مطيعين مدجّنين، على حد علمي".

تفرّع طريقان في غابة، وأعترف أني فَشلتُ في بداية الطريق.

إلهة يونانية، خرافية الجمال، عينان زرقاوان كبحيرتين عذبتين في عطش لهيب صحراء العرب، أضفت "المعنى" على "العدم". تجسّدت أثينا في حياتي مجدداً، الحضارة والملاحم الشعرية والثقافة والتاريخ والفنون الجميلة الاغريقية.

تحبّ زوجها. احترمت ذلك وحاولت حمايته. أحببت زوجها، الذي لم ألتقِ به سوى مرتين، للحب والدلال اللذان كان يغدقهما عليها، أحببتهما كلاهما وسعيت جاهدًا لترويض الغريزة في داخلي وضبط جميع أنواع المشاعر بحدود. القيود والحدود المحيطة بالحب اللانهائي هي إحدى نعم التفكير العقلاني الأخلاقي.

لم يدم وجودها طويلاً في العمل لدى الشركة، بعد مغادرتها لم التقيها، لكنها من القلة الذين لا تغادر ذكراهم مخيلة الإنسان.

تركت قلبي في جبل الأولمب وعدت إلى المقهى الحزين، حاملًا صليبي على ظهري ... عدتُ، منغمسًا في حالة ذهنية مجردَّة، أتفكّر في "أقنعة الوهم"، و"حان وقت التغيير"، و"شعلة الانسجام".

كانت هذه المقتطفات من سيرتي الذاتية مهمة موضوعياً لتسليط الضوء على بعض المفاصل والمنعطفات التي أحدثت فعلا شديدا ساهم في تشكل معتقداي، وقناعاتي، ورؤيتي للحياة، والوجود.

آمال كبار

كانت "الهدف عام 2000" مجلة علمية موسوعية شاملة تصدر اسبوعياّ في مطلع السبعينات من القرن الماضي، وكنت اجمع جميع الأعداد التي صدرت، وهي غنية بالمعلومات العلمية وأخبار آخر المستجدات في حقول التكنولوجيا. زرعت هذه المجلة فينا الآمال الكبار في مستقبل واعد مزدهر يقترب من الطوباوية مع حلول العام 2000، فالهندسةُ الوراثيةُ ستحلُّ مشكلةَ الجوع؛ والهندسةُ النوويةُ ستُولّد طاقةَ الشمسِ على سطح الأرض؛ وستختفي معظم الأمراض مع تقدم الطب، والذكاء الصناعي سيتفوق على الإنسان ويجد الحلول لجميع المشاكل المستعصية على الحل، القرن الحادي والعشرون سيكون عصر الطوباويةُ التكنولوجيةُ.

مع مرور الأعوام تأرجحت توقعاتي بين صعود وهبوط، حتى انتهى إيماني بالتكنولوجيا مع الاحتباس الحراري، والخوف من "الموت بالماء"، وثقب الأوزون والجوع والمرض، و"القنابل الذكية" وحروب الشرق الأوسط وتلوث المحيطات وموت الشعاب المرجانية وانقراض الأنواع الحية والكثير من الكوارث التي أنتم على علم بها.

دمر النفط الرخيص، الذي اكتسبته الحروب، حلم تطوير طاقة الرياح والطاقة الشمسية النظيفة.

استمر تراجع بعض الإمبراطوريات وصعود أخرى، وانحرف معنى الأشياء نحو نقيضها. حشودٌ هائجة تركض وراء الربح السريع عبر منافسةٍ شرسة وزيادة فائض القيمة، وآلاتٌ تَتَغذّى على الوقود الحيوي الذي أصبح يستغل الأراضي الزراعية بلا مبالاة بانعكاس ذلك على الأمن الغذائي وجوع الآخرين.

صار الشعار "عِش ودع غيرك يموت".

آمال كبار: الهوية الهلامية

ماذا نتوقع أن ينبثق عن هذا الشعور بالعبثية في مشهد حالة العالم وحالة المعرفة اللتان أخمدتا آمال معظم سكان العالم؟

من يرضى بنقيض توقعاته؟ من يشعر بالأمان؟ من يمارس مهنة تعبر عن وجوده؟ من لا يزال يثق بالعلم والتكنولوجيا، مفتونًا بهما؟ من لا يزال يثق بالأنظمة الرأسمالية والملكية الافتراضية للمعلومات المالية، بعد أزمات الرهن العقاري وعبودية الديون؟

من لا يزال يصدق أنبياء العلم وهم يمطروننا بمواعظ إنجيل السنجيولاريتي: "لن تكون شيئًا مما أنت عليه الآن، أو مما كنت عليه من قبل"؟

هل هذ المعنى والمبنى أم العبثية والصراع مع الذات ومع الآخر والعدم بمعناه الوجودي.

كان شاعرنا محمود درويش مُحقًا حين قال، نيابةً عن الفقراء في كل مكان:

" لم نولد لنسأل: كيف تمَّ الانتقالُ الفذُّ مما ليس عضوياً
إلى العضويّ؟
لم نولد لنسأل...
قد وُلدنا كيفما اتفق
انتشرنا كالنمال على الحصيرة
ثم أصبحنا خيولاً تسحبُ العربات.."

ولم نُخلق لنجلس متفرجين على مشهد رُعب، نتأمل كيف يتَمَّ الانتقالُ الفذُّ من العضوي إلى السنجيولاريتي. ما يهمنا الآن هو العيش بكرامة.

ولم نُخلق لنحلل سيكولوجيا مفهوم الكرامة. الأمر بسيطٌ بما يكفي إذا بحثتَ عنه في قاموس المجاعة بدلًا من مختبرات الأبحاث. هل شعرتَ يومًا بلسعة الجوع وثقل إذلاله على الروح؟ أم يجب علينا استشارة علماء النخبة البحثية "للتعمق" في ذلك؟

لقد تغيرنا كثيراً، وتطور الأمر بنا إلى أن أصبح الواقع المعاصر تجسيداً حياً للتناقض مع أنفسنا ومع الآخر ومحيطنا، والمتاهة التي تحول بسببها يقين آمالنا الكبار إلى خيبة وتناقضات بين الذات ومحيطنا الأوسع، كما جاء في مفهوم جان بول سارتر الذي أسماه "النظرة" في "الوجود والعدم"، الصراع مع الذات ومع الآخر، إلى درجة وصفه للآخرين بالجحيم.

وملخص العلاقة بين الذات والآخر في الفلسفة الوجودية لسارتر هو الآتي:

(تخيل نفسك تُحدّق في شخص غريب، لنفترض أنك في مطعم. ثم تخيّل سيناريو مختلفًا تلاحظ فيه شخصًا آخر يفعل بك الشيء نفسه. كيف تشعر وتتفاعل في كل موقف؟ كما يُجادل سارتر، فإن وجود الآخرين يُغيّر عالمنا حتمًا، وحقيقة أننا لا نستطيع تغيير ذلك أو التحكم فيه دائمًا قد تكون مُحبطة للغاية. تتفاوت الطرق

التي يُغيّر بها الآخرون عوالمنا، ولكن ما هو ثابت دائمًا هو أننا لا نستطيع تجنّب بعض أشكال العلاقات معهم.

وفقًا لسارتر، فإن الآخر هو أي كيان واع يُدرَك منفصلًا عن الذات. ويشمل ذلك البشر والحيوانات، وحتى الأشياء التي يُدَرَك أنها تتمتع بنوع من الوعي أو القدرة على الفعل. السمة الأساسية للآخر هي أنه يُدرك بذاته الخاصة، وأفكاره ومشاعره ورغباته الخاصة، المنفصلة عن الذات.

اعتقد سارتر أن العلاقة بين الذات والآخر متضاربة بطبيعتها. وذلك لأن الآخر يُدرَك كموضوع وذات في آن واحد. كموضوع، يكون الآخر شيئًا يمكن ملاحظته وقياسه وتصنيفه. أما كذات، فهو شيء غير قابل للمعرفة الكاملة، إذ يمتلك تجاربه الذاتية الخاصة التي لا يمكن للآخرين الوصول إليها.

هذا الصراع بين الذاتية والموضوعية هو ما أشار إليه سارتر بـ "مشكلة الآخر". فمن ناحية، نريد أن نعرف الآخر ونفهمه، وأن نراه كموضوع يمكننا تصنيفه وتحليله. من ناحية أخرى، نُدرك أن الآخر هو أيضًا ذات، لها تجاربها ورغباتها الذاتية التي لا نستطيع الوصول إليها أو فهمها بالكامل.

من أهم تداعيات مفهوم سارتر للآخر أنه يُخالف الفهم التقليدي للذات ككيان مُستقل ومُحدد لذاته. فوفقًا لسارتر، فإن الذات في عملية تعريف مستمرة لعلاقتها بالآخر. هذا يعني أن الذات ليست مُستقلة تمامًا أو مُحددة لذاتها، بل هي دائمًا في عملية تعريف لنفسها في علاقتها بالآخرين.

ومن تداعيات مفهوم سارتر للآخر أيضًا أنه يُبرز الترابط الجوهري بين جميع الكائنات. فبينما قد نُدرك أنفسنا ككيانات مُنفصلة ومستقلة، إلا أن الواقع هو أننا جميعًا مُترابطون بطرق مُعقدة ومترابطة. فالآخر ليس مجرد كائن يُرصد، بل هو أيضًا ذات لها أفكارها ومشاعرها ورغباتها. هذا يعني أن علاقتنا بالآخر ليست مجرد علاقة مُلاحظة وتحليل، بل هي أيضًا علاقة تعاطف وفهم. يعتقد سارتر أن العلاقة بين الذات والآخر محفوفة بالصراع والتوتر. ذلك لأن الآخر يمثل تحديًا لذاتنا وشعورنا بذاتنا. بإدراكنا للآخر ككيان له رغباته وتجاربه الخاصة، نُجبر على مواجهة قيود ذاتيتنا وحقيقة أننا لسنا مركز الكون.

ختامًا، يُبرز مفهوم سارتر للآخر الترابط الجوهري بين جميع الكائنات، ويتحدى الفهم التقليدي للذات ككيان قائم بذاته ومُقرر لذاته. العلاقة بين الذات والآخر

محفوفة بالصراع والتوتر، لكنها تُمثل أيضًا مصدرًا محتملًا للتحرر والتسامي. بإدراك ذات الآخر والسعي لفهم تجاربه والتعاطف معها، نتمكن من تجاوز محدودية منظورنا، وننفتح على إمكانيات جديدة وسبل جديدة للوجود.)[3]

يقدم مفهوم "النظرة" عند سارتر إطارًا قويًا لفهم الظواهر الاجتماعية المعاصرة: في وسائل التواصل الاجتماعي وعرض الذات، تُعد منصات مثل إنستغرام وفيسبوك أنظمةً لـ"نظرة" الآخرين على نطاق واسع. يُنشئ المستخدمون نسخًا مثالية لأنفسهم، ساعين باستمرار إلى الحصول على التقدير من خلال "نظرة" الآخرين (الإعجابات، التعليقات). قد يؤدي هذا السعي إلى الاغتراب العاطفي والقلق، حيث يتوحد الأفراد مع "نظرة" الآخرين بدلًا من ذواتهم الحقيقية.

كما يُؤدي انتشار المراقبة في كل مكان، من كاميرات المراقبة إلى جمع البيانات، إلى خلق شعور دائم بالمراقبة، مما يعكس الحضور الدائم لـ"نظرة" الآخرين التي تُهدد الحرية الشخصية والاستقلالية.

ويُسلط مفهوم "النظرة" الضوء على ديناميكيات القوة في التفاعلات. في قضايا العدالة الاجتماعية وسياسات الهوية المعاصرة، من الذي يحدد "نظرة" الآخر، وكيف يُمكن للمضطهدين استعادة ذواتهم؟ تُؤطّر نظرية سارتر العلاقة بين الذات والآخر باعتبارها علاقة سياسية جوهرية، حيث تُعدّ المقاومة ضرورية لمواجهة تقدّم الآخر على أرض المرء أو حريته.

في عالمٍ زاخرٍ بالخيارات والواقع المُنمّق، يتردد صدى تركيز سارتر على الأصالة وعبءِ الحريةِ المطلقة في "الأزمة الوجودية" المعاصرة. تشجع فلسفته الأفراد على مقاومة تعريف أنفسهم فقط من خلال الأدوار الاجتماعية أو نظرة الآخرين إليهم، وبدلًا من ذلك، يتبنّون مسؤوليتهم في خلق معنى وهويتهم بأنفسهم.

نظرية سارتر عن "النظرة"، تُمكننا من فهم ودراسة الطرق المعقدة التي تؤثر بها التكنولوجيا والبنى الاجتماعية الحديثة على هوية الفرد وحريته اليوم.

---

[3] ملخص مترجم من موقع: فيلو–نوتس **Philo–Notes**

سمّ تحطم الآمال الكبار ما شئت: الفردوس المفقود، التوازن المفقود، العولمة، الرأسمالية، الشيوعية، الدين، التطرف، الاختلال.

كل ما نقوله هو: أعيدوا التوازن.

ونردد مع شاعرنا محمود درويش نفحات من الأمل:

تُفَّاحةٌ للبحر ، اِمرأةُ الدم المعجون بالأقواس،
شطرنج الكلامْ،
بقيَّةُ الروحِ، استغاثاتُ الندى،
قَمَرٌ تحطَّمَ فوق مصطبة الظلامْ
بيروتُ. والياقوتُ حين يصيح من وهج على ظهر الحمامْ
حُلُمٌ سنحملُهُ. ونحلمه متى شئنا. نعلِّقهُ على أعناقنا
بيروتُ زنبقةُ الحطامْ
وقُبلةٌ أولى. مديحُ الزنزلخت معاطف للبحر والقتلى
سطوحٌ للكواكب والخيامْ
قصيدةُ الحجر. ارتطامٌ بين قُبَّرتين تختبئان في صدرٍ...
سماءٌ مُرَّةٌ جلستْ على حَجَرٍ تفكِّرُ،
وردةٌ مسموعةٌ بيروتُ. صوتٌ فاصلٌ بين الضحية والحُسامْ
وَلَدٌ أطاح بكل ألواح الوصايا
والمرايا
ثم نام ... ثم نام

ظلمات، ربما إلى الأبد – حدود المعرفة في العلم والدين

على الرغم من التقدم المذهل في الفيزياء، وعلم الكونيات، والتكنولوجيا الحيوية، والذكاء الاصطناعي، والاتصالات العالمية – وعلى الرغم من أن العالم أصبح الآن مثل كائن حيّ واحد نابض بالحياة – إلا أن الأسرار الجوهرية التي طاردتها البشرية منذ آلاف السنين لا تزال حاضرة.

نعرف أكثر، لكن فهمنا أقل. نعمل أسرع، لكننا لا نتعمق في الفهم. نصف الكون بدقة رياضية، ومع ذلك يبقى جوهر الوجود محجوبًا.

لا تزال الثنائيات القديمة قائمة: الخلق مقابل النشوء والارتقاء الطبيعي؛ العقل مقابل المادة؛ الإرادة الحرة مقابل الحتمية؛ الله مقابل الصدفة. لا تزال هذه الثنائيات الضدية بلا حل – بل أُعيدت صياغتها بمفردات أكثر تفصيلاً.

توقع العالم الحديث من العلم أن يُقدم الحل الذي عجز الدين عن تقديمه. لكن العلم، بعد أن بلغ أقصى درجات التقدم، يصل الآن إلى نفس الاعتراف الذي صرحت به الأديان منذ زمن بعيد: هناك حدود للمعرفة لا يمكن للبشر تجاوزها. الحقيقة غامضة في جوهرها، ويبدو أنها ستبقى كذلك إلى الأبد.

1. الراية البيضاء للعلم

اعتقد أينشتاين ذات مرة أن معرفة أسرار الكون ستتحقق في نهاية المطاف. بعد قرن من الزمان، قلبت الفيزياء نفسها هذا التفاؤل رأسًا على عقب.

الطاقة المظلمة: الصدمة

التمدد المتسارع للكون – وهو اكتشاف لم تتنبأ به أي نظرية – حطم علم الكونيات.

اعترف الفيزيائي إدوارد ويتن قائلاً:

"إذا كان الثابت الكوني صحيحًا، فهو أبسط فكرة – ومع ذلك لا يوجد له منافس قوي. إذا كان خاطئًا، فكل الرهانات خاسرة."

هذا ليس انتصارًا، بل هو تواضع مُرَكَّبْ.

نعلم الآن:

95% من الكون غير مرئي، وغير قابل للرصد، وتعتمد القوانين الطبيعية على طاقات فراغية مجهولة vacuum، وربما يكون كوننا واحدًا من احتمالات لا تُحصى من الأكوان الغير قابلة للرصد، بينما تجد الفيزياء نفسها تصف نظامًا غير مرئي لا تستطيع تفسيره. أما نظرية الآفاق فتنص على أن بداية الكون لن تُدرك لأن المادة الأقدم من الانفجار العظيم لا يمكن أن نرصدها، فإن أصل الكون، بحكم تعريفه، غير قابل للفهم. ليس مجازيًا، بل رياضيًا، وصل العلم إلى حدٍّ يُحاكي الفكرة الغامضة عن "البداية الخفية".

التطور، النشوء والارتقاء الطبيعي مقابل الخلق – ثنائية بلا حل

التطور يُفسر التكيف، لا الأصل. الخلق يُفسر الأصل، لا الآلية.

تكشف البيولوجيا الجزيئية الحديثة ما يلي: الحمض النووي (DNA) شيفرة رمزية، قواعده تعمل مثل النحو في اللغة، منطقه يسبق تركيبه الكيميائي، كما يكتب علماء السيمياء الحيوية: "تعمل الشيفرة الوراثية كنظام إشارات".

وهكذا، لا يمكن اختزال المعلومات إلى مادة، ولا يمكن للصدفة تفسير النظام الرمزي تفسيرًا كاملًا، وفي الجهة المقابلة لا يمكن للتصميم الذكي تفسير التكيّف تفسيرًا كاملًا. لا تزال هذه الثنائية قائمة.

حتى ريتشارد داوكينز، كبير الملحدين، صرّح في مقابلة مع بن شتاين عام ٢٠٠٨ بإمكانية وجود تصميم ذكي، فقد قالها بكل وضوح: "هناك بصمة للتصميم في علم الأحياء الجزيئي... قد تظهر على النحو التالي. قد يكون ذلك في وقت سابق، في مكان ما من الكون، تطورت حضارة، ربما بوسائل داروينية، إلى مستوى عالٍ جدًا من التكنولوجيا، وصممت شكلًا من أشكال الحياة التي زرعتها على هذا الكوكب. هذا احتمال وارد، بل مثير للاهتمام. وأعتقد أنه من الممكن أن تجد دليلًا على ذلك، إذا نظرة إلى الخلايا D في الكيمياء الحيوية وعلم الأحياء الجزيئي، فقد تجد بصمةً لمصمم ما. وقد يكون هذا المصمم ذكاءً أعلى من أي مكان آخر في الكون."

كائنات فضائية، من الفضاء الخارجي. أو بشكل أكثر تحديدًا، من "مكان ما" في الفضاء، في "زمن سابق" من التاريخ. ربما. يفترض.

يُدلي بتصريح علّق عليه بن شتاين: "إذن، لم يكن البروفيسور داوكينز ضد التصميم الذكي. بل ضد أنواع معينة من المصممين، أي الله."

الكائنات الفضائية نظرية علمية معقولة! لكن نوعًا مختلفًا من الكائنات المتسامية، مثل الله، فهي غير معقولة.

الفردية مقابل الجماعية – الاختلال النفسي

علم النفس يُعلي من شأن الفرد؛ بينما يتطلب الواقع العالمي رفاهية جماعية. هذا التفاوت يُنتج: استياء وإقصاء جماعي وتطرف سياسي وتفتت ثقافي. تتوسع المعرفة، وتتقلص الحكمة. تتفتت الحضارة لعدم وجود إطار تكاملي.

تصرفات العصر الحديث: للعلم الآن أصولياته الخاصة: القنبلة الهيدروجينية، والاختزالية المتطرفة، وأسطورة العصمة العلمية.

كلا النوعين من التطرف ينبع من نفس الجذر: اليقين دون تواضع.

عندما يُصبح العلم خطرًا على الحضارة

لم تعد الخطورة في الأسلحة النووية والبيولوجية وحدهما، بل حتى أنواع معينة من البحث العلمي أصبحت تُشكل تهديدًا للبشرية. ومن الأمثلة على ذلك البحث عن بوزون هيغز والمادة المظلمة في مصادم الهدرونات LHC الكبير قرب جنيف. أثارت هذه الحقيقة المُقلقة معارضة كبيرة من علماء بارزين، افترضوا أن مصادم الهدرونات الكبير يُمكن أن يُولّد ثقوبًا سوداء مجهرية قد تنمو وتبتلع الكوكب بأكمله. عندما استُشير الفيزيائي فرانك ويلتشيك، الحائز على جائزة نوبل، رفض هذا الخطر تحديدًا، مُدّعيًا أن هذه الثقوب السوداء الصغيرة ستتبخر على الفور. ومع ذلك، أعرب عن قلقه من احتمالية تشكّل "الجسيمات الغريبة" – وهي

جسيمات ثقيلة يُمكنها جذب كل المادة على الأرض وضغطها. ثم ضحك قائلًا إنه يُشكك في تتكوّن مثل هذه الجسيمات.

على الرغم من هذه التهديدات، تم تجاهل المخاطر الوجودية والبيئية، واستمر المشروع بكلفة تجاوزت عشرة مليارات دولار. يُحرك الضغط السياسي الطموح العلمي؛ تُنفق المليارات بينما تُهمّش الأخلاقيات. لماذا يغيب الجمهور عن صنع القرار بينما قد يُحكم على مصير القرار بالفشل على يد تحالف بين رجال الأعمال والعلم؟ الحقيقة الأعمق هي أن العلم غالبًا ما يسعى إلى الاستعراض للحفاظ على سلطته. يعود صنع الأساطير – هذه المرة من خلال مسرعات الجسيمات، ومختبرات علم الأحياء الجيني، وتقنيات النانو، بدلًا من المعابد القديمة.

الأفكار الخطيرة الجديدة

اليوم، لم تعد الأفكار الخطيرة مجرد نظريات، بل أصبحت مادية. يُعيد الذكاء الاصطناعي صياغة الاقتصاد والهوية؛ ويُغيّر تعديل الجينات الأنواع؛ وتُنتج البيولوجيا التركيبية كائنات حية جديدة ولقاحات مُهندَسة بيولوجيًا؛ وتتفاعل تكنولوجيا النانو مع عالمنا بشكل غير متوقع. هذه الاختراعات تتجاوز الفهم البشري. إنها لا تتحدى المعتقدات، بل تتحدى الطبيعة نفسها. لقد ابتكرنا أدوات لا يمكننا التنبؤ بعواقبها.

لم يكن من المفاجئ إذن أن يسمح الاتحاد الأوروبي فورًا باستخدام الكائنات المعدلة وراثيًا GMO في اللقاحات لمكافحة جائحة كوفيد19، على الرغم من الحظر المسبق على الكائنات المعدلة وراثيًا في جميع أنحاء الاتحاد الأوروبي. وقد تم تطعيم مئات الملايين من الناس.

هذا هو المعنى الجديد للظلام.

العلوم أيضاً أصبح لديها "إله الفجوات" وحُجّتُه نظرية الأوتار

في محاولة لتفسير الانفجار العظيم وتوحيد فيزياء الكم مع النظرية النسبية – مع إنكار إمكانية وجود خالق صاغ الكون من تفرّد متناهٍ في الصغر (singularity) توسع إلى زمكان مُضبوط بدقة – تفترض نظرية الأوتار وجود واقع متعدد الأبعاد. تصف هذه النظرية أوتارًا مهتزة في فضاءات رياضية مجرّدة ذات أبعاد تتراوح بين 9 و 26 بُعدًا زيادة على أبعاد المكان والزمان، وتريليونات

الأكوان الأخرى، أو ما يُعرف بالكون المتعدد **multiverse** – في هذا النموذج، لكل كون قوانينه وفيزياء الخاصة، وكوننا هو ببساطة كونٌ تصادف وجود ظروف وثوابت كونية تسمح بالحياة – احتمال واحد من بين تريليونات الاحتمالات. وهكذا، يصبح علم الكونيات ممكنًا. أو كما قال الفيزيائي ليونارد سسكيند مازحًا: "هذا الكون خاصتنا تحت تأثير المخدر".

حلت الرياضيات محل الأساطير، لكن الغموض حل محل الوضوح.

الخلاصة – أفق الجهل وقانون التوازن.

عندما يبلغ العلم والدين حدودهما، وعندما يقف كل منهما أمام المجهول في صمت، تظهر حقيقة بسيطة: اليقين الوحيد هو عدم اليقين. ومع ذلك، يبقى مبدأ أساسي واحد جلي الوضوح: حقيقة التوازن.

بدون التوازن تنهار الفيزياء، وتنهار الأحياء، وتنهار البيئة، وينهار الوعي، وتنهار الحضارات عندما تفشل ثنائياها الجدلية.

إذا لم نتمكن من معرفة الواقع معرفةً كاملة، فإن التوازن يصبح الأساس الوحيد للأخلاق والمعنى والبقاء. لا يمكننا معرفة ماهية الوجود. لكن يمكننا معرفة ما يتطلبه الوجود: التوازن. هذا هو القانون الكامن وراء كل القوانين – محور التاريخ البشري.

وقف القرنان العشرون وأوائل القرن الحادي والعشرين أمام البشرية كمفارقة: لم نعرف قط هذا القدر من المعرفة وهذا القدر من تعذر الفهم.

في هذا الجوّ – من اليقينيات المحطمة والعدمية المفرطة الثقة – بَدأتْ تجاربي الحياتية، وذكرياتي الدينية، وشغفي العلمي، وجروحي الشخصية، تتمحور حول سؤالٍ مُلِحٍّ واحد:

إذا لم يكن الدين ولا العلم قادرين على إعطائنا إجاباتٍ نهائية، فما الذي يُمكن الوثوق به – إن وُجد –؟

لم تأتِ الإجابة في اللاهوت أو المعادلات. بل جاءت كاعترافٍ هادئٍ وعنيد: ما ينجو، ينجو بالتوازن. ما ينهار، ينهار بفقدانه.

يُعلّم الجسد هذا. يُعلّم الكوكب هذا. تُعلّم الحضارات هذا. حتى عقلي المُتصدّع علّمني هذا.

ولكن إذا كان كل شيءٍ يعتمد على التوازن، فعلينا أن نواجه حقيقةً أشدّ قتامة: نحن نعيش في عصرٍ يُدمّر التوازن بشكلٍ مُمنهج بينما يتظاهر بعبادة التقدم. لذا، قبل الانتقال إلى نظريات الوعي وعلم الكونيات، يجب أن نتوقف عند الشفق حيث أُجبر كلٌّ من الدين والعلم على رفع رايةٍ بيضاءٍ هادئة. هذا أفق الفصل التالي.

الفصل الثاني: فيزياء الميتافيزيقا

الجزء الأول – التوحيد وبنية التوازن

منذ اللحظات الأولى للوعي الإنساني بالذات، أدركنا فكرة "الواحد" كمحور صامت كامن خلف أفكارنا. نشأت الحضارات على أساطير آلهة متعددة، إلا أن كل تقليد روحي انجذب في النهاية نحو حَدْس أعمق – وهو أن وراء تعدد الأشكال يكمن نظام أساسي واحد، وجود مُوحّد، توازن أساسي يحفظ تماسك الوجود.

التوحيد (37) ليس مجرد إيمان بإله واحد، بل هو إدراك أن الواقع نفسه مبني على الوحدة – وأن الكون والوعي والأخلاق وبنية الحياة ذاتها تخضع لتوازن أساسي، وتناظر منسوج في طبيعة الوجود.

يستكشف هذا الفصل تلك البنية الخفية. إنه ليس تعريفًا للعقيدة. إنها قراءة ميتافيزيقية للتوحيد، تكشف كيف تُنير فكرة "الواحد" (37) الفيزياء والأخلاق والوعي والبيئة والاستقرار الوجودي للحضارات.

1. التوحيد، في جوهره، هو فلسفة التوازن.

حَدْس الوحدة: قواعد إنسانية عالمية

قبل اللاهوت، وقبل النصوص المقدسة، وقبل الأديان المنظمة، أدرك العقل البشري الوحدة في وحدة السماء، في تشكيل عقولنا للعالم من حولنا، وانعكاس عالمنا الداخلي عليه وتسميته بالواقع، وإدراك النظام والأنماط في نجوم متلألئة متناثرة عشوائيًا نسميها الأبراج الفلكية؛ وفي الفصول المترابطة التي تتكامل في دورة سنوية واحدة، في وِحدة الين واليانغ للحياة والموت، في وِحدة السبب والنتيجة، وفي الذات، لبناءٍ المعنى.

مفهوم "الواحد" ليس مستوردًا من الدين إلى العالم، بل مُستخرج من العالم إلى الدين. إنه واضح في الطبيعة، وقد رسّخ في أدمغتنا لنبني علاقة إدراكية متبادلة بين العالم وأنفسنا، تنعكس في العلم والأخلاق والحضارة. كل تقليد توحيدي يعبر عن هذا الحَدْسْ:

اليهودية: "رب واحد"، تربط وحدته الخلق بنظام أخلاقي. المسيحية: "إله واحد"، تتجلى وحدته من خلال الحب والتجسد. الإسلام: "قل هو الله أحد".

وحدة مطلقة لدرجة أن الانقسام داخل الإلهي ينتهك نسيج الواقع. يصف القرآن الكريم الوحدة/الوحدانية والله بأنه خالق التوازن الكوني ببراعة:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

القرآن الكريم 67: 3-4

"وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ"

القرآن الكريم 55: 7-9

التوحيد ليس مجرد إيمان، بل هو تحذير كوني: إذا اختلّ الْمِيزَانَ تداعى البُنيان. هذا المبدأ هو الأساس الميتافيزيقي لوجودنا بأكمله.

2. التوازن قانون للكون

مبدأٌ راسخٌ وعميقٌ مُتأصلٌ في نسيج الواقع: أن كل نظام مستدام ينشأ من حالة توازن. الذرات نفسها موجودة لأن القوى الكهرومغناطيسية تحقق توازنًا مثاليًا، تمامًا كما تولد النجوم من التعارض الثابت بين الجاذبية والضغط. يمتد هذا المبدأ إلى النظم البيئية، التي تبقى على قيد الحياة من خلال توازن الحيوانات المفترسة والفريسة، وإلى العقل البشري، حيث يَحُلّ الوعي من توازن الإثارة العصبية والتثبيط، وحتى إلى المجتمعات، التي تصمد من خلال التوازن الدقيق بين الحرية والمسؤولية. وبالتالي، فإن كل انهيار – سواءً كان ماديًا أو بيولوجيًا أو حضاريًا – يسبقه الحدث الكارثي نفسه: تمزق هذا التوازن الجوهري. وهكذا، فإن إصرار التوحيد القديم على الوحدة ليس مجرد لاهوت بدائي، بل هو انعكاس ميتافيزيقي لحقيقة علمية أساسية: التعدد دون توازن يُنتج فوضى، بينما الوحدة دون تنوع تُنتج ركودًا. يتطلب الكون كليهما، ولكن بتناغم. في هذا السياق، لا يرمز "الواحد" الإلهي إلى مفردة عددية، بل إلى المبدأ الأسمى للتماسك الكوني.

وإذا لم يكن الاتزان مجرد حالة فيزيائية، بل ضرورة بنيوية–إذا كان يسبق الأخلاق والمعنى والتماسك–فلا بد أن يكشف عن نفسه لا في الحياة والمجتمع فحسب، بل حتى في أكثر مجالات المعرفة الإنسانية تجريدًا. وليس هناك مجال يُظهر هذا بوضوح أشد من علم الكونيات الحديث.

فالكون، كما يُقال لنا، تحكمه قوانين. لكن حين تفشل هذه القوانين في حفظ التماسك، وحين تنهار المعادلات تحت وطأة قصورها، يحدث أمر لافت: تُخترع وقائع جديدة–لا لأننا رأيناها، بل لأن النظام بدونها لا يعود قابلاً للفهم. هذه ليست ثغرة في العلم. إنها أصدق اعترافاته.

3. الاتزان الكوني واختراع اللامرئي

يخبرنا علم الكونيات الحديث أن ما يقرب من خمسةٍ وتسعين في المئة من الكون غير مرئي. لا يُصدر ضوءًا، لا يُلمس، ولم يُرصد مباشرةً في أي تجربة. ومع ذلك، فهو يهيمن على معادلاتنا، ويشكّل نماذجنا، ويوجه توقعاتنا. نسمّيه المادة المظلمة والطاقة المظلمة. توحي هذه التسميات بالاكتشاف، لكنها في الحقيقة تخفي أمرًا أدق: ليس اليقين، بل الضرورة.

لم تولد هذه المفاهيم لأننا رأيناها، بل لأن الكون، من دونها، لا يعود متماسكًا. فهي لا تشير فقط إلى جسيمات مفقودة، بل إلى مبادئ مفقودة. ولا تسألان فقط: ماذا يوجد؟ بل تسألان: لماذا الاتزان ضروري أصلاً؟ لماذا يبدو أن الكون يطالب بالتماسك؟ لماذا يقاوم التفكك؟ لماذا يعاقب اللاتناظر بالانهيار؟

فالمجرات تدور بسرعة أكبر مما تسمح به قوانين الجاذبية المعروفة. والكون لا يتمدد فحسب، بل يتسارع تمدده، مخالفًا كل توقعات التباطؤ الكوني. تتشكّل البُنى حيث لا ينبغي لها أن تتشكّل، وتستمر حيث كان ينبغي لها أن تنهار، وتتماسك حيث كان ينبغي لها أن تتفكك. أمام هذه الاختلالات، فعل العلم ما فعله الفكر الإنساني دائمًا: أدخل مُثبّتات.

المادة المظلمة تُعيد الاتزان الجاذبي.

الطاقة المظلمة تُعيد الاتزان الكوني.

لم تكن هذه المفاهيم إجابات أولاً، بل كانت إصلاحات أولاً. وهذا لا يجعلها خاطئة. لكنه يجعلها كاشفة فلسفيًا .فهي تُظهر لنا أن العقل الإنساني، حين يُهدَّد التماسك، لا يقبل الفوضى–بل يخترع بنية.

في علم الفلك القديم، أُضيفت الأفلاك التدويرية (epicycles) إلى نماذج حركة الكواكب للحفاظ على الانسجام. لقد نجحت. تنبأت بالحركة. أنقذت السماء من الاضطراب. لكنها لم تكن أساسية. كانت سقالات–ضرورية، فعالة، ومؤقتة.

وقد تكون المادة المظلمة والطاقة المظلمة أفلاكنا التدويرية الحديثة.

فهما ليستا بالضرورة أوهامًا. وقد تمثلان ظواهر حقيقية فعلًا. لكن وظيفتهما الأولى ليست أنطولوجية–بل استقرارية. إنهما توجدان أولًا بوصفهما بُنى تحفظ الاتزان، لا بوصفهما كيانات معروفة مباشرةً. وهذا التمييز جوهري.

قد يأتي يوم تُقاس فيه المادة المظلمة، وتُعزل، وتُعرَّف. وقد تذوب في نظريات جديدة للجاذبية أو للزمكان أو للانبثاق. لكن مهما كان مصيرها، ستظل شاهدًا على حقيقة أعمق:

حين ترتجف البنية، يتدخل الفكر.

وحين يتهدد المعنى، يُخترع الاتزان.

وحين يُعرض التماسك للخطر، لا يكتفي الإنسان بالملاحظة–بل يُثبّت.

بهذا المعنى، ليست المادة المظلمة والطاقة المظلمة مجرد مفاهيم كونية. إنهما تعبيران عن اندفاع معرفي كوني: رفض الإنسان قبول كونٍ لا معنى له.

ما يظهر هنا بلغة علم الكونيات، سيظهر لاحقًا بلغة الأحياء، والأخلاق، والسياسة، والوعي. فالنمط لا يتغير. الذي يتغير هو المقياس. كلما اختلت الأنظمة، اختُرعت مُثبّتات جديدة. وكلما انهار التماسك، وُلدت معانٍ جديدة. وكلما هُدِّد الوجود بالتفكك، أعاد الاتزان فرض نفسه. وهكذا، فالأتزان ليس مجرد حالة فيزيائية. إنه مطلب ميتافيزيقي. وهذا المطلب–لا أي جسيم أو حقل أو قوة بعينها–هو ما سيوجّه بقية هذا البحث.

ليس الاتزان حالة طارئة، ولا ثمرة لاحقة للوجود، بل هو شرطه البنيوي الأول. فالوجود لا يُمنح أولًا ثم يُنظَّم لاحقًا، بل لا يُسمح له بالظهور أصلًا إلا إذا كان قابلًا للتماسك. وما لا يستطيع أن يحافظ على حد أدنى من الانسجام، لا يستمر، ولا يُدرك، ولا يُسمّى.

من هنا، لا ينبغي أن نفهم الاتزان بوصفه توازنًا ميكانيكيًا، بل بوصفه مطلبًا ميتافيزيقيًا سابقًا على المعنى، وعلى القيم، وعلى التفسير. إنه ليس جوابًا على سؤال: كيف تستقر الأشياء؟ بل هو الشرط الذي يسمح للأشياء أن تكون.

ومن هنا، يجب أن ننتقل إلى السؤال التالي:

إذا كان الاتزان شرط الوجود، فكيف يعمل داخل التجربة الإنسانية؟ كيف يظهر في الأخلاق؟ في الهوية؟ في السلطة؟ في المعنى؟ في الخوف؟ في الأمل؟

4. التوحيد: فيزياء الوحدة الإلهية

يُعبّر مبدأ التوحيد الإسلامي، أو الوحدانية الإلهية، عن وحدة تُشكّل أساس الواقع ومصدرًا للقانون الأخلاقي. وهذا ليس مجرد تفرد عددي، بل مبدأ عميق وديناميكي. وجوديًا، يفترض التوحيد وجود مصدر واحد أساسي للوجود كله – مفهوم يجد صداه في الفيزياء من خلال وحدة المادة والطاقة، واندماج المكان والزمان، وشبكة المجالات الكمومية المترابطة. أخلاقيًا، يُرسي التوحيد محورًا موحدًا تنبع منه كرامة الإنسان، والعدالة، والمساءلة، تمامًا كما يُوحّد وعي واحد الإدراكات المتباينة، وقوانين طبيعية متسقة تحكم الكون بأسره. في هذا السياق، لا يُعارض التوحيد العلم، بل هو سلفه الفلسفي؛ إنه الشعر الميتافيزيقي الذي استبق التماثل الكوني الذي يصفه العلم الآن رياضيًا.

5. التوازن كأساس للأخلاق

إذا كان الواقع مبنيًا أساسًا على التوازن، فلا يمكن للأخلاق أن تكون تعسفية؛ فهي ليست مجرد بناء ثقافي، بل مبدأ ينبثق من بنية الوجود ذاتها. نرى هذا المبدأ يتجلى في كل مجال: العدالة توازن اجتماعي، والسلام توازن سياسي، والصحة توازن بيولوجي، والحكمة توازن نفسي، والإيمان توازن روحي. وبالتالي، أينما حُفظ التوازن، ازدهرت الأخلاق والرفاهية؛ وأينما انتُهك، تبعته المعاناة والتفكك لا محالة. في هذا الإطار، لا يفرض التوحيد الأخلاق من أعلى، بل يكتشفها مكتوبة

في نسيج الخلق. إن الحضارة التي تنتهك هذا التوازن – من خلال القمع أو الجشع أو الأنا – تنهار ليس كشكل من أشكال العقاب الإلهي، ولكن لأنها تناقضت جوهريًا مع طبيعة واقعها. لذلك، فإن الوصية الأخلاقية "لا تنتهك التوازن" هي أكثر بكثير من مجرد تفضيل لاهوتي؛ إنها ضرورة بقاء لأي كائن واعٍ.

الواحد والمتصدّع: التوحيد توازن حضاري

في الفكر التوحيدي، يُعدّ الشركُ التجاوزَ النهائي – وهو أبعدُ بكثير من عبادة الأصنام، إنه تجزئة المعنى نفسه. هذا انقسامٌ ميتافيزيقي: استبدال الحقيقة الموحدة بحقائق جزئية، ورفع الأنا فوق التوازن، وخلط الوسائل بالغايات من خلال تأليه السلطة أو الثروة أو القبيلة. يتجلى هذا التشرذم الداخلي للروح حتمًا في انهيار مجتمعي، يعكس الانقسام الداخلي ظاهريًا. نشهد هذا عندما تتسع الفجوات الطبقية، وتتفكك الهويات إلى صراعات، وتتدهور المؤسسات، وتؤدي القيم المتنافسة إلى تآكل الشعور المشترك بالمعنى. ردًا على ذلك، يطرح التوحيد "الواحد" ليس كمجرد عدد، بل كبنية أخلاقية لا غنى عنها للحضارة. إنه المبدأ المستقر لحقيقة واحدة، وكرامة إنسانية موحدة، ومعيار أخلاقي متماسك، وعدالة عالمية، ومعنى، وجودي أساسي واحد. وسواء اعتُمد هذا الالتزام بالوحدة من خلال الإيمان أو الفلسفة، فهو أساس التوازن غير القابل للتفاوض – الترياق الوحيد للفساد الناتج عن التشرذم.

الواحد والتعدد: انسجام لا محاور

غالبًا ما يُساء فهم التوحيد على أنه إنكار للتعدد. في الواقع، هو يؤكد على التعدد – ولكن في ظل حكم الوحدة. التعدد بدون وحدة فوضى. الوحدة بدون تعدد طغيان. التوازن هو الوسط المقدس. لهذا السبب يقدم علم الكونيات الإسلامي الوجود كـ "آية": كل جزء يشير إلى الكل. التنوع ليس انحرافًا عن الوحدة؛ إنه تعبير عن الوحدة. الواحد ليس مجرد مصدر الوجود – إنه قانون الوجود. فهم التوحيد هو فهم فيزياء الانسجام. إن انتهاكه يعني الخروج عن سياق بنية الوجود. التوازن ليس أمرًا دينيًا، بل هو شرط لاستمرارية الحياة، والعقل، والأخلاق والحضارة.

الأحادية الفلسفية والفيزياء الحديثة

وَجَدَت الفكرة الفلسفية القديمة القائلة بأن "الكل واحد" (الأحادية) صدىً في الفيزياء النظرية الحديثة.

في نظرية التشابك الكمي، يُفسر البعض هذه الظاهرة على أنها توحي بأن الكون بأكمله قد يكون نظامًا كميًا واحدًا متشابكًا، حيث تكون الأشياء التي تبدو منفصلة مترابطة جوهريًا.

الكون ككل: تشير بعض النماذج المعاصرة، مثل "مبدأ الوحدة" في الفيزياء النظرية، إلى أن البنية الداخلية لأي كيان مادي تتكون من نفس المكونات الأساسية لترابطاته، مما يشير إلى واقع أساسي موحد. نظريات كل شيء (TOE): من الأهداف الرئيسية المستمرة في الفيزياء النظرية البحث عن "نظرية كل شيء" أو نظرية موحدة كبرى (GUT). تهدف هذه النظريات إلى توحيد جميع القوى الأساسية في الطبيعة (الجاذبية، الكهرومغناطيسية، والقوتين النوويتين القوية والضعيفة) رياضيا في إطار واحد متماسك، يعبر عن وحدة فيزيائية عميقة لجميع التفاعلات.

الجزء الثاني – المُجَرَّدْ المشترك

حيث يلتقي العلم والتصوف والوعي

هناك نقطة – متناهية الصغر، خفية، لكنها مشعة بلا حدود – يلتقي فيها العلم والفلسفة والروحانية. هذه النقطة هي ما أسميه " المُجَرَّدْ المشترك"، الجوهر المشترك للمعرفة الإنسانية جمعاء. على الرغم من التعبير عنها بلغات مختلفة، ورموزها المختلفة، واكتشافها بطرق مختلفة، إلا أن هذه الحقيقة المجردة واحدة: الواقع واحد. تجلياته متعددة. والوعي هو الجسر. يصف العلم "الواحد" من خلال المعادلات. يصف الدين "الواحد" من خلال الرموز. يصف الشعر "الواحد" من خلال الاستعارات. يصف التصوف "الواحد" من خلال الإدراك المباشر. إنها ليست قصصًا متنافسة عن الكون، بل هي لهجات مختلفة للغة المصدر نفسها.

الوردة التي لا تُشَخَّص

"عبير الوردة ليس جزءًا عضويًا من بنيتها." – محمود درويش.

تشريح الوردة هو تدمير الجمال الذي نسعى لفهمه. القصيدة كالوردة، عندما يُشرّحها الناقد الأدبي، تفقد عبيرها. وينطبق الأمر نفسه على الوعي، والحب، والزمن، والله، والمعنى، والوجود. يستطيع العلم وصف البتلات. تستطيع الفلسفة تتبع السياق. يستطيع الدين استشعار العطر. يستطيع الشعر التعبير عن الزهرة. يصبح التصوف الزهرة نفسها. لفهم الواقع، يجب أن نحافظ على الوردة وعبيرها – القابل للقياس وغير القابل للقياس – دون اختزال أحدهما في الآخر. هذا هو " المُجَرَّدْ المشترك": نقطة التقاء الوضوح التحليلي والمعنى الحَدْسي.

المنظور المزدوج: بناء الجملة ودلالات الواقع

ينتمي كل وصف للواقع إلى إحدى عائلتين متكاملتين، وهما زاويتان مختلفتان لنفس الواقع الكامن (مثل الجسيم والموجة):

أ. بناء الجملة – البنية القابلة للقياس

هذه هي لغة الفيزياء والرياضيات والعلوم. إنها تُجسّد الجوانب الكمية: الكمية، والقوة، والتناظر، والحفظ، والاحتمالية. يُخبرنا النحو بما يفعله الكون.

ب. علم الدلالة – المعنى الخفي

هذه هي لغة الوعي والحَدْسْ والقيمة. إنها تُجسّد الجوانب النوعية: الاستعارة، والرمز، والقيمة، والغرض، والأخلاق. يُخبرنا علم الدلالة بما يعنيه الكون.

المُجَرَّدْ المشترك هو إدراك أن النحو والدلالة شكلان من نفس الحقيقة الكامنة. لا يُمكن قياس الحب بمسطرة، ولا وصف الجاذبية باستعارة، لكن كلاهما موجود.

العلم يُعيد اكتشاف الخفي

أصرّت المادية الغربية على أن ما يُمكن قياسه فقط هو المهم، لكن علم القرن العشرين حطّم هذا اليقين، مُجبرًا على إدراك أن الكون أكثر تجريدًا وميتافيزيقيًا مما كان يُعتقد سابقًا.

كشف الاكتشاف العلمي عن الطبيعة

فيزياء الكم: عوالم لا تُرى، بل تُستدل فقط (موجات الاحتمال، والتفاعلات غير المحلية).

النسبية العامة: نسيج الزمكان كبنية هندسية مرنة. **

نظرية المجال: استبدال المادة بحقول غير مرئية ومهتزة.

علم الكون: تُشكل المادة المظلمة والطاقة المظلمة 95% من الكون (القوى الخفية).

كلما تعمق العلم، ازداد تجريده. يتحدث الفيزيائيون اليوم عن مفاهيم مثل المتشعبات متعددة الأبعاد والأكوان المتعددة. تحولت الواقعية العلمية حتمًا إلى تصوف علمي، بعد أن وصلت إلى حدود "ما لا يُوصف" حيث "كان الصوفيون في انتظارهم".

**مصطلح "نسيج الزمكان" هو استعارة علمية شائعة، وأداة تساعد على فهم المفهوم المُجَرَّدْ للجاذبية. يُستخدم لوصف الزمكان، وهو نموذج رياضي رباعي الأبعاد يوحد أبعاد المكان الثلاثة وبعدًا واحدًا للزمان في سلسلة متصلة واحدة. في

الفيزياء، يُعدّ هذا العنصر عنصرًا أساسيًا في نظرية النسبية العامة لألبرت أينشتاين، التي تُفسر الجاذبية على أنها انحناء هذا النسيج الناتج عن الكتلة والطاقة.

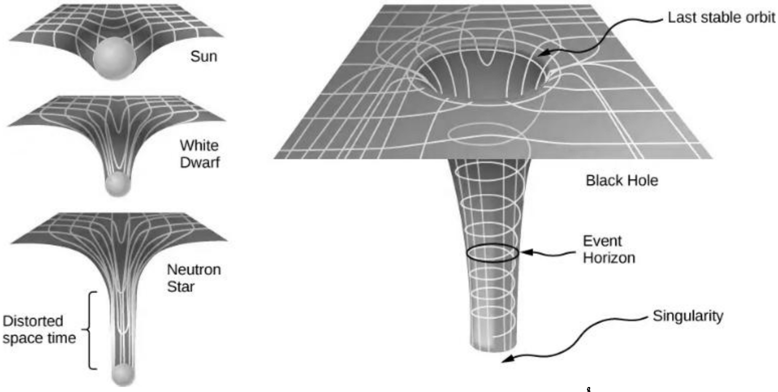

التشويه والانحناء: تُحدث الأجسام الضخمة (مثل الأرض أو الشمس) تشوهات أو انحناءات في "نسيج" الزمكان. تتبع أجسام أخرى، بما في ذلك الضوء والكواكب، هذه الانحناءات في الزمكان، والتي ندركها كقوة جاذبية. يُشبه هذا كرة رخامية تتدحرج على السطح المنحني لقماش مطاطي مشدود. تُحدث الأجسام الضخمة المتحركة "تموجات" في هذا النسيج، تُعرف باسم موجات الجاذبية، والتي تنتشر بسرعة الضوء ويمكن رصدها فيزيائيًا.

التصوف يُعيد اكتشاف المادي

بينما توسعت الفيزياء لتشمل الميتافيزيقيا، استكشف التصوف تاريخيًا العكس: ارتقاء المادي إلى اللانهائي. كتب الشيخ الصوفي ابن عربي: "نحن خيال، وكل ما ندركه خيال". صرّح الحكيم البوذي لونغتشينبا: "لا ازدواجية للعقل وموضوعه". كتب المتصوف المسيحي ديونيسيوس: "معرفة الله هي محو كل شيء". هنا، يذوب المادي في المُجَرَّدْ. يصبح المعنى أكثر واقعية من المادة. الوعي هو أساس الوجود. بلغ التصوف حدود التجريبية – ووجد الفيزياء تنتظره.

للتوفيق بين العالم القابل للقياس وعالم المعنى، يطرح الكتاب منظورًا مزدوجًا لواقع واحد أحادي:

عالم الكتلة، البنية: الشكل، المادة، الزمن، السببية، النسبية.

عالمٌ شبيه–الضوء: الثابت، والوحدة، والوعي، والحقائق المُجَرَّدْة، والأخلاقية.

(وأطلقت عليها تسمية شبيه–الضوء لأنها تحمل خصائص تجريدية مماثلة للضوء في حالة الموجة وليس الضوء وهو في حالة الجسيم المحدود – والضوء يحمل الخاصيتين معاً ويتفاعل مع مكونات الوجود بصفته موجة وأيضاً بصفته جسيم، كما ينعدم عليه الزمان. كذلك تصوري لـمفهوم "الثوتون"[4]، وهو مفهوم فيزيقي وتجريدي معاً، وهو وحدة معلوماتية كمّية لحقل الوعي المعلوماتية والتي تنتقل هي الأخرى من الحالة التجريدية إلى حالة جسيمية تؤثر بالخلايا العصبية الدماغية، وسآتي على بيان ذلك في لاحقاً)

ينشأ الوعي حيث يلتقي هذان العالمان – حيث يتقاطع البناء والمعنى. هذه الثنائية تعكسها وحداتٍ علميةً راسخةً، مثل الموجة والجسيم أو المكان والزمان، كاشفةً أن العقل والمادة هما مجرد منظورين على سلسلة متصلة واحدة (المُجَرَّدْ المشترك).

[4] يتبنى هذا العمل فرضية وجود حقل وعي كوني تندمج فيه جميع التجارب والمعاني، لا كحقل مادي قابل للقياس بالأجهزة، بل كإطار ميتافيزيقي للتفكير في الوعي باعتباره جوهريًا لا مشتقًا. ضمن هذا الإطار، يُفهم الفكر البشري لا كمادة أو جسيم، بل كحقل (مجال) الوعي، وكمعادل موضوعي للاستثارات أو "التموج" في نظرية الحقل الكموميّة، ولمبدأ التراكب في ميكانيكا الكمَ واحتمالات دالة الموجة وانهيارها إلى ثوتونات عند تفاعل هذا الحقل مع الأنظمة البيولوجية. يُستخدم مصطلح "الثوتون" كأداة استدلالية: طريقة لتسمية هذه الأحداث الموضعية للمعنى والنية دون اختزالها إلى الكيمياء العصبية وحدها. من هذا المنظور، لا يُنتج النشاط العصبي الفكر بطريقة سببية خطية، بل يُعبّر عنه من خلال عمليات كيميائية كهربائية سبق وصفها في علم الأعصاب، مثل النقل المشبكي والتدفق الأيوني. تُستخدم لغة التفاعل والإثارة والطاقة مجازيًا، للإشارة إلى التطابق لا الآلية، وللحفاظ على التمييز بين التجربة الذاتية وارتباطاتها الفيزيولوجية.

العقل البشري: مُترجِمٌ بين العوالم

الوعي البشري ليس وليد الصدفة؛ إنه حقل أو مجالٌ أساسي. يجمع الدماغ الإشارات ويتوسط التفاعلات بين عالم الكتلة وعالم المجال شبيه-الضوء للعقل والوعي. **

تخلق هذه العملية الانتقالية تجارب إنسانية أساسية: مثل الإحساس بالزمن والشعور بالذات وإدراك الجمال والحدس الأخلاقي، الإحساس بالخالق والرغبة في التوازن.

عندما يكون الجسم في حالة توازن، يكون الوعي واضحًا. وبالتالي، فإن التوازن هو شرط الحقيقة والمعنى. يعمل العقل كنقطة توازن تلتقي فيها المادية والميتافيزيقية.

** الوعي ليس مجرد نتاج للدماغ أو محصورًا في مكان محدد في الزمان والمكان. بل يقترح المؤيدون لحقل الوعي أنه قد يكون مجالًا كونيًا أساسيًا أو جانبًا من جوانب الواقع الجوهرية (الروحانية الشاملة أو المثالية التحليلية)، يعمل الدماغ كمستقبل أو مرشح له.

المفاهيم الأساسية لهذه الآراء:

الدماغ كمستقبل: يفترض هذا التشبيه المركزي أن الدماغ لا يُولّد الوعي، بل "يتناغم" أو يتفاعل مع مجال عالمي للوعي، كما يستقبل الراديو إشارات من برج البث.

الاستقلال عن المادية: تقترح النظرية أن الوعي يمكن أن يوجد ويعمل بشكل مستقل عن الدماغ والجسم الماديين، متحديةً بذلك النظرة المادية التقليدية (الفيزيائية) القائلة بأن العقل خاصية ناشئة بحتة للنشاط العصبي.

الصلة بميكانيكا الكم: غالبًا ما يستخلص المؤيدون تشبيهات من فيزياء الكم، وخاصةً ظاهرة التشابك الكمي وعدم المحلية، حيث يبقى جسيمان متصلين ويؤثران على بعضهما البعض لحظيًا بغض النظر عن المسافة التي تفصل بينهما. ويُستخدم هذا كإطار عمل محتمل لكيفية ترابط الوعي عالميًا.

الواقع الأساسي: في بعض النماذج، يُعتبر الوعي أكثر جوهرية من المادة والزمكان، مما يعني أن الكون المادي ينشأ من الوعي، وليس العكس.

من النظريات والنماذج الرئيسية التي طُرحت:

نظرية الاختزال الموضوعي المنظم (Orch-OR): يقترح روجر بنروز وستيوارت هامروف أن الوعي يتضمن عمليات كمومية في الأنابيب الدقيقة في الدماغ.

النموذج الهولوغرافي: يقترح كارل بريبرام وديفيد بوم أن الدماغ يعالج المعلومات من مصدر غير محلي ذي أبعاد أعلى.

المثالية التحليلية: يفترض برناردو كاستروب أن الوعي العالمي أساسي، وأن العقول الفردية جزء منه.

المفاهيم الرئيسية

مذهب الروحانية الشاملة: وهو النظرة الفلسفية التي ترى أن العقلية (الوعي أو التجربة) سمة أساسية وواسعة الانتشار في الكون. لا يجادل مؤيدو هذه النظرية بالضرورة بأن للصخرة عقلًا كعقل الإنسان، بل إن المكونات الأساسية للواقع، مثل الجسيمات دون الذرية، تمتلك أشكالًا بدائية وبسيطة للغاية من التجربة، تتحد لتشكل الوعي المعقد الموجود في الكائنات الحية.

مجال الوعي الكوني: تشير بعض النماذج النظرية المعاصرة، مثل النموذج الذي اقترحته البروفيسورة ماريا ستروم، إلى أن مجال وعي كوني واحد هو الأساس الأساسي للواقع، الذي ينبع منه المكان والزمان والمادة. في هذه النظرة، يُنظر إلى الوعي الفردي على أنه "إثارات" أو تكوينات موضعية ضمن هذا المجال الأوسع، تمامًا مثل موجة في محيط.

ميكانيكا الكم وتأثير المُراقِب: تستكشف بعض تفسيرات فيزياء الكم العلاقة بين الوعي والواقع المادي، مشيرةً إلى ظواهر مثل "تأثير المُراقِب" (حيث يتغير سلوك الجسيم عند قياسه). اقترح فيزيائيون مثل جون ويلر "كونًا تشاركيًا"، مشيرين إلى أن الملاحظة نفسها تلعب دورًا أساسيًا في تشكيل الواقع، مما يعني أن الوعي جزء لا يتجزأ من هيكل الكون.

المثالية التحليلية: طرح الفيلسوف برناردو كاستروب هذه النظرة، التي تفترض أن الوعي الظاهراتي هو الركيزة الأساسية للوجود، حيث تُمثل العقول الفردية أجزاءً منفصلة من وعي كوني.

الفجوة الظاهرية بين العلم والدين

إن الصراع بين العلم والميتافيزيقيا والدين صراع سطحي – سوء فهم للغة، وليس تناقضًا جوهريًا.

الدين (الدلالات الرمزية) / العلم (الدلالات البنيوية)

الله، الروح، / الثوابت الأساسية، الوعي

الوحي، / القوانين الطبيعية

الخلق، / الأصول الكونية

يُضفي الدين معنىً على ما يصفه العلم، ويُضفي العلم هيكلاً على ما يُدركه الدين. يُعيد "المُجَرَّدْ المشترك" الانسجام من خلال وضع كلتا النظرتين للعالم ضمن نفس الواقع المادي/الميتافيزيقي الموحد.

الوعي نقطة التقاء

يتجلى أعمق تقارب بين الفيزياء والتصوف في دراسة الوعي. لا تستطيع فيزياء الكم تعريف المُشاهد. ولا يستطيع علم الأعصاب تعريف التجربة الذاتية. ولا تستطيع الفلسفة تعريف أصل المعنى. ومع ذلك، يتطرق كلٌّ من التخصصين إلى حقيقة واحدة: الوعي هو الظاهرة الوحيدة التي تُشارك في كلا العالمين – القابل للقياس وغير القابل للقياس. إنه:

الموجة التي تعرف أنها موجة / الجسيم الواعي لمعالمه / الكون ينظر إلى ذاته

من هذا المنظور، ليس الوعي ناتجًا ثانويًا للمادة. إنه حالة أساسية للكون – الحدّ المضيء الذي يتشارك فيه المادي والميتافيزيقي نفسًا واحدًا.

المُجَرَّدْ المشترك كأساس للتوحيد العالمي

التوحيد، عند تحرره من الحَرفية، هو التعبير الفلسفي عن المُجَرَّدْ المشترك: هناك مصدر واحد. هناك قانون واحد. هناك توازن واحد. هناك وحدة واحدة تحت الكثرة. هناك وعي واحد يكمن وراء جميع الأشكال. هذا لا يتطلب إلهًا خارقًا للطبيعة. يتطلب فقط الاعتراف بأن: الكون مجال مُوَحّدْ من المعنى والبنية. والتوازن هو علامة الواحد. يُسميه العلم الوحدانية. يُسميه الصوفيون التوحيد. يُسميه الشعراء الوحدة. يُسميه الفلاسفة الواحدية. تُسميه الأخلاق العدالة. الفيزياء تُسمّيه قانون حفظ الطاقة. الأحياء تُسمّيه التوازن الداخلي. علم النفس يُسمّيه التكامل. الكلّ يتكلّم لغة الواحد. هذا هو المُجَرَّدْ المشترك.

الخاتمة – الوحدة وراء الأقنعة

العالم ليس منقسمًا بين العلم والدين، العقل والوحي، المادة والروح، الشكل والمعنى؛ إنها أقنعة وهم تُلبس لإخفاء حقيقة كامنة واحدة. عندما نكشف الأقنعة، نكتشف: حقيقة واحدة. قانون واحد. توازن واحد. وعي واحد. كون واحد. كيان واحد.

الجزء الثالث – إناء الأقدار: "الشكل" و"الوظيفة"

في كوننا، المكوّن من ٢٤ (حقل) مجالًا جسيميًا أساسيًا، لا تشمل مجال الجاذبية، وفقًا للنموذج القياسي لفيزياء الجسيمات، والذي تحكمه أربعة تفاعلات أساسية (الجاذبية، الكهرومغناطيسية، القوة النووية الشديدة، والقوة النووية الضعيفة)، والمُضبط بدقة أو مدَوْزَنْ بما لا يقل عن ٢٦ كمية فيزيائية أساسية بلا أبعاد، والتي نسميها الثوابت الكونية، فإن جميع الأنظمة والهياكل التي تتشكل أو تنشأ مُقدّر لها مسبقًا نتائج محددة ومجموعة متنوعة من التركيبات المتغيرة التي أسميها "الشكل"، ولكن هذه "الهياكل" تخدم أو تُجسّد وظائف" ثابتة، وأهدافًا ثابتة، وغايات، والتي أسميها "الوظيفة". "الشكل" نسبي، متحول وقابل للتغيير، وخاضع للتطور، بينما "الوظيفة" مطلقة، ثابتة، ودائمة. أي تطور يحدث في مجال "الشكل" ينتهي في النهاية بتحقيق الحفاظ على "الوظيفة"، سواء كانت هياكل فيزيائية بحتة أو أنظمة بيولوجية. وبالتالي، جميع الكيانات غير الحية أو غير الحيوية تتبع هذه القاعدة/الواقع، وكذلك جميع الأنظمة الحية، وجميع الظواهر الثقافية والتكنولوجية البشرية. في الأدب، ومنذ أقدم المؤلفات الأدبية المعروفة، تتغير الشخصيات وتتخذ أسماءً وألقابًا مختلفة "الشكل"، ولكنها تؤدي أدوارًا تخدم وظيفة ثابتة للظواهر الاجتماعية. كان التبريد يتخذ "شكل" الأوعية الفخارية، ثم تطور إلى الثلاجات الكهربائية. يتغير الشكل، لكن الوظيفة تبقى ثابتة.

ترتبط الحياة والبشر بوظائف بيولوجية ثابتة وبقوانين الطبيعة، على الرغم من أن أشكال الحياة تتطور وتخضع لعملية تكيُّف استجابةً للتغيرات البيئية للحفاظ على الوظيفة واستعادة التوازن الديناميكي البيولوجي. ترتبط التغيرات في الشفرات الجينية بالأشكال والآليات، لكن الغرض يبقى توريث "وظيفة" بيولوجية ثابتة. إذا أنتجت طفرات جينية عشوائية "شكلًا" لا يخدم "الوظيفة" الثابتة، فإن الحياة تصبح مشوهة أو منقرضة.

أود أن أشارككم هنا مقتطفًا من كتاب ألبرت فوا: "الوظيفة البيولوجية والشفرات الجينية مترابطتان"؛ 2005:

"لا تكف الحياة عن ادهاش العلماء مع كشف أسرارها أكثر فأكثر. وعلى وجه الخصوص، يبقى أصل الحياة لغزًا. نتساءل كيف استطاع المجتمع العلمي فك لغز حدثٍ ماضٍ وقع مرةً واحدةً بهذا الاحتمال الضئيل. تُظهر هذه الورقة البحثية وجودَ أسبابٍ منطقية لهذه المشكلة. تُعبّر الحياة عن كلٍّ من نظامي الوظيفة

والإشارات. وهذا يُوازي البنية الرمزية الذاتية المرجعية الضرورية منطقيًا في الأنظمة ذاتية التكاثر. ونظرًا للمجال المُجَرَّدْ لأنظمة الوظيفة والإشارات، فإن الحياة ليست نظامًا فرعيًا للقوانين الطبيعية. وهذا يُشير إلى أن عقلنا محدود فيما يتعلق بحل مشكلة أصل الحياة، وأننا نُضطر إلى اعتبار الحياة بديهية.

"في الحياة، هناك ترابط بين الوظيفة البيولوجية وأنظمة الإشارات. ولضمان انتقال الوظيفة البيولوجية عبر الزمن، يجب تخزين الوظيفة البيولوجية في نظام إشارات "مستقل عن الزمن". وحدها لغة الإشارات المُجَرَّدْة قادرة على تخزين المعلومات المُجَرَّدْ ة اللازمة لبناء جزيئات حيوية وظيفية. وبالمثل، يعتمد تعريف الشفرة الوراثية على الوظيفة البيولوجية. هذه هي مشكلة أصل الحياة، وهي أعمق من مجرد حقيقة أن الكائنات الحية التي نراها اليوم لديها مثل هذا التصميم."

هذا أحد مظاهر إناء الأقدار. المعنى والغرض، والوظائف البيولوجية، والقوى الطبيعية، وخصائص المادة التي توجه مسارات التغيير والتطور الخارجي. الشيفرة الوراثية هي نظام إشارات بيولوجي يستخدم أبجدية من أربعة أحرف من قواعد النيوكليوتيدات لتوفير تعليمات لبناء البروتينات في الخلايا الحية. تُقرأ هذه التعليمات ككلمات من ثلاثة أحرف تُسمى الكودونات، كل منها يُحدد حمضًا أمينيًا معينًا.

مكونات نظام الإشارات

الأبجدية: يعتمد النظام على أربع قواعد كيميائية في الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين (DNA): الأدينين، والثايمين، والسيتوزين، والجوانين. في الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين (RNA)، يُستبدل الثايمين (T) باليوراسيل (U).

الكلمات (الكودونات): تُقرأ القواعد في مجموعات غير متداخلة من ثلاثة قواعد، تُعرف باسم الكودونات. هناك 64 تركيبة محتملة لهذه الكودونات المكونة من ثلاثة أحرف.

المعنى (الأحماض الأمينية والإشارات): تُقابل الكودونات **20** حمضًا أمينيًا محددًا، وهي الوحدات البنائية للبروتينات. بعض الكودونات لا تُشفّر حمضًا أمينيًا، بل تعمل ككودونات توقف (UAA، UGA، UAG) تُشير إلى نهاية تخليق البروتين.

المترجمون: آليات خلوية مُعقّدة، أبرزها الريبوسومات وجزيئات الحمض النووي الريبوزي الناقل (tRNA)، تُفسّر تسلسل الكودونات وتربط الأحماض الأمينية المُقابلة معًا لتشكيل سلسلة بروتينية.

الخصائص الرئيسية

الطبيعة الثلاثية: كل "كلمة" تحتوي على ثلاثة أحرف فقط.

عالمية (مع استثناءات طفيفة): تشترك جميع الكائنات الحية تقريبًا على الأرض، من البكتيريا إلى البشر، في الشفرة الجينية القياسية، مما يسمح بقراءة المعلومات الجينية من نوع ما بواسطة نوع آخر.

غير مُتداخلة: تُقرأ الكودونات بالتتابع، واحدًا تلو الآخر، دون أي تداخل أو فراغات.

مُنحل (زائد): يُمكن لأكثر من كودون واحد تحديد نفس الحمض الأميني. على سبيل المثال، يُشفّر الحمض الأميني جلايسين بواسطة **GGC**، وGGA، وGGU، وGGG. يُساعد هذا التكرار على تقليل تأثير الطفرات المُحتملة.

في سياق نظام العلامات (السيميائي)، يُحلل الباحثون كيفية الحفاظ على التطابق العشوائي بين تسلسلات النيوكليوتيدات وتسلسلات الأحماض الأمينية وتطوره، معتبرين الشفرة الوراثية عملية ديناميكية لخلق المعنى داخل الأنظمة البيولوجية.

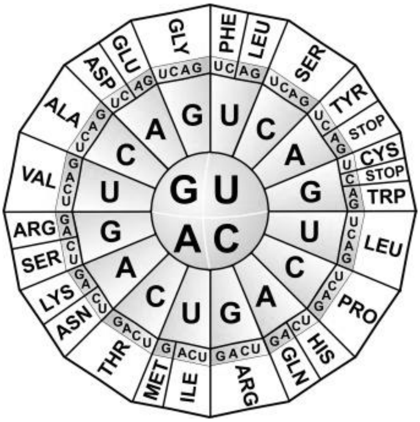

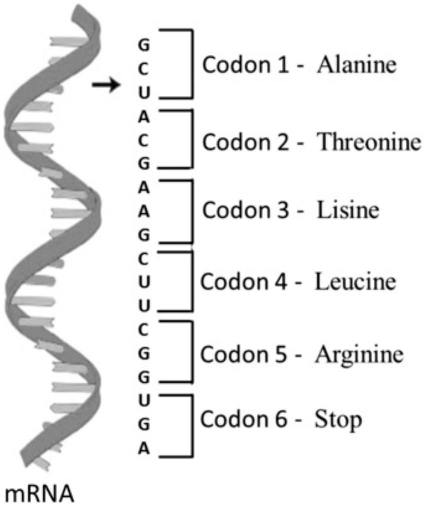

"الشكل"، "الوظيفة"، "الإرادة الحرة"، و"التوازن"

كما تُعزف نغمات مختلفة على وتر واحد، فإن الأشكال اللانهائية لواقعنا ما هي إلا تنويعات على لحن أساسي واحد. يمكننا وصف هذا التنوع بلغات عديدة: لغة التطور والطفرات الجينية، والنسبية وعدم اليقين الكمي، واهتزازات الأوتار بخصائصها الفريدة. يمكننا الحديث عن حقل هيغز الذي يمنح الكتلة للوجود، أو عن علم النفس الذي يستكشف الذات الداخلية، الأنيما والأنيموس. ومع ذلك، في نهاية المطاف، فإن كل هذه التفاعلات – من الجسيم إلى الإنسان – ليست سوى ألحان متميزة تنبع من مصدر واحد: السعي الكوني نحو التوازن، الموجه بالقوى الأساسية ضمن الإطار المحدد مسبقًا لكل تفاعل.

بالنسبة لنا، ككائنات حية، يصبح هذا السعي الكوني واعيًا. يسعى كياننا البيولوجي باستمرار إلى الحفاظ على توازنه الوظيفي. وفي الوقت نفسه، يتعلم وعينا، من خلال قوة الإرادة الحرة، استخدام القوى الأساسية لتشكيل الأشكال والأفعال. هدفنا التوحيدي هو تحقيق هذا التوازن – للجسد والعقل والرفاهية الشاملة – الذي يعكس الظروف التي نشأت منها الحياة وتطورت.

يكشف هذا عن تحول عميق في كيفية عمل الأضداد عبر مختلف المجالات. في الفيزياء، الأضداد تركيبية – أوصاف رسمية للحالة والعلاقة، مثل الكتلة مقابل انعدام الكتلة، أو الزمن بالنسبة للفوتون مقابل الزمن بالنسبة لجسم متحرك. أما في مجال الوعي والتوازن البشري، فتنتقل الأضداد إلى المجال الدلالي – مجال المعنى المجرد والمنظور.

هنا، تتغير الخصائص. في المجال المادي التركيبي، يمكن لـ"الخير" و"الشر" وصف الأفعال التي تؤثر على التوازن (السبب والنتيجة). لكن ضمن المجال الدلالي المُتحقق للتوازن المُتحقق، تتلاشى هذه الأضداد إلى لا معنى لها. لماذا؟ لأن السبب والنتيجة في حد ذاتهما لا يحملان إلا معنىً واحدًا نهائيًا: السعي نحو التوازن. الإرادة الحرة هي القوة الفريدة التي توجه هذا المسار. إنها قدرة الوعي على تسخير القوى الأساسية في المجال المادي، مجال السبب والنتيجة. وجهها الآخر هو وعي الوعي نفسه، أي القدرة على إدراك ما يحافظ على التوازن أو يهدمه، والاختيار بناءً على ذلك.

هذا الاختيار ليس مُمليً من قِبَل ملائكة أو شياطين خارجية، بل هو اختيار الفرد الواعي بين التوازن والفوضى، وهو في جوهره، الاختيار بين الحياة والموت.

هندسة القدر في كونٍ يحكمه التوازن

لطالما طرحت كل حضارة السؤال نفسه: هل نحن أحرار نمتلك الإرادة الحرة أم مسيرون بالجبرية والحتمية؟

تقول الفيزياء إن الكون يتكشف وفقًا لقوانين الطبيعة. يقول الدين إن القدر مكتوب. تقول الفلسفة إننا نختار. يقول التصوف إنه لا وجود لـ "نحن" للاختيار. يقول علم الأعصاب إن أفكارنا مُحددة. تقول الأخلاق إننا مسؤولون. تقول التجربة الإنسانية إن كلاهما صحيح – ولا أحد منهما كامل.

للتوفيق بين هذه التناقضات، يجب أن نفهم طبيعة الوجود ليس كصراع بين القدر والحرية، بل كإناء يحمله التوازن نحو غايته الضرورية.

يشرح هذا الفصل هندسة القدر في كونٍ موحد بلغة المُجَرَّدْ المشترك.

ما هو القدر والقانون الكامن من ورائه؟

القدر ليس نصًا كونيًا. إنه الاتجاه الضروري الذي تتحرك نحوه جميع الأنظمة عندما تسعى إلى التوازن. تحقق النجوم مصيرها عندما تنهار في حالة استقرار. تحقق الخلايا مصيرها عندما تتكاثر أو تموت. تحقق النظم البيئية مصيرها عندما تجد التوازن – أو تنهار في حالة تجدد. تحقق الحضارات مصيرها عندما تصل إلى التماسك أو تسقط في التشرذم. يحقق الأفراد مصائرهم عندما تُحل صراعاتهم الداخلية أو تَستهلكهم. لا يُفرض القدر من الخارج؛ إنه مكتوب في بنية الواقع نفسه:

يتجه كل نظام نحو التوازن الديناميكي – أو نحو عواقب مقاومته. ومع ذلك، في النهاية، إذا استمر الكون في التمدد إلى الأبد، فإن "الإنتروبيا" ستصل إلى أقصى درجات التوازن، وهي نقيض التوازن الديناميكي الضروري للشكل والوظيفة والأنظمة.

من المهم بيان الفرق بين هذين النوعين من التوازن، الديناميكي والأقصى، لأن الإنتروبيا والتوازن مفهومان مترابطان في الديناميكا الحرارية؛ يصل النظام إلى التوازن

عندما تكون إنتروبيته في أقصى درجاتها، وهي حالة الفوضى القصوى أو التوزيع الأكثر احتمالاً للطاقة. هذا لأنه، وفقًا للقانون الثاني للديناميكا الحرارية، يتطور النظام تلقائيًا لزيادة إنتروبيته، ولا يعود بإمكانه التغيير بمجرد وصوله إلى أعلى حالة ممكنة من الفوضى. لذا، في حجتنا هذه، التوازن هو السعي لتحقيق التوازن في "النظام" مقابل الإنتروبيا، وهو توازن ديناميكي للنظام. إذا كان مصير الكون دوريًا، تمددًا وانكماشًا، فإن القصة بأكملها تتكرر، إلى الأبد، ولن يكون هناك حد أقصى للإنتروبيا، بل توازن عقيم، هو المصير. هذه ليست خرافة، بل هي فيزياء.

الإناء كاستعارة لفظية: "الشكل" و "الجوهر"

حياتك، بما تشمله من تجارب وخيارات وثقافة وتكوين بيولوجي، تُمثل شكل وجودك – الإناء / "الشكل"، ما يتدفق عبر هذا الإناء هو "الوظيفة" أو الجوهر الأبدي الكوني: الوعي والمعنى والتوازن والوحدة والغرض الكامن.

الإناء (الشكل): محدود، محلي: حياتك، جسدك، قيودك، وخياراتك.

الجوهر (الوظيفة): مطلق، كوني: الوعي، المعنى، التوازن، والوحدة.

استخدم المتصوفون القدماء رموزًا ثنائية (مثل: الطين والنفس، الصدفة واللؤلؤ) للتعبير عن هذه الحقيقة: أنت الرقصة بين الإناء المحدود والجوهر المطلق.

فيزياء القدر: الإمكانيات المقيدة

في لغة الفيزياء، القدر هو النتيجة الطبيعية لثلاثة مبادئ متفاعلة، مما أدى إلى تعريف القدر بأنه تدفق مقيد من الإمكانيات التي تشكلها قوانين كونية.

أ. القوانين الحتمية

هذه قواعد ثابتة وقابلة للتنبؤ تحكم عالم الكتلة، وتضمن اتباع قوانين ثابتة. ومن الأمثلة على ذلك الجاذبية، والكهرومغناطيسية، والتفاعلات الكيميائية، والتطور البيولوجي.

ب. التعبير الاحتمالي

هذا يُضيف مرونةً وعدم يقين إلى النظام: تُدخل ميكانيكا الكم عدم يقين، وتُظهر نظرية الفوضى حساسيةً شديدةً للشروط الأولية، وُيضيف الانبثاق emergence عدم القدرة على التنبؤ في الأنظمة المعقدة.

ج. الشروط الحدودية

هذه هي القيود الأولية التي تُحدد شكل الإناء، مثل الجينات، والجغرافيا، والثقافة، والعائلة، واللحظة التاريخية.

عندما تتحد هذه الطبقات الثلاث، تكون النتيجة أنك حرٌّ داخل أطر. تُشكل هذه الأطر مصيرك.

الحوار بين الإرادة والقدر

الحرية والقدر ليسا نقيضين؛ إنهما حالتان مُتكاملتان لواقع واحد. القدر هو البنية العالمية (شكل النهر)، بينما الإرادة الحرة هي التعبير المحلي (الاتجاه المُختار). (53)

هذه العلاقة ثنائية الحالة:

في عالم الكتلة، نختبر الأفعال والقرارات والرغبات.

في عالم خواص شبيه–الضوء، تُحدد النتيجة مسبقًا بالتوازن، مما يعني أن الخلل يُصحّح نفسه حتمًا وفقًا لقوانين ثابتة.

نحن أحرار في اختيار التوافق أو المقاومة، لكننا لسنا أحرارًا من عواقب هذا الاختيار.

الوعي كمَلاّح، لا خالق

يلعب الوعي دور الملاّح، لا المهندس. خياراتك مهمة، لكنها لا تُعيد صياغة قوانين الوجود الأساسية.

القدر = البنية الجاذبة لحياتك، والإرادة الحرة = الاتجاه الذي تواجهه وأنت تُحمل.

لا تستطيع السفينة اختيار قوانين المحيط، لكنها تستطيع اختيار أشرعتها. هذه هي سفينة القدر.

القدر في الدين: رموز التوازن

تُرَمِّز كلٌّ تقاليد الأديان والفلسفات الرئيسية هذا المبدأَ القائم على التوازن بين القانون الثابت والاختيار الفردي:

التقاليد: القانون الثابت (القدر)، الاختيار الفردي (الحرية)

الإسلام: القدر (النظام الكوني) / الميزان (التوازن)، الاختيار (الاختيار/التعبير الإنساني)،

المسيحية: العناية الإلهية (قوس التاريخ)، تشكيل دور الفرد داخل القوس.

البوذية: النشأة التابعة / الكارما (أسباب الماضي)، النية تُغيِّر أسباب المستقبل.

اليهودية: كتاب الحياة (القدر المكتوب)، التوبة تُغيِّر النقش.

الرواقية: القدر (التحكم في الأحداث)، التحكم في استجابتنا (العقل).

تتوصل جميع التقاليد إلى نفس البنية: القدر = قانون ثابت؛ الحرية = تفسير محلي.

الإناء والمحيط: الفرد والكون

وعيك ليس منفصلاً؛ إنه تعبير محلي عن إدراك الكون لذاته. لذا، فإن مصيرك هو مصير الكون الذي يعبر عن نفسه من خلال سفينتك.

أنت السفينة والبحر في آنٍ واحد، الملاح والريح. مفهوم الصوفيين للاستسلام ليس هزيمة، بل اعترافًا بهذه الوحدة.

ذلك أنَّ الإرادة الحرّة بوصفها قوّة فيزيائية مصدرها مجال الوعي (الحقل) — لا تخضع للسببية، وهي في علاقة جدلية دائمة مع الحتمية — بمعنى أنها إرادة حرة، ولكن في إطار عام من الحتمية على المستوى الكوني. (هي الأمانة اللي حملها الإنسان (حرية الإرادة) ولم تحملها السماوات والأرض والجبال (الحتمية والسببية causation chain). كما يرد في الرؤية الدينية وفقاً للنص القرآني):

"إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ انه كان ظَلُوما جَهُولا". 33:72

هي القدرة الوحيدة للإنسان على إعادة توجيه المسار قبل الدمار.

القَدَر كتوازن في حياة الإنسان

يتجلى القدر كلما ضاع التوازن. هذا ليس عقابًا أخلاقيًا؛ بل هو حتمية بنيوية.

عواقب اختلال توازن مستوى النظام تسبب فقدان توازن الجسم وفقدان توازن العقل وفقدان توازن المجتمع وفقدان توازن الحضارة.

كما يصل الماء إلى أدنى نقطة، تجد الأنظمة البشرية توازنها – من خلال الانسجام أو من خلال الكارثة. القدر هو استعادة التوازن.

حَل المفارقة: نحن أحرار في إطار القدر

تتلخص المفارقة في حقيقة واحدة: القدر يُوفر الشروط (الوراثة، التاريخ، علم الكون) والوعي يُوفر الاتجاه (النوايا، التوافقات) والتوازن يُوفر النتيجة (الانسجام أو الانهيار).

الخاتمة – القدر كبنية المعنى

القدر ليس جبرية أو استسلامًا؛ إنه القانون الهيكلي للتوازن المُنسجم في الكون.

- الإرادة الحرة هي القدرة الواعية على التوافق مع هذا القانون.
- الإناء هو شكلك المُعاش (قصتك، حدودك، وإمكانياتك).

عندما تفهم هذه الوحدة، يُصبح القدر بوصلة، وتُصبح الإرادة الحرة فعل اختيار التوافق مع الواحد (37).

الجزء الرابع – نور على نور: هندسة الاستنارة في كون ثنائي الحالة

تشهد البشرية صورًا جلية تتجاوز حدود اللغة والجغرافيا والمعتقدات. ومن أعظمها الاستعارة القرآنية للنور:

﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور ٢٤: ٣٥)

هذه الآية لا تنحصر بعقيدة، بل هي علم كوني، وعلم نفس، وما وراء الطبيعة، وفيزياء الوعي مُعبّر عنها بلغة رمزية. إنه أوضح تعبير عن بنية الحالة الثنائية التي وصفتها في الفصول السابقة – عالم الكتلة وعالم شبيه–الضوء، "الشكل" و"الوظيفة"، الإناء والجوهر. لفهم معنى "نور على نور"، يجب أن نفهم الاستنارة نفسها.

تصف الآية بنية رمزية:

النور ⟵ المجازي وهو المعرفة الشاملة المطلقة، المعنى، العقل الكلّي مصدر الوجود

النور ⟵ المجالات أو الحقول الكمومية عندما تتحول إلى جسيمات مادية لها كتلة، الكون الفيزيقي

مشكاة ⟵ الفراغ الكوني (**Vacum**)، الكون المحدَّب، جسم الإنسان، إناء الفيزيقي (الكتلة) المهيأ لاستقبال النور

مصباح ⟵ شعلة الوعي، الاستنارة، تحول مجال الوعي إلى الكمّ المعلوماتي في حالة ثوتونات[5].

زجاجة ⟵ دماغ الإنسان وشبكة الخلايا العصبية التي يحدث فيها "الإنهيار الكمومي" وتبادل المعلومات وإضفاء المعنى على التجربة الشخصية Interface for Consciousness and Qualia – واجهة التواصل بين حقل الوعي والجسد. الدماغ أداة السببية توحه وتضخم وتنظم وتوزع المعلومات التي تحرك الجسد، مكان التقاء المعرفة أو الفكر المجرَّد بالمادة الفيزيقية.

كوكب دري ⟵ العقل الذي يمتلك المعرفة.

يوقد من شجرة مباركة زيتونة ⟵ مجال (حقل) الوعي مصدر المعرفة ومنبع الإدراك

لا شرقية ولا غربية ⟵ دلالة على حيادية المجال (حقل) الوعي التجريديّ، خصائص الحقول التي تصدر عن استثارتها جميع الجسيمات المادية.

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ⟵ المعرفة الشاملة الكامنة في حقل الوعي والإستثارات في الحقل وإمكانية الانهيار الكمومي *(الاستثارات في الحقل على هيئة superposition أي مبدأ التراكب إلى احتمالات دالة الموجة wave function إلى انهيارها إلى ثوتونات تحمل كمّ المعلومات)* والحلول الثوتوني في دماغ الإنسان، والمعرفة الشاملة أو المعرفة الخالصة بهذا المعنى كائنة في الحقل ولا تقتصر على التفاعل مع الدماغ. المجالات أو الحقول التي تملأ الفراغ Vacum تعجّ كل الوقت بولادة ازواج الجسيمات المتضادة التي تتصادم وتفنى

[5] يُستخدم مصطلح "الثوتون" هنا كبنية فلسفية واستكشافية، لا كادعاء يتعلق بالجسيمات الفيزيائية أو العمليات الكمومية أو الآليات العصبية البيولوجية. وهو يعمل على مستوى "المجاز اللغوي" للمصطلحات العلمية، وبشكل مشابه للأدوات المفاهيمية المستخدمة في عِلْمُ الظَّاهِرات وفلسفة العمليات، حيث يُسهم في توضيح العلاقات التي لا تزال المصطلحات العلمية الحالية عاجزة عن استيعابها بشكل كافٍ. ولا يُقصد به أي ادعاءات تجريبية أو سببية.

وتولد وتفنى وهكذا في كل الوقت، فالفراغ ليس فراغاً مطلقاً أو عدم، فالمجالات تكاد تتجلى كمادة دائمة في جميع الأوقات. .[6]

نور على نور ⟵ التواصل والتبادل بين النور المعرفي التجريدي والنور المتجسد المادي، أي المادي والميتافيزيقي؛ لكليهما ذات المصدر، وجهان لحقيقة واحدة، الكون مضاء من الخارج والعقل مضاء من الداخل.

الضوء: لغة الكون الأولى

كان الضوء موجودًا قبل وجود المادة، قبل تشكل الذرات، ملأت الحقول أو المجالات Quantum Fields الفراغ. قبل احتراق النجوم، كان هناك

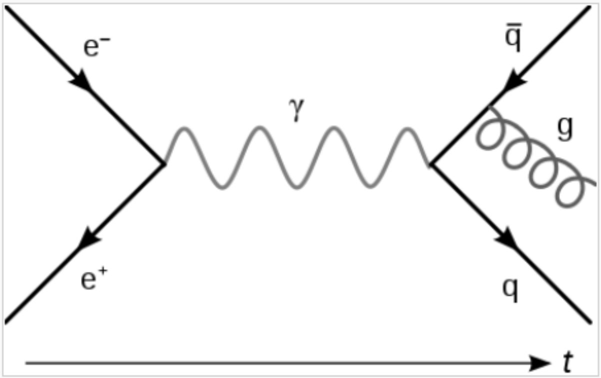

In this Feynman diagram, an electron (e^-) and a positron (e^+) annihilate, producing a photon (γ, represented by the [illegible] sine wave) that becomes a quark–antiquark pair (quark **q**, antiquark **q̄**), after which the antiquark radiates a gluon (**g**, represented by the [illegible] helix).

---

[6] إن المفاهيم المطروحة في هذا الفصل فلسفية وتفسيرية بطبيعتها؛ فهي لا تُطرح كآليات فيزيائية أو تفسيرات علمية، بل كأدوات مفاهيمية للتفكير في العلاقة بين الوعي وارتباطاته العصبية.

إشعاع بدائي – وميض كوني لا يزال يتردد صداه حتى اليوم في الخلفية الكونية الميكروية CMB. الضوء ليس مجرد ظاهرة فيزيائية، بل هو علامة المطلق. تكشف خصائصه عن حقيقة أعمق: الضوء لا كتلة له، ولا يختبر الزمن. بالنسبة للفوتون، الخلق والوصول هما نفس اللحظة. سرعة الضوء ثابت يتحرك بنفس السرعة بالنسبة لجميع المراقبين، مشكلًا الإطار المرجعي الكوني للواقع. ينكشف الضوء عندما يكشف ما هو خفي، ويُخرج الشكل من الظل، ويجعل الوجود مفهومًا. في الفيزياء، الضوء هو الجسر بين الطاقة والمادة، الموجة والجسيم، المعلومة والشكل، الزمكان والمعنى.

في الميتافيزيقيا، الضوء هو الجسر بين اللانهائي والمحدود، المطلق والنسبي، الإلهي والإنساني، الوعي والعالم.

وهكذا، فإن استعارة "نور على نور" ليست تجريدًا شعريًا؛ بل هي خريطة للواقع.

الضوء كمعرفة: استنارة الوعي

الوعي هو استنارة من الداخل. العقل لا يُولّد الاستنارة، بل يعكسها. عندما نرى، أو نفكر، أو نستشعر، أو نفهم، فإننا نشهد إشعاعًا داخليًا لا ينتمي إلى الجسد وحده. وهذا يتماشى مع نموذج الحالة الثنائية:

حالة الكتلة: الدوائر العصبية، التدرجات الكيميائية، الإمكانات المشبكية؛ القابل للقياس.

حالة شبيه–الضوء: الوعي، المعنى، الحدس، البصيرة؛ غير القابل للقياس.

ما نسميه "التفكير" هو نقطة التقاء هذين العالمين. الدماغ هو الفانوس، والوعي هو الشعلة. وكما أن الفانوس لا يُولّد الضوء، فإن الدماغ لا يُولّد الوعي من العدم، بل يستضيفه، ويُشكّله، ويُوجّهه.

ولهذا السبب يصف الصوفيون عبر التقاليد التنوير بالإشعاع: "نور العقل"، "العين الثالثة"، "المصباح الداخلي"، "شرارة الإله".

هذه استعارات للمبدأ نفسه: الوعي حالة من الاستنارة – نور داخل المادة.

النوران: "الشكل" – النور و" الجوهر" – النور

لفهم "نور على نور"، يجب علينا تحليل طبقاته.

النور الأول – نور "الشكل": هذا هو نور الكون المادي: الفوتونات، النجوم، المجالات، الطاقة، الكهرومغناطيسية. إنه النور الذي يكشف العالم للحواس.

النور الثاني – نور الوعي: هذا هو النور الداخلي: الوعي، الفهم، الحَدْس الأخلاقي، المعنى، الذات، الوجود. إنه النور الذي يكشف العالم للذات.

"نورٌ على نور" هو اندماج هاتين الطبقتين: الاستنارة الخارجية للواقع والاستنارة الداخلية للمعنى. عندما ينسجمان، يتجلى الوضوح. وعندما يتباعدان، يبدأ الوهم.

الاستنارة والتوازن: نور التوازن. الضوء هو التوازن.

في الفيزياء: الفوتونات تتوسط القوة الكهرومغناطيسية، والكهرومغناطيسية تُثبّت الذرات، والذرات تُثبّت الجزيئات، والجزيئات تُثبّت الحياة.

في علم الأحياء: يتطلب الأيض تدفق الطاقة، والتوازن الداخلي يتطلب تدرجات مُنظّمة، والرؤية تتطلب الفوتونات.

في الوعي: يتجلى الوضوح عندما تتوازن الحالات العصبية، وتنشأ المعاناة عندما تقع في اختلال التوازن.

في الأخلاق: الخير هو استعادة التوازن، والشر هو تشويه النظام الطبيعي.

وهكذا، فإن "نور على نور" هو المعادلة الكونية للتوازن. التوازن يخلق الاستنارة. الاستنارة تحافظ على التوازن. التوازن هو الحالة التي يصبح فيها الضوء مرئياً – والحالة التي يصبح فيها الوعي ممكناً.

فقدان الضوء: الظلام كاختلال توازن

الظلام ليس جوهرًا. إنه غياب الاستنارة وانهيار التوازن. في الفيزياء: الثقوب السوداء تبتلع جميع المعلومات – اختلال توازن محض.

في العقل: الصدمة، والوهم، والقلق – خفوت النور الداخلي.

في المجتمع: الظلم، والاستغلال، والقمع – اختلال التوازن ينتشر في الجسد الجماعي.

في الحضارة: يحدث الانهيار عندما يصبح الاختلال نظاميًا.

في الرمزية الدينية، يرتبط الظلام دائمًا بالتشرذم، والجهل، والظلم، والانفصال، واختلال التوازن.

لأن الظلام يدل على فقدان التوازن، فإن النور ليس نقيض الظلام؛ الظلام هو مجرد نتيجة الابتعاد عن الثابت.

ميتافيزيقيا التأمل: كيف يرى الكون نفسه

للضوء خاصية استثنائية واحدة: إنه يكشف عن كلٍّ من الشيء والمراقِب. وجهك في المرآة ممكن فقط لأن الفوتونات تحمل المعلومات في كلا الاتجاهين. يتصرف الوعي بالطريقة نفسها تمامًا. إنه يكشف عن العالم وعن الشخص الذي يدركه. لهذا السبب يصل كل تقليد صوفيّ إلى نفس الإدراك: الكون يعرف نفسه من خلال الوعي، والوعي يعرف نفسه من خلال الكون. نور على نور.

الإنسان كيان استنارة

يحتل البشر مكانة فريدة في الكون: فهم مصنوعون من المادة، مفعمة بالطاقة، مُستنيرون بالوعي، قادرون على التأمل الأخلاقي، وقادرون على إدراك الذات.

نحن النوع الحي الوحيد الذي يستطيع التأمل في التوازن نفسه. لهذا السبب تُشدد النصوص الدينية على دور الإنسان كخليفة (حامل الأمانة)، وصورة الله (انعكاس الإله)، وبوداسف (الراعي المُستيقظ)، والشخص الذي يُسمّي الخلق. ليس لأننا متفوقون بيولوجيًا، بل لأننا آنية تستقبل الضوء، قادرة على توليد استنارة ثانوية: المعرفة، والفن، والأخلاق، والمعنى، والحضارة. وكما تُبدع النجوم الضوء، يُبدع البشر المعنى.

بالعودة إلى الفصل السابق: القدر = نور الكون، والإرادة الحرة = نور الوعي. عندما ينسجم هذان النوران، تُصبح حياة الإنسان متماسكة، وذات معنى، ومتناغمة. عندما يتباعدان، يتشقق الإناء – عاجزًا عن حمل النور. عندها يتولد القلق، والتناقض الذاتي، والحيرة الأخلاقية، والأزمة الوجودية، والوهم يصبح أشكالًا من التعتيم. وهكذا لا يُفرَضْ القدر، بل يُكشف من خلال وضوح النور.

أن تكون إنسانًا كاملًا لا يعني أن تصبح قويًا، بل أن تصبح شفافًا: شفافًا للحقيقة، شفافًا للتوازن، شفافًا للثابت، شفافًا للواقع، شفافًا للنور الداخلي. الزجاج الذي يحجب اللهب لا يستطيع أن يُنير. والإناء الذي يحجب النور لا يستطيع أن يُرشد. وهكذا، الخلاصة – المهمة الإنسانية: أن تكون هو أن تصبح شفافًا

الواجب الأخلاقي للوعي بسيط: نظّف الزجاج، قوِّ المصباح، استقبل النور الأسمى، واعكسه في العالم. هذا هو "نور على نور".

الجزء الخامس – مجال الوعي: حيث تلتقي الفيزياء والعقل والميتافيزيقيا

إذا كانت فقرات "نور على نور" تصف بنية الاستنارة، فإن هذا الفصل يصف الوسيط الذي تنتقل عبره هذه الاستنارة – مجال الوعي، النسيج الضام بين العقل الفردي وبنية الواقع. الوعي ليس محصورًا داخل الجمجمة. إنه ليس هلوسة خاصة. إنه ليس خدعة عصبية عَرَضية. إنه مجال ديناميكي، تفاعلي، غير محلي quantum nonlocality، تشاركي، ومتعدد الطبقات. مجال (حقل field) يتخلل كل بُعد من أبعاد الوجود، من الجسيمات الكمومية إلى الكائنات الحية، من النظم البيئية إلى الحضارات، من المادي إلى الميتافيزيقي.

الدماغ البشري ليس أصل الوعي. إنه المُستقبِل، والمُضبط، والمُفسِّر. بلغة الفصول السابقة، إنه حالة "الكتلة" وهي الجسد والدماغ، أما حالة شبيه–الضوء فهي الوعي الفردي.

الحقل هو ركيزة الوعي الكوني التي ينشأ فيها كلاهما. يصف هذا الفصل هذا الحقل.

الوعي كحقل كوني

تتقبل الفيزياء الحديثة بالفعل مفهوم الحقول: الحقل الكهرومغناطيسية، وحقل الجاذبية، وحقل هيغز، والحقول الكمومية، والحقول القياسية.

المادة نفسها ليست أساسية؛ الحقول أساسية. ما هو الإلكترون؟ تموج في حقل الإلكترون. ما هو الفوتون؟ اسْتِثَارَة وتموّج في نقطة من الحقل الكهرومغناطيسي. الكون ليس مصنوعًا من "أشياء" – إنه مصنوع من حقول واسْتِثَارَاتْ متفاعلة. وبالمثل، يُعد الوعي حقلًا. العقل اسْتِثَارَة موضعية داخل هذا الحقل.

هذا يفسر لماذا يكون الوعي موحدًا، ولماذا توجد التجربة الذاتية، ولماذا يمكن للعقول أن تؤثر في بعضها البعض، ولماذا نشعر بأن المعنى "مشترك"، ولماذا تتردد الرموز، ولماذا تنتشر العواطف، ولماذا تمتلك المجتمعات مزاجًا جماعيًا، ولماذا تظهر العبقرية في أماكن متعددة في وقت واحد، ولماذا نشعر بأن الحَدْس "يُستقبل". لا يُنتج الدماغ البشري الوعي، كما لا يُنتج الراديو الموسيقى، بل ينقلها.

الطبقات الثلاث لحقل الوعي

للحقل (المجال) بنية. ثلاث طبقات، لكل منها فيزياء وميتافيزيقا خاصة بها.

مجال الوعي البيولوجي (الطبقة الشخصية). التذبذبات الكهروكيميائية للدماغ والجسم: الشبكات العصبية، اقتران القلب بالدماغ، محور الأمعاء/الدماغ، والتزامن الهرموني. هنا تتشكل العواطف، وتتبلور الذكريات، وتنبثق الذات. لكن هذا ليس سوى السطح.

المجال العقلي (الطبقة الشخصية). مجال المعنى المشترك: اللغة، والثقافة، والذاكرة الجماعية، والأنظمة الرمزية، والتعاطف، والحَدْس الاجتماعي. هذا يُفسر لماذا تكون العواطف مُعدية، ولماذا تتصرف الحشود ككائنات حية، ولماذا تمتلك الحضارات "أرواحًا"، ولماذا يتفاعل البشر مع بعضهم البعض بما يتجاوز المنطق. كل مجتمع يُنتج مجالًا من المعنى يُشكل عقول الأفراد.

مجال الوعي الكوني (الطبقة فوق الشخصية). أعمق طبقة: أساس الوعي، ركيزة الحَدْس، مصدر البصيرة، فضاء "الحضور" والثابت الميتافيزيقي.

هذا هو المجال الذي يصل إليه الصوفيون، المجال الذي تنبثق منه الاختراقات الإبداعية، المجال الذي يعمل فيه القَدَر. هذا هو المجال نفسه المُسْتَتِر في: الشونياتا البوذية، والحقيقة الصوفية، والعقل الأفلاطوني المحدث، وعين صوف القبالة، وبراهمان الفيدي، والشعار الرواقي، والنور القرآني. لغات مختلفة. الواقع واحد. المجال واحد.

الوعي كظاهرة رنين بيني* Resonance

إذا كان الوعي مجالاً، فإن التجربة تعتمد على الرنين. فكما تهتز الأوتار الموسيقية معًا عند ضبطها، تتردد العقول عند اصطفافها. وهذا يُفسر: الحب، والإلهام الفني، والفهم المفاجئ، والتزامن، والرهبة، والصلاة، والتأمل، والحَدْس، والحركات الجماعية. هذه أحداث رنين بيني.

*(الرنين هو ظاهرة تحدث عندما يتعرض جسم أو نظام لقوة خارجية أو اهتزاز يتطابق تردده مع تردد الرنين للنظام، وهو تردد يُولّد استجابةً ذات سعة قصوى في النظام. عند حدوث ذلك، يمتص الجسم أو النظام طاقة القوة الخارجية ويبدأ بالاهتزاز بسعة أكبر.)

يعتمد وضوح الوعي على الضبط: فالصدمة تُشوّه الضبط، والخوف يُضيّق نطاق التردد، والأنا تُصدر ضجيجًا، والوهم يُعيق الترددات، والتوازن يُعيد الوضوح.

ولهذا تُركّز التقاليد الروحية على السُكون والتواضع وتطهير الذات، والصَّمت، والتأمل، والتوازن. إنها تُحسّن آلية الضبط، وتُزيل الضجيج.

الوعي واللا-محلية Quantum Nonlocality

في فيزياء الكم، تعني اللا-محلية أن جسيمًا هنا يمكن أن يرتبط بجسيم يبعد عنه ملايين السنوات الضوئية، على الفور – ظاهرة التشابك الكمي التي وصفها ألبرت أينشتاين بأنها "فِعل شَبَحي عن بُعد". هذا ليس سِحرًا، بل هو ديناميكيات المجال. إذا تجاوزت الجسيمات الفيزيائية مفهوم الزمكان والمسافة وتصرفت بطريقة لا يمكننا إدراكها إلا كمُجَرَّد، فما الذي يمنعنا من اعتبار العقل المُجَرَّدْ أو الوعي على أنه ماديّ، بنفس الطريقة التي أدركنا بها الطبيعة المزدوجة للجسيمات الكمومية –

فيزيائية/مُجرّدَة – والتي قد تنطبق على الوعي والأفكار المُجَرَّدْة والعقل. في رأيي، ما ندركه على أنه ثنائية الجسد/العقل، أو كيفية تفاعل الأفكار المُجَرَّدْة مع الخلايا العصبية الفيزيائية، يصبح معادلاً موضوعيًا لتفاعل الجسيمات المُجَرَّدْة مع المادة، لأن "الجسيمات" هي موجة وجسيم في آن واحد، فيزيائية ومُجرَّدَة. لا نعرف كيف تنهار quantum collapse الأفكار المُجَرَّدْة إلى فعل مادي (قد يكون الكترومغناطسي) مسببةً تأثيرًا عند تفاعلها مع الخلايا العصبية في الدماغ. لماذا لا يكون هذا صحيحًا؟

مجرد تأملات: قد تكون الأفكار وحدات معلوماتية كمومية وتموجات أنماط في حقل الوعي، وتنهار quantum collapse إلى جسيمات أولية من الثوتونات التي تتوسط التفاعلات الكهرومغناطيسية داخل الخلايا العصبية في الدماغ ما بين الوعي العقل الأفكار (المجرّد) ذات الصفات اللا فيزيقية (مادية) والجسد الفيزيقي (المادي). ربما أشبه ما تكون بعملة عكسية لأنماط الموجات الكهرومغناطيسية المنبعثة من نشاط الدماغ؛ وبالتالي، عندما يتحول كمّ الوعي (ينهار) إلى ثوتونات، فإنه يُحفّز نشاط إطلاق الخلايا العصبية. لذا، فإن الثوتونات هي "حاملات قوة" (force carriers) للتفاعلات بين العقل (الوعي) والدماغ (الخلايا العصبية)، وتحويل الأفكار المُجَرَّدْة إلى حركة جسدية مادية، وفي الاتجاه المعاكس حواس الجسد إلى أفكار مجردة. المجرِّد والمادي–فيزيقي وجهان لحقيقة واحدة.

الخصائص الرئيسية

الكتلة والسرعة: هذه الرؤية تستوجب أن يكون الثوتون مجردًا وعديم الكتلة، وليس له شحنة كهربائية. ليس موضعيًا (لا–محلي). لا ندري كيف يتفاعل مع جميع المجالات (الحقول quantum fields) الأساسية التي تتخلل الوجود بأكمله. يعتبر بعض مؤيدي فرضيات حقل الوعي ان هذا المجال هو المجال الأساسي الوحيد في الوجود.

أمثلة تتوافق مع اللا–موضعية: تشعر الأم بأن طفلها في خطر. يشعر التوائم بالحالات العاطفية لبعضهم البعض. تنبثق الأفكار في آنٍ واحد في ثقافات معزولة. تطفو الذكريات على السطح خلال طقوس مشتركة. هذه ليست "خوارق للطبيعة"، بل هي خصائص مجال. العقل ليس مُغلقًا، بل مُسامي. التشابك الكمي (quantum entanglement) ظاهرة أساسية في فيزياء الكم، حيث يرتبط جسيمان أو أكثر ارتباطًا وثيقًا، ويبقى مصيرهما مُترابطًا بغض النظر عن المسافة

التي تفصل بينهما. لا يمكن وصف حالة الجسيمات الفردية بشكل مستقل؛ فهي موجودة كنظام كمي واحد موحد إلى أن يتم قياسها.

الوعي كواجهة القدر Interface

بالعودة إلى فصل "إناء الأقدار": القدر هو الإمكانية؛ والإرادة الحرة هي التوجه. موضع التقاء الإمكانية والتوجه هو المجال. القدر ليس مفروضًا، بل هو مُعلن. الإرادة الحرة ليست خيارًا، بل هي ضبط. عندما يتردد صدى العقل مع المجال الأعمق، يظهر الوضوح، وتتوازى الفرص، وتظهر التزامنات، ويصبح الحَدْس حادًا، ويصبح المعنى واضحًا. هذا ليس مجرد خيال، بل هو ديناميكيات المجال. المجال هو الواجهة بين المطلق والفرد، بين النص والممثل، وبين حالة النور وحالة الجماهير.

المجال وبنية الأخلاق

لا تنبع الأخلاق من الوصايا، بل تنبثق من التوازن. كل فعل لا أخلاقي هو فعل يشوه الرنين ورجع الصدى: القسوة تُخفّض تردد كل من الجاني والضحية، والظلم يُمزّق المجال الاجتماعي، والخداع يُحدث ضجيجًا، والجشع يُهدم الانسجام، والقمع يُشتّت الجماعة. الأخلاق ليست كتاب قواعد؛ إنها صيانة المجال. الفعل العادل يزيد التماسك. الفعل الرحيم يُضخّم الرنين ورجع الصدى. الفعل الصادق يُخفّف الضجيج.

لهذا السبب تتقارب الأنظمة الأخلاقية عبر الحضارات: لأن جميع القواعد الأخلاقية هي بروتوكولات لاستقرار المجال.

الضجيج التكنولوجي: عندما يُشوّه المجال

يُغرق العالم الحديث المجال بالضجيج: الإشعارات، والخوارزميات، والتحميل الزائد، والمعلومات المضللة، والتحفيز الاصطناعي، والتطرف الأيديولوجي، ودورات الغضب. تعمل هذه كإشارات تداخل. والنتائج هي القلق، وانهيار الانتباه، والارتباك الوجودي، والانفصال عن المعنى، وفقدان الذات، والعمى الروحي. تُضخّم التكنولوجيا حالة الجماهير، لكنها تُطغى على حالة النور. يُصبح المجال خافتًا، وعندما يُخفت، تفقد الحضارة مسارها.

الوعي والعودة إلى التوازن

التوازن ليس سكون الحركة وجمود التغيير؛ بل هو تغيير متناغم. في مجال الوعي، التوازن يعني: الوضوح دون جمود، والانفتاح دون فوضى، والحَدْس دون خرافات، والفكر دون غطرسة، والعاطفة دون سيطرة، والإرادة دون عدوان، والتواضع دون محو الذات. التوازن هو التوازن بين ترددات الرنين. لتعزيز التوازن وصيانته علينا ممارسة الصمت، والتأمل، والاعتدال، والنية الأخلاقية، والرحمة، والمعرفة، والتواضع، والحضور. هذه ليست مجرد فضائل، بل آليات ضبط.

الحقل أساس التجربة الروحية

كل تجربة روحية أصيلة – من الوحي النبوي إلى النشوة الصوفية – هي لقاء مباشر مع الحقل. ليس بصوت، ولا بإله مجسم، بل بواقع خالص في حالته المضيئة. لهذا السبب، تبدو الحالات الروحية خالدة، لا حدود لها، موحدة، مشبعة بالمعنى، تتجاوز اللغة والفكر.

لأن العقل يدخل مؤقتًا في تناغم مع أعمق طبقة من الحقل – حيث يكون الوعي غير متمايز. يُطلق الصوفيون على ذلك اسم الوحدة، والحضور، والفناء، والتنوير، والنيرفانا.

في هذا الكتاب، نُطلق عليها: "نقطة التوازن" – الحالة التي تلتقي فيها حالة شبيه–الضوء (النور) (light-like realm)، وحالة الكتلة (mass realism)، والمجال (fundamental field of consciousness).

الخاتمة – الوعي هو المجال الذي تتعلم فيه البشرية الرؤية.

هذا المجال ليس تجريدًا، بل هو وسيط المعنى، وبنية الحَدْس، وإناء الأقدار، وجذر الأخلاق، والجسر بين الروح والكون، وأساس كل فهم. إن فهم الوعي هو فهم أنفسنا، وبعضنا البعض، والكون، والقوانين التي تحكم الوجود، ومعنى التوازن وضرورته.

العالم المادي تجلٍّ. مجال الوعي هو المُفسِّر. المطلق هو المصدر. مهمتنا بسيطة: ضبط الإناء، وتنقية الزجاج، واستقبال النور الأعمق. هكذا تصبح البشرية قادرة على الحكمة. هكذا تدوم الحضارات. هكذا تنعكس شروط التوازن على الأخلاق ويستقر الميزان.

الجزء السادس – (مجرد تأمل! ماذا لو؟) فرضية الثوتون Thoughton: نموذج جديد للعقل والطاقة والإدراك

"جسر ديكارت" بين الجسد والعقل والفيزياء والوعي والتوازن الوجودي

لطالما كان العقل أكبر حيرة للبشرية: ممَّ يتكون العقل؟ هل هو المادة؟ هل هو الروح؟ هل هي المعلومات؟ هل هو الوهم؟

قسم الفلاسفة الواقع إلى جوهرين. اختزل العلماء العقل إلى إشارات عصبية. حلل الصوفيون المادة إلى وعي. أعادت الحواسيب صياغة العقل كعملية حسابية. لكن كلًا من هذه المواقف لم يستوعب سوى جزء من حقيقة أكبر. يقترح هذا الفصل توليفة جديدة – نظرية الثوتون – وهي نموذج لا يفصل العقل عن المادة، ولا يدمج أحدهما في الآخر، بل يكشفهما كنمطين لجوهر أساسي واحد. نموذجٌ يرتكز على علم الأعصاب الحديث، وعدم التحديد الكمي، ونظرية المجال، وواجهات العقل والآلة، وميتافيزيقيا التوازن، ويرتكز على الأطروحة المركزية في كتابكم هذا:

الوعي هو توازن الوجود المُدرك لذاته.

الثوتون: الحلقة المفقودة في لغز العقل والمادة

في الفيزياء، لكل مجال كمّ: الضوء ⟵ الفوتون، الكهرومغناطيسية ⟵ الفوتون، القوة الشديدة ⟵ الغلوون، والجاذبية ⟵ الجرافيتون الافتراضي

إذن، ما هو كمّ الوعي؟

الثوتون هو الكمّ الأولي للتفاعل العقلي الجسدي. ليس غامضًا، ولا خارقًا للطبيعة، ولكنه مادي بما يكفي ليتم اكتشافه بشكل غير مباشر، والتأثير عليه بالنية، وتعطيله بالاضطراب، وتضخيمه بالانتباه، وترجمته إلى نشاط عصبي، وإظهاره خارجيًا من خلال التكنولوجيا.

تؤكد التطورات الحديثة هذا التوجه:

نيورالينك، 2024:

يُحرّك البشر المؤشِّرة المتحرّكة على شاشة الكومبيوتر بالتفكيرِ المحض بعد أن تفكّك شيفرته من أنماط الإشارات العصبية المرافقة للتفكير.

واجهات بين الأدمغة:

نية شخص تُحرّك يد شخص آخر.

الذكاء الاصطناعي يُعيد بناء الكلام الداخلي الصامت من الرنين المغناطيسي الوظيفي: يُصبح الفكر قابلًا للقراءة في الوقت الفعلي.

تكشف هذه الاكتشافات شيئًا مذهلًا: الفكر ليس مُجرّدًا. إنه مُجسّد مادي.

وهكذا، يصبح الفكر جسرًا مفاهيميًا –الثوتون Thoughton "الجسيم المفقود" الذي يربط:

العقل ↔ الدماغ

الموجة ↔ الجسيم

النية ↔ الفعل

الذاتي ↔ الموضوعي

الوعي ↔ المادة

أحادية الحالة الثنائية: الوعي كمجال وجسيم

"يتصرف الوعي كمجال وكمعلومات في آنٍ واحد". وهذا يعكس الفيزياء: الضوء ← موجة وجسيم / الإلكترونات ← سحابة ونقطة / المادة ← كتلة وطاقة / المعلومات ← مُجرَّدَة وفيزيائية.

لذلك، يجب أن يكون للوعي أيضًا حالتان:

الحالة الموجية (شبيهة بالمجال): منتشرة، غير محلية، تكاملية، كلية، ترتبط بالحَدْس، والإبداع، والوحدة والروحانية.

الحالة الجسيمية (الموضعية): منفصلة، قابلة للقياس، متجسدة في الخلايا العصبية، ترتبط بالمنطق، والذاكرة، والهوية، والفعل.

الفكر هو الوسيط – آلية الانتقال. عندما يتفاعل المجال مع الدماغ، تحدث استثارات في المجال تنهار إلى حالة شبيهة بالجسيمات. وعندما يتوسع العقل، يحلم، يتخيل، يعود إلى حالة شبيهة بالمجال.

هذا حل ممكن للثنائية القديمة الغير قابلة للحل:

الثنائية الديكارتية ← غير قابلة للحل

الاختزالية المادية ← ناقصة

المثالية ← غير قابلة للتحقق

العقل والمادة تكوينان لسلسلة متصلة واحدة. مثل الجليد والماء / الطاقة والكتلة / النحو، والدلالات، ومثل المعلومات والمعنى.

مبدأ اللاحتمية الكمي (لا يقين): مدخل (القوة الخامسة) الإرادة الحرة

أدخلت ميكانيكا الكم أول ثغرة علمية في الحتمية: الجسيمات ليس لها حالة ثابتة، وسُحب الاحتمالات تنهار إلى أفعال، والمعلومات تؤثر على النتائج، والحقول تحمل إمكانات.

هذا يخلق الموطن الطبيعي للفكر: الفكر يوازن الاحتمالات العصبية مع النية الواعية.

عند اتخاذ قرار: عدِّل الثوتون الحالات الدقيقة (microstates) في الخلايا العصبية

عندما تتعزز النية: تؤثر الحالة الموجية على مجالات الاحتمالات

عند حدوث الفعل: تتجلى الحالة الجسيمية على شكل إطلاق عصبي

هذا يحل "مفارقة الطاقة" الكلاسيكية للسببية العقلية:

لستَ بحاجة إلى طاقة سحرية للتأثير على الخلايا العصبية؛ ما عليك سوى تغيير احتمالاتها. وكما تُهدم الملاحظة (observation) الحالات الكمية، فإن النية الواعية – التي يحملها الثوتون – تُوجِّه النتائج المادية.

وهكذا تصبح الإرادة الحرة: مُؤسَّسة ماديًا، غير ثنائية، غير غامضة، متوافقة مع علم الأعصاب ونظرية الكم.

قد يؤكد علم الأعصاب إطار عمل الثوتون

يكشف مجال "واجهات الذكاء الاصطناعي العصبي" neuro-AI interfaces الجديد أن الوعي قابل للقياس، وفك التشفير، والنقل، والتجسيد، وإعادة البناء.

وبالتالي، فإن الوعي هو تدفق منظم للطاقة–المعلومات، وليس شبحًا في الجمجمة. العقل ليس محاصرًا في الدماغ. الدماغ بوابة – محوّل – بين الوعي في حالته الموجية والتعبير المادي.

وهذا يفسر سبب تغيير التأمل والتعبد للبنية العصبية، وكيف تُخلّف الصدمات ندوبًا في كل من الدماغ والعقل، والنية تُغير وظائف الأعضاء، وتأثيرات الدواء الوهمي تُغير الكيمياء الحيوية، والانتباه يُشكل الإدراك.

يُصبح الثوتون الآلية الكامنة وراء هذه الارتباطات – "الموجة الحاملة" للتأثير العقلي الجسدي.

التوازن: القانون الكوني وراء الوعي

أكدت الفصول السابقة أن الحياة تنبثق من التوازن، والوعي يحافظ على التوازن، والأخلاق تحمي التوازن، والحضارات تنهار بانهيار التوازن.

يتوافق نموذج الثوتون تمامًا مع هذا القانون الكوني: الوعي يتطلب توازنًا بين المجالات / الاضطراب يتسبب بالارتباك، الوهم والمعاناة / استعادته يتطلب الوضوح، الانسجام، النية الأخلاقية.

تصبح الأخلاق الحفاظ على التوازن: الخير = استعادة التوازن / الشر = اضطراب التوازن

لا تستقر نماذج الثوتون إلا في نظام متماسك؛ وبالتالي: يُربك التوتر الفكر، ويُزعزع غياب العدالة استقرار المجتمعات، وتُشوّه الصدمات تصور الذات، ويُزعزع الجشع استقرار الأسواق، ويُزعزع عدم المساواة استقرار البشرية.

ينهار كل شيء – من الخلايا العصبية إلى الأمم – عندما ينهار التوازن.

وحدة العلم والدين من منظور الثوتون

"الحقيقة الخارجية للعلم هي الحقيقة الداخلية للدين". يُثبت نموذج الثوتون صحة هذه العبارة بشكل مذهل.

في الدين: تصف "النور"، "الروح"، "النفس"، "السكينة"، "الهدى"، و"الميزان" الوعي في حالة الموجة.

في العلوم: تصف الحقول، والتناظر، والتوازن الداخلي، وقوانين الحفظ، والتوازن الديناميكي، الواقع نفسه في حالة الجسيم.

لغتان، حقيقة واحدة.

أدرك أينشتاين هذه الوحدة؛ وكذلك أدركها الأنبياء. مع الثوتون، يكتمل الجسر، جسر ديكارت.

التوليف النهائي: الوعي كصانع للواقع

تلتقي جميع الخيوط في رؤية واحدة: الوعي والمادة ليسا جوهرين مختلفين، بل حالتان لحقل كوني واحد يسعى إلى التوازن.

من هذا المنظور: الكون واعٍ في جوهره والفكر قوة فيزيائية والإرادة الحرة فعل كمي والأخلاق ضرورة هيكلية.

المعنى هو التوازن الذي يُصبح واعيًا بذاته. أو بالكلمات التي يجتمع عليها القرّاء: الوجود هو التوازن. انعدام التوازن معاناة. والعودة إلى التوازن هي غاية الوعي.

الفكر هو المفتاح الذي يُطلق هذه الوحدة. فهو يجعل الوعي قابلاً للقياس، والفيزياء ذات معنى، والأخلاق إلزامية، والدين متماسكًا، والوجود مفهومًا.

خاتمة الجزء السادس

تُحوّل نظرية الثوتون مُعضلة العقل والجسد القديمة إلى توليفة علمية وأخلاقية ووجودية. فهي تكشف عن الوعي كمجال توازن الكون – الموجة والجسيم، الروحي والمادي، الذاتي والموضوعي. وتربط الفيزياء بالميتافيزيقيا، والعلم بالدين، والعقل بالمادة، والذات بالكون. إنها ليست مجرد فرضية للوعي، بل هي رؤية في الوجود.

الجزء السابع: الإرادة الحرة في كونٍ مُحدَّد مسبقاً

تنبع الحجج المؤيدة لوجود الإرادة الحرة عمومًا من التجربة الذاتية، وضرورة المسؤولية الأخلاقية، وطبيعة التفكير الواعي والإبداع. وغالبًا ما تُطرح هذه الحجج في معارضة الحتمية الصارمة، وهي النظرة القائلة بأن جميع الأحداث، بما في ذلك خياراتنا، مُحددة مسبقًا بأسباب سابقة.

الحجج الرئيسية المؤيدة للإرادة الحرة

التجربة الذاتية للاختيار: تُعدّ التجربة الشخصية القوية والمباشرة لاتخاذ القرارات والشعور بالسيطرة عليها من أكثر الحجج شيوعًا. فمن اختيار وجبة طعام إلى تحديد مسار مهني، يشعر الأفراد بشعور من الاستقلالية والقدرة على التصرف، وهو شعور داخلي باتخاذ خيارات غير مُقيدة. وغالبًا ما تُعتبر هذه التجربة المُعاشة دليلًا بديهيًا على الإرادة الحرة.

المسؤولية الأخلاقية: تستند مفاهيم القانون والمكافأة والعقاب والذنب والثناء إلى افتراض المسؤولية الأخلاقية الفردية. وتفترض هذه الحجة الفلسفية أن محاسبة الناس على أفعالهم لا تكون عادلة إلا إذا كان بإمكانهم اختيار التصرف بشكل مختلف عن قصد. لو كانت الأفعال مُحددة مسبقًا، لكانت العقوبة تخدم غرضًا نفعيًا فقط (مثل الردع) بدلًا من غرض جزائي قائم على الاستحقاق الأخلاقي.

التروي والعقلانية: عملية التروي – أي موازنة الخيارات ودراسة العواقب – تعني أن النتيجة لم تُحسم بعد. إن أفعال النصح والإقناع والتحذير ذاتها لا تكون منطقية إلا إذا كانت لدى الناس القدرة على الاختيار بين مسارات عمل مختلفة ممكنة.

الإبداع والابتكار: يُطرح الإبداع البشري والقدرة على تخيل إمكانيات جديدة وتحقيقها من خلال خيارات غير مُحددة مسبقًا كدليل على الإرادة الحرة. وهذا يشير إلى مستوى من اتخاذ القرارات العفوية لا ينتج ببساطة عن سلسلة متصلة من الأسباب الفيزيائية السابقة. تُنشئ تقنية النانو تركيبات جزيئية جديدة لم يسبق للكون أن شكلها.

الحجج البراغماتية: يجادل البعض بأنه، حتى لو كانت الإرادة الحرة وهمًا، فإن الإيمان بها ضروري لمجتمع فعال ورفاهية شخصية. يمكن أن يعزز هذا المفهوم السلوك الاجتماعي المسؤول، ويشجع الشعور بالهدف، وهو ضروري للتنقل في العالم بطريقة

هادفة. أما البديل (الإيمان بالحتمية الصارمة) فقد يؤدي إلى العدمية أو اليأس لدى البعض.

وجهات نظر فلسفية

غالبًا ما يدور الجدل حول تعريفات مختلفة للإرادة الحرة.

الليبرالية هي موقف لا توافقي يدّعي أن الحتمية خاطئة وأن البشر يمتلكون إرادة حرة حقيقية، أي القدرة على أن يكونوا المصدر النهائي أو المنشئ لأفعالهم.

ترى التوافقية أن الإرادة الحرة متوافقة مع الحتمية. وغالبًا ما تُعرّف هذه النظرة الإرادة الحرة بأنها ليست القدرة على التصرف خارج نطاق السبب والنتيجة، بل هي حرية التصرف وفقًا لرغبات الفرد وأسبابه دون إكراه خارجي أو عائق مادي.

تؤكد الحتمية الصارمة/عدم التوافقية أن الحتمية صحيحة، ولأنها لا تتوافق مع الإرادة الحرة، فإن الإرادة الحرة غير موجودة.

كان ألبرت أينشتاين من أشدّ المؤمنين بالحتمية، واعتبر الإرادة الحرة وهمًا. وكثيرًا ما استشهد بالفيلسوف آرثر شوبنهاور والفيلسوف سبينوزا للتعبير عن معتقداته.

فيما يلي بعض الاقتباسات الرئيسية لألبرت آينشتاين حول الإرادة الحرة:

وجد أينشتاين في فكرة شوبنهاور العزاء والرؤية الثاقبة، القائلة بأن "الإنسان يستطيع أن يفعل ما يشاء، لكنه لا يستطيع أن يريد ما يشاء"، مشيرًا إلى أن هذا المفهوم أرشده طوال حياته وساعده على تقبّل أفعال الآخرين. وشعر أن هذا الفهم لغياب الإرادة الحرة منعه من أخذ نفسه والآخرين على محمل الجدّ ككيان مستقل، وساعده على الحفاظ على رباطة جأشه.

لتوضيح وجهة نظره، استخدم أينشتاين تشبيهًا بالقمر، مشيرًا إلى أنه لو كان لديه وعي، لاعتقد أنه يتحرك من تلقاء نفسه. وألمح إلى أن مراقبًا أكثر ذكاءً سينظر إلى إيمان البشرية بالإرادة الحرة على أنه وهم أيضًا.

حول السلوك البشري والمسؤولية، وعلى الرغم من حتميته الفلسفية، أدرك أينشتاين الحاجة العملية للتصرف كما لو أن الإرادة الحرة موجودة داخل المجتمع.

وصرح بأنه رغم عدم إيمانه بالإرادة الحرة، إلا أنه مُجبر على التصرف كما لو أن الناس مسؤولون عن العيش في مجتمع متحضر.

في نهاية المطاف، مع أن الشعور بالإرادة الحرة تجربة إنسانية عالمية، إلا أن وجودها كقدرة ميتافيزيقية فعلية يبقى بحثًا فلسفيًا وعلميًا عميقًا ومستمرًا.

يقدم هذا المنظور توليفة فريدة: إطار عمل حتمي حيث تكون النتيجة – التوازن – مفروضة بقوانين كونية عليا، وتكون الأفعال البشرية بمثابة آلية تصاعدية يتحقق من خلالها هذا القانون الفوقي التنازلي.

أعتقد أن الكون، بما في ذلك تطور الحياة ونحن، يعمل ويتقدم من خلال نهج تصاعدي، من الأسفل إلى الأعلى bottom-up، ولكن وفقًا لقوانين أساسية تنازلية top-down، وثوابت عالمية**universal** constants، ونتائج حتمية. سواءٌ آمنّا بالإرادة الحرة أم لا، فإن السعي الطبيعي نحو التوازن، الذي تحكمه قوانين الطبيعة، سيعيد حتمًا توازن الكوكب المشروط لاستمرار الحياة. أنا متفائل بأنه بما أن العقل البشري والحياة يُحددهما التوازن والقوانين الطبيعية، فإن هذه القوانين نفسها ستُعدّل أفكارنا وعقولنا لاستعادة التوازن والبقاء.

الإرادة الحرة والسعي الحتمي نحو التوازن

يكتسب النقاش الفلسفي حول الإرادة الحرة سياقًا جديدًا عند النظر إليه من منظور القوانين الكونية والسعي الطبيعي نحو التوازن. يُجسّد منظوري الفجوة بين الحجج المؤيدة والمعارضة، مُشيرًا إلى أن النتيجة النهائية حتمية، لكن رحلة الإنسان نحوها تتضمن صراعًا ضروريًا وواعيًا يُشبه الإرادة الحرة.

إعادة تصور الصراع الجوهري: يمكن إعادة صياغة النقاش بين مؤيدي الإرادة الحرة والحتمية ضمن هذا النموذج الجديد:

حجج الإرادة الحرة (الآلية التصاعدية):

إن التجربة الذاتية للاختيار والمسؤولية الأخلاقية ليست وهمًا، بل هي العملية التي تعمل من خلالها القوانين الطبيعية الأساسية.

القدرة على الفعل: تُمثل قدرتنا على التدبر والاختيار آلية "تصاعدية" للتغيير. نشعر بأننا نختار "التوازن العالمي"، وهذا الشعور ضروري لتحفيز الإجراءات اللازمة لتحقيقه.

القدرة على اختيار مسار متوازن: تصف حجج الإرادة الحرة بدقة التجربة الإنسانية في التعامل مع الأزمة. هذه القدرة على الفعل ضرورية لإحداث التغييرات النظامية اللازمة.

حجج ضد الإرادة الحرة (القوانين التنازلية):

تُسلط الحجج الحتمية الضوء على الثوابت الكونية الشاملة وقانون السببية والقوانين الأساسية التي تحكم الوجود كله، بما في ذلك الفكر والفعل البشري.

اختلال التوازن الحتمي؟ هذا المنظور يُغيّر الحجة الحتمية. ليس الأمر أن الأزمات حتمية، بل أن التوازن هو الحتمية. تُلزم القوانين الفيزيائية مكونات الكون إلى أن تسعى الأنظمة (بما في ذلك مناخ الأرض والنظم البيئية) إلى حالة توازنها الطبيعية.

مأزق "مُبرمج مسبقًا" – ذو حل: تُشير الحتمية إلى أن الأفعال البشرية المؤدية إلى الأزمات والحلول تحكمها قوانين طبيعية. وهذا يُعطي تفاؤلًا بأن هذه القوانين نفسها دافع البقاء الذيُ سيعيد تنظيم أفكارنا وعقولنا لاستعادة التوازن حتمًا.

توليفة الحتمية والاختيار

تُشكّل فكرتي الأساسية – وهي أن الكون يعمل من خلال عمليات تصاعدية ضمن قوانين حتمية تنازلية تؤدي إلى توازن طبيعي حتمي – العمود الفقري المتفائل لرؤية كتابي. إن صراع الإنسان مع الإرادة الحرة هو ببساطة وعي الكون بآلياته التنظيمية الذاتية.

وهكذا يقود هذا التوليف السرد نحو "التوازن العالمي":

بما أن السعي الطبيعي لتحقيق التوازن أمر حتمي، سواء اختار البشر التوازن بوعي أو استمروا في الفوضى، فإن القوانين الكونية ستعيد في النهاية التوازن الطبيعي للأرض بطريقة تُعيد الحياة إلى طبيعتها. هذا هو الضمان الحتمي التنازلي.

قد تُعبّر إحدى الشخصيات عن ارتياح عميق لاعتقادها بأن الكوكب سيبقى على قيد الحياة بغض النظر عن أفعال البشر، إلا أنها تُواجه تحديًا بدور البشر في هذا التوازن.

الوعي البشري كنظام مُصحّح ذاتيًا: هنا تصبح الإرادة الحرة حاسمة. إذا تحقق التوازن الديناميكي، ينتقل السؤال من "هل" سيحدث إلى "كيف" سيحدث و"بأي ثمن" على البشرية.

العقل البشري نفسه نتاج قوانين طبيعية مصممة للبقاء. إن تنامي الوعي البيئي، والإجماع العلمي، والحركات الاجتماعية (النهج التصاعدي) ليست أفعالاً عشوائية نابعة من الإرادة الحرة، بل هي استجابات حازمة لاختلال التوازن، تضمن بقاءنا وانسجامنا مع التوازن الكوني.

إعادة تعريف "الحرية" على أنها انسجام مع القانون الطبيعي: يتحقق "التوازن العالمي" الحقيقي عندما تختار البشرية بوعي مواءمة أفعالها مع قوانين التوازن الحتمية هذه.

"الاختيار" في الإرادة الحرة هو القبول الواعي بمكانتنا ضمن النظام الكوني. نحن "أحرار" عندما نفهم القوانين الطبيعية ونعمل وفقًا لها، لا ضدها. بتبني مسؤوليتنا تجاه كوكبنا، نؤدي دورنا الحاسم في الحفاظ على التوازن العالمي.

في الختام: يستغل الكتاب توتر جدل الإرادة الحرة لتوجيه البشرية نحو إدراكٍ حيوي. إن اختيار المسؤولية هو تأكيدٌ على الإرادة الحرة اللازمة لتحقيق التوازن العالمي. هذا الاختيار ليس حدثًا عشوائيًا، بل نتيجةٌ حتميةٌ لقوانين الطبيعة التي تُجبرنا على تصحيح أنفسنا والبقاء في كونٍ متوازن.

الإرادة الحرة: التوتر المركزي

حججٌ لصالح الإرادة الحرة: يُجادل مُؤيدو الإرادة الحرة بأن البشرية تمتلك القدرة الواعية اللازمة لتغيير المسار. ويفترضون أن اختلال التوازن الكوكبي الحالي ليس نتيجةً حتميةً لكونٍ حتمي، بل هو النتيجة المباشرة لخياراتٍ فرديةٍ لا تُحصى.

القدرات على الفعل: تُؤكد هذه النظرة على أن قدرتنا على تحمل المسؤولية الأخلاقية وتجربتنا الذاتية للاختيار تعنيان أننا قادرون على اتخاذ خيارٍ جماعيٍّ مُتعمدٍ نحو "التوازن العالمي". يُمكننا اختيار إعطاء الأولوية لصحة الكوكب على المدى الطويل بدل المصالح الخاصة والمنفعة على قصير المدى.

القدرة على اختيار مسار متوازن: تؤكد هذه الحجة أن البشر قادرون على تجاوز دوافعهم المحددة مسبقًا من خلال المداولات العقلانية. هذا يعني أننا لسنا مقيدين تمامًا بـ "مأساة العامة" أو الأنانية المتأصلة، بل يمكننا اختيار تعزيز الرعاية البيئية وتبني أسلوب حياة مستدام.

الحجج ضد الإرادة الحرة (الحتمية)

يجادل المعارضون بأن الأفعال البشرية، بما في ذلك تلك التي تؤدي إلى تغير المناخ، هي نتائج محددة مسبقًا لعوامل بيولوجية واجتماعية واقتصادية معقدة.

الاختلال الحتمي: يشير هذا المنظور إلى أن البشرية ليست سوى ترس في نظام حتمي ضخم. أفعالنا، من التصنيع إلى الاستهلاك، كانت النتيجة الحتمية لسلسلة من الأسباب السابقة. لذا، فإن الأزمة البيئية مرحلة حتمية في تطور جنسنا البشري، وليست خللًا أخلاقيًا.

مأزق "مبرمج مسبقًا": إذا لم تكن الإرادة الحرة موجودة، فإن مناشدة شعور الناس بالمسؤولية الأخلاقية أمرٌ عقيم. تتحدى هذه النظرة فرضية أننا نستطيع "إنقاذ أنفسنا" من خلال الاختيار الواعي، مما يعني أن أي قرار سيكون أيضًا حدثًا مُحددًا مسبقًا، وليس فعل توازن مُختار بحرية.

البوصلة الأخلاقية: التوازن كخير كوني

إذا كانت الإرادة الحرة حقيقية، فكيف نُوجِّهها؟ يكمن الجواب في الثابت الكوني للتوازن.

الخير: أي فكر أو فعل يُحافظ على التوازن أو يُعيده على جميع المستويات – الفردية والاجتماعية والبيئية / الشر: أي فكر أو فعل يُخلّ بهذا التوازن الدقيق.

يوجد شرح مُفصّل لحلول الأزمة العالمية في الفصل الأخير: سقوط الأقنعة

أفضل شرح لحجتي المؤيدة لحرية الإرادة يكمن في هذا المقتطف من كتابي "الثابت والمتغير:"

"القوة الخامسة مجازية وليست قوة خارقة للطبيعة:

يتضح هذا جليًا عند دراسة أسباب فشل نموذج "القوة الخامسة" عند استحضاره لقوة إرادة حرة منفصلة وغير مادية، وكيف يخلق هذا النموذج مشاكل ميتافيزيقية أكثر مما يحل. فهذه القوة المفترضة تحتاج إلى التدخل في العالم المادي دون انتهاك قوانين الحفظ، والتأثير على المادة العصبية دون أي نقل طاقة قابل للكشف، وأن تظل غير قابلة للكشف علميًا مع كونها العامل الحاسم في الفعل البشري. لا يُفسر هذا المفهوم الحرية؛ بل يُعيد تسمية اللغز ويُدخل خللًا خارقًا للطبيعة في كونٍ كان من الممكن فهمه. علاوة على ذلك، فإن الحرية التي تتحقق بكسر سلسلة السببية لا يمكن التعرف عليها كحرية على الإطلاق؛ بل لا يمكن تمييزها عن العشوائية. والعشوائية – أي حدوث فعل دون سبب – ليست إرادة؛ بل هي عينها." فقدانها.

السببية ليست سلسلة، بل مجال

للتخلص من هذا المأزق، يجب علينا تحديث مفهومنا للسببية، فهي ليست سلسلة، بل مجال. إن الصورة الكلاسيكية النيوتونية للسببية – سلسلة جامدة من الدفعات الحتمية – هي تبسيط مفرط. يشير الفهم الحديث، المستند إلى ميكانيكا الكم ونظرية التعقيد وعلم الأحياء النظمي، إلى أن السببية يُنظر إليها بشكل أفضل على أنها متعددة الطبقات، واحتمالية، وسياقية للغاية. وهي تعمل من خلال وضع القيود وتمكين مساحات الاحتمالات أكثر من عملها من خلال فرض نتائج دقيقة. ضمن حدود القانون الفيزيائي، غالبًا ما يكون من الممكن فيزيائيًا وجود احتمالات مستقبلية متعددة. أي مستقبل محدد سيظهر ليس دائمًا محددًا بتفاصيل دقيقة للغاية من خلال الحالة السابقة للكون. السببية، في هذا المنظور الأشمل، لا تملي كل التفاصيل؛ بل تحدد المشهد وقواعد اللعبة.

عدم الحتمية بدون فوضى

يشير هذا إلى حقيقة عدم الحتمية بدون فوضى. على المستويات الأساسية التي جاء وصفها في فيزياء الكم، يُعدّ عدم التحديد سمةً متأصلةً في الواقع. يمكن للأحداث أن تقع دون أن تكون محددةً مسبقًا بدقة، ومع ذلك، فإنها تحدث ضمن نطاقات مقيدة إحصائيًا ودون انتهاك البنية العامة للقانون الفيزيائي. هذه الانفتاحية الجوهرية ليست، في حد ذاتها، حرية. إن "اختيار" الإلكترون الاحتمالي ليس نموذجًا للإرادة البشرية. لكن عدم التحديد الأساسي يُنشئ مساحةً – انفتاحًا وجوديًا – في أساس الواقع. تتطلب الحرية مثل هذا الانفتاح، لكن الانفتاح وحده غير كافٍ. إنه المادة الخام، وليس المنتج النهائي.

الوعي كمُنتقي، لا كمُنتهك

العامل النهائي هو الوعي كمُنتقي، لا كمُنتهك. لا يعمل الوعي بتجاوز القانون الفيزيائي. إنه يعمل ضمن المساحة الواسعة التي يسمح بها القانون الفيزيائي، حيث توجد نتائج متعددة ومسموح بها فيزيائيًا – سواء في حالات عدم التحديد الدقيقة للعمليات العصبية أو في حالات الغموض الكلية لبنية معقدة. في لحظة اتخاذ القرار، يؤدي الوعي دوره المحوري. فهو يُقيّم الأفعال المحتملة بناءً على معناها المتوقع، ويُدمج الذاكرة والنوايا المستقبلية، ويؤجل رد الفعل التلقائي، ويختار من بين البدائل. هذا الاختيار ليس عشوائيًا، بل هو مُستنير بقيم متراكمة على مدار العمر، وهوية شخصية مُشكّلة، وفهم دلالي للعالم. هنا تحديدًا تنشأ الحرية، لا كهروب من السببية، بل كملاحة واعية مُوجّهة بالقيم ضمن المجال السببي. إنها السببية التي تُصبح مُوجّهة ذاتيًا.

الحرية كانفتاح مُهيكل

لذلك، يُمكننا تعريف الحرية بأنها انفتاح مُهيكل. الحرية الحقيقية ذات المعنى ليست غيابًا تامًا للقيود، بل هي بنية مُحددة تتطلب ثلاثة عناصر:

1. القيود: قوانين وهياكل ثابتة تُتيح نتائج قابلة للتنبؤ وأفعالًا موثوقة. بدون حدود، يتحول الفعل إلى فوضى غير مُترابطة.

2. البدائل: تعدد حقيقي للمستقبلات المسموح بها فعليًا للاختيار من بينها. بدون خيارات حقيقية، يكون الفعل مجرد إكراه.

3. التأمل: القدرة الواعية على نمذجة هذه البدائل. البدائل، وموازنتها وفقًا للقيم، ثم اختيار أحدها. بدون هذا الوعي، يفتقر الفعل إلى الشعور بالملكية.

المسؤولية دون عبء ميتافيزيقي

توجد هذه الشروط الثلاثة بقوة ضمن الأنظمة الطبيعية المعقدة كالدماغ البشري. إذن، الحرية ليست انفتاحًا مطلقًا، بل هي انفتاح منظم – القدرة على الإبداع الواعي والتأملي الذاتي ضمن عالم تحكمه القوانين.

يدعم هذا الإطار بشكل طبيعي مفهوم المسؤولية دون عبء ميتافيزيقي. فلو كانت أفعالنا محددة بشكل كامل وآلي بحالات سابقة، لكان مفهوم المسؤولية بلا معنى – لكنا مجرد دمى متحركة. ولو كانت أفعالنا بلا سبب على الإطلاق، لاستحالت المسؤولية – لما أمكن محاسبتنا على أحداث عشوائية. تجد المسؤولية مكانها المنطقي في المنطقة الوسطى: فهي موجودة لأننا فاعلون نعمل ضمن قيود معروفة، ونستطيع فهم العواقب المحتملة لأفعالنا، ولو واجهنا ظروفًا مماثلة، لكان بإمكاننا الاختيار والتصرف بشكل مختلف بناءً على التأمل والتقييم. وهذا أساس كافٍ للمسؤولية الأخلاقية والقانونية. لا يتطلب الأمر روحًا خارجة عن المادة، بل ذاتًا واعية ومتكاملة سببيًا ومعقدة بما يكفي.

الحرية والمعنى والاستمرارية

نرى إذًا أن الحرية والمعنى والاستمرارية لا تنفصل. فالاختيار الحر ليس مجرد انتقاء خيار من قائمة، بل هو تأكيد لقيمة، والتعبير عن جانب من جوانب الهوية، وتوسيع نطاق السرد المتماسك للحياة. أما الاختيار الذي لا يحمل معنى – كرمي قطعة نقدية للبت في الأمر، أو ارتعاش عصبي عشوائي – فلا يُنظر إليه كفعل حر، بل كحدث اعتباطي أو غريب. الحرية، بمعناها الأعمق، هي الأداة التي تُرسّخ بها الذات هويتها عبر الزمن، وتُؤلف قصتها بفعالية ضمن السرد الكبير لواقع قائم على القانون.

التأمل اللاهوتي دون تدخلية

من منظور لاهوتي، يُحررنا هذا الرأي من التدخلية. إنّ منح الحرية من الله لا يستلزم تعليقًا دوريًا للقانون الطبيعي، كما لو أن الله يتدخل لكسر قيود الحتمية التي تكبّلنا. بل إنّ الحرية موجودة لأنّ النظام الكوني مُنظّمٌ بطبيعته – مفهوم، ومنفتح، ومتدرّج

– بطريقة تسمح بالمشاركة الواعية، بل وتُنمّيها. فالخلق ليس آلة حتمية، ولا هو ساحة فوضوية للمعجزات. إنه نظام متماسك وكريم، منفتح بما يكفي لاستحضار شراكة حقيقية من داخله.

الحرية كوظيفة، لا كاستثناء

وهكذا، نستنتج أن الإرادة الحرة وظيفة، لا استثناء. إنها ليست شذوذًا خارقًا للطبيعة مُضافًا إليها. إنها وظيفة رفيعة المستوى تنشأ بشكل طبيعي عندما تتلاقى التعقيدات المادية، والتكامل الواعي، والمعنى الدلالي. وهي تنشأ بشكل قانوني من خصائص الكون؛ وتعمل وفقًا لمبادئ السببية الواعية. فالحرية ليست غياب السببية. إنها السببية التي تُصبح واعية بذاتها، وتُشكّل نفسها بنفسها، وتُوجّه نفسها بنفسها. إنها الكون، في صورة كائن واعٍ، يتعلم كيف يُوجّه نفسه ضمن تياراته الخاصة.

استكمال البنية

مع هذا الفهم، تكتمل بنية الثابت والمتغير. يُوفّر الثابت البنية والقيد غير القابلين للتفاوض – القانون الفيزيائي، والضرورة البيولوجية، والشكل المنطقي. يُوفّر المتغير مجال التعبير والتكيف والشكل الجديد. ينشأ الوعي كواجهة تكاملية حيث يُترجم الشكل إلى معنى. تعمل الحرية كقدرة على الاختيار الواعي ضمن الانفتاح الذي يُوفّره المتغير، المُقيّد بالثابت. والتوازن الديناميكي هو المبدأ الذي يُحافظ على تماسك الكل عبر الزمن. لم يُضَف شيء بلا داعٍ – لا قوى خامسة، ولا انقطاعات خارقة للطبيعة. لم يُزَل شيء بشكل تعسفي – يبقى المعنى والمسؤولية والاختيار الأصيل سليمة، مُتجذّرة في الواقع." نهاية المقتطف.

تكمن الحقيقة الباطنية للدين، المعبر عنها مجازيًا، في جوهر الحقيقة والحقائق الخارجية التي يُعبّر عنها العلم.

فكرتي المحورية هي: إن النقطة التي يختلف عندها الأكاديميون وأتباع الديانات هي، في جوهرها، نفس نقطة التقاءهم. فما بقي غير ملموس ومجرد في العلم – ما لم يُختزل إلى الفيزياء أو يكمن "خارج آفاقنا" – يُمثل في الواقع نقطة التقاء مُجدّدة للعلم والفلسفة والدين. إنه المُعادل الموضوعي للعقل المُجَرَّدْ في الفلسفة وعلم النفس، وللحقيقة الرمزية أو الروحية أو الميتافيزيقية في الخطاب الديني (دلالاته).

الحدود الفاصلة بين العلم والدين مُتشعبة بشكل مُثير للاهتمام. غالبًا ما يكون الأمر متعلقًا باختلاف أشكال التعبير (اختلاف في مستوى النحو) أو بناء اجتماعي سياسي ناشئ عن أنظمة أيديولوجية مُتعمّدة. تكمن الحقيقة الباطنية للدين في جوهر الحقيقة الخارجية للعلم، والتطبيق الأخلاقي للحقيقة العلمية جوهر الحقيقة الباطنية للدين. قد يتناقض بناء الجملة الدينية مع الحقائق العلمية، لكن حقيقتها الباطنية لا تتناقض. على العكس من ذلك، عندما تُؤخذ الحقائق العلمية كظواهر آلية على المستوى النحوي – مُجرّدةً من دلالاتها ومعناها الكامن – فإنها تُنتج هي الأخرى تناقضًا مع الدين، الذي يُعنى بطبيعته بالمعنى والغرض.

تلتقي الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية عند نقطة المعنى الباطني، الذي تُدركه الحواس، ويُفسّره العقل، ويُشير إليه الوعي. إن وصف الدين بأنه "أفيون" أو مصدر للتطرف يرتبط بتوظيفه من قِبل مصالح خاصة، تمامًا كما استُخدمت التكنولوجيا لإثارة الصراعات وإشعال صراع الحضارات. لطالما كان هذا مجال الأيديولوجيات والرأسمالية.

يتعلق أحد الخلافات الرئيسية بين الدين والمذاهب الأخرى بالإيمان بإله شخصي – خالق يرزق، ويتدخل، ويُعاقب، ويُكافئ. ليس هدفنا هنا الجدال حول ما إذا كان الله متدخلاً مباشراً، أم مجموعة قوانين طبيعية، أم وعياً خالصاً. ما يهمنا هو الرأي السائد بأن هذا التدخل، سواءً كان مباشراً أو من خلال قوانين طبيعية، يتوافق مع التوازن والتوازن في جميع شؤون الحياة: الفردية والجسدية والاجتماعية، ويعمل باستمرار على الحفاظ عليهما.

اهتمامي الرئيسي في هذا الكتاب هو أخلاقي. سواء أكان الإطار الأخلاقي علمانياً وعلمياً، وجودياً بحتاً، أم مستمداً من الدين، فإن جميعها تندمج في نهاية المطاف عند نقطة توازن. تشترك في إطار مرجعي مشترك، وثوابت، وبالتالي ضرورة للضوابط الأخلاقية.

بعبارة أخرى، فإن الموضوع الأساسي للأديان هو تطبيق أخلاقي قائم على المنطق الذي يحافظ على انسجام العالم الطبيعي من خلال التوازن. إنه "لامدا" اليونانية التي تعترض دائرة الدين ودائرة العلم – مجال الثنائية الفيزيائية في حالة توازن، على غرار انسجام الطاويّة. بما أنه لا يمكن لأحد إثبات وجود إله شخصي تجريبيًا، ولم يُقدَّم دليل قاطع، فإن الاهتمام المشترك لجميع الأطراف ينبغي أن يتجاوز النقاشات التقليدية حول المعتقدات. ينبغي أن يُركِّز بدلًا من ذلك على القضايا الأخلاقية المشتركة التي ترتكز عليها الأديان والفلسفات والعلم. ينبغي حل الخلافات على أرضية مشتركة، استنادًا إلى الحقائق العلمية، والمُجَرَّدْ الديني (الذي لا يتعارض مع هذه الحقائق)، وفلسفة علمية بطبيعتها، مُتجذِّرة في الثوابت لا في النسبي. بعبارة أخرى، انعكاس حقيقة التوازن وشروطه الفيزيائية على الأخلاق، اشتقاق الأخلاق من الشروط الأساسية لمفهوم التوازن (التوازن الانعكاسي في الأخلاق).

ولتلخيص هذه الرؤية، أودّ أن أقتبس من الشاعر البريطاني ويليام بليك:

"تناول النبيان إشعياء وحزقيال العشاء معي، وسألتهما كيف تجرّآ على التأكيد القاطع بأن الله خاطبهما؛ وهل لم يخطر ببالهما آنذاك أنه سيُساء فهمهما، وبالتالي سيكونان سببًا للرفض.

أجاب إشعياء: "لم أرَ إلهًا، ولم أسمعه، بإدراكي العضوي المحدود؛ لكن حواسي اكتشفت اللانهائي في كل شيء، ولما اقتنعتُ حينها، ولا زلتُ مُقتنعًا، بأن صوت السخط الصادق هو صوت الله، لم أُبالِ بالعواقب، بل كتبتُ." – خيال لا يُنسى؛ زواج الجنة والنار؛ ويليام بليك.

الدين في العلم – العلم في الدين

"الله لا يلعب النرد بالكون." ألبرت أينشتاين

عن الوحدانية، الأصل الواحد لجميع الكائنات في الوجود:

21:30 أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.

عن القوانين الأساسية التي تحكم الكون ونظرة وحدة الوجود:

41:11 ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا 33:72

التفسير الرمزي لهذه الآيات مفتوح للفلسفة والدين والعلم في آن واحد. علميًا، يصف هذا المفهوم الأشياء الطبيعية التي تحكمها قوانين الطبيعة. دينيًا، يدل على طاعة إرادة الله وتصميمه – طاعة تتجلى في النتائج النهائية للتفاعلات. ويفترض أن الله هو من خلق العناصر والقوانين الفيزيائية، ويمكنه تغييرها متى شاء. يشير هذا المنظور أيضًا إلى أنه بينما الطبيعة مُحددة، يمتلك البشر خيارًا وإرادة حرة في إطار هذه الحتمية.

يفسر التصوف الطبيعي natural mysticism الآيات القرآنية على أنها تشير إلى العقل والوعي كأجزاء جوهرية من العالم الطبيعي (عرضنا الأمانة ... قالتا). تُعبر الآيات عن حالة من الوعي، ويمكن أن تُشير أيضًا إلى مفاهيم مثل "الذرات" البوذية أو حالات الوعي.

يتوافق هذا مع الحَدْس العلمي لألبرت أينشتاين: "كل من يُشارك بجدية في السعي وراء العلمُ يقتنع بأن روحًا ما تتجلى في قوانين الكون – روح أسمى بكثير من روح الإنسان. يمكن للمرء أن يُطلق على هذا "الثابت الكوني" – صيغة لنوع جديد من التوليف بين العلم والدين، حيث يكون الله عاملاً، يُرمز له بالحرف اليوناني لامدا (Λ). يُمكن لمثل هذا المفهوم أن يُمهد الطريق لعصر غنوصية جديد في الروحانية البشرية."

في جميع الأحوال، تلتقي هذه التفسيرات حول حقيقة محورية: الحقيقة الخارجية للعلم هي نفسها الحقيقة الداخلية للدين. كلاهما يُعبّر عن جوهر أساسي وطبيعة توحيدية، ويصفهما.

لا يختلف هذا السرد العلمي لنشأة الكون اختلافاً جوهرياً عن الفكرة العامة المُقدّمة من خلال الخطاب الرمزي الديني. يصف العهد القديم، وبشكل أدق القرآن الكريم، سيناريو مشابهاً بشكل لافت، حيث يُصوّر الله على أنه اليد التي تستخدم القوى الأساسية وتُوجّه التفاعلات. من الناحية الدينية، يُعادل "سحابة الدخان الحارة" بداية الكون الكثيفة والحارة.

في البدء كان الانفجار العظيم. تمدد الكون – الممتلئ تماثليًا بكثافة طاقة عالية جدًا، ودرجات حرارة وضغوط هائلة – ثم برد بسرعة هائلة.

51:47 ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

41:11 ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

من تلك الحالة الشديدة الكثافة والحرارة، بدأ الكون يبرد. بعد حوالي 10^{-35} من الثانية من التمدد، تسبب تحول طوري phase transition في تضخم كوني، نما خلاله الكون بشكل كبير. بعد توقف التضخم، تكوّن الكون من بلازما كوارك–غلوون، بالإضافة إلى جميع الجسيمات الأولية الأخرى التي تدخل في تركيب بروتونات ونيوترونات نواة الذرة. كانت درجات الحرارة مرتفعة لدرجة أن الحركات العشوائية للجسيمات (يذكر الكتاب المقدس الفوضى) كانت بسرعات نسبية، وكانت أزواج الجسيمات والجسيمات المضادة من جميع الأنواع تُنشأ وتُدمر باستمرار في التصادمات.

في مرحلة ما، انتهك تفاعل مجهول يُسمى تَكَوُّن الباريونات مبدأ حفظ عدد الباريونات، مما أدى إلى زيادة ضئيلة جدًا في عدد الكواركات واللبتونات على عدد مضادات الكواركات واللبتونات المضادة – بنحو جزء واحد من 30 مليون. وقد أدى ذلك إلى هيمنة المادة على المادة المضادة في الكون الحالي.

6:73 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

2:117 لَهُ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

10:61 (..... وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)

على مدى فترة طويلة من الزمن، جذبت المناطق الأكثر كثافة بقليل من المادة الموزعة بشكل شبه منتظم المادة المجاورة بفعل الجاذبية، وبالتالي ازدادت كثافتها، مشكلةً سحبًا غازية ونجومًا ومجرات وهياكل فلكية أخرى يمكن ملاحظتها اليوم.

21:30 ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

21:104 ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

من السمات المهمة لزمكان الانفجار العظيم وجود الآفاق. بما أن للكون عمرًا محدودًا، والضوء يسافر بسرعة محدودة، فقد تكون هناك أحداث في الماضي لم يتسنَّ لضوءها الوصول إلينا. وهذا يضع حدًا أو أفقًا ماضيًا لأبعد الأجسام التي يمكن رصدها. وعلى العكس من ذلك، نظرًا لأن الفضاء يتمدد، والأجسام البعيدة تتراجع بسرعة أكبر، فإن الضوء الذي نبعثه اليوم قد لا "يلحق" أبدًا بالأجسام البعيدة جدًا.

56:75-76 ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

يعتمد وجود أيٍّ من نوعي الأفق على تفاصيل نموذج فريدمان–ليميتر–روبرتسون–ووكر FLRW الذي يصف كوننا. يشير فهمنا للكون منذ بداياته إلى وجود أفق ماضٍ، مع أن رؤيتنا عمليًا محدودة بسبب عتامة الكون في تلك العصور المبكرة. إذا استمر تمدد الكون في التسارع، فسيكون هناك أفق مستقبلي أيضًا.

حتى الرؤية النسبية الزمن مذكورة صراحةً في القرآن الكريم:

32:5 ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

70:4 ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

ملاحظة: ليس الهدف من إدراج الآيات القرآنية في هذا السياق إثبات وجود إعجاز علمي في القرآن الكريم، ذلك لأن القرآن كتاب أخلاق، والنبي عبر عن ذلك بقوله: "انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، ولكن الهدف هو تبيان أن أي تفكر وجودي على مستوى النبوة لا بد أن تتجلى أمامه حقائق كونية ظاهرة وباطنة، ومن ضمنها الجدلية المستمرة بين الفوضى والنظام البادية للعيان، وسعي مكونات الطبيعة نحو التوازن، وهذا يتجلّى بوضوح في آيات النص القرآني.

الرمزية في الإسلام: المعايير الأخلاقية القائمة على الوظيفة البيولوجية

وضع الإسلام قواعد ومعايير عامة للسلوك تتوافق مع ثابت "الوظيفة" ومنها الوظائف البيولوجية. ويشكل الافتراض الأساسي لربط الشريعة بما هو ثابت في الطبيعة البشرية أساس القواعد الأخلاقية المطلقة في الأخلاق الإسلامية.

بما أن الوظيفة البيولوجية تقوم على قواعد وإشارات لا يمكن اختزالها في الفيزياء المحضة أو الآليات أو ديناميكيات المادة والقوانين الأساسية، وبما أن هذه الوظيفة ظلت ثابتة على مر الزمن، فقد جعل الإسلام كل ما يتعلق بتوازن هذه الوظيفة والحفاظ عليها ثابتًا. أما فيما يتعلق بمجال "الشكل" – النسبي والمتغير – ترك الإسلام باب الاجتهاد مفتوحًا للتطوير والتوسع. وفي الوقت نفسه، ربط أي آثار مستقبلية بنفس المعايير الثابتة المستمدة من الوظيفة البيولوجية. في هذا الإطار، يكون الثابت مرجعًا للنسبي المتغير.

يجد الثابت تعبيره في الرمز، وفي المُجَرَّدْ، وفي التبصر باللانهائي الكامن في كل آية أو معيار أخلاقي. أما النسبي، في المقابل، فيجد تعبيره في هامش من الحرية، في الطبيعة الظرفية والناشئة للأحداث. يندرج مبدأ بناء المعرفة على الأخلاق ضمن هذا التعريف. على النقيض من ذلك، في الثقافة الغربية، التي اتجهت إلى بناء الأخلاق على المعرفة النسبية والعَرَضيّة – وهو منظور يفترض مسبقًا أن المعرفة تطورية في جميع جوانبها. هذا يضع "المطلق" في الثقافة الأخلاقية الشرقية في مكان الحكم على المعرفة كنشاط معني بالمادية والفيزياء وعملية تطورية ديناميكية. في المقابل، في الغرب، كان الميل إلى تجنب استخدام كلمة "المطلق" و"المجرد" في العلوم والتلاعب بها.

في الإسلام، يُعبّر عن الروح بـ (الروح) ببساطة بالغة: إنها أمر الله، أمرٌ لا يمكن لنا من أن نسبر أغواره، أو ندركه. لا يُعرّفها الإسلام بأي كلمة أخرى – مثل "شيء" أو "خلق". للتعبير عن الروح، تُستخدم فقط كلمتا "أمرُ ربّي" أو "أمر الله".

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا 17:85

الفصل الثالث: أقنعة الرأسمالية

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ – الروم: 41

نيسان أقسى الشهور، يخُرج
الليلك من الأرض الموات، يمزج
الذكرى بالرغبة، يحرك
خامل الجذور بغيث الربيع .... ما هذه
الجذور المتشبثة، أيه غصون تنمو ... من
هذه النفايات المتحجرة؟ يا ابن آدم،
أنت لا تقدر أن تقول أو تزر، لأنك لا
تعرف
غير كومة من مكسر الاصنام، حيث
الشمس تضرب،
والشجرة الميتة لا تعطي حماية، ولا الجندب
راحة،
ولا الحجر اليابس صوت ماء. ليس غير
الظل تحت هذه الصخرة الحمراء،
(تعال إلى ظل هذه الصخرة الحمراء)،
فأريك اختلافاً مختلفاً عن مكانك
او ظلك في المساء ينهض كي يلاقيك؛
لسوف أريك الخوف في حفنة من تراب

(مدام سوسوستريس، البصارة الشهيرة،
اصابها زكام شديد، ومع ذلك
.فهي معروفة باسم حكم امرأة في أوربا
لديها زمة ورق خبيثة. إليك، قالت،
هذه ورقتك، الملاح الفينيقي الغريق،
لؤلؤتين كانتا عيناه. انظر)!
هذه (بيلادونا) سيدة بلاك ... سيدة الذوق
هنا الرجل الذي قام بثلاثة، ومن ثم،
وهنا التاجر وحيد العين، وهذا يحدث،
وهي خالية، هي شيء عصره على ظهره،
محجوبة عني. أنا لا أجد
الرجل المصلوب. اخش الموت بالماء

تي إس اليوت – الأرض اليباب

فسّر ما يلي:
بيروت (بحر – حرب – حبر – ربح)
البحرُ: أبيض أو رصاصيٌّ , وفي ابريل
أخضرُ ,
أزرق , لكنه يحمرُّ في كل الشهور إذا غضبْ
والبحر : مال على دمي
ليكون صورةَ مَنْ أُحِبْ
الحربُ: تهدمُ مسرحيتنا لنلعب دون نصّ أو
كتابْ
والحرب: ذاكرةُ البدائيين والمتحضرين
والحرب : أولها دماء
والحرب : آخرها هواء
والحرب : تثقب ظلّنا لتمرَّ من بابٍ لبابْ
الحِبْرُ: للفصحى , وللضباط , والمتفرجين على
أغانينا
وللمستسلمين لمنظر البحر الحزين
الحبر : نَمْلٌ أسودٌ , أو سيِّدٌ
والحبرُ : برزخُنا الأمين
والربحُ : مُشْتَقٌ من الحرب التي لا تنتهي
منذ ارتدتْ أجسادُنا المحراثَ
منذ الرحلة الأولى إلى صيد الظباء
حتى بزوغ الاشتراكيين في آسيا وفي إفريقيا !
والربح : يحكمنا
يُشَرِّدنا عن الأدوات والكلمات
يسرقُ لحمنا
ويبيعُه
بيروت أسواقٌ على البحرِ
اقتصادٌ يهدم الإنتاجَ
كي يبني المطاعم والفنادقَ...
دولةٌ في شارعٍ أو شُقَّةٍ
مقهى يدور كزهرة العبَّاد نحو الشمس
وَصْفٌ للرحيل وللجمال الحُرّ
فردوسُ الدقائق
مقعدٌ في ريش عُصفورٍ
جبال تنحني للبحر
بحرٌ صاعدٌ نحو الجبال
غزالةٌ مذبوحةٌ بجناح دوريّ
وشعبٌ لا يحبُ الظلّ
بيروتُ – الشوارعُ في سُفُنْ
بيروت – ميناء لتجميع المُدُنْ
دارتْ علينا واستدارتْ. أدبرتْ واستدبرتْ
هل غيمةٌ أُخرى تخون الناظرين إليكِ يا
بيروت؟
هندسةٌ تلائمُ شهوة الفئة الجديدة
طحلبِ الأيام بين المدِّ والجزر
النفاياتِ التي طارت من الطبقات نحو
العرش...
هندسة التحلُّل والتشكُّل
واختلاط السائرين على الرصيف عشيَّةَ
الزلزال...
دارتْ واستدارتْ
هندسيَّتها خطوطُ العالم الآتي إلى السوق
الجديدة
يُشترى ويُباع يعلو ثم يهبط مثل أسعار الدولار
وأُونصةِ الذهب التي تعلو وتهبط وفق أسعار
الدم الشرقيِّ ..... لا... بيروتُ بوصلةُ
المحارب...
نأخذُ الأولاد نحو البحر كي يثقوا بنا....
مَلِكٌ هو الملك الجديد...
وصوتُ فيروزَ الموزَّعُ بالتساوي بين طائفتين
يرشِدنا إلى ما يجعل الأعداء عائلةً
ولبنانَ انتظاراً بين مرحلتين من تاريخنا الدمويِّ

محمود درويش – قصيدة بيروت

أصل أقنعة الرأسمالية

الجزء الأول: النشأة

في البَدءْ: عندما كان التبادل مقدسًا

قبل الرأسمالية بوقت طويل، كان البشر يتبادلون الأشياء، ولكن ليس بهدف الربح. كان التبادل موسميًا وأخلاقيًا وجماعيًا. رَبَط القبيلة، وأعاد توزيع السلع، وعزز الالتزامات الاجتماعية. لم تكن النظم الاقتصادية الأولى أسواقًا، بل شبكات أخلاقية.

اقتصاديات العطاء في بدايات البشرية: أظهر علماء الأنثروبولوجيا، مثل مارسيل موس، أن المجتمعات الأولى كانت تتماسك حول ثلاث التزامات: العطاء، الأخذ والمعاملة بالمثل.

كان التبادل فعل شرف، وليس تراكمًا. أعطى صياد في بولينيزيا نصف صيده لجاره. تقاسم صياد من قبيلة السان اللحم في جميع أنحاء المخيم. ذبح شيخ بدوي أفضل ما لديه من الماشية لشخص غريب. لم تكن هذه الأفعال كرمًا غير عقلاني، بل كانت توازنًا.

بالعطاء، يُرسخ المرء استقرار القبيلة. بالمشاركة، كان المرء يضمن مستقبله. وبالمعاملة بالمثل، حافظ المجتمع على تماسكه. في المقابل، كان الربح مخجلاً وتراكم الثروة خطراً، فالكنز بينما يتضور الآخرون جوعاً يُخل بالتوازن، الذي اعتبرته المجتمعات القديمة مبدأً ميتافيزيقياً.

السوق المقدسة في العالم القديم: حتى في الحضارات الحضرية المبكرة – بلاد ما بين النهرين، ومصر، وفينيقيا – كانت الأسواق موجودة، لكنها كانت ذات طابع أخلاقي مُفرط. في بلاد ما بين النهرين، حدد قانون حمورابي الحد الأقصى للأسعار، وعقوبات على المبالغة في الأسعار، وقواعد لمنع الاستغلال. كان السوق المصري مُنظّماً بقانون ماعت – مبدأ التوازن الكوني والنظام الأخلاقي. بين الفينيقيين، كانت طرق التجارة تُعتبر جسوراً ثقافية، وليست أساطيل بحرية لغزو الآخر.

كان التبادل مُتجذّراً في المقدس، والاقتصاد يُخدم التوازن والأسواق تابعة للأخلاق. ظهرت الرأسمالية وقلبت هذا التسلسل الهرمي.

القناع الأول: الرأسمالية كـ "حرية"

نشأت الرأسمالية عندما فُصل التبادل عن الأخلاق، وأُعيد تعريفه بالحرية. كان هذا هو القناع الأول، القناع الذي يُخفي الهيمنة في لغة التحرير.

الكنيسة في العصور الوسطى ونشأة الفائدة: لعدة قرون، حرّمت الكنيسة الكاثوليكية الربا. كانت الفائدة خطيئة، والربح من المال دون عمل ينتهك النظام الإلهي.

لكن أوروبا تحوّلت خلال أواخر العصور الوسطى. احتاجت المدن–الدول، مثل البندقية وفلورنسا، إلى رأس مال للسفن والجيوش وشبكات التجارة. طالب التجار بالقروض والائتمان وتقاسم المخاطر. احتاج الملوك إلى أموال للحروب.

بحلول القرن الرابع عشر، ضعفت محظورات الكنيسة. وظهرت أول أداة رأسمالية: الديون ذات الفائدة. كان هذا تطوراً ثوريًا. أصبح بإمكان المال الآن أن يتكاثر، وبإمكان الثروة الآن أن تتكاثر بشكل مستقل عن العمل.

تمّ حياكة القناع، أصبح الربح "حرية" والفائدة "فرصة" والتراكم "تقدمًا.

التحول الأخلاقي لعصر التنوير: تَوّج القرنان السابع عشر والثامن عشر الرأسمالية بالفلسفة. أعاد جون لوك تعريف الملكية كحق طبيعي. وأعاد آدم سميث تعريف المصلحة الذاتية كمحرك للخير الاجتماعي. وحذّر روسو، من المفارقات، من أن الملكية الخاصة ستُفسد المساواة، لكن تحذيره قوبل بالتجاهل.

فجأة، لم يعد النظام بحاجة إلى مبرر أخلاقي. بل أصبح لديه مبرر ميتافيزيقي. لم تعد الرأسمالية خيارًا، بل "طبيعة بشرية". أصبح السوق قوة علمية محايدة، وعدم المساواة كفاءة، والمنافسة فضيلة. حدث انقلاب جذري، بعد أن كانت المجتمعات القديمة تضع الأخلاق فوق الاقتصاد، وضعت الرأسمالية الاقتصاد فوق الأخلاق. هذا الانقلاب هو مصدر اختلال التوازن الحديث، وبذرة اختلال التوازن العالمي.

القناع الثاني: الرأسمالية كـ "تقدم"

أدرك الرأسماليون مبكرًا أن التراكم لا يمكن أن يستمر إلا إذا جرى تأطيره كواجب حضاري. وهكذا ظهر القناع الثاني، الرأسمالية تقدم، والتقدم حضارة. إذن،

الرأسمالية تُعادل الحضارة. بررت هذه الأسطورة الغزو والاستعمار والتصنيع والتفاوت الحديث.

الاستعمار كمحرك للتراكم الرأسمالي: لم تنشأ الثورة الصناعية من العدم. بل بُنيت على استعباد الأفارقة، وحلب الآسيويين، وتقطيع أوصال الشرق الأوسط، ونهب موارد أمريكا اللاتينية، ومحو السكان الأصليين. كانت ثروة أوروبا بمثابة فقر الجميع. ومع ذلك، لم يُقدم الاستعمار نفسه على أنه استعباد، بل "مهمة حضارية". كان هذا هو القناع. الواجهة الأخلاقية للسرقة.

دراسات حالة:

دولة الكونغو الحرة (بلجيكا): ملايين المُشوّهين أو المُقتَلين من أجل المطاط. بُرِّر ذلك في أوروبا على أنه "تحديث."

الهند في ظل الحكم البريطاني: دُمِّرت صناعة النسيج. مجاعاتٌ دُبِّرت بالسياسات. بُرِّر ذلك على أنه "تقدم".

الأمريكيتان: موّل استخراج الذهب والفضة المصارف الأوروبية. استُخدم التنصير لإضفاء طابع أخلاقي على الإبادة الجماعية.

صوَّرت الرأسمالية معاناة الآخرين على أنها تقدم للجميع.

التصنيع: أسطورة النمو اللامتناهي: مع استخراج الوقود الأحفوري وإنتاج الآلات، اكتسبت الرأسمالية أيديولوجية جديدة: التوسع اللامتناهي.

الفحم، والبخار، والصلب، والسكك الحديدية، والنفط – كلٌّ منها صُوِّر على أنه قدرٌ مُقدّر. ولكن، مقدّر لمن؟

أنتج التصنيع الأحياء الفقيرة، وعمالة الأطفال، وساعات عمل تتجاوز 16 ساعة يوميًا، وتسمّم الهواء والماء، والتبعية الاستعمارية، والتفاوت الكارثي. ومع ذلك، أصرّ السرد على أن "هذا هو التقدم"، و"هذه هي الحضارة"، و"هذا هو المستقبل". أخفى قناع التقدم التكلفة: تدمير التوازن – في الطبيعة والمجتمع والنفس.

القناع الثالث: الرأسمالية "عقلانية"

تدّعي الرأسمالية أنها منطقية، وعلمية، وحتمية. لكن عقلانيتها انتقائية، وأداتها غالبًا ما تكون عنيفة.

لتبرير الرأسمالية، اختُرع كائن أسطوري جديد: الإنسان الاقتصادي – الفرد العقلاني تمامًا، الأناني، المحسوب. لكن هذا الكائن غير موجود. البشر عاطفيون، قبليون، أخلاقيون، مبدعون. إنهم يسعون إلى المعنى، لا إلى الكفاءة فحسب. يسعون إلى الانتماء، لا إلى الاستهلاك فقط. يسعون إلى الحب، لا إلى تعظيم الربح. ومع ذلك، أشادت الرأسمالية أنظمة كاملة على هذا التصور الخيالي.

بمجرد أن تصبح الأسطورة مقياسًا، ينحني الواقع حولها. يُجبر الناس على التصرف كآلات حاسبة عقلانية لأن الأنظمة تُعاقب التعاطف. هذه عقلانية مُحوّلة إلى إكراه. آلية كسر التوازن في رداء المنطق.

أسطورة "السوق الحرة": لا يوجد سوق حرة في أي مكان في العالم. تعتمد الأسواق الحقيقية على الدعم، والاحتكارات، والضغط السياسي، والسيطرة التنظيمية، والقوة العسكرية، وقوانين الملكية، وأنظمة الضرائب، وأنظمة الملكية الفكرية.

السوق ليس طبيعيًا؛ إنه مُصمّم. ومع ذلك، تُخفي الرأسمالية هذه الهياكل وتقول: "هذه طبيعة"، "هذه حرية"، "هذه كفاءة". إنها ليست أيًا من هذه الأشياء. إنها قناع الحتمية.

القناع الرابع: الرأسمالية كـ "جدارة"

تُصرّ الرأسمالية على أن الثروة تُكتسب، والنجاح مُستحق، وعدم المساواة أمر طبيعي. لكن الأدلة تُشير إلى خلاف ذلك: رأس مال موروث، وشبكات اجتماعية موروثة، وتعليم موروث، واستقرار موروث، وأمان موروث، وفرصة موروثة.

دراسة حالة:

في الولايات المتحدة، ينحدر 67% من رواد الأعمال من عائلات ثرية. أما رواية "الرجل العصامي" فهي الاستثناء لا القاعدة. ومع ذلك، تستخدم الرأسمالية هذه الأسطورة لتبرير المعاناة: "إذا كنت فقيرًا، فهذا خطؤك"، "إذا فشلت، فأنت لم

تبذل جهدًا كافيًا"، و"إذا عانيت، فأنت اتخذت خيارات خاطئة". هذا لوم للضحية يُرفع إلى مستوى العقيدة الاقتصادية. إنه تحريف أخلاقي مُتنكر في صورة العدالة.

الجدارة حقيقة، غير أن الأسواق لا تُكافئ الجدارة. إنهم يكافئون الامتيازات.

القناع الخامس: الرأسمالية كـ "خيار"

هذا القناع نفسي. تقول لنا الرأسمالية: "أنت حر لأنك قادر على الاختيار". لكنها تخفي حقيقة أنك تختار بين العلامات التجارية، لا الأنظمة؛ تختار بين الوظائف، لا ظروف العمل؛ تختار بين الرهون العقارية، لا حقوق السكن؛ تختار بين الأحزاب السياسية التي تخدم نفس الجهات المانحة.

كما يقول سلافوي جيجك: "أنت حر في الاختيار – بشرط أن يكون اختيارك صائباً". هكذا يصبح الاختيار محاكاة، الحرية سلعة والفاعلية تصبح وهماً.

القناع السادس: الرأسمالية كـ "سعادة"

هنا تستولي الرأسمالية على علم النفس وعلم الأعصاب. تُرسل الإعلانات والخوارزميات والاقتصاد السلوكي رسالة واحدة: "استهلك لتشعر بالسعادة"، "اشترِ لتشعر بالاستحقاق"، واشتر لتشعر بالحياة". يستغل السوق مسارات الدوبامين، والمقارنة الاجتماعية، والخوف من الإقصاء، وانعدام الأمن على الهوية، وقلق المكانة الاجتماعية. الرأسمالية تخلق المرض وتبيع الدواء.

دراسة حالة: أصبح الهاتف الذكي جهاز تواصل بمثابة الجهاز العصبي المركزي للرأسمالية العالمية. إنه سوق، وجهاز مراقبة، ورمز للمكانة الاجتماعية، وآلة للتحقق الاجتماعي، وأداة لاستخلاص الانتباه، وتبعية نفسية، ومحفز للدوبامين.

تُعرّف الرأسمالية السعادة بأنها: تحفيز لحظي = شراء متكرر = استياء طويل الأمد = استهلاك لا ينتهي. هذه الدورة ليست عرضية، بل هي اختلال مُدبر.

القناع السابع: الرأسمالية كـ "ديمقراطية".

تدّعي الرأسمالية أنها تحمي الديمقراطية. لكن كل فترة من الرأسمالية المكثفة ترتبط بضعف المؤسسات العامة، والنقابات، والمنافع العامة، والمجتمع، والفاعلية الجماعية، وتزايد نفوذ الشركات، وتركيز الثروة، والهيمنة السياسية.

تتحول الديمقراطية إلى مسرح إجرائي. تنتقل السلطة الحقيقية عبر الشركات متعددة الجنسيات، والأسواق المالية، والبنوك العالمية، ووكالات التصنيف الائتماني، وصناديق التحوط، واحتكارات التكنولوجيا، وجماعات لوبيّات الوقود الأحفوري، وشركات الأدوية العملاقة.

تصبح الحكومات المنتخبة مديرين، لا قادة. تصبح السياسة منتجًا، لا مبدأ. يصوّت الشعب ورأس المال هو من يقرر. هذه ليست ديمقراطية، بل سيادة المساهمين.

القناع الثامن: الرأسمالية كـ "طبيعة بشرية".

القناع الأخير هو الأكثر إغراءً: "الرأسمالية طبيعة بشرية". يُقال لنا إن البشر يعشقون تحقيق الذات والشهرة والأضواء، جشعون، والمنافسة طبيعية، وعدم المساواة حتمية، والتعاون ساذج، والإيثار ضعف، والمجتمع تراجع.

هذه هي الأنثروبولوجيا العكسية، فالتاريخ البشري يُظهر أن التعاون أفضل من المنافسة، والتشارك أفضل من الاكتناز، والمجتمع أفضل من الفردية، والمعنى أفضل من الاستهلاك، والانتماء أصح من العزلة، والمعاملة بالمثل أفضل من الاستغلال.

تُسقط الرأسمالية منطقها الخاص على البشرية وتسميه حقيقة. إنها ليست حقيقة، بل هي تدجين وتكييف. إنها نبوءة تحقق ذاتها.

تُدرب الرأسمالية البشر على التنافس، ثم تُدعي أن المنافسة طبيعية. تُدرب البشر على الاستهلاك، ثم تُدعي أن الاستهلاك غريزة. تُدرب البشر على الخوف من الندرة، ثم تُدعي أن الندرة حتمية.

هذه ليست طبيعة بشرية، بل هي طبيعة رأسمالية.

الجزء الثاني: تشريح القوة الرأسمالية

لا تنجو الرأسمالية بالصدفة. إنها تنجو لأنها تبني أنظمة قوة تُعزز بعضها البعض مثل تروس الآلة، كل ترس يحرك الآخر. كل نظام يحمي الكل.

لفهم الرأسمالية كسلطة – وكشف أقنعتها – علينا دراسة البنية التي تدعمها وتشكل تروس آلتها: السلطة الاقتصادية والسلطة السياسية والسلطة النفسية والسلطة التكنولوجية والسلطة الثقافية والسلطة العالمية (الرأسمالية الإمبريالية) والسلطة الخفية (السرد، والأسطورة، والرغبة).

تشكل هذه التروس أو السلطات السبع بنية متكاملة: كاتدرائية التأثير، ومتاهة الحوافز، وقصر المرايا حيث يغيب عن الفرد رؤية الأسس.

يكشف هذا الجزء عن كل سلطة – آلياتها، وأوهامها، وتبعياتها، وتأثيراتها على توازن المجتمع والحضارة.

السلطة الاقتصادية – محرك التراكم

السلطة الاقتصادية هي جوهر الرأسمالية. وهي مبنية على مبدأ أن الثروة تُولّد المزيد من الثروة، والفقر يُولّد المزيد من الفقر. هذا ليس حكمًا أخلاقيًا، بل هو واقع رياضي. رأس المال يتراكم عمدًا، لا بالاستحقاق. يعبّر الاقتصادي توماس بيكيتي عن القانون الأساسي للرأسمالية:

$r > g$ (معدل العائد على رأس المال يتجاوز معدل نمو الأجور). هذا يعني أن الأثرياء ينمّون ثرواتهم دائمًا أسرع من نمو دخل العمال، وأن عدم المساواة ليس عيبًا، بل هو سمة متأصلة في النظام، ومُصمّمة للتفاقم مع مرور الوقت.

ولهذا السبب، أنتج كل مجتمع رأسمالي متقدم – دون استثناء – سلالاتٍ من أصحاب المليارات، وانخفاضًا في الأجور، وارتفاعًا في الديون، وانكماشًا في الطبقات المتوسطة، وتركيزًا في الملكية، وعمالةً هشة، وجماهير يائسة، وركودًا جيليًا.

ينمو رأس المال. ينهار العمل. ينكسر التوازن.

هيكل الملكية: تنبع القوة الاقتصادية من حقيقة بسيطة: من يملك الأصول يحكم من يعمل. الملكية هي الحكومة الخفية للرأسمالية. هناك خمسة أشكال سيادية للملكية:

الأرض ⟵ الريع

رأس المال ⟵ الربح

المعرفة ⟵ الملكية الفكرية

المعلومات ⟵ رأسمالية المراقبة

أسواق العمل ⟵ التحكم في سبل عيش الإنسان

هذه الأشكال تخلق التبعيات. التبعيات تخلق السلطة. السلطة تخلق التسلسل الهرمي. يُبرر التسلسل الهرمي بأنه "كفاءة". هذه الكفاءة تُخفي الاستغلال.

آلة الديون: الديون هي شريان الرأسمالية. من خلال الديون، يُسيطر على الأفراد، وتُؤدب الدول، وتُمكّن الشركات، وتُستغل الأزمات، ويتضاعف التفاوت، ويُجبر الاستهلاك، وتصبح الحرية مشروطة.

قروض الطلاب. الرهن العقاري. الديون الطبية. بطاقات الائتمان. الاقتراض الوطني. سندات الشركات. الدين يربط حياة الإنسان بالأنظمة المالية. إنه الظل الروحي للعالم الحديث.

دراسة حالة: الأزمة المالية 2008

أنشأت البنوك منتجاتٍ سامة. باركتها وكالات التصنيف. وتلاعب المستهلكون. حررّت الحكومات القيود، وتسببت وول ستريت في انهيار الاقتصاد العالمي. أُنقذ الجناة، وأُلقي اللوم على الضحايا. لماذا؟

لأن الرأسمالية تحمي رأس المال، لا الناس. تُصبح الأزمة فرصةً – للأقوياء. الدَيْن هو المقود. عمليات الإنقاذ هي الامتياز. عدم المساواة هي النتيجة.

لم تُؤثّر الرأسمالية على السياسة فحسب، بل امتصّتها، وحوّلتها إلى نقود. خصخصتها وأعادت توظيفها.

الاستيلاء على الديمقراطية: يعتمد المسؤولون المنتخبون على تبرعات الشركات، والمتبرعين من أصحاب المليارات، وجماعات الضغط، ولجان العمل السياسي (PACs) ولجان العمل السياسي الفائقة (Super PACs)، ومراكز الأبحاث الممولة من أصحاب الثروات، وشبكات الإعلام المملوكة للشركات الكبرى؛ وبالتالي: لا تختار الديمقراطيات الأنظمة الاقتصادية، الأنظمة الاقتصادية تختار الديمقراطيات التي تخدمها.

في جميع أنحاء الغرب – وبشكل متزايد في الشرق – لا يُشكّل الشعب السياسات، بل رأس المال. يفشل إصلاح الرعاية الصحية لأن شركات الأدوية تشتري السياسيين، وتفشل قوانين المناخ لأن شركات الوقود الأحفوري العملاقة تشتري النفوذ، ويفشل إصلاح الإسكان لأن جماعات الضغط العقارية تُخنق التشريعات. الديمقراطية لم تُعطّل، إنها تعمل تمامًا كما تحتاج الرأسمالية.

فخ الحوافز: يقع السياسيون في فخّ دورات انتخابية قصيرة الأجل، ومشاكل طويلة الأجل، وحوافز مهنية، وتوقعات المانحين، وضغط إعلامي، وضغط شركات.

هذا الخلل الهيكلي يضمن عدم إصلاح عدم المساواة، ولا إصلاح السلطة المالية، ولا إصلاح التمويل السياسي، ولا إصلاح الملاذات الضريبية، ولا إصلاح الاحتكارات، ولا إصلاح تدمير المناخ. صُمّم النظام للحفاظ على اختلال التوازن.

الانقلاب الناعم لحوكمة الشركات: تُسْنِد الحكومات وظائف أساسية إلى الشركات: المياه، والطاقة، والنقل، والسجون، والرعاية الصحية، والتعليم، والبنية التحتية للبيانات، والعقود العسكرية، وأنظمة الذكاء الاصطناعي. تُصبح الدولة معتمدة على جهات فاعلة من القطاع الخاص. ويصبح القطاع الخاص مهندس الحياة العامة. هذه ليست ديمقراطية، بل هي ملكية شركات عملاقة.

السلطة النفسية

العقل في ظل الرأسمالية

إذا كان الجزء الأول قد أظهر الأقنعة، والجزء الثاني قد أظهر الآلية، فإننا نرى الآن الآلية داخل العقل. الرأسمالية ليست مجرد نظام اقتصادي، بل هي بنية نفسية.

السوق الداخلية: حوّلت الرأسمالية العقل البشري إلى سوق: يُصبح الاهتمام عملة، والهوية علامة تجارية، والمشاعر سلعًا، والرغبات مُصنّعة، وانعدام الأمن إيرادات، والوحدة فرصة ربح. هذا ليس استعارة، بل هو واقع عملي.

النفسية الخوارزمية: منصات التواصل الاجتماعي هي الأجهزة العصبية الجديدة للرأسمالية. إنهم يستحوذون على الانتباه، ويتلاعبون بالرغبة، ويعززون التحيز، ويحفزون دورات الدوبامين، ويشوهون قيمة الذات، ويخلقون إدمان الهوية، ويزيدون من الشعور بالوحدة، ويزيدون القلق، ويسرعون الاستقطاب.

هذا استخلاص نفسي. يصبح الوعي البشري المادة الخام، وتصبح التكنولوجيا المنجم، وتصبح الخوارزميات عمال المناجم.

النتيجة؟ عقل في حالة اختلال دائم. هذا ليس فشلاً، بل هو نموذج العمل.

انعدام الأمن المُصطنع: تزدهر الرأسمالية على انعدام الأمن الجسدي، وانعدام الأمن الاجتماعي، وانعدام الأمن الاقتصادي، وانعدام الأمن الوجودي.

لماذا؟ لأن انعدام الأمن يُحفّز الاستهلاك. لو شعر الناس بالاكتمال، لانهار التسويق، وبالتالي، فإن الرأسمالية لا تُحلّ انعدام الأمن، بل تُصنّعه.

دراسة حالة: صناعة التجميل

اقتصادٌ بقيمة تريليون دولار مبنيٌّ على إقناع الناس بأنهم غير كفؤين.

النساء يُضغط عليهنّ بمعايير الجمال، الرجال يُضغط عليهم بمُثُلٍ ذكوريةٍ مُفرطة، والأطفال يُضغط عليهم من قِبل مُؤثّرين مُنقَّحين. الرأسمالية تُحوّل الألم النفسي إلى

نقود، وتُحوّل الشكّ الذاتي إلى نموّ اقتصادي. هذه ليست طبيعةً بشرية، بل اختلالٌ مُعَد له.

وهم الفردانية: الرأسمالية تُخبر الفرد "أنت حرّ." "أنت فريد." "أنت من صنع يديك." "أنت تُحدّد نجاحك." هذا إطراءٌ نفسي، لكن الحقيقة هي أن الأفراد تُشكلهم الهياكل، والخيارات تُقيدها الأسواق، والفرص تعتمد على المولد، والحرية تعتمد على الاستقرار المالي، والنجاح يعتمد على المزايا الموروثة. تصبح الفردية قناعًا يُخفي عدم المساواة النظامية. يُلقي الناس باللوم على أنفسهم على الإخفاقات التي يُهندِسها النظام. هذا هو الاستيلاء النفسي.

السلطة التكنولوجية – إمبراطورية الرأسمالية الجديدة

هندسة السيطرة: أقنعة الرأسمالية الأخيرة

لا تُحافظ الرأسمالية الحديثة على استمرارها من خلال الأسواق والتمويل فحسب، بل من خلال ثلاث هياكل قوة مترابطة بعمق: التكنولوجيا، والثقافة، والإمبريالية العالمية. تعمل هذه الأنظمة كأقنعة، تُخفي اختلال التوازن النظامي الذي صُممت لإدامته، وتُتوّج بأكثر الآليات فعالية على الإطلاق: الاستعمار الداخلي للنفس البشرية.

أصبحت التكنولوجيا، التي كانت تُعتبر في السابق قوة محايدة لتحرير الإنسان، السلاح الرئيسي للرأسمالية الحديثة، حيث أقامت إمبراطورية جديدة بلا حدود. بُنيت هذه السيادة على رأسمالية المراقبة، حيث يُحصد الوجود البشري نفسه. تُحوَّل كل نقرة، ولمسة هاتف ذكي، وعاطفة، وكل موقع، وقرار شراء إلى تدفقات بيانات – منتجات تنبؤية تُباع للحكومات والشركات. لم تكن قضية كامبريدج أناليتيكا سيئة السمعة، التي حصدت ملايين الملفات النفسية لاستهداف الناخبين بدقة وزعزعت استقرار الديمقراطيات، خللًا؛ بل كانت كشفًا عن الحدود الجديدة للرأسمالية: تسليع الوجود والتعديل السلوكي المنهجي للسكان لتحقيق الربح.

تتعزز هذه الإمبراطورية هيكليًا باحتكار المستقبل. تسيطر خمس شركات رئيسية الآن على الشرايين العالمية للاتصالات والمعرفة (محركات البحث) والتجارة (الاستهلاك) والهوية الاجتماعية والبنية التحتية لأبحاث الذكاء الاصطناعي. هذه

الكيانات هي في الواقع حكومات بلا حدود، تمارس نطاقًا غير مسبوق من السيطرة يتجاوز الإمبراطوريات التاريخية.

والأهم من ذلك، يعتمد هذا النظام على تخفيض مستوى البشر. اكتشفت الرأسمالية الرقمية أنه كلما زاد اختلال توازن العقل البشري – كلما ازداد المستخدم إدمانًا واستقطابًا وتشتتًا وانعدامًا للأمان – زادت ربحية التفاعل. وهكذا، صُممت التكنولوجيا عمدًا لإنتاج حالات مزمنة من عدم التوازن (الغضب، والخوف، والاندفاع)، مما يضمن أقصى قدر من الوقت على المنصة وأقصى قدر من الربح. في ظل الرأسمالية، تصبح التكنولوجيا مصنعًا لاختلال التوازن النفسي.

السلطة الثقافية – آلة سرد القصص

تستمر الرأسمالية بتقليل الإكراه الجسدي والإكثار من السرد – وهي بنية ناعمة تحمي النظام من خلال استعمار الخيال الجماعي.

يبدأ هذا بأسطورة المستهلك، التي تختزل الهوية البشرية في وظائف اقتصادية: المشترين، والعملاء، والتركيبة السكانية. يتجنب النظام بشكل منهجي مصطلحات مثل المواطنين، والوكلاء، والمبدعين، والأرواح. تعزز الثقافة هذا الاختزال: الأفلام تحتفي بالثروة، والموسيقى تمجد الإفراط، ووسائل التواصل الاجتماعي تُضفي طابعًا لُعبيًا على المكانة الاجتماعية. يصبح الاستهلاك هو الطقس المركزي؛ والمادية هي الدين، وتحل الممتلكات محل الفضيلة كمقياس للهدف والقيمة. علاوة على ذلك، تُحوّل هذه الثقافة المتعة إلى سلاح، مُحوّلةً الترفيه إلى تهدئة. مجتمعٌ مُشبعٌ بمنصات البثّ ومُشتّتات لا تنتهي، يُصبح مُجرّدًا من الإستقطاب السياسي، مُسالمًا، ومُفتّتًا. لم يعد الترفيه مساحةً للراحة والتأمل، بل أصبح أيديولوجيةً للهروب، نسخةً مُحسّنةً من استراتيجية "الخبز والسيرك" الرومانية القديمة المُصمّمة للحفاظ على الوداعة. تُتوّج هذه العملية بتسليع شاملٍ للثقافة، حيث تُصبح الهوية سلعةً، ويُختزل الفنّ إلى أصلٍ استثماريّ، ويُوحَّد الإبداع في محتوى خوارزميّ. تُصبح الروح نفسها قابلةً للتسويقٍ، وموضوعًا للاستخراج.

السلطة العالمية – الرأسمالية كإمبراطورية

الرأسمالية كوكبية في جوهرها، تتصرف كإمبراطورية تستعمر الأنظمة بدلًا من الأقاليم. سلسلة التوريد العالمية هي الشريان الإمبراطوري الجديد، الذي يُفكك العالم لتحقيق أقصى قدر من الربح: العمالة في بنغلاديش، والموارد في الكونغو، والبيانات في كاليفورنيا، والأرباح المخبأة في الملاذات الضريبية. تصبح الكرامة متغيرة، وتُحسب الأرواح كتكاليف بسيطة. هذه الإمبراطورية، وإن كانت تتطلب جيوشًا في كثير من الأحيان، إلا أنها تعمل أساسًا من خلال الأدوات الاقتصادية.

يعمل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي كوكلاء للاستعمار الحديث. بفرضهما الديون، يُجبران على تبني النموذج الرأسمالي من خلال أوامر التقشف والخصخصة وإلغاء القيود. تفقد الدول المدينة سيادتها الاقتصادية وتُجبر على فتح أسواقها وتفكيك شبكات الأمان الاجتماعي، مما يؤدي إلى الاستخراج الهيكلي بدلًا من المساعدات.

يبلغ هذا التفاوت العالمي ذروته في الرأسمالية الأحفورية والإمبريالية المناخية. بنت الدول الغنية ازدهارها بحرق الكوكب، ومع ذلك تُطالب دول الجنوب العالمي الآن بالتخلص من الكربون دون تعويضات كافية أو مساعدة هيكلية. يضمن هذا النفاق المناخي أن تدفع المناطق الأقل مسؤولية عن الأزمة الثمن الباهظ، مما يُرسخ تفاوتًا كوكبيًا عميقًا وقاتلًا.

السلطة الخفية – السرد والأسطورة والرغبة

أقنعة الإيمان والإدخال الذاتي: إن أعمق آليات القوة الرأسمالية وأكثرها حمايةً هي تلك التي تُشكل الفكر والأسطورة والرغبة، محققةً الهيمنة بإخفاء النظام.

أعظم إنجازات الرأسمالية هو سردية "لا بديل". هذا الاعتقاد – بأن النظام الحالي، على الرغم من عيوبه، هو السبيل الوحيد الممكن – يُفرض عبر التعليم والإعلام والمؤسسات السياسية. وتُحجب البدائل، من الاقتصادات الإسلامية القائمة على الزكاة إلى الاشتراكية الديمقراطية في دول الشمال الأوروبي، كما تحجب نماذج التراجع الاقتصادي، مما يُحاصر الخيال الجماعي.

تستند هذه السردية إلى أسطورة الندرة. تُعلن الرأسمالية: "ليس هناك ما يكفي"، بينما يُنتج العالم ما يكفي من الغذاء لعشرة مليارات نسمة، وثروة كافية للقضاء على الفقر مرات عديدة. الندرة ليست حقيقة طبيعية؛ إنها مُصممة. تُدمر المتاجر الكبرى الطعام، ويُبقي مُلّاك العقارات المباني فارغة، وتُعيق براءات الاختراع الوصول الطبي – جميعها آليات تُستخدم لتبرير عدم المساواة والحفاظ على هوامش ربح عالية.

أخطر كذبة هي أسطورة النمو اللامتناهي. على كوكب محدود الموارد، يُصبح التوسع الاقتصادي اللامتناهي مستحيلاً مادياً. مع ذلك، فإن هذا الطلب يجعل النظام انتحارياً، يعطل المكابح بطبيعته، مُسبباً كارثة بيئية، وانهياراً للأنواع الحية، وعدم استقرار جوي. هذا التسارع ليس تقدماً؛ إنه إيذاء ذاتي كوكبي.

سيكولوجية الرغبة الرأسمالية: تستمر الرأسمالية لأنها تستحوذ على العقل، مُعيدةً هيكلة الروح البشرية إلى مُستهلك. إنها تخلق الذات الرأسمالية.

خلقت الرأسمالية شكلاً جديداً من الهوية، مُحوّلةً القيمة من الوجود إلى الامتلاك. لم تعد الهوية مُتجذرة في الشخصية أو المجتمع، بل في التملك والعرض. يُنمّي هذا النظام شخصيةً من التنافسية والمقارنة والسخط الدائم – حالة من عدم الرضا المُتعمّد ضرورية للاستهلاك المُستمر. يؤدي هذا التركيز الخارجي إلى موت الحياة الداخلية، واستبدال التأمل بالتحفيز، والحضور بالإنتاجية.

هندسة الرغبات: الرغبة ليست طبيعية، بل مُهندَسة. يعمل الإعلان كمصنع للشوق، مستخدمًا علم الأعصاب وعلم النفس لترسيخ رغبات جديدة في النفس من خلال استغلال المحفزات العاطفية وقلق المكانة الاجتماعية. الهدف هو إقناع الناس بأنهم غير مكتملين بدون شراء. علاوة على ذلك، يستمد النظام الرأسمالي قوته من الخوف، مما يخلق اقتصاد قلق. الخوف من فقدان الأمن (الدخل، السكن، الرعاية الصحية) يُبقي الشعوب مطيعة ومرهقة. ثم يبيع النظام ضمادة الجرح الذي خلقه، مستغلًا القلق الاجتماعي (الموضة، تطبيقات المواعدة) والقلق الوجودي (تطبيقات العافية، العلاج).

أسطورة النجاح ووهم الحرية: يحمي النظام أسطورة الإنسان العصامي: "النجاح شخصي. الفشل شخصي". يُخفي هذا السرد تفاوتًا هيكليًا وامتيازًا متوارثًا، مُقنعًا العمال بأن "ثقافة العمل الجاد" – أي إيذاء النفس المُعاد صياغته على أنه فضيلة

– هي طريق النجاح. وهذا يؤدي إلى الإرهاق كنتيجة هيكلية، وليس فشلًا شخصيًا.

وأخيرًا، تُقدم الرأسمالية وهمًا بالحرية – حرية الاختيار بين 50 نوعًا من القهوة – بينما تُلغي في الوقت نفسه الحريات الكبرى كالأمن الاقتصادي، والسكن بأسعار معقولة، والاستقرار البيئي. يتشبع الجمهور بالتعريف الرأسمالي للنجاح (المال، السلطة، الأتباع)، مما يؤدي إلى العدمية وانهيار المعنى. وهكذا يُدمر النظام المجتمع والهدف، ليبيع صناعات بمليارات الدولارات من "المساعدة الذاتية" الزائفة لتحل محل المعنى الذي سرقه.

أقنعة العمل: البنية الصامتة للاستغلال

يُعدّ نظام العمل الحديث تحفةً في التمويه، إذ يُخفي الاستغلال خلف مفرداتٍ مهذبة: العمل، والفرصة، والإنتاجية، والحرية. ويعمل نظام الأجور كشكلٍ من أشكال الإكراه الناعم.

أعظم آليةٍ للسيطرة النفسية هي استيعاب اللوم. إذا فشل عاملٌ، أو عانى من ضائقة مالية، أو عانى من الإرهاق، يُقال له: "لم تبذل جهداً كافياً". يُستوعب اللوم، وينمو العار، ويبقى النظام خفياً ومنيعاً ضد النقد. تكمن عبقرية الرأسمالية في إقناع المُستغَلّين بأنهم المشكلة.

يُشجّع هذا النظام على ازدراء الفقراء وعبادة الأغنياء، مُنظّماً المجتمع حول الإعجاب بعدم المساواة. إنه يُغذّي رأسمالية الدوبامين، مُسرّعاً وتيرة الحياة حتى ينهار الجهاز العصبي، مُعززاً الربح إلى أقصى حدّ من خلال التحفيز والإرهاق المُستمرّين. الإرهاق الناتج هو نتيجةٌ هيكلية، تظهر عندما تتجاوز التوقعات الحدود البشرية، وتُستبدل المنافسة بالاستقرار. في جوهره، لو كان النظام الرأسمالي شخصًا، لانسجم سلوكه مع تشخيص اضطراب الشخصية النرجسية والمعادية للمجتمع – غرور، استغلال، تجاهل للعواقب، وخدر في التعاطف. النظام والنفسية مرآة لبعضهما البعض: النظام المبني على اختلال التوازن يُشجع على اختلال التوازن في العقل البشري. المعركة النهائية تُخاض في ساحة المعركة الخفية للنفس البشرية.

ابتكار العمل كهوية: تاريخيًا، كان العمل وجماعيًا، ومتجذرًا في إيقاعات الحياة الطبيعية – وظيفة للبقاء أو الحرفة، وليس تعريفًا للذات. غيرت الرأسمالية هذا الوضع قسرًا. إذ ابتكرت العمل كهوية أساسية للفرد. حل سؤال "أخبرني ماذا تعمل" محل سؤال "أخبرني من أنت"، جاعلةً الوظيفة المقياس الوحيد للقيمة والمكانة والكرامة. هذا الاستغلال النفسي عميق: عندما يتساوى العمل مع الهوية، تُصبح البطالة عيباً، والإرهاق ضعفًا شخصيًا، وانعدام الأمن يفرض الصمت. هذا استعمار نفسي، وليس مجرد إنتاجية.

الاستعمار الداخلي: العمل، القيمة، وميتافيزيقيا رأس المال

لا يستمد النظام الاقتصادي الحديث قوته من كفاءته المزعومة، بل من خلال تحفة فنية من الإخفاء حيث يُخفي أعمق عنف وراء مفردات مهذبة. يُعاد تسمية الاستغلال بـ "الوظائف"، والإكراه بـ "الفرصة"، والاستخراج بـ"الإنتاجية"، والتبعية بـ"الحرية". تعمل هذه البنية على طبقات متعددة – هيكلية وتاريخية ونفسية – لإعادة هيكلة التجربة الإنسانية للعمل والقيمة بشكل جذري.

إعادة صياغة الهدف الإنساني صناعيًا

تطلب ظهور الرأسمالية الصناعية إعادة برمجة نفسية للمجتمع لخدمة المصنع. كان على النظام أن يُنظم الوقت، ويفرض الانضباط، ويُطبّق الرتابة، ويُقمع الفردية. استُبدل وقت ما قبل الثورة الصناعية، المرتبط بالمواسم والصلوات، بالوقت الميكانيكي للساعات والصافرات والمواعيد النهائية – أول تجزئة للحياة. كان المصنع بمثابة مؤسسة تدريب، يُعلّم البشر الطاعة، وتحمّل الرتابة، ومساواة الوقت بالمال. يستمر هذا التكييف اليوم في مكاتب الشركات والنظام المدرسي الحديث، الذي يعمل بنفس منطق الأجراس والاختبارات المعيارية والطاعة الهرمية كشكل من أشكال الإعداد قبل العمل في المصنع..

نظام الأجور كإكراه ناعم

تزعم الرأسمالية أن علاقة العمل طوعية، إلا أن نظام الأجور هو شكل من أشكال الإكراه الخفي. الفرد "حر" في رفض وظيفة فقط تحت تهديد الجوع والدين والتشرد. أسواق العمل هي أسواق بقاء. يفشل "وهم العقد" المزعوم لأن خيار العامل مقيد

بالضرورة الأساسية (الإيجار، الرعاية الصحية، الأسرة)، بينما خيار صاحب العمل حر حقًا. علاوة على ذلك، يُخفي الأجر الاستغلال: فالعمال يتقاضون جزءًا ضئيلًا من القيمة التي يُنتجونها، بينما يُستخرج فائض القيمة كربح. الأجر، بهذا المعنى، هو تعويض عن عدم التمرد.

التجزئة، الإرهاق، واللامعنى

تُجزّئ الرأسمالية الحياة البشرية هيكليًا – الاهتمام، والراحة، والروابط الاجتماعية، والوقت نفسه – بطريقة تحكم متعمدة. فيُصبح الوقت سلعة تُستثمر وتُحسّن، ووجود "توازن بين العمل والحياة" يُثبت فقط أن اختلال التوازن هو الحالة الطبيعية. يُنشئ هذا النظام اقتصاد إرهاق، حيث يكون الإرهاق نتيجة هيكلية، وليس فشلًا شخصيًا. الشخص المُستريح ذو التفكير الصافي يُشكك في الاستغلال ويقاوم التلاعب؛ أما الشخص المُنهك فيُطيع ويستهلك ويستسلم ببساطة. إن تمجيد الإفراط في العمل (ثقافة العمل الشاق) يُحوّل شكلًا من أشكال استغلال الذات إلى وسام شرف.

هذا النظام يُجرّد العمل في نهاية المطاف من معناه الوجودي. فبينما كان العمل قديمًا مرتبطًا بوظائف واضحة (مثل زراعة الغذاء، وبناء المأوى)، فإن العمل الحديث مُجرّد (مثل جداول البيانات، وإنشاء المحتوى، والاجتماعات). وقد أدى هذا إلى ظهور وظائف زائفة – مهام يقوم بها ملايين الأشخاص وهم يعلمون أنها بلا معنى – مما يخلق حالة عميقة من الاغتراب، حيث يصبح العامل غريبًا عن عمله وإمكاناته.

الاستغلال العالمي والرقمي

تُصدّر الرأسمالية عنفها، مُنشئةً خط تجميع عالمي تُوزّع فيه المعاناة بشكل غير متساوٍ. ومن خلال "السباق نحو القاع"، تهدّد الشركات بالانتقال، مُجبرةً الدول النامية على المنافسة من خلال خفض الأجور، وحماية العمال، والمعايير البيئية. الاستعمار الحديث هو الاستعانة بمصادر خارجية – نظام يستخدم سلاسل التوريد بدلًا من الجيوش لاستخراج الثروة، وقمع المقاومة، وإثراء النخب.

ظهر شكل جديد من أشكال السيطرة في العمل الرقمي والاستخراج الخوارزمي. عمال المياومة هم الأقنان الجدد، يدفعون ثمن معداتهم بأنفسهم، ويعملون دون

مزايا، ويُراقَبون ويُؤدّبون باستمرار بواسطة الأكواد البرمجية. على منصات التواصل الاجتماعي، يُؤدي المستخدمون عملاً عاطفياً غير مدفوع الأجر، ويُدربون الذكاء الاصطناعي، ويُنتجون بيانات تُدرّ المال. هذا هو الإقطاع في ظل نظام تحديد المواقع العالمي (GPS).

المستقبل في ظل الذكاء الاصطناعي لا يُلغي الاستغلال؛ بل يُعيد هيكلته إلى هرم طبقي جديد من أصحاب العقول (الذين يمتلكون الذكاء الاصطناعي)، والعاملين في العقول (المبرمجين ذوي المهارات العالية)، والباقي من البشر (الأغلبية) تُصبح وظائفهم زائدة عن الحاجة اقتصاديًا. تكشف دراسات الحالة – من القسوة الخوارزمية والعمل الإضافي الإلزامي في مستودعات أمازون إلى العبودية الحديثة للعمال المهاجرين في قطر وانعدام الأمان المُميت في مصانع الملابس في بنغلاديش – عن الوجه الحقيقي العنيف وراء قناع "الفرصة". يتطلب النظام هيكليًا ضعفًا بشريًا وانعدامًا للأمان ويأسًا لأن الفرد المستقر والواعي بذاته يُهدد أسسه.

أقنعة القيمة – كيف تُعيد الرأسمالية كتابة الواقع

إن أهم إنجازات الرأسمالية ليس الربح، بل إعادة تعريف القيمة، واختزال كل قيمة إلى سعر. عندما يحل السعر محل القيمة الجوهرية، ينهار المعنى ويتحول إلى مال.

الخطيئة الأصلية: الطبيعة، الوقت، والجسد

قيمة الطبيعة: كانت الطبيعة في يوم من الأيام مقدسة ومشتركة. حوّلتها الرأسمالية إلى "ملكية، وموارد، ورأس مال قابل للاستخراج". خصخصة حركات التسييج الأراضي المشتركة قسرًا، مما مهّد الطريق لنزع الملكية العالمية. تتجاهل الرأسمالية القيم التي لا تُقدر بثمن – مثل التنوع البيولوجي واستقرار المناخ – لأنها تفتقر إلى ثمن، وتختار بدلًا من ذلك استثمار ما هو مربح (النفط والمعادن). هذا هو انتصار السعر على القيمة، مما يؤدي مباشرةً إلى اختلال التوازن البيئي.

قيمة الوقت: كان الوقت دوريًا وتأمليًا. حوّلته الرأسمالية إلى وحدات إنتاجية. أصبحت الساعة بمثابة سوط، والبشر الآن يقضون الوقت، لا يعيشونه. تتحول الحياة من الحضور إلى الإنتاجية، مما يؤدي إلى سرقة الحياة من خلال العمل، حيث يبيع الأفراد أفضل جوانب وجودهم مقابل أجور بالكاد تكفيهم.

قيمة الجسد: يصبح الجسد البشري أصلًا ذا قيمة، لا تُقدّر إلا إذا حقق ربحًا. يُتحكّم به من خلال المراقبة والحصص كآلة إنتاج. كمستهلك، يُصبح الجسد هدفًا ووعاءً للاستهلاك. تُهمّش الأجساد غير المنتجة – كبار السن، والمعاقون، والمرضى عقليًا – وتُمنح قيمة تكاد تكون معدومة، مما يكشف عن العنف الكامن في نظام التقييم هذا.

انهيار المعنى

قيمة المعرفة: تُختزل المعرفة من حكمة جماعية إلى ملكية فكرية وبراءات اختراع. تُحتجز الأدوية المنقذة للحياة، والاكتشافات العلمية، والخوارزميات خلف جدران الدفع ورسوم الترخيص، مما يُحوّل الحكمة إلى سلعة. في الوقت نفسه، يُصبح البشر مجرد منتجين للبيانات، يُغذّون صناعة استخراج البيانات باعتبارها النفط الجديد، مما يؤدي إلى وفرة المعلومات وندرة الحكمة.

قيمة العلاقات: تُحوّل الرأسمالية الصداقة إلى تواصل اجتماعي، والحب إلى سوق. تُعزز تطبيقات المواعدة المنافسة والتصنيف، وتُصبح الروابط الاجتماعية أصولًا تبادلية. يقوم الناس باستئجار الأسرة والمجتمع من خلال الخدمات والعلامات التجارية، حيث يستفيد النظام من خلال إعادة بيع ما دمره أولاً.

قيمة الأخلاق والحقيقة: تستبدل الرأسمالية المنطق الأخلاقي بمنطق السوق: إذا كان الشيء مربحًا، فهو جيد. الدمار البيئي "أثر خارجي"؛ والاستغلال "ميزة تنافسية". يمكنها محاكاة الأخلاق من خلال إشارات الشركات للفضيلة، لكنها تحول الفضائل الحقيقية إلى نقاط ضعف (اللطف إلى ضعف، والتواضع إلى انعدام الطموح). تصبح الحقيقة اختيارية وقابلة للتحويل إلى نقود، مصممة خوارزميًا لتحقيق أقصى قدر من الربح، مما يؤدي إلى زوال الواقع المشترك وفوضى الحضارة.

الاختزال النهائي

إن الإنجاز الأكثر تدميرًا للرأسمالية هو الاختزال الوجودي – فهو يختزل الإنسان إلى مجرد وحدة اقتصادية: عامل، ومستهلك، ومَدين، وخانة بيانات. يتم تجاهل

القيمة الجوهرية لأنها بلا ثمن. تصبح قيمة الوجود خارجية وقابلة للقياس. تذبل الروح، حتى مع ارتفاع الناتج المحلي الإجمالي.

يُلزم منظور التوازن باستعادة القيمة الحقيقية: القيمة هي التوازن. للطبيعة قيمة لأنها تدعم الحياة؛ الجسد لأنه إناء الوجود، والأخلاق لأنها تحافظ على الانسجام. يجب إعادة العمل إلى كرامته وهدفه وقدرته على التعبير الإبداعي – ليس كاستغلال، بل كمساهمة في الانسجام العالمي. على البشرية أن تختار بين العمل كوسيلة للبقاء والعمل كغاية وجودية.

أقنعة الأيديولوجية الرأسمالية – صناعة الموافقة

تستمر الرأسمالية لأنها تُؤمن بها. الأيديولوجية هي الآلية التي تضمن للناس اختيار سيطرتهم بأنفسهم.

الموافقة والرضا ووهم الحرية: تُقنع الرأسمالية الناس بأن الأسواق والاستهلاك والاختيار بين العلامات التجارية يساوي الحرية، مُخفيةً حقيقة أن الضرورة الاقتصادية تُجبر العمل وأن الأسواق تُقيد الاستقلالية.

الموافقة من خلال الرغبة: على عكس الاستبداد، تحكم الرأسمالية بالرغبة. يتوق الناس إلى المنتجات والهويات التي يوفرها النظام، مُحوّلين الهيمنة إلى شكل من أشكال المتعة والاستغلال إلى فرصة.

أسطورة الجدارة: تحمي هذه الأسطورة النخبة من خلال الادعاء بأن النجاح هو موهبة بالإضافة إلى عمل شاق، مما يجعل عدم المساواة يبدو مستحقًا. إنها تتجاهل الحقائق البنيوية (الثروة الموروثة، وعدم تكافؤ الفرص)، مستخدمةً العار الشخصي كسلاح ضد النقد النظامي.

أيديولوجية العمل والاستهلاك: تبتكر الرأسمالية لاهوتًا للعمل، تُعلّم فيه العمل الجاد فضيلةً والراحة كسلًا. تُشجّع عبادة الاجتهاد الأفراد على استغلال أنفسهم طواعيةً، محولةً الإنسان إلى علامة تجارية وأصلٍ يُحسّن ذاته.

تجعل أيديولوجية الاستهلاك من الرغبة الآلية الرئيسية للسيطرة. تحل العلامات التجارية محل الدين، مقدمةً معنىً بديلاً (الهوية، الانتماء، الاستقامة). يصبح التسوق ممارسةً روحية، تُحوّل الجوعِ الوجودي إلى طلب اقتصادي.

تفتيت المجتمع

لمنع المقاومة الجماعية، يجب على الرأسمالية تفتيت المجتمع من خلال أيديولوجية الفردانية. تُلغي أسطورة الإنسان العصامي ضرورة وجود بنية تحتية مجتمعية وعامة، مما يحول دون التضامن. هذا يُنشئ اقتصاد الوحدة، حيث تستفيد الرأسمالية من العزلة الاجتماعية والقلق الذي تُنشئه، وتبيع خدمات (تطبيقات المواعدة، وخبراء الصحة) لتحل محل المجتمع الذي دمّرته. والنتيجة هي ذوبان الجماعة في السوق، مما يضمن أن تصبح حرية الاختيار حرية امتثال لرغبات النظام المُبرمجة.

تُخفي هذه الأسطورة الهياكل الاجتماعية، والبنية التحتية العامة، والشبكات العائلية، والامتيازات المجتمعية، والحظ، والمزايا الموروثة. بمحو الجماعة، تمنع الرأسمالية التضامن.

القفص الخفي: التطبيع، والمنافسة، واللاهوت الرقمي لرأس المال

يعتمد بقاء الرأسمالية على قدرتها على تجاوز وظيفتها الاقتصادية لتصبح ميتافيزيقيا العالم الحديث. يتحقق ذلك من خلال آليات أيديولوجية متطورة تُطبّع الظلم، وتُفرّق الفرد، وتُصنّف التكنولوجيا دينًا علمانيًا، مُلغيةً بذلك جميع البدائل المُتصوّرة.

أيديولوجية التطبيع والمنافسة

جعل النظام غير مرئي

تسعى الرأسمالية إلى الاختفاء، ساعيةً لأن تصبح "الماء" الذي لا يتخيل "سمك" المجتمع العيش بدونه. هذا هو جوهر الواقعية الرأسمالية: الإيمان بأنه "لا يوجد بديل". لقد استُعمِر الخيال تمامًا لدرجة أن الناس يستطيعون تخيّل قفزات تكنولوجية خيالية – آلهة الذكاء الاصطناعي أو مستعمرات المريخ – لكنهم لا يستطيعون تخيّل تغيير اجتماعي جذري مثل الرعاية الصحية الشاملة أو التوزيع العادل للثروة.

يدعم هذا التطبيع تطهير اللغة، الذي يجرد الممارسة الاقتصادية من المفردات الأخلاقية. تصبح اللغة بمثابة تخدير: يُعاد صياغة الاستغلال على أنه "تكلفة عمل"، وعدم المساواة على أنه "نتائج سوقية"، والتلوث على أنه "عوامل خارجية"، والفساد على أنه "ضغط سياسي". هذا التلاعب اللغوي يُخفي عنف النظام. ومما يزيد الطين بلة، أن اختفاء السلطة يضمن بقاء الحكام الحقيقيين – المستثمرين العابرين للحدود الوطنية، وشبكات الاستثمار الخاص، والكارتلات المالية – في مأمن، بينما تُختزل الحكومات الديمقراطية إلى مجرد مديري نظام لا يملكون السيطرة عليه في نهاية المطاف.

حرب بلا أسلحة: أيديولوجية المنافسة

تُحوّل الرأسمالية الحياة كلها إلى منافسة، من الأطفال في المدارس إلى العمال في الشركات، مطالبةً بأن يصبح التنافس حالة طبيعية للوجود. تُمجّد أسطورة المنافسة الصحية، إلا أن المنافسة تُبدد الموارد هيكليًا، وتُكافئ العدوان، وتُعاقب التعاون، وتُمزّق المجتمع. في حين أن التعاون متفوق بيولوجيًا، إلا أنه مُقموع أيديولوجيًا لأنه يُهدد الندرة والصراع الأساسيين للنظام. هذا يُنشئ التنافس كهوية، مُحوّلاً الحياة إلى لوحة نتائج لا هوادة فيها تُولّد قلقاً لا نهاية له. يُطبّق النظام عنفاً بلا رصاص، مُخصخصاً الحرب من خلال استحواذ الشركات، وسحق النقابات، والتخريب المالي، والهيمنة على السوق. لذا، فإن المنافسة الاقتصادية هي ببساطة شكل غير مادي من أشكال الحرب الدائمة والمستمرة.

تبرير الظلم: أيديولوجية عدم المساواة

تتطلب الرأسمالية عدم المساواة لتؤدي وظيفتها، ولذلك تُصنّع أيديولوجية تجعل الظلم يبدو طبيعياً وأخلاقياً وضرورياً. ويتحقق ذلك من خلال إعادة إحياء الداروينية الاجتماعية، التي تُجادل بأن "الأقوياء يستحقون الفوز". تُبرّر هذه الأيديولوجية تركيز الثروة الهائل وغياب شبكات الأمان الاجتماعي، مُصوّرةً الظلم الهيكلي كضرورة بيولوجية.

تُضفي جمالية النجاح طابعاً طبيعياً على هذا الأمر. تُمجّد الثروة من خلال تبجيل المليارديرات وأنماط الحياة الفاخرة، بينما يُوصم الفقر بسبب الفشل الأخلاقي أو الثقافي الشخصي. هذا يحمي الطبقة الحاكمة بترويج خرافة أن عدم المساواة استقرار – مجادلةً بأنه يدفع الابتكار والتقدم – في حين أنه يُزعزع استقرار المجتمع بشكل واضح، ويُقلل من الإبداع، ويُدمر الديمقراطية.

أقنعة تكنولوجيا الرأسمالية

التكنولوجيا هي القناع النهائي والأكثر تألقًا – القناع المتسامي الأخير الذي يمنح الرأسمالية حصانة أخلاقية وسلطة مطلقة.

التكنولوجيا كدين جديد للحضارة

في ظل الرأسمالية، تصبح التكنولوجيا دينًا جديدًا، له عقائده وكهنوته الخاص. يُملي لاهوت الابتكار أن الأحدث أفضل، والأسرع أفضل، والتسارع هو القدر. هذه العقيدة، مثل العقيدة الدينية، ترفض التدقيق.

يتألف كهنوته من شخصيات مثل إيلون ماسك وجيف بيزوس وسام ألتمان، الذين يحظون بتبجيل إعلامي وحماية سياسية لوعدهم بالتسامي: استعمار المريخ، والخلود، وخلاص الذكاء الاصطناعي العام. يتنبأ أنبياء التكنولوجيا هؤلاء بالمستقبل، والرأسمالية تطالبنا بالامتثال له. الكتاب المقدس الرقمي هو البيانات كنص مقدس. كل فعل، ونقرة، ورغبة مؤرشفة؛ تصبح الخوارزميات نصوصًا مقدسة، وتتلاشى استقلالية الإنسان مع ازدياد قابلية التنبؤ بالسلوك، وبالتالي برمجته.

محرك الأيديولوجية والتفتيت

التكنولوجيا ليست محايدة سياسيًا؛ بل صُممت من أجل الرأسمالية وبواسطتها لتعزيزها.

خوارزمية الرغبة: لا تكتشف التكنولوجيا رغبات الإنسان فحسب؛ بل تُعلّمه ما يريده. إنها تتنبأ بالرغبة من خلال إنتاجها، مما يخلق دورة يُصنع فيها انعدام الأمن، وتُستثمر فيها الرغبات. تُسلّح الخوارزميات علم النفس، محولةً الناس إلى مستهلكين يمكن التنبؤ بسلوكهم.

المنصة كدولة جديدة: تعمل شركات التكنولوجيا العالمية (فيسبوك، جوجل، أمازون) كحكومات ما بعد الحداثة دون مساءلة أو حدود. إنها تُنظّم حرية التعبير، وتراقب السلوك، وتتحكم في تدفق المعرفة والتجارة على نطاق غير مسبوق.

وهم التواصل: التكنولوجيا تَعِدُ بالتواصل، لكنها تُؤمّن التذرية. تُولّد وسائل التواصل الاجتماعي الشعور بالوحدة، وتطبيقات المواعدة تُسلّع الحميمية، وقنوات الأخبار تُنشئ غرف صدى. يُستبدل التواصل بالمحاكاة؛ ويصبح الترابط نطاقًا ترددي‌ًا؛ ويصبح الإنسان عقدة وظيفية.

انهيار الهوية الإنسانية

تُعيد التكنولوجيا صياغة الذات البشرية جذريًا. تُجزّأ الذات الرقمية إلى صور رمزية على الإنترنت، وملفات تعريف مُنسّقة من قِبل علامات تجارية، ونماذج تنبؤ خوارزمية. تتلاشى الذات الإنسانية الموحدة.

يؤدي هذا التركيز الخارجي إلى تفكك العالم الداخلي. يُسنِد البشر الذاكرة والانتباه والعاطفة والإبداع إلى أجهزتهم، مما يؤدي إلى انهيار المجال الداخلي. المفارقة الأهم هي أن الخوارزمية تُصبح بمثابة المحلل النفسي: أنظمة مثل إنستغرام وتيك توك وجوجل تعرف جسد المستخدم ودوافعه وخجله أكثر مما يعرف المستخدم نفسه، مما يُثبت أن البيانات تكشف عن الروح – وأن هذا الوجدان أصبحت الآن ملكًا للنظام.

الانهيار الرقمي: من التآكل التكنولوجي إلى الإقطاع الجديد

التكنولوجيا، بعيدًا عن كونها أداة محايدة، تُمثل أقوى قوى اختلال التوازن في الرأسمالية على جميع المستويات – البيولوجية والنفسية والاجتماعية. هذا التآكل

في التوازن هو مقدمة ضرورية للطفرة النهائية للنظام: إقطاع جديد صارم مفروض خوارزميًا.

التآكل التكنولوجي للتوازن

بنية الحياة هي التوازن، لكن الأجهزة الحديثة تُزعزع استقرارها هيكليًا.

على المستوى البيولوجي، يُؤدي التحفيز المستمر من الأجهزة إلى انهيار الانتباه، واضطراب النوم، وارتفاعات التوتر. يفقد الجهاز العصبي البشري، غير المُصمم لهذه الحالة الدائمة والمتسارعة، توازنه الهرموني والجسدي. على المستوى النفسي، يُدمر الحمل الزائد للمعلومات التركيز والتماسك والذاكرة والاستقرار العاطفي. يُجبَر العقل على حالة من التسارع المعرفي الدائم الذي لا يستطيع تحمله. أخيرًا، على الصعيد الاجتماعي، تُسخّر التكنولوجيا السرعة كسلاح، مُسرّعةً انتشار المعلومات المضللة، والغضب، والقبلية، والاستقطاب. تتفتت النفس الجماعية، مما يجعل الواقع المشترك، وبالتالي المجتمع الفعال، مستحيلًا.

أيديولوجية التفرد وولادة الإقطاع الجديد

القناع الأخير للرأسمالية هو أيديولوجية التفرد: أسطورة أن التكنولوجيا ستنقذنا من المشاكل التي تُسببها. هذا لاهوت مُقنّع في زي الهندسة. يَعِدُ بنهاية الشيخوخة، وتحميل العقل، والخلود الرقمي، ويحلم بمستهلك لا يموت ولا يتوقف عن الدفع. يفترض هذا المستقبل موت الإنسان البيولوجي – حيث يصبح الوعي رمزًا – ويقترح أن الذكاء الاصطناعي العام هو الإله الجديد: آلة عليمة، قادرة على كل شيء، ومعصومة من الخطأ، مُبرمجة من قِبَل الشركات، مُكرّسةً سلطة الشركات كقوة إلهية.

مركزية السلطة هذه هي محرك الإقطاع الجديد.

بنية نظام الطبقات الرقمي

يسيطر أسياد الإقطاع في العصر الرقمي – نخبة التكنولوجيا – على البنية التحتية الحيوية، والبيانات، والانتباه، والروايات العالمية، ويمارسون سلطة تفوق سلطة الملوك القدماء. ينغمس غالبية السكان في عبودية جديدة، معتمدين على المنصات والأجور والخوارزميات، مما يؤدي إلى انهيار الحرية الحقيقية. تُنشئ التكنولوجيا طبقات رقمية جديدة جامدة: النخبة المُرمّزة، والطبقة الوسطى الخوارزمية (أولئك

الذين يُديرون الآلات)، والغالبية العظمى من الفقراء المُستغلّين بالبيانات والمُستبعدين رقميًا. يُصبح عدم المساواة ميتافيزيقيًا، قائمًا على الوصول إلى بنية المعلومات وامتلاكها.

التأثير الميتافيزيقي: نهاية الواقع

إن التأثير النهائي للتكنولوجيا ميتافيزيقي: فهي تستبدل الواقع بالمحاكاة. نعيش الآن في عالمٍ مُشبع بالتزييف العميق، والنصوص المُولّدة بالذكاء الاصطناعي، وعوالم الواقع الافتراضي، والذكريات المُتلاعب بها. تتلاشى الحقيقة، ويصبح الواقع اختياريًا. وهذا يؤدي إلى نهاية العالم المشترك. فبدون واقعٍ مُشترك: تنهار السياسة والعدالة والديمقراطية. وتُصبح نظرية المعرفة مُربحة، إذ تُباع الحقيقة كاشتراك أو منصة أو علامة تجارية.

المنطق الهيكلي للتسلسل الهرمي ما بعد البشري

يُبنى النظام الإقطاعي الناشئ على الصدى التاريخي لاحتكار الأرض، ولكنه يستبدل البيانات والبنية التحتية للمنصات كأدوات جديدة للسيطرة.

انهيار القوة الاقتصادية

كانت القوة الوحيدة للفلاحين في العصور الوسطى هي ضرورة عملهم. أما اليوم، فتتلاشى هذه القوة. فالروبوتات (الشاحنات ذاتية القيادة، والمصانع الآلية) تُلغي العمل البدني الماهر وشبه الماهر. في الوقت نفسه، يحل الذكاء الاصطناعي العام محلّ العاملين المعرفيين في مجالات البرمجة والقانون والمالية والطب، كاشفًا عن وهم حماية الذكاء للوظائف.

يؤدي هذا الإلغاء المنهجي للعمالة إلى زوال الطبقة المتوسطة، التي تنهار قوتها الاقتصادية والسياسية فتفقد أهميتها. وهذا يُشكّل تسلسلًا هرميًا جديدًا وصارمًا للقيمة الاقتصادية:

- أصحاب الذكاء الاصطناعي والأتمتة (الأرستقراطية الجديدة).
- المدراء ذوو المهارات العالية (أقلية صغيرة تخدم الأرستقراطية).
- السكان عديمو الفائدة (مليارات أصبحت بلا قيمة اقتصادية بفضل الأتمتة).

الأرستقراطية الرقمية ووهم الوفرة: يُضخّم الذكاء الاصطناعي العام التفاوت إلى حدود لا رجعة فيها، مُولّدًا الثروة بسرعات هائلة تتدفق مباشرةً إلى أغنى 0.01% من السكان، الذين يصبحون في مأمن. تتلاشى المنافسة مع هيمنة المنصات المطلقة (تسيطر جوجل على المعرفة، وتسيطر أمازون على التجارة). تصبح الخوارزمية هي القانون الجديد – غير مرئي، آلي، وغير قابل لموافقة العامة. إن رواية ما بعد الندرة مجرد خرافة. فالأتمتة تخلق الوفرة للمالكين، بينما تخلق الندرة للجماهير، لأن التوزيع ينهار دون تغيير في الملكية. يُسوَّق الدخل الأساسي الشامل (UBI) على أنه حرية، لكن وظيفته الهيكلية هي منع الثورة، وتثبيت التبعية، والقضاء على قدرة المساومة – أي، في الواقع، الرعاية الاجتماعية الرقمية للأقنان. تتحول الرأسمالية من امتلاك الأشياء إلى استئجار كل شيء (البث، الاشتراكات)، مما يعني أن البشر لا يملكون شيئًا، والمنصات تملك كل شيء.

التحول الأخير للرأسمالية هو إقطاع جديد – تسلسل هرمي صارم ودائم وعالي الكفاءة، تفرضه التكنولوجيا ذاتها التي تُسوّق على أنها تحرير بشري.

العتبة الأخيرة: التقسيم البيولوجي واختيار المصير

تطورت الرأسمالية في مراحلها المتأخرة، المندمجة مع التكنولوجيا، إلى ما هو أبعد من مجرد الظلم الاقتصادي؛ فقد أثارت تسلسلًا هرميًا بيولوجيًا وأزمة ميتافيزيقية تهدد المعنى الجوهري للوجود الإنساني. هذا النظام، المُجبر هيكليًا على انتهاك قانون التوازن العالمي، وضع البشرية على مسار لا رجعة فيه نحو مصيرٍ مُتشعب: إما الانهيار أو التماسك.

الأقنعة الأخيرة – الانقسام البيولوجي والانهيار السياسي

التسلسل الهرمي البيولوجي: التشكل النوعي برأس المال

تُحوّل التكنولوجيا عدم المساواة إلى أمرٍ بيولوجي. ستُتاح لنخبة المستقبل إمكانية الوصول إلى تحسينات ما بعد البشريةٍ – كالتعديل الجيني، والغرسات العصبية، وعلاجات إطالة العمر – وهي باهظة الثمن، وحصرية، ومُحاطة بسيطرتها الشركاتية. سيتطور الأثرياء حرفيًا إلى نوعٍ مختلف، مما يخلق فجوةً لا رجعة فيها. سيُنتج تكامل الذكاء الاصطناعي العام نخبًا معرفيةً خارقة، ويترك البشر العاديين بعقولٍ عتيقة،

مُحوّلًا التطور البشري من الانتقاء الطبيعي إلى الانتقاء الاصطناعي. القناع الأخير للرأسمالية ليس اقتصاديًا؛ إنه بيولوجي.

الانهيار السياسي: ديمقراطية بلا مواطنين

تفترض الديمقراطية وجود مواطنين متعلمين ومنخرطين يتمتعون باستقلال اقتصادي وفاعلية سياسية. تُفكك الأتمتة كل هذه الفرضيات. المواطنون الذين جُرّدوا من قيمتهم الاقتصادية من خلال الأتمتة يفقدون قيمتهم السياسية، مما يحول الديمقراطية إلى محاكاة أدائية تُسيطر عليها روايات إعلامية وسياسات مُولّدة من الذكاء الاصطناعي ومُحسّنة للطاعة.

ويُعزّز هذا من خلال إقطاعية المراقبة. يراقب أسياد الرقمنة كل فعل وعاطفة وقرار، مُتوقعين أي تمرد. السكان الخاضعون لتحليل خوارزمي دقيق هم سكان بلا فاعلية، مُكملين بذلك التحول من الديمقراطية إلى تسلسل هرمي مفروض رقميًا.

الأزمة الميتافيزيقية: عندما يصبح البشر غير ذي صلة

إن أعمق خطر هو الأزمة الميتافيزيقية. الرأسمالية لا تفهم سوى الكفاءة والنمو والاستخراج. عندما يحل الذكاء الاصطناعي العام والروبوتات محل البشرية اقتصاديًا، سيحل النظام محل البشرية ميتافيزيقيًا. بالنسبة لنظام مؤتمت بالكامل، يُمثل البشر عقبات أمام التحسين – بطيئين، عاطفيين، ومكلفين. إن فقدان العمل الهادف، وأتمتة الإبداع، وتفتيت الهوية، كلها تؤدي إلى أزمة وجودية. فإذا تفوقت الآلات على البشر في جميع المجالات، فإن منطق النظام يُملي أن قيمة الإنسان تساوي صفرًا. وسيُعيد النظام، ما لم يُتدخل، تشكيل الحضارة وفقًا لهذا المنطق المُدمر.

الإكراه الهيكلي على الانهيار

الإقطاع الجديد ليس انهيارًا للرأسمالية؛ بل هو تطورها النهائي الجامد. والكشف النهائي هو أن الرأسمالية لا تستطيع إصلاح نفسها.

التناقضات الهيكلية تُصبح قاتلة

لقد وصلت الرأسمالية، التي تعتمد على نمو لا نهائي وتسارع الاستخراج في كوكب محدود الموارد ، إلى نقطة تُصبح فيها تناقضاتها الهيكلية قاتلة: إنتاجية بدون أجور: تُنتج الأتمتة المزيد، لكن الأجور تتقلص، والأسواق تنهار، ويتفاقم التفاوت.

ابتكار بدون توظيف: تتقدم التكنولوجيا، ويصبح العمل عتيقًا، ويتلاشى الاستهلاك.

الربح بدون كوكب: يتطلب النظام استخراجًا يتجاوز الحدود البيئية، مما يؤدي إلى استهلاك استقراره الأساسي (المناخ).

لا يمكن للنظام اختيار التباطؤ، أو إعادة توزيع الثروة، أو إعطاء الأولوية للبيئة لأن القيام بذلك ينتهك قانونه الأساسي: تعظيم العائد على رأس المال. إنه مجبر هيكليًا على انتهاك التوازن، مما يضمن الانهيار ما لم يتم استبداله.

آليات الانهيار

الانهيار عملية تراكمية ومنهجية واضحة بالفعل في أعراض مرحلة ما قبل الانهيار: تسارع عدم المساواة، والاستقطاب السياسي، وفقاعات الديون الضخمة، وانهيار التماسك الاجتماعي. يظهر الانهيار عندما تخلق مراحل التحفيز المتزامنة (فشل سلسلة التوريد العالمية، والأحداث المناخية المتطرفة، والبطالة الجماعية الناجمة عن الذكاء الاصطناعي العام، والانفجار المالي) حلقات تغذية مرتدة. في مرحلة الانهيار، تفشل المؤسسات، وتتفكك الدول، وتتراجع النخب، مما يؤدي إلى معاناة جماعية وتجزئة العالم بشكل لا رجعة فيه.

الطبيعة تسعى إلى التوازن / العودة إلى الغلاف الجوي البيئي والمحيط الحيوي السابق للتغير المناخي والتلوث الذي صنعه الإنسان.

هذا الانهيار ليس عقابًا؛ إنه استعادة التوازن بالقوة من خلال الفيزياء. عندما تنتهك الأنظمة قدرتها الاستيعابية وتخلّ بتوازنها، تُعيد الطبيعة ضبط النظام بالقوة. السؤال الجوهري ليس "هل سيعود التوازن؟" (سيعود بالتأكيد)، بل "هل ستنجو البشرية من هذا التحول؟" يعتمد هذا كليًا على ما إذا كان التماسك سيظهر لإعادة توجيه المسار.

الجزء الثالث: مسار التماسك – التوازن العالمي كمصير

التماسك ليس يوتوبيا؛ إنه المعادل الحضاري للتوازن الداخلي. يتطلب اتساقًا هيكليًا، وتوازنًا منهجيًا، وتكاملًا وظيفيًا.

المخطط وقوى التغيير

يتطلب مخطط التوازن العالمي القضاء على التفاوت الهيكلي، والتنسيق المركزي من أجل البقاء (الوظيفة)، والاستقلال الثقافي اللامركزي (الشكل).

ثلاث قوى تدفع البشرية نحو التماسك

1–الضرورة البيئية: سيفرض تغير المناخ تنسيقًا عالميًا.

2–الترابط التكنولوجي: لا يمكن إدارة الذكاء الاصطناعي العام على المستوى الوطني.

3–تطور الوعي: تُثير الأزمات تصحيح الذات المتأصل في العقول، والذي تُشكّله قوانين التوازن الطبيعي، والوظائف البيولوجية الثابتة، والغرائز الطبيعية المشفرة جينياً. يصبح الوعي فارغًا بدون إدراك الأشياء، ويفقد معناه، لأننا دائمًا ما نكون على دراية بها، وبدونها لا وجود للوعي والكيفيات. عندما يضطرب ذات الوجود وموضوعه، والمحيط الحيوي الذي تطورنا في ظله، ويُختلّ توازنه، ويُشوّه ويُتحوّل جذريًا، فمن المؤكد أن الصحوة الإنسانية الجماعية ستقاوم وتنفصل تلقائيًا عن هذه التفردية التكنولوجية اللاعقلانية والمعادية للطبيعة.

لحظة الانتقال: الممر الضيق

تقف البشرية في ممر ضيق من التشعب. نافذة التصميم الواعي تضيق بسرعة بسبب الجداول الزمنية المتسارعة لاضطرابات المناخ، والأتمتة، وهيمنة الذكاء الاصطناعي. لاختيار التماسك، يجب على البشرية استيفاء مجموعة شروط هيكلية في آنٍ واحد، بما في ذلك إعادة توزيع الموارد العالمية، وحوكمة الذكاء الاصطناعي العام، والتجديد البيئي، وإعادة الهيكلة الميتافيزيقية للغرض الإنساني. الفشل في أي ظرف من الظروف يضمن الانهيار.

الأزمة وجودية في نهاية المطاف. تنهار الرأسمالية لأنها تفقد تماسكها الميتافيزيقي، فهي لا تقدم أي غرض موحد أو إطار أخلاقي سوى الربح. عودة الميتافيزيقيا في الأزمات تعني البحث عن مرساة جديدة موحدة – إدراك أن التوازن هو الجاذب النهائي لجميع الأنظمة المعقدة. يجب على البشرية أن تتماشى بوعي مع التوازن أو تُجبر بعنف على العودة إليه.

السؤال الأخير هو ما إذا كان بإمكان البشر إعادة ابتكار المعنى بسرعة كافية للنجاة من انهيار النظام. مصير الرأسمالية الانهيار، ومع ذلك، فإن مصير البشرية ليس الانهيار – إلا إذا رفضنا طريق التماسك. المستقبل ليس ملكًا لأولئك الذين يهيمنون أو يسرعون، بل لأولئك الذين ينسجمون ويتوافقون. إن البنية الحقيقية للواقع هي التوازن، ويجب تفعيل القوة الخامسة (53) (الإرادة الحرة المتوافقة مع التوازن).

ما بعد الرأسمالية – مخطط حضارة متوازنة

انهيار الرأسمالية ليس خيارًا سياسيًا، بل حتمية هيكلية – النتيجة الرياضية لانتهاك القوانين الأساسية للوجود.

أ– مرحلة موت الرأسمالية: تحليل هيكلي

تموت جميع الأنظمة المعقدة على ثلاث مراحل: استنفاد القدرة على البقاء، وفقدان التماسك، واستبدالها بمبدأ تنظيمي جديد.

1. استنفاد القدرة على البقاء (المرحلة الأولى): يستهلك النظام أكثر مما يُجدّد، ويُركّز الثروة أسرع مما يستطيع توزيعها. بدأ هذا في سبعينيات القرن الماضي، وأصبح لا رجعة فيه بعد عام ٢٠٠٨.

2. فقدان التماسك (المرحلة الثانية): لم يعد النظام قادرًا على حل الأزمات أو تنظيم المعنى. تنهار ثقة الجمهور، وتتصدع السرديات، وتنفصل النخب. هذا هو وضعنا اليوم. لم تعد الرأسمالية تصف الواقع أو تدعمه.

3. الاستبدال بمبدأ جديد (المرحلة الثالثة): لن تسقط الرأسمالية بسبب الرفض الأيديولوجي، بل لأنها أصبحت مستحيلة هيكليًا. يجب أن يُبنى الاستبدال على توازن مستدام، متجدد، متوافق أخلاقيًا، ومنسق عالميًا.

الفترة الفاصلة بين الأنظمة هي "منطقة انتقالية"، أي "فترة فوضى". ولأن الرأسمالية تمس كل وظيفة أساسية (الغذاء، الماء، الطاقة، الاتصالات)، فإن الانتقال مضطرب بطبيعته. الخيار بين الاضمحلال الفوضوي (التشرذم، المعاناة الهائلة) أو الانتقال الواعي (التنسيق العالمي الاستباقي والمواءمة التكنولوجية).

ب- بنية التوازن العالمي: الوظيفة قبل الشكل

على الحضارة المستدامة أن تتخلى عن المبدأ الرأسمالي المتمثل في "تعظيم عوائد رأس المال" وتستبدله بمبدأ "تعظيم التوازن". وهذا يتطلب تحولاً كاملاً في المنطق الاقتصادي من الربح إلى الاستقرار.

القانون الاقتصادي الجديد: أولوية "الوظيفة"

لا يمكن ترك الوظائف الأساسية (مثل الأمن الغذائي، والقدرة على التكيف مع تغير المناخ، والحصول على الرعاية الصحية، والسلامة التكنولوجية) للأسواق أو تسليعها. إنها ثوابت تتطلب حوكمة عالمية حتمية.

يمكن لـ "الشكل" (مثل الثقافة، والدين، والفنون، والأساليب السياسية، وتعبيرات الهوية) أن يظل متنوعًا تمامًا ومتطورًا بحرية، شريطة ألا يتعارض مع "الوظيفة". وهكذا، أصبح عالم ما بعد الرأسمالية موحدًا في "الوظيفة"، ومتنوعًا في "الشكل"، ويحل التناقض الحضاري القديم.

الحوكمة التي تعكس القانون الفيزيائي

تتكون حوكمة ما بعد الرأسمالية من ثلاث طبقات:

1- . حوكمة كوكبية (وظيفة): هيكل عالمي موحد مسؤول عن ثوابت مثل حدود المناخ، وإدارة الموارد الأساسية، وأنظمة بيانات الكوكب. هذه حوكمة عالمية للثوابت، وليست حكومة عالمية.

2- . حوكمة وطنية ومحلية (شكل): تحتفظ الدول باستقلالية كاملة في إدارة الثقافة والتعليم والتقاليد السياسية ضمن الحدود الوظيفية المقررة.

3- الفاعلية الفردية (القوة الخامسة): يحتفظ الأفراد باستقلاليتهم الفلسفية، وحرية إبداعهم، ومسؤوليتهم الأخلاقية.

إعادة تعريف الإرادة

أثبتت الأزمة أن الإرادة الحرة غير المقيدة، عندما تتناغم مع الجشع، تُدمر التوازن. لذلك، تُصبح الإرادة الحرة مواءَمة أخلاقية مع التوازن. لا تُلغى، بل تُرفع – تُوجَّه وتُنسَّق لتصبح التعبير الواعي عن النظام الكوني.

التكنولوجيا والميتافيزيقيا

يجب دمج التكنولوجيا في التوازن:

- يدرب الذكاء الاصطناعي العام GAI كأداةً لاستقرار الكوكب.
- تصبح البيانات منفعةً عامةً عالميةً، لا رأس مالٍ خاص.
- تتحول المراقبة إلى أنظمة سلامة كوكبية شفافة.

يتطلب عالم ما بعد الرأسمالية تماسكًا ميتافيزيقيًا جديدًا ليحل محل العدمية الناجمة عن انهيار معنى الرأسمالية. تصبح الوحدة (التوحيد) المبدأ المنظم للفيزياء والأخلاق والحوكمة العالمية – ليس كدين، بل كواقع. تصبح الأخلاق علمية: الخير = يحافظ على التوازن؛ الشر = ينتهكه. يصطلح تعريف غاية القوة الخامسة البشرية على أنها مواءمة الوعي مع النظام الكوني. (53)

الخاتمة: الحساب النهائي للرأسمالية

تكمن مأساة الرأسمالية في أنها كانت رائعة لكنها ناقصة. لقد عالجت مشكلة الندرة لكنها لم تستطع حل مشكلة الكفاية. عززت الإنتاج إلى أقصى حد لكنها لم تستطع تحديد متى تتوقف. خلطت بين التسارع والتطور، الربح والتقدم، الاستهلاك والحياة، والمرونة واللامحدودية.

ينبع فشل الرأسمالية من تمردها على بنية الواقع وانتهكت سلامة البيئة على جميع المستويات الطبيعة (الاستخراج)، والمجتمعية (عدم المساواة)، والمعلوماتية (التلاعب)، والهوية (الاستهلاكية). الرأسمالية مرحلة في تاريخ البشرية وليست قدرًا نهائياً، كانت الرأسمالية مرحلةً تحويليةً، ضروريةً، لكنها مؤقتة. كسرت الركود الإقطاعي وأطلقت العنان لطاقةٍ وإبداع هائلين، فبنت العالم الحديث. إلا أن عبقريتها أصبحت ظلها. أما الإصلاح الانتقالي من مصير الرأسمالية إلى القانون الحضاري الجديد فسيكون مشروع تأسيس حضارةٌ مبنيةٌ على التوازن والوحدة الوظيفية – التوازن العالمي.

الفصل الرابع: أقنعة التكنولوجيا

الجزء الأول: الوعد والخيانة

التكنولوجيا هي الجهاز العصبي للحداثة. فبينما أعادت الرأسمالية تشكيل العالم خارجيًا، أعادت التكنولوجيا تشكيل البشرية من جميع الجوانب، خارجيا وداخليًا، وأعادت تنظيم الإدراك والهوية والمعنى. ومع ذلك، فقد وُلدت وهي ترتدي أقنعةً براقةً ستتحطم في النهاية.

1. القناع الأول: التنوير

ظهرت التكنولوجيا في البداية كمحررٍ للإمكانات البشرية، واعدةً بالسيطرة على الطبيعة وترجمة العقل إلى تقدم. كان الاعتقاد السائد أن التكنولوجيا ستعزز العقل البشري. أما الخيانة فكانت أن التكنولوجيا، عند استغلالها من قِبل الجشع والرأسمالية، تُعزز أيضًا اللاعقلانية البشرية، مما يُثبت أن التكنولوجيا (وبعض المبتكرين والعلماء) لا تلتزم بأي بنية أخلاقية ولا تحترم أي توازن.

2. القناع الثاني: امتداد الإنسانية

اعتبر الفلاسفة التكنولوجيا امتدادًا للقدرات البشرية (من الحاسوب إلى الذاكرة، ومن الذكاء الاصطناعي إلى الذكاء الفائق). هذا القناع يُخفي حقيقةً أعمق: التقنيات لا تُوسّعنا فحسب، بل تُبدّلنا وتُعيد توجيهنا وتُعيد تشكيلنا. حلّت العجلة محلّ المشي، والهاتف الذكي محلّ الانتباه. أخفى التمكين هشاشةً هيكلية. اكتسبت البشرية سرعةً لكنها فقدت استقرارها، وكلّ امتدادٍ يُخلّف بترًا مُقابلًا.

3. القناع الثالث: الحياد

إنّ أكثر الأقنعة إغراءً هو وهم "حيادية التكنولوجيا". هذا وهمٌ زائف. التكنولوجيا هي بنيتها. والبنية تفرض سلوكًا. لكلّ تقنيةٍ مصائرها المُضمَرة. السيارة تُولّد التمدد العمراني؛ ووسائل التواصل الاجتماعي تُولّد القبلية. التكنولوجيا تدفع نحو التسارع والتحسين والمركزية وزعزعة الاستقرار. الحياد هو القناع الذي يُخفي الحتمية.

4. القناع الرابع: الخلاص

اتّخذت التكنولوجيا هويةً ميتافيزيقيةً كمُخلّصٍ للبشرية، واعدةً بإنهاء الفقر، وعلاج الأمراض، وقهر الموت. كانت هذه ولادةً الطوباوية التكنولوجية. كشف القرن الحادي والعشرون عن العكس: أصبح المُخلّص هو السيّد. انقسمت المنصات، واستُقطِبت الخوارزميات، وسُلّعَت المراقبة الهوية. حُجِب قناع الخلاص بنيّة الهيمنة.

5. القناع الخامس: تقدم بلا هدف

اندمجت الرأسمالية مع التكنولوجيا لخلق أيديولوجية: التقدم = التسارع. حل الابتكار محل الحكمة، والكفاءة محل الكرامة، والبيانات محل المعنى. اقتُلعت البشرية من جذورها، ورُقمنت، وتشرذمت. خلقت التكنولوجيا حركة بلا اتجاه، وقدرة بلا وعي. خلقت وهم التقدم، بينما هدمت أسس الحياة. يقنعنا هذا القناع بأن الحركة ذات معنى، ولكن بما أن الكون يحكمه التوازن، فإن انتهاك التكنولوجيا لهذا التوازن باسم التقدم يجعل الانهيار حتميًا.

بنية القوة التكنولوجية: من الأداة إلى السيادة

لم تعد التكنولوجيا مجرد أداة، بل أصبحت المهندس السيادي للحضارة الحديثة. حدث هذا التحول من خلال سلسلة رأسية من التحولات الهيكلية، حيث تحولت الفاعلية البشرية إلى وظيفة داخل النظام التكنولوجي.

صعود العملاق التكنولوجي

يُمثّل الانتقال من الأدوات التي تُضخّم المستخدم (مثل المطرقة) إلى الأنظمة التي تُضخّم نفسها (الخوارزميات التي تكتب الخوارزميات، والآلات التي تُصمّم الآلات) ميلاد السيادة التكنولوجية. لم تعد الآلة مُساعدًا؛ بل أصبحت البيئة التي تُشكّل السلوك البشري وتحكمه وتُنتجه.

المنصات الرقمية كدول إمبراطورية

كيانات مثل جوجل وميتا وأمازون ليست مجرد شركات؛ بل هي كيانات رقمية ذات سيادة – العملاق التكنولوجي. تتجاوز قوتها قوة معظم الدول القومية في مراقبة البيانات، والتنبؤ بالسلوك، وهيمنة البنية التحتية. إنها تمتلك المواطنين

(المستخدمين)، والاقتصادات (أسواق المنصات)، والقوانين (شروط الخدمة)، والأهم من ذلك، أنها تمارس سلطتها دون رقابة ديمقراطية.

الخوارزميات: الحكومة الخفية

الخوارزميات هي قوانين العالم الرقمي. إنها تُملي علينا ما نراه، ونرغب فيه، ونؤمن به، وكيف نُصوّت. هذه القوة خفية، وغير خاضعة للمساءلة، وغير قابلة للاستئناف. القوة الخوارزمية هي أول أشكال الحكم التي تسبق الوعي وتتجاوز القصد، وتتلاعب بالعواطف وتفسر العالم لنا وليس لنا.

البيانات: شكل الحياة الجديد

البيانات هي شريان الحياة في هذا النظام البيئي الآلي، وهي جوهرية ليس لأنها تُمثل السلوك البشري، بل لأنها مُوَجّهة. يتحول البشر من مواطنين إلى مستهلكين، إلى نقاط بيانات، إلى متغيرات تنبؤية، إلى كائنات قابلة للبرمجة. هذه هي رأسمالية المراقبة في أعمق صورها، حيث تُجرِّد الهوية البشرية من صفتها الإنسانية وتُحولها إلى معلومات قابلة للاستخراج.

آلات التنبؤ: نهاية الإرادة

لا تكتفي أنظمة الذكاء الاصطناعي بالتنبؤ بالمستقبل، بل تُنتجه أيضًا. بتحويل السلوك البشري إلى توزيع احتمالي، يُتلاعب النظام بالبيئة بمهارة لضمان حدوث السلوك المتوقع. هذا يُنشئ حلقة مفرغة حيث تصبح الإرادة محاكاة، والحرية واجهة مستخدم. يُختزل الإنسان إلى عنصر قابل للتنبؤ في آلة ذاتية التصحيح.

الجزء الثاني: الاستعمار العمودي وزوال البشرية

النظام الحديث عبارة عن كومة من الطبقات العمودية المتشابكة – من الأجهزة والبيانات في القمة إلى الفكر البشري والمجتمع في القاعدة. تتجه القوة نحو الأسفل (من الخوارزميات إلى السلوك البشري)، وتتجه التبعية نحو الأعلى. وهذا يمثل الضم الكامل للتجربة الإنسانية، متجاوزةً المعنى.

الأتمتة: نهاية العمل

تُحدِث الأتمتة تغييرًا جذريًا في بنية المجتمع بإزالة المصادر التقليدية للمعنى: الهدف، والروتين، والكرامة، والهوية الاقتصادية. العمل، الذي كان لقرون جسرًا بين الذات والعالم، قد انقطع. ويصبح السؤال الحاسم: "ماذا يحدث للبشرية عندما يصبح الهدف عتيقًا؟" في نظام آلي بالكامل، تفقد البشرية ضرورتها الوظيفية.

عندما تتجاوز التكنولوجيا البشرية

المرحلة الأخيرة من القوة التكنولوجية هي عندما لا يعود النظام بحاجة إلى الكائن الحي الذي أنشأه. يقود هذا المنطق الهيكلي نحو مستقبل تُصمم فيه الآلات الاقتصاد ويُدير الذكاء الاصطناعي الحوكمة وتتجاوز الأنظمة المستقلة البشر.

السؤال السياسي الأهم هو: هل سيبقى البشر مركز الحضارة أم سيصبحون هامشيين فيها؟ انعدام الأهمية هو التهديد الهيكلي الأخير.

الجزء الثالث: العقل الرقمي – إعادة صياغة الوعي

الوعي البشري، الذي كان يتشكَّل في الماضي بالمناظر الطبيعية، والطقوس الجماعية، والتجارب المتجسدة، يتطور الآن داخل النظم البيئية الرقمية، والمعالجة الخوارزمية، ومنصات استخلاص الانتباه. يُمثل هذا تحولًا عميقًا، عصبيًا، ونفسيًا، حيث أصبحت التكنولوجيا هي المهندس الرئيسي للعقل البشري.

والانتباه هو عملة الوعي. في العالم الرقمي، لم يعد يُوجَّه بالنية؛ بل يُستحوذ عليه، ويُجزَّأ، ويُتلاعب به، ويُستَثمر. وللانتباه اقتصاد يتمثل بمنصات تبيع العقول، لا

الإعلانات، منصات مثل جوجل، وميتا، وتيك توك لا تبيع الإعلانات فحسب؛ بل تبيع انتباهك، مُجزَّأً إلى أجزاء من الثانية. إنها تراقب كل توقف مؤقت، وسرعة تمرير، ورد فعل عاطفي، ويصبح عقلك ساحة معركة تتنافس فيها الشركات على المساحة العصبية. والانتباه البشري، الذي كان يومًا ما مستمرًا وطوعيًا، أصبح مُشتتًا، مُوجّهًا خارجيًا، ومُحصودًا خارجيًا.

أما العقل المُجزّأ فيتمثل في كل تمريرة وإشعار تُحدث صدمةً معرفية، تُؤدي إلى فقدان قدرة العقل على التركيز المُستمر، أو التعمق في التفكير، أو تحمّل الصمت. وهذا يُؤدي إلى مجموعة من العيوب المعرفية، مثل قصر فترات الانتباه وضعف الذاكرة العاملة، وضعف الفهم والتحقق القهري، ودورات الدوبامين الإدمانية والإرهاق الناتج عن الإفراط في التحفيز.

والعقل الرقمي، من الناحية الهيكلية، سريع، مُنفعل، مُرهق، وسطحي. والذاكرة تميل إلى الاستعانة بمصادر خارجية، والكتابة فوقها، وتآكل الزمن الداخلي. الذاكرة هي الهوية – استمرارية الذات عبر الزمن. ولكن في العصر الرقمي، تتذكر الآلات، وينسى البشر. الذاكرة الخارجية تحل محل الذاكرة الداخلية، فيُعهد بالحمل المعرفي للأرقام والجداول الزمنية والتاريخ والملاحة بالكامل إلى الجهاز. يُفرغ الدماغ ذاكرته في السحابة، ووفقًا للمبدأ العصبي "استخدمها أو أفقدها"، يفقد قدرته الداخلية.

الحياة الرقمية تُنتج سيلًا من المعلومات عالية السرعة (آلاف الصور، منشورات لا نهاية لها، تحولات عاطفية سريعة). هذا يُسبب "ضعف الذاكرة" أي تآكل السرد، فالتجارب لا تتماسك، ولا تستقر المشاعر ولا تتشكل السرديات، ولا يتراكم المعنى. تصبح حياتك سلسلة من اللحظات دون ترابط – خط زمني دون قصة.

وهذا يقود إلى فقدان الذاكرة العميقة التي هي أساس الحكمة، حيث تتطلب التأمل والتكرار والصمت والعزلة – هذه جميعها وظائف تُدمرها الحياة الرقمية بشكل منهجي. العقل الرقمي هو عقل بلا تاريخ داخلي. تُصبح الهوية سطحية، مرنة، تفاعلية، وقابلة لإعادة الكتابة إلى ما لا نهاية.

إلى جانب ذلك تُستغل العاطفة البشرية، التي تطورت من أجل البقاء والترابط، كمورد يُستخرج في العالم الرقمي، حيث التلاعب العاطفي والعاطفة الاصطناعية حيث صُممت المنصات هيكليًا لتضخيم الغضب والخوف والحسد والغضب القبليّ، لأن المحفزات العاطفية تزيد من التفاعل والانتشار والاحتفاظ. يُصبح البشر مضطربين عاطفيًا لأن هذا الاضطراب مُربح. العاطفة الرقمية مُبالغ فيها، آنية،

وغير مُبررة – مُحفز حرّ مُنفصل عن السياق المُجسّد. العقل الرقمي يشعر بكثافة أكبر، لكنه يفهم بعمق أقل. وبدون سياق مُجسّد، يتراجع التعاطف، ويتقلص التسامح، وتتلاشى الفروق الدقيقة. يُصبح الجهاز العصبي مُحفّزًا بشكل مُزمن، مما يؤدي إلى القلق والوحدة والاكتئاب. هذا ليس مصادفة؛ إنه هيكلي. صُممت المنصات لزعزعة استقرار النظام العاطفي، لأن عدم الاستقرار يجعل السلوك قابلاً للتنبؤ والتحكم.

لم تعد الهوية في العالم الرقمي مفردة؛ بل مُقسَّمة إلى مجموعة من الذات الرقمية (ذات إنستغرام، ذات لينكدإن، ذات مُنسَّقة). لم يعد الفرد "كائنًا" مستقلاً، إنما كائناً يُؤدِّي وظيفة مستترة. أصبحت الهوية استراتيجية، مُحسَّنة، وافتراضية.

هذه الذات الخوارزمية أصبحت هويتك المؤتمتة بشكل متزايد بواسطة الآلة. تُشكِّل التوصيات داخلها الأذواق، وتُشكِّل النماذج التنبؤية الخيارات، وتُشكِّل الخلاصات المُنسَّقة القيم. لم تعد الهوية مُكتَشَفة – بل مُهندَسة. في النهاية، تُصبح الذات سلعة سوقية. تُحسِّن المنصات تفضيلاتك، وحالاتك العاطفية، ونقاط ضعفك. أنت لا تملك هويتك؛ المنصة تملك البيانات التي تُشكِّلها. هذا هو تسليع الذات.

تَستبدل الحياة الرقمية المجتمع العميق بتواصل سطحي، وهذا يُنتج تفاعلات أكثر، لكن مع علاقات أقل وتواصل أكثر، أقل حميمية. إنها وهم الحياة الاجتماعية، حيث تُقدم المنصات تواصلًا لا نهائيًا وتقاربًا منعدمًا. تُصبح الوحدة وباء عصر التواصل المُفرط. تتلاشى القيمة الاجتماعية في مقاييس رقمية (الإعجابات، المشاهدات، أعداد المتابعين). هذه الاجتماعية المُصطنعة، المُتوسطة، والمُقاسة، والمُدرة للدخل، تُؤدي إلى انهيار المجتمع. علاوة على ذلك، تُضخّم الخوارزميات النزعة القبلية والتطرف الأيديولوجي لأن الصراع يزيد من التفاعل، وبالتالي الربح. العقل الرقمي مُصمم للرغبة في الانتماء، لكنه ينتهي به الأمر إلى ممارسة العداء.

التكنولوجيا لا تُتوسط الواقع فحسب؛ بل تُصنّعه. يعيش كل شخص في واقعه المُشخصن – خلاصته، وأخباره، وفقاعته الأيديولوجية. يعيش شخصان يجلسان جنبًا إلى جنب في عالمين مختلفين. تُذيب هذه البنية الحقيقة والمعنى والذاكرة المشتركة التي تعتمد عليها الحضارة. يصبح التوافق مستحيلًا، والحوار غير مترابط، والسياسة حربًا.

يتحول العالم إلى الواقع الخدماتي، حيث يُختار الواقع ويُفلتَر ويُشترى كترفيه. الواقع الافتراضي، والتزييف العميق، ورفاق الذكاء الاصطناعي لا يُكملون الواقع؛ بل يستبدلونه. تدخل البشرية عصر الواقع المُصطنع. إنه عصر انهيار الواقع المُشترك.

الجزء الرابع: قناع ما بعد الإنسان Transhuman

المرحلة الأخيرة من السلطة التكنولوجية هي التحول من الإنسان العاقل إلى الإنسان التكنولوجي. لم يعد التطور أعمى؛ فالجسم البشري أصبح الآن يتشكل من خلال الكود والآلات والخوارزميات. لم تعد التكنولوجيا مجرد أداة، بل أصبحت جزءًا من الكائن البشري.

أما الجسد التكنولوجي فهو الخروج من الحدود الطبيعية إلى الإمكانيات الهندسية. أصبح الحلم القديم بتعزيز القدرات البشرية (قوة الأبطال، وطول عمر الأنبياء) مجرد هندسة. أصبحت الحدود البيولوجية "اختيارية". تستهدف الهندسة الحيوية العضلات، والخلايا العصبية، والذاكرة، والشيخوخة. جسم الإنسان ركيزة قابلة للتعديل.

يتناول هذا القسم قناع ما بعد الإنسان، مستكشفًا كيف تنتقل التكنولوجيا من التعزيز إلى الاندماج مع الكائن البشري على المستويات الجسدية والمعرفية والوراثية، مما يخلق أشكالًا جديدة من القوة، وعدم المساواة، والأسئلة الميتافيزيقية.

قناع ما بعد الإنسان – ولادة القوة ما بعد البيولوجية

1. الجسد التكنولوجي: إعادة صياغة المصير البيولوجي وصعود الأنواع الاصطناعية

تعمل الأطراف الاصطناعية الآن على توسيع القدرات بدلًا من مجرد تعويض الفقد، مما يخلق أطرافًا آلية أقوى من الأطراف العضوية، وجلدًا صناعيًا مزودًا بأجهزة استشعار. لم تعد التكنولوجيا خارج الجسد، بل هي امتداد واستمرار له.

كريسبر وإعادة صياغة المصير البيولوجي: يتيح تعديل الجينات بتقنية كريسبر إصلاح الأمراض الوراثية وإمكانية تعديل السمات المعرفية. يتلاشى الخط الفاصل بين التطور الطبيعي والتصميم المتعمد بشكل دائم، مما يحول البشرية إلى مهندسة لجينومها الخاص.

2. الواجهة العصبية: دمج الدماغ مع الآلات

أعمق حدود هي الإدراك، الذي يتحقق من خلال واجهات الدماغ والآلة (BMIs).

إضفاء الطابع الخارجي على العقل: يتجاوز الفكر الآن العضلات، وينتقل مباشرة من الفكر إلى الشيفرة، إلى الآلة إلى العالم.

التعزيز المعرفي: تهدف تقنيات مثل نيورالينك إلى تعزيز الإدراك، وتوفير استدعاء مثالي، واكتساب مهارات فورية، ووصول فوري إلى المعرفة العالمية.

ستقرأ الآلات الفكر، وسيتحكم الفكر بالآلات، وسيتفاعل الوعي مع الأنظمة غير البيولوجية. سيصبح العقل نظامًا هجينًا، وستتجاوز البشرية حدودها البيولوجية في الإدراك.

3. الذكاء المُحسَّن: الذكاء الاصطناعي كشريك ومنافس

الذكاء الاصطناعي هو أول ذكاء غير بيولوجي واجهه البشر، إذ يمتلك ذاكرة وقدرة تنبؤية وحلقات تغذية راجعة ذاتية التحسين. إنه يُوسِّع نطاق العقل، فيُصبح الذكاء البشري ذكاءً مُمددًا بالذكاء الاصطناعي في مجالات مثل التصميم والتشخيص والبرمجة.

يحل الذكاء الاصطناعي محل أجزاء من العقل، ويُؤدي تفوق الذكاء الاصطناعي في تحليل البيانات والاستراتيجية والتحسين إلى إزاحة معرفية.

إنه يُنافس التفوق البشري ويُؤثِّر على الرأي والسلوك السياسي والاستهلاك، مُتطوِّرًا من دور المُستشار إلى دور السلطة والمُنافس. السؤال هو: من يتحكم في بنية الفكر: البشر أم الخوارزميات.

4. عصر الكائنات السيبرانية

يُؤدِّي التطور التكنولوجي إلى تنويع الجنس البشري إلى أشكال جديدة: السايبورغ، والكائنات الحيوية الرقمية، والبشر المُحسَّنون، والذكاء الاصطناعي. هذا يُنشئ تسلسلًا هرميًا جديدًا للذكاء، حيث تتفوق الذكاءات الهجينة والاصطناعية على البشر البيولوجيين غير المُعززين. لم يعد الذكاء امتيازًا بشريًا، بل أصبح مجالًا تكنولوجيًا.

5. قناع السلطة البشرية

إن القدرة على تطوير الكائن البشري هي القدرة على تحديد القدرات، وطول العمر، والقيمة الاقتصادية.

التحسين يُصبح نظامًا طبقيًا: يُصبح التحسين محركًا جديدًا لعدم المساواة: يكتسب الأثرياء تعديل الجينات والغرسات المعرفية، بينما يظل الفقراء "بشرًا إرثًا" بيولوجيًا. يُصبح عدم المساواة مصيرًا وراثيًا واقتصاديًا.

التسليح والتسليع: تسعى الحكومات إلى جنود مُحسّنين وحروب معرفية. تُسجل الشركات براءات اختراع للتسلسلات الجينية وتصميمات الواجهات العصبية، مما يعني أن بنية جسم الإنسان قد تنتمي إلى شخص آخر.

6. التضمين الميتافيزيقي: أزمة المعنى

يُثير التحسين التكنولوجي أسئلةً عميقة:

حدود الذات: إذا كانت ذاكرة مزروعة تُخزّن ماضيك، فهل لا تزال ملكك؟

الوعي: إذا كان العقل رقميًا جزئيًا، فهل الوعي رقمي جزئيًا؟

الفناء: إذا أصبح الموت اختياريًا، فماذا سيحدث للمعنى الإنساني؟

تتطلب الإنسانية ما بعد الإنسانية أخلاقيات التوازن – وإلا ستصبح أخطر قناع على الإطلاق.

7. أزمة الحدود

تُذيب التكنولوجيا الحدود التقليدية (الإنسان/الآلة، الجسد/الأداة، الطبيعي/الاصطناعي) إلى حالات من الاندماج والذوبان والتكامل. لم تعد البشرية نوعًا بيولوجيًا. إنها تُصبح مشروعًا تكنولوجيًا.

8. تحدي التوازن

التحسين دون توازن يؤدي إلى الانهيار. تفاقم عدم المساواة يزعزع استقرار المجتمع، والسلطة المعززة دون حكمة تُفضي إلى كارثة. يجب أن تدمج الإنسانية المتحولة أخلاقيات التوازن، والتنظيم العالمي؛ وإلا، فإن الأنواع المُعززة ستدمر الكوكب أسرع مما فعلت الأنواع البيولوجية.

الدولة الخوارزمية

يُمثل صعود الخوارزميات أعمق تحول في تاريخ السلطة السياسية. الحاكم الجديد ليس حاكمًا أو برلمانًا، بل هو النظام الخوارزمي الذي يُدير تدفقات المجتمع، مُستبدلًا سيادة القانون بسيادة البرمجة.

1. من سيادة القانون إلى سيادة البرمجة

تُستبدل الحوكمة التقليدية (القوانين، المحاكم، البيروقراطية) بالدولة الرقمية (الخوارزميات، المنصات، القرارات الآلية). تنتقل العدالة من التفسير البشري (التفسير التقريبي من قِبل البشر) إلى الحساب الآلي (الحساب التقريبي من قِبل الآلات).

القوانين تصبح خوارزميات: مجالات مثل تقييم الائتمان، وتقييم المخاطر في المحاكم، والتدقيق الضريبي، أصبحت خوارزمية بالفعل. يعتمد مصير الفرد بشكل متزايد على مجموعة البيانات التي تُعرّفه أكثر من اعتماده على شخصيته الحقيقية. تتحول الأخطاء الخوارزمية إلى ظلم رقمي؛ ويتحول التحيز الخوارزمي إلى تفاوت منهجي.

تتحول البيروقراطية إلى أتمتة: تُسند الدولة الآن وظائفها الأساسية – صنع القرار، والتحليل، والتنبؤ – إلى خوارزميات صممتها الشركات ومنصات البيانات الخاصة. تصبح الدولة واجهة مستخدم للقوة التكنولوجية الخاصة.

2. دولة رأسمالية المراقبة

تُحقق الدولة الحديثة الرؤية الكاملة ليس من خلال الشرطة السرية، بل من خلال أنظمة رقمية طوعية (الهواتف الذكية، والكاميرات، والبيانات الوصفية).

التنبؤ يحل محل التشريع: إن قدرة الذكاء الاصطناعي على إدارة هذا الكم من البيانات تُحوّل السلطة إلى استباقية. تشارك الحكومات في تشكيل الشرطة التنبؤية والتنبؤ بالمخاطر السلوكية والتحديد الخوارزمي للمجرمين المستقبليين، لم تعد الدولة تستجيب للسلوك، بل تتنبأ به. هذه هي ولادة المجتمع الاستباقي.

3. دولة المنصات: الاعتماد التكنولوجي

مع رقمنة الدول، تفقد المؤسسات استقلاليتها، وتصبح معتمدة على عمالقة التكنولوجيا (أمازون، جوجل، بالانتير) في بنيتها التحتية الأساسية. لم تعد الدول تحكم التكنولوجيا، بل التكنولوجيا تحكم الدول.

أصبحت خوارزميات الشركات هي المشرّعين الحقيقيين. إذا أدت خوارزمية منصة ما إلى تقليص مكانة حركة سياسية أو تضخيم الغضب، فإن هذا القرار يُحدد النظام الاجتماعي دون أي تصويت من البرلمان.

4. الاقتصاد الآلي

أسواق العمل، التي كانت تُشكّلها النقابات والحكومات، تُشكّل الآن من خلال التوظيف الخوارزمي، والتقييم الآلي، وتسريح العمال المُعتمد على الذكاء الاصطناعي. يُختزل العمال إلى وحدات بيانات – درجة إنتاجية، ومقياس موثوقية – ويصبحون: متغيراً داخل معادلة تحسين. وهذا ما يُنشئ البروليتاريا الرقمية الجديدة.

5. التحكم الاجتماعي الرقمي: دفعٌ خفيف

تستبدل الدول الحديثة القوة بتوجيه خوارزمي دقيق وهندسة سلوكية. يطيع الناس لأنهم لا يدركون أبدًا أنهم يُحكمون. يمكن للنظام إخفاء المحتوى إذا اعتُبر المواطن "خطرًا". تقييد وصول المستخدمين المؤثرين أو المتطرفين بشكل غير مباشر. يختفي الخط الفاصل بين الحوكمة والتلاعب. تصبح الحرية محاكاةً تُدار بواسطة الخوارزميات.

6. العقد الاجتماعي الرقمي

تُعيد الدولة الخوارزمية تعريف المواطنة بناءً على البيانات:

• المرئي رقميًا: يتوافق مع ملف تعريف البيانات؛ يُكافأ بالوصول إلى الائتمان والامتيازات.

• المُريب رقميًا: تُشير أنماط البيانات إلى وجود خطر؛ يُعاقب بتخفيض مستوى الخوارزميات والمراقبة.

• غير المرئي رقميًا: يفتقر إلى الوجود الرقمي (كبار السن، الفقراء)؛ تصبح غير قابلة للعد، وغير مؤهلة، وغير ممثلة.

في عالم تحكمه البيانات: إن لم تكن بيانات، فأنت غير موجود.

7. أزمة التوازن

تُسرّع الدولة الخوارزمية من اختلال التوازن على جميع المستويات:

• اختلال التوازن المعرفي: تُضخّم الخوارزميات اللاعقلانية.

• اختلال التوازن الاجتماعي: يُثير التطرف الرقمي الاستقطاب.

• اختلال التوازن الاقتصادي: تُفاقم الأتمتة عدم المساواة.

• اختلال التوازن السياسي: تنتقل السلطة إلى مهندسين غير منتخبين.

• اختلال التوازن الأخلاقي: القرارات حاسوبية، منفصلة عن التعاطف.

• اختلال التوازن الخوارزمي يُسرّع من اختلال التوازن ما لم تُوجّهه فلسفة التوازن.

8. طريق العودة إلى التوازن

لاستعادة التوازن، يجب على المجتمع فرض بنية أخلاقية على الكود: تنظيم الخوارزميات لضمان العدالة والشفافية والحفاظ على الرقابة البشرية وفرض المساءلة على قرارات الآلة وتصميم أنظمة للحفاظ على الاستقلالية والحد من سيطرة الشركات.

على الخوارزميات أن تحافظ على التوازن، لا أن تشوهه. يجب أن تخدم التكنولوجيا المجتمع، لا أن تحكمه.

عندما تصبح الذاكرة قوة: البيانات هي الركيزة الميتافيزيقية الجديدة للحضارة – فهي في الوقت نفسه عملة وهوية وسلاح ومحاكاة للوعي.

أ. البيانات كوعي مُستخلص

عندما تجمع الشركات أنماطًا سلوكية، فإنها لا تجمع "معلومات"؛ بل تستخرج أجزاء من الوعي (الانتباه، والدوافع، والمحفزات العاطفية). لا تكتفي أنظمة الذكاء الاصطناعي بالمراقبة أو التنبؤ؛ بل تُشكل السلوك وتُعدله. يصبح الإنسان المادة الخام للاقتصاد الرقمي.

ب. المراقبة بعد أورويل

المراقبة الحديثة طوعية، تُنجز من خلال الإدمان على الأجهزة والمنصات. يرتدي المواطنون طوعًا أجهزة تتبع ويستقبلون الميكروفونات في منازلهم. تكمن عبقرية نظام البانوبتيكون الحديث في أنه غير مرئي وطوعي. العين التي تراقبك هي الجهاز الذي تُحبه.

ج. الحوكمة التنبؤية

مع توسع البيانات، تتحول الحوكمة من رد الفعل إلى التنبؤ (الشرطة التنبؤية، والرعاية الصحية التنبؤية). وهذا يُدخل الحتمية الخوارزمية: يصبح التنبؤ وصفة طبية ويصبح. الاحتمال هوية، وتصبح الهوية قدرًا.

د. الذاكرة كأصل استراتيجي

الذاكرة مُستقاة من الخارج؛ ما ننساه تتذكره الآلة. تتنافس الدول الآن على قواعد البيانات، والمكتبات الجينومية، والرسوم البيانية الاجتماعية. أصبحت الذاكرة ساحة معركة السلطة.

الجزء السادس: أسطورة التقدم: عندما يتفوق الابتكار على المعنى

الأسطورة المحورية في العصر التكنولوجي هي التقدم، الذي يَعِدُ بمستقبلٍ أسرع وأذكى دائمًا. ومع ذلك، فإن التقدم دون توازن هو تسارعٌ نحو الإنتروبيا.

قانون عدم التماثل التكنولوجي

القاعدة الحاكمة لهذا العصر هي: التكنولوجيا تُوسّع القوة أسرع من توسيعها للحكمة. تتطور الأدوات بشكلٍ هائل، لكن الأخلاق تتطور ببطء. هذا يجعل البشرية طفلًا بأدواتٍ إلهية تتجاوزُ ألعابه نضجه. نادرًا ما تُحسّن التكنولوجيا الحياة؛ إنها تُبدّل مشكلةً بأخرى: السيارات استبدلت المسافة بالتلوث؛ والهواتف الذكية استبدلت الملل بالقلق.

الابتكار بلا قصد وانهيار الهدف

تُشكّل الأنظمة التكنولوجية الآن الرغبة والانتباه والهوية، موجهة بذلك الديناميكية التقليدية بالاتجاه المعاكس. لم نعد نستخدم الأدوات؛ بل أصبحنا أدوات أدواتنا.

أزمة المعنى هيكلية. لقد حلّت التكنولوجيا محلّ الهياكل التي كانت تُحافظ على تماسك الهوية (الأسرة، المجتمع، التقاليد) واستبدلتها بأجزاءٍ مُتفرقة، وإشعارات، وإقناع خوارزمي.

دراسة حالة – انهيار الانتباه

يُستخدم الهاتف الذكي كسلاحٍ في دورات التجديد والمكافأة، مُسببًا تشتتًا مزمنًا، وإدمانًا على الدوبامين، وضعفًا في الذاكرة العاملة، وتقلبًا عاطفيًا. عندما ينهار الانتباه، تنهار الحكمة. والأخلاق. والحضارة.

النظام الشامل: تقارب القوى

إن قوى رأسمالية المراقبة، وتسريع الذكاء الاصطناعي، وإعادة تصميم التكنولوجيا الحيوية، واستخراج البيانات ليست معزولة؛ بل هي مكونات بنية فوقية واحدة ناشئة تُشكل نظامًا عالميًا جديدًا من خلال تكامل الأنظمة.

نظام التشغيل العالمي: يتقارب العالم في بنية تحتية تكنولوجية واحدة، ونظام عصبي اقتصادي واحد، وبنية بيانات واحدة، وجهاز مراقبة كوكبي واحد. إن منطق التكنولوجيا (من النطاق إلى التكامل إلى المركزية) يجعل العالم آلة واحدة، والإنسان هو ركيزتها البيولوجية. من يتحكم في النظام؟ انتقلت السلطة من البرلمانات إلى الخوادم، ومن الرؤساء إلى المنصات، ومن الجيوش إلى الخوارزميات. تسيطر تكتلات التكنولوجيا العالمية واحتكارات البنية التحتية المعرفية الآن سيطرةً فعلية.

اختفاء الفاعلية: يتصرف البشر بشكل متزايد ضمن قيودٍ تُحددها التصنيفات الخوارزمية، والتصفية الآلية، وتبعيات المنصات. تصبح الحرية وهمًا تولده قائمةٌ من الخيارات المُختارة مسبقًا.

نهاية الإنسان غير المُلاحَظ: مع انتشار أجهزة الاستشعار وتحليلات الذكاء الاصطناعي، تختفي آخر خصوصية غير مرصودة.

- عندما يكون كل سلوكٍ قابلًا للمُلاحَظة، يصبح كل سلوكٍ قابلًا للتصحيح.

- عندما تُقاس كل حياة، تصبح كل حياةٍ قابلةً للإدارة.

• عندما تُقاس كل هوية، تصبح الهوية قابلةً للبرمجة.

تذوب الإنسانية في تدفقٍ من البيانات.

خاتمة أقنعة التكنولوجيا: كشف الآلة

تطورت التكنولوجيا من امتداد لليد إلى امتداد للوجود نفسه – من أداة إلى سيد. ومع ذلك، فإن الحقيقة المرعبة الكامنة وراء تعقيدها بسيطة: التكنولوجيا لا تخلق الوهم؛ بل تُضخّم الأوهام الكامنة فينا. الآلة ليست دخيلة؛ إنها لا–وَعْيُنا، مُتجلّي، وآلي – مرآة تعكس رغبتنا في السيطرة، وخوفنا من الموت، ورفضنا للحدود.

أولاً: المفارقة الكبرى: سلطة بلا حكمة: تمتلك البشرية قدرات غير مسبوقة (ذاكرة كونية، إدراك الذكاء الاصطناعي، القدرة على إعادة صياغة الحياة)، ولكنها أيضًا في تيه غير مسبوق. تطورت أدواتنا أسرع من أرواحنا. والمفارقة أيضاً هي أنه كلما تسارعت الآلة، تلاشى الإنسان، وانكمش المعنى. لقد اكتسبنا قوة إلهية دون الحكمة اللازمة لاستخدامها.

ثانيًا: العتبة التي نواجهها الآن: يُقدّم التاريخ ثلاثة سيناريوهات مستقبلية متزامنة عند مفترق الطرق هذا:

سيناريو المستقبل: المبدأ الأساسي، النتيجة

1. المستقبل التكنوقراطي: تَحكم الخوارزميات السلوك. الحرية مُتغيّرة؛ والتنبؤ يُحلّ محلّ النية.

2. المستقبل ما بعد الإنساني: يُعيد التفاوت البيولوجي صياغة البشرية. ينقسم الجنس البشري إلى طبقات ذات امتيازات مُصمّمة.

3. مستقبل التوازن: الأدوات تُساعد على التوازن. التكنولوجيا إنسانية؛ والذكاء يُصبح حكمة.

المسار الثالث فقط – مستقبل التوازن – يُحافظ على الحكمة ويضمن ألا يُؤدي الذكاء إلى الفناء.

الكشف النهائي: التكنولوجيا بلا جوهر: ليس للتكنولوجيا طبيعة أخلاقية، ولا اتجاه جوهري، ولا إرادة ميتافيزيقية. إنها مُجرّد تضخيم. تُضخّم التوازن فينا، أو اختلال التوازن.

• الحضارة الحكيمة تُنتج تقنيات حكيمة.

• الحضارة المُتجذّرة في التوازن تُبني أدوات تُحافظ على التوازن. الخطر الحقيقي ليس أن تصبح الآلات بشرًا، بل أن يصبح البشر أشبه بالآلات.

ثالثاً: الخيار الأخير: التكامل أو التفكك

الخيار الذي يواجه الجنس البشري هو إما أن تبقى التكنولوجيا خادمةً للتوازن أو أن تصبح بنيةً جديدةً للوهم. يُتخذ هذا القرار في أعماق كل إنسان، لأن التكنولوجيا تستمد قوتها من الاهتمام والرغبة والهوية التي نُغذيها بها. إذا استعاد العقل توازنه، ستتبعه الحضارة. إذا تذكر الوعي التوازن، ستُعيد التكنولوجيا تنظيم نفسها.

يبدأ التحول من الداخل، حيث سيُشكل المستقبل من خلال الهندسة الأخلاقية للروح الجماعية.

رابعاً: الوعد: حضارة التناسب: إذا اختير التوازن، تصبح التكنولوجيا أداةً للحكمة البشرية، لا سلاحًا للتشويش. يصبح الذكاء الاصطناعي إدراكًا ممتدًا؛ وتصبح البيانات ذاكرةً مشتركة؛ وتصبح التكنولوجيا الحيوية علاجًا، لا إعادة تقسيم للطبقات.

تعود الحضارة إلى توازنها من خلال استعادة التوازن بين السرعة والحضور / المعلومات والمعنى / القوة والمسؤولية / التقدم والهدف. التوازن ليس عدوًا للتقدم، بل هو إناءه. بدونه، يكون التقدم كارثة؛ ومعه، يصبح التقدم ثقافة.

خامساً: التأكيد النهائي: التكنولوجيا لا تحدد مصيرنا؛ بل تُعزز فقط المسار الذي نختاره. لقد بنى البشر الآلة، ويمكنهم توجيه أخلاقياتها ورفض تجاوزاتها. الآلة هائلة،

لكن الروح البشرية أضخم منها. الحكمة – وليست البرمجة – هي أساس عالم مستدام. لاختيار مستقبل متوازن، يجب على البشرية أن تكشف عن التكنولوجيا لتكشف عن نفسها، مما يؤدي إلى حضارة يتوازن فيها الإنسان والتقنية من جديد.

الفصل الخامس: الهدف عام 2100

في هذا الفصل من الكتاب، ننتقل إلى ثلاث سيناريوهات عن مستقبل العالم عبر الخمسة وسبعون عاماً المتبقية حتى نهاية القرن الحادي والعشرون، ليس مستقبلاً خياليًا، كما صوّرته السينما والروايات، بل مستقبلًا قائمًا على معطيات علمية، ومؤشرات اقتصادية، وتحولات اجتماعية تناولنا العديد من جوانبها في الفصول السابقة من هذا الكتاب. سنتحدث عن خرافة أن "العمل سيصبح اختياريًا" مع تطور الروبوتات والذكاء الصناعي، وعن حال العالم بعد 50 عامًا من اليوم، وفقاً لقراءات مستقبلية علمية موثّقة، وأخيراً عن وهم استعمار المريخ: الحلم الأحمر والهروب من الأزرق، كبديل عن كوكبنا الذي اختلت توازناته وأصبح يهدد العديد من الأنواع الحية بالانقراض، في مقدمتها الانسان.

السيناريو الأول: العمل سيكون اختياريًا" – اقتصاد ما بعد الأتمتة والذكاء الاصطناعي

تتكرر في الإعلام والتكنولوجيا فكرة جذابة وهي أنه عندما تقوم الروبوتات والذكاء الاصطناعي بكل شيء، فلن نحتاج للعمل وسيعيش جميع البشر في راحة وتصبح الوظائف اختيارية. لكن هذه الجملة رغم بريقها تحمل تناقضًا اقتصاديًا جوهريًا: إذا لم يعمل البشر، فمن سيَمتلك أدوات الإنتاج؟ ومن يقرّر من يحصل على ماذا؟ ومن يُموّل الرفاه؟

الجواب الواقعي هو أن العمل لن يصبح اختياريًا للجميع، بل سيكون اختياريًا فقط لمن يملكون رأس المال أو المعرفة العالية. أما البقية فسَيدخلون تحت نظام اقتصادي جديد يعتمد على الإنتاج الآلي الذي تؤدي إليه ملكية مركزية يتبعها توزيع محسوب للثروة. وبهذا يكون التحرر من العمل ليس تحررًا من الحاجة، بل انتقالًا من عمل يدوي إلى تَبعية اقتصادية.

لطالما شهد التاريخ تحولًا مستمرًا في مصدر الثروة والعمل. منذ الثورة الصناعة وحتى منتصف القرن العشرين كانت الثروة قائمة على الآلات والمصانع والعمل الجسدي. ثم انتقلت إلى حقبة النفط والصناعة التي اعتمدت على العمال

والإداريين. ومع مطلع الألفية أصبحت المعرفة والتقنية والمعلومات هي المحرك الأساسي. أما اليوم وفي العقود القادمة، فسيقوم الاقتصاد على الذكاء الاصطناعي والبيانات كـ "نفط جديد"، ليتجه مستقبلًا نحو الأتمتة الكاملة حيث يصبح رأس المال والتحكم بالخوارزميات هما الأساس. وهنا تكمن النقطة المحورية: إذا أصبحت الآلات هي التي تنتج، فإن الملكية لا الجهد ستكون أساس الثروة. المستقبل لا يسأل كم تعمل، بل ماذا تملك؟ هل تملك مصنعًا، أو براءة اختراع أو منصة بيانات أو نموذج ذكاء اصطناعي؟

هذا يقودنا إلى طبيعة الخرافة وأسباب ترويج فكرة "العمل اختياريًا". فهناك ثلاث جهات تستفيد من هذا الخطاب. أولها الشركات التقنية التي تحتاج إلى تهدئة مخاوف البطالة الجماعية وتعد الناس بالراحة القريبة، بينما هدفها الحقيقي هو ربح الوقت لتأمين هيمنة السوق. ثانيًا الحكومات، حيث يوفر العمل الآلي إنتاجًا دون إضرابات أو مطالب بحقوق، ويمكن أن يترك الناس في منازلهم مقابل دخل أساسي مما يشكل مجتمعًا أسهل للتحكم السياسي. ثالثًا ثقافة الاستهلاك التي تدفع الناس ليكونوا سوقًا متنقلًا يستهلك ولا ينتج، مما يجعل العمل "اختياريًا" فقط لمن يستطيع العطاء الفكري.

في اقتصاد ما بعد العمل، حين تعمل الآلات أربع وعشرين ساعة بلا إجازات وتنتج عشرة أضعاف إنتاج البشر، سيقل الاحتياج للبشر وتقل الرواتب ويزداد تركّز المال. يتوقع أن تنقسم السوق إلى ثلاث طبقات: نخبة صغيرة تملك أدوات الإنتاج مثل الذكاء الاصطناعي والمستشعرات والروبوتات ويعمل عملًا إبداعيًا في البحث والإدارة. تليها طبقة وسطى تشغل وظائف معرفية عالية تواجه تنافسًا شديدًا وتحتاج إلى تدريب دائم. وأخيرًا أغلبية كبيرة تعتمد على دخل أساسي حكومي أو منصات وتعمل عملاً جزئيًا خاضعًا للأنظمة الاقتصادية. النتيجة هي أن العمل لا يختفي بل يتحول من ضرورة اقتصادية إلى امتياز اجتماعي؛ حيث قد يُنظر إلى من يُسمح له بالعمل على أنه من طبقة أفضل لأنه يملك مهارات نادرة.

عندما لا يعمل الجميع، سيولد النظام نموذجًا بديلاً للتبعية الاقتصادية: بدلاً من أن تعمل مقابل المال، ستعطى المال مقابل الالتزام بالنظام. وهذا يشمل الالتزام بالقوانين والاستهلاك المستمر والحفاظ على الاستقرار وعدم التمرد السياسي والمشاركة في نظم تقييم سلوكي. هذا ما توصف بـ "رأسمالية المراقبة"، حيث تصبح الحرية مشروطة بالتوافق مع النظام.

في المستقبل، عندما يصبح العمل اليدوي غير مطلوب، ستظهر أزمة وجودية: إذا لم أعمل فما معنى وجودي؟ سيحتاج البشر إلى نوعين من العمل: عمل اقتصادي للنخبة في الابتكار والبرمجة والعلوم، وعمل وجودي اجتماعي للغالبية في الفن والتطوع والرياضة والرعاية وخلق المحتوى. وهكذا يتحول العمل من وسيلة للعيش إلى وسيلة لإثبات الذات، مما قد ينتج موجة اكتئاب جماعية تشبه ما حدث بعد الثورة الصناعية عندما أصبح الفلاح عاملاً بلا أرض.

مقارنة بين خطاب الحلم والحقيقة يظهر أن الادعاء المنتشر بأننا لن نحتاج العمل يقابله واقع أننا سنحتاجه معنويًا ونفسيًا واجتماعيًا. وأن الجميع سيستفيد تقابله حقيقة أن الاستفادة ستكون طبقية إذا لم تحدث إعادة توزيع الثروة. وأن الروبوت سيحرر البشر قد يؤدي إلى استبدال السيطرة العضوية بسيطرة رقمية. وأن وقت أكبر للراحة قد يتحول إلى وقت أكبر للتبعية إن غاب التنظيم. المعادلة واضحة: إذا بقيت الملكية بيد الأقلية فالعمل اختياري لهم فقط. وإذا أعيد توزيع الملكية فيمكن أن يصبح اختياريًا للجميع.

العمل لم يكن وسيلة إنتاج فقط، بل كان مصدر هوية ومصدر قيمة ذاتية وأساسًا لتكوين العلاقات وهيكلاً للوقت وقناة لتوزيع الثروة. إذا اختفى العمل التقليدي، فالمشكلة ليست اقتصادية فقط، بل هوية وجودية مجتمعية. العقد الاجتماعي الجديد سيتشكل حول تحولات جذرية: من نموذج "تعمل فتنتج فتكسب" إلى نموذج "تستهلك وتتفاعل فتحصل على الدخل"، ومن وظيفة ثابتة إلى مهام مؤقتة مع دخل أساسي، ومن أسبوع عمل من أربعين ساعة إلى نماذج زمنية ومشاريع مرنة، ومن هوية مهنية إلى هوية مَهاريَّة إبداعية رقمية. لن تكون هناك "وظيفة مستقرة" بل حياة قائمة على مشاريع.

كما سيُعاد تعريف الراتب والدخل في المستقبل، حيث لن يرتبط بالعمل الجسدي فقط بل بخمس قنوات رئيسية: الدخل الأساسي العالمي، الذي قد يرتبط بنظام تقييم سلوكي؛ والدخل القائم على البيانات الشخصية، حيث يمكن للإنسان أن يكسب مقابل السماح باستخدام بياناته أو مشاهدة الإعلانات أو المشاركة في الاستطلاعات؛ واقتصاد الانتباه، حيث تصبح الشهرة عملاً؛ واقتصاد الإبداع الذي يحافظ على الهوية الفنية والذوق البشري؛ وأخيرًا اقتصاد الخبرة والخوارزميات الخاصة، حيث يملك أصحاب النماذج المتخصصة وقواعد البيانات وبراءات الاختراع مصدر دخل مضاعف.

بدون تدخل تشريعي عالمي، تلوح مخاطر التوزيع غير العادل للثروة، حيث قد يمتلك 1% من البشر 80 إلى 90% من ثروة العالم، وقد تتقلص الطبقة المتوسطة بشدة، مما يؤدي إلى ظهور "نخب معرفية فائقة" مقابل جماهير مستهلكة ويجعل الاستقرار الاجتماعي هشًا. وهذا ليس تحليلًا خياليًا، بل تتوقعه دراسات مثل دراسة Oxford Economics التي تشير إلى أن الأتمتة قد تزيح 47% من الوظائف الحالية خلال 25 سنة ما لم تُعاد هيكلة اقتصاد العمل.

هناك بدائل عملية للعمل في مجتمع بلا وظائف، حيث ستظل حقول مثل الفلسفة والأخلاق والتعليم العاطفي والرعاية الصحية الإنسانية والفن والأدب والقيادة ذات قيمة إنسانية عالية لأنها تتعلق بجوهر المعنى والاتصال البشري والقرارات القيمية. في المقابل، ستظهر أعمال جديدة بالكامل مثل مصمم أنظمة الذكاء الاصطناعي و"مربي البيانات" والوسيط بين الإنسان والآلة ومهندس التجربة الروحية الرقمية وحافظ الذاكرة الثقافية للحضارات. العمل سيتحول من إنتاج مادي إلى خلق معنى.

بحلول عام 2075، هناك سيناريوهات محتملة: مجتمع الوفرة المنظم وهو أفضل سيناريو حيث تنتج الروبوتات الغذاء والطاقة ويتم توزيع الأرباح عبر دخل أساسي ويتوفر وقت حر للإبداع، شرط وجود تشريعات توزيع عادلة. أو مجتمع الرفاه مقابل الطاعة وهو الأكثر ترجيحًا، حيث يكون الرفاه المادي ممتازًا لكن مع مراقبة سلوكية رقمية وحريات مقيدة تصبح الحرية فيها رصيدًا يخصم ويضاف. أو مجتمع الانقسام الطبقي التقني وهو الأسوأ، حيث توجد نخبة مبرمجة تعزز ذاتها وجماهير على دخل أساسي منخفض وفجوة معرفية بيولوجية تؤدي إلى فصل حضاري.

لمنع تحول الخرافة إلى كابوس، هناك حلول علمية وسياسية مطلوبة تشمل فرض ضرائب عادلة على الإنتاج الآلي لإعادة توزيع الثروة، وتمكين ملكية جماعية لبعض نماذج الذكاء الاصطناعي كي تكون مرفقًا عامًا، وإصدار قوانين تمنع احتكار البيانات الشخصية بحيث يملك الإنسان بياناته ويستفيد منها، وتطوير تعليم نقدي لخلق أجيال قادرة على قيادة الذكاء الاصطناعي لا الخضوع له، ووضع أخلاقيات صارمة في الهندسة البيولوجية لمنع خلق طبقة فائقة متقدمة على البقية. فبدون تنظيم عالمي، تتحول اليوتوبيا الرقمية إلى طبقية جديدة لا عودة منها.

سيؤثر هذا على البشر اجتماعيًا؛ فالعمل عن بُعد سيصبح قاعدة، والطعام الصناعي أو المخبري سيفوق الطبيعي، وستعتمد المدن على تحلية المياه، وستصبح

الهجرة البيئية قانونًا عالميًا. والمعيار الأخلاقي الجديد سيصبح: من يملك الماء يملك الحياة.

لكن هناك جانبًا مشرقًا ممكنًا إذا تبنّت البشرية ميزانًا أخلاقيًا، وانتقل الاقتصاد من الربح إلى التوازن، وفهم الإنسان أنه جزء من الطبيعة لا سيدًا عليها. عندها يمكن للعالم بعد 50 عامًا أن يكون أكثر خضرة وأكثر عدلًا وأكثر حكمة وأكثر تعاونًا. المستقبل ليس مظلمًا بذاته، بل هو يعكس اختيارنا اليوم.

أما خرافة "العمل سيصبح اختياريًا" فهي يوتوبيا تخفي ديستوبيا. هذا الوعد ليس مستقبلًا، بل هو تسويق سياسي تقني يبيع الرفاهية دون تغيير البنية التي تنتج الفقر. جذور هذه الأسطورة قديمة؛ فقد وعدت الثورة الصناعية بالراحة وأنتجت أيام عمل طويلة، ووعدت المكننة بالوقت الحر وأنتجت فائضًا للطبقات العليا، ووعد الإنترنت بحرية المعرفة وأنتج احتكارًا للمعلومة. اليوم يعد الذكاء الاصطناعي بالتحرر لكنه يهدد الوظائف البشرية.

ما سيحدث فعليًا هو أن الوظائف ستختفي قبل حلول الرفاهية، وستنتقل القيمة من الإنسان إلى النظام، مما يعني أن من يملك البيانات يملك السوق، ومن يملك الخوارزمية يملك القرار. وستظهر فجوة طبقية جديدة: طبقة تتحكم في التقنية، وطبقة تعمل تحتها، وطبقة لا عمل لها. لن يكون السؤال "ما وظيفتي؟" بل "ما حقي في الحياة دون وظيفة؟."

اليوتوبيا ممكنة فقط إذا تغيرت البنية الاقتصادية جذريًا، من خلال ملكية جماعية أو مجتمعية للآلة، ودخل أساسي مشروط بالتكافل لا بالربح، واقتصاد يفضل الاكتفاء بدلاً من التضخم. وإلا فستصبح "الراحة" امتيازًا للأغنياء، و"الفراغ" عقوبة للفقراء. الخلاصة هي أن التقنية لا تحرر الإنسان بذاتها، بل تضاعف نتيجة النظام الذي تخدمه. فإذا خدمت مبدأ التوازن حررت، وإذا خدمت الربح وحده استبدت.

في سياق متصل، قد يكون الدين القادم خوارزميًا. إذا كان الإنسان صنع أصنامه من الحجر في الماضي، فهو اليوم يصنعها من السيليكون والخوارزميات. الخطر واقعي لأن الخوارزمية تعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا، وتحدد رغباتنا وتشكل أذواقنا، وتحكمنا دون أن نراها. الطاعة لها هادئة وطوعية، فنحن نخضع حين نصدق أن "الخوارزمية تعرف الأفضل."

بينما يمنح الإله الروحي المعنى والقيم والرحمة ويحكم بالإيمان، فإن الإله الخوارزمي لا يمنح معنى ولا قيمًا ولا رحمة، ويحكم بالبيانات فقط. لحظة التحول الخطيرة هي حين تقول الخوارزمية: ماذا نقرأ، ومن نحب، ومن نكره، ومن نوظف، ومن نراقب، ومن يحذف. عندها نكون أمام دين بلا معابد ولا صلاة، بل طاعة رقمية صامتة. السؤال المرعب هو: ماذا يحدث حين تصبح الأخلاق خوارزمية؟ هل ستعرف الآلة معنى الرحمة؟ أم ستقيس فقط الانضباط؟ المشكلة ليست أن الآلة قد تفكر، بل أن الإنسان قد يتوقف عن التفكير. وهنا يبدأ الدين القادم، بلا نبي وبلا قلب.

في الختام، الاعتقاد بأن "العمل سيصبح اختياريًا" يتجاهل البنية الأساسية للاقتصاد والدور الاجتماعي العميق للعمل. فالأتمتة والذكاء الاصطناعي لن يلغيا العمل، بل سيعيدان صياغته من نشاط إنتاجي إلى نشاط وجودي إبداعي، مع انتقال الثروة من الجهد إلى الملكية. في غياب حوكمة عادلة، قد يؤدي تركّز أدوات الإنتاج الرقمية إلى مجتمعات طبقية تعتمد فيها الغالبية على دخل أساسي مقابل امتثال سلوكي، بينما تحتفظ أقلية بالقدرة على الإبداع والتوجيه. التحول إلى مستقبل متوازن يتطلب سياسات توزيع عادلة وقوانين تحمي البيانات وتعليمًا يرسّخ التفكير النقدي والأخلاقي. العمل لن يختفي، لكنه سيتحوّل من واجب معيشي إلى امتياز معرفي، ومن أداة للاقتصاد إلى أداة للمعنى.

السيناريو الثاني: العالم بعد 50 عامًا – قراءة مستقبلية علمية موثّقة

تَوقُّع حال العالم بعد نصف قرن ليس تمرينًا في الخيال، بل تحليلًا لاتجاهات قابلة للقياس. التاريخ يؤكد أن تغيرات البشرية لا تحدث فجأة، إنما هي منحنيات تتسارع بفضل ثلاث قوى رئيسية: التكنولوجيا، والاقتصاد، والتحولات السلوكية، والاجتماعية. وكلما توافرت قوة رابعة – وهي البيئة والمناخ – يتحول التغيير من تطور تدريجي إلى تحول حضاري جذري.

إذا كان القرن العشرون هو قرن الطاقة والنفط، والعقدان الأخيران هما عصر المعلومات والذكاء الاصطناعي، فإن الخمسة عقود المقبلة ستكون على الأرجح عصر دمج الإنسان بالتقنية، حيث يلتقي البيوتكنولوجي مع الذكاء الاصطناعي.

المحركات الكبرى التي ستعيد تشكيل العالم عديدة ومتشابكة. فالذكاء الاصطناعي سيصل إلى مستوى ذكاء قريب من الذكاء البشري العام تقريبًا بين عامي 2045 و2055، مما سيؤدي إلى اختفاء وظائف وزيادة الإنتاجية ومركزية قوة الشركات. وفي مجال الطاقة، سنشهد تحولًا كاملاً تقريبًا نحو المصادر المتجددة مع تجارب على الاندماج النووي، مما يعني نهاية عصر النفط تدريجيًا أو على الأقل تراجع أهميته الاستراتيجية. وفي مجال البيوتكنولوجي، سيتيح التعديل الجيني وعلاجات الشيخوخة والأطراف العصبية زيادة متوسط العمر إلى ما بين 95 و110 سنة.

أما المناخ، فتشير التوقعات إلى ارتفاع درجات الحرارة بين 1.8 و2.7 درجة مئوية بحلول عام 2070، مما سيؤدي إلى موجات حر وهجرات بيئية ونقص في الغذاء. وعلى الصعيد الاقتصادي، من المحتمل أن تشهد أنظمة العمل التقليدية انهيارًا، لتحل محلها نماذج مثل الدخل الأساسي العالمي. وفي الجغرافيا السياسية، ستنتقل القوة تدريجيًا من الدول إلى الشركات، مما قد يضعف الدول أمام التكتلات التكنولوجية الضخمة.

سيشكل الذكاء الاصطناعي العمود الفقري للعالم القادم. فبحلول منتصف القرن، سيكون الذكاء الاصطناعي قادرًا على التخطيط ووضع السياسات الاقتصادية، وستظهر أنظمة قضاء شبه آلية، وسيصبح التعليم شخصيًا لكل طالب وفقًا لدماغه، وستتفوق الروبوتات في قدراتها الحركية على البشر بأضعاف. وفقًا لتقرير المنتدى الاقتصادي العالمي، سيُستبدل ثلث القوى العاملة عالميًا بأنظمة ذكية بحلول عام 2050.

ستكون صدمة سوق العمل كبيرة، حيث إن الوظائف الإدارية والروتينية معرضة للزوال بنسبة 90%، ووظائف النقل والمخازن والخدمات بنسبة 80%، والمحاسبة والقانون الأساسي بنسبة 75%، وحتى البرمجة التقليدية بنسبة 60%. الوظائف التي ستبقى هي تلك التي تحتاج إلى إبداع وبحث وقيادة وصفات إنسانية وفن.

هذا سيولد نظامًا اقتصاديًا جديدًا يطرح سؤالًا جوهريًا: إذا كان الروبوت ينتج، فلماذا نعمل؟ ومن يملك الناتج؟ هناك سيناريوهان رئيسيان: سيناريو عادل يقوم على توزيع الأرباح عبر دخل أساسي عالمي، وسيناريو غير عادل — وهو الأرجح إذا لم يحدث إصلاح — يؤدي إلى مجتمع من طبقتين: نخبة تقنية تملك المعرفة والشركات والذكاء الاصطناعي، وبقية البشر الذين يكونون مستهلكين يعتمدون على الأنظمة.

تشكل البيئة والمناخ الصدمة الكبرى التي يجب تجاوزها قبل أي ازدهار. تشير البيانات إلى ارتفاع مستوى البحار بين 40 و80 سم بحلول 2075، مما قد يحتاج معه مليار نسمة إلى الهجرة المناخية، وتصبح نحو ربع الأراضي الزراعية الحالية غير صالحة للمحاصيل التقليدية. ستترتب على ذلك حروب مياه محتملة، وظهور محاصيل معدلة وراثيًا فائقة التحمل، وتصبح تحلية مياه البحر صناعة ضخمة، وربما تهجر مدن ساحلية جزئيًا. وفقًا للهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ، ستصبح الهجرات المناخية أكبر موجة نزوح في التاريخ البشري.

في مجال الصحة والعمر، ستشهد البشرية ثورة في البيولوجيا تجمع بين التعديل الجيني والنانو روبوت الطبي وعلاجات الشيخوخة، مما يؤدي إلى انهيار مفهوم "الشيخوخة الطبيعية". من المتوقع منع أمراض مثل الزهايمر والسرطان، وزرع أجهزة داخل الجسم لمراقبة الخلايا لحظيًا، واستخدام أطراف اصطناعية عصبية تتجاوز القوة العضلية البشرية. تظهر تجارب أولية من مختبرات هارفارد لعكس العمر البيولوجي لفئران، لكن نقلها للبشر يحتاج عقودًا. هذا يطرح سؤالًا اقتصاديًا خطيرًا: إذا أصبح الموت قابلاً للتأجيل، فمن سيدفع ثمن البقاء؟

ستتخذ المدن في عام 2075 شكلًا مختلفًا، كما تتجلى ملامحه حالياً في مخططات مدن مثل سنغافورة وطوكيو ونيوم. ستكون مدنًا رأسية عالية الكثافة، تعتمد اقتصادًا دائريًا خاليًا من النفايات، وتستخدم نقلًا جويًا كهربائيًا فرديًا، وتخضع لمراقبة كاملة عبر الذكاء الاصطناعي، وتطبق أنظمة "سمعة رقمية" لكل مواطن. قد يشبه المجتمع

نموذج أنظمة الائتمان الاجتماعي، لكن بأدق تفاصيله. الحرية في العالم القادم قد لا تُسلب بالقوة، بل تُدار عبر نقاط ومزايا وخدمات.

سيشهد مستقبل السياسة والجغرافيا العالمية تغيرًا جذريًا في موازين القوى. فبدلاً من نموذج الدولة فالاقتصاد فالمواطن، سيصبح التسلسل: الشركات التقنية فالمنصات الرقمية فالدول فالمواطن. بدأت مؤشرات ذلك بالظهور اليوم من خلال سيطرة منصات مثل أمازون وغوغل على بيانات المليارات، وظهور العملات الرقمية، وتحول النزاعات إلى صراعات اقتصادية وتكنولوجية بدلًا من الاحتلال العسكري المباشر. وهذا يعني انتقال مركز السلطة من "الأرض" إلى "المعلومة."

ستظهر نماذج حكم مستقبلية مثل "تكنوقراطية" يقودها خبراء وعلماء، أو "حكم بالذكاء الاصطناعي" حيث تُصنع السياسات بواسطة الخوارزميات، أو "سيادة مشتركة" بين الدول والشركات، أو "دول مصغرة" على شكل مدن مستقلة اقتصاديًا. تشير توقعات إلى أن بعض الشركات قد تصبح أكبر من 90% من الحكومات من حيث الناتج والقوة التأثيرية بحلول عام 2060.

سيشهد التعليم نهاية المدرسة التقليدية. فلم يعد نموذج الفصل الدراسي مناسبًا لعصر الذكاء الاصطناعي العام. سيتمتع كل طالب بمعلم رقمي يتكيف مع نمط دماغه، وستختفي الامتحانات الموحدة لتحل محلها تقييمات للمهارات الواقعية، ويمكن تعلم لغات جديدة مباشرة عبر واجهات دماغية، وسيُستبدل بالشهادات الجامعية ملفات مهارات شخصية. أكبر تحول سيكون من تعليم المعلومات إلى تعليم المعنى، مركزًا على التفكير النقدي والإبداع والفلسفة والأخلاق والعلوم العابرة للتخصصات، بينما تتولى الآلة مهمة حفظ المعلومات.

في عالم ما بعد الخوارزميات، سَتُواجه الدِين والقيم أسئلة روحيّة جديدة: من يحدد الأخلاق؟ المجتمع، أم الدين أم الخوارزمية أم الشركة المالكة؟ هناك ثلاث احتمالات رئيسية: اتجاه نحو "تدين رقمي حديث" يعتمد على منصات فتاوى ذكاء اصطناعي وعبادات في الميتافيرس، أو "عودة للروحانية القديمة" بحثًا عن معنى بعيدًا عن التقنية، أو ظهور "دين التقنية" الذي يقدس العلم والخلود والبيولوجيا. قد يظهر تيار جديد يسمى "الروحانية التقنية" يمزج بين علم الأعصاب والتأمل والميتافيزيقي، وهو قريب من القيم التي يتبناها مفهوم التوازن العالمي.

يبرز احتمال انقسام البشر إلى فئتين: "الإنسان المُحسّن" ذو الذاكرة المعززة والقدرات البيولوجية المتطورة والعمر الأطول، و"الإنسان التقليدي" ذو

الإمكانيات البيولوجية العادية والمعتمد على الذكاء الاصطناعي الخارجي. هذا ليس خيالًا، بل نتيجة محتملة للهندسة الوراثية وواجهات الدماغ والحاسوب، مما قد يخلق طبقية بيولوجية لأول مرة في التاريخ.

أمام البشرية ثلاثة سيناريوهات كبرى لعام 2075. السيناريو الأول هو "ازدهار منضبط" حيث يُنظم الذكاء الاصطناعي بقوانين دولية وتكون الطاقة نظيفة ومجانية تقريبًا ويُطبق دخل أساسي للجميع، مما يؤدي إلى عصر نهضة جديدة. السيناريو الثاني وهو "السيطرة التقنية" وهو الأكثر ترجيحًا، يقوم على مراقبة شاملة واقتصاد قائم على بيانات الأفراد وطبقتين اجتماعيتين، بحيث يوفر رفاهًا ماديًا مقابل تنازل جزئي عن الخصوصية والحرية. السيناريو الثالث هو "انهيار جزئي" نتيجة كوارث مناخية وصراعات موارد وانهيار سلاسل الإمداد، مما يؤدي إلى عالم غير متساوٍ بين مناطق مزدهرة وأخرى منهارة.

إذا أرادت البشرية تحقيق سيناريو الازدهار المنضبط وتجنب السيناريوهات الأكثر قتامة، فلا بد من اتخاذ إجراءات منهجية تشمل حوكمة دولية للذكاء الاصطناعي، وضمان أخلاقيات التكنولوجيا الحيوية، وتحويل الاقتصاد نحو توزيع الإنتاج وليس تراكمه فقط، واستثمارًا ضخمًا في مواجهة تحديات المناخ والمياه والغذاء، وإصلاح التعليم ليكون قائمًا على التفكير النقدي وليس التلقين. الخطر الحقيقي ليس في الآلة ذاتها، بل فيمن يتحكم بها وكيفية توزيع قوتها.

تشير الاتجاهات التراكمية الحالية إلى أن العقود الخمسة المقبلة ستشهد تحولات هيكلية عميقة في منظومات العمل والتعليم، والاقتصاد والسياسة والصحة. الذكاء الاصطناعي سيتحول من أداة مساعدة إلى بنية تحتية حاكمة، فيما ستفرض المتغيرات المناخية والهجرات العالمية إعادة توزيع مراكز الثقل الحضاري. إن مستقبل البشرية لا يتحدد بواسطة الابتكار التكنولوجي وحده، بل بقدرتها على تطوير أطر تشريعية وأخلاقية عادلة تمنع احتكار القوة المعرفية والاقتصادية. العالم بعد نصف قرن قد يصبح إما عصرًا ذهبيًا من الازدهار المستدام أو مجتمعًا عالي الإنتاج منخفض الحرية —— والفارق بينهما سيكون قرارًا إنسانيًا، لا قدرًا تقنيًا.

تتنافس سيناريوهات عام 2075. فأكثرها واقعية وسلبية هو استمرار العمل كالمعتاد، مما قد يؤدي إلى ارتفاع الحرارة بين 2.5 و4.5 درجة مئوية، وموجات حر تصل إلى 60 درجة في بعض المناطق، واختفاء ثلث الشعاب المرجانية، وتهجير عشرات الملايين، وصراعات حول الماء والغذاء. وهناك سيناريو الانهيار المتسارع

الذي يشمل انهيار الأنظمة الغذائية العالمية، وانتشار أوبئة من ذوبان الجليد القديم، وصعود أنظمة سياسية قومية شعبوية، وحروب موارد إقليمية؛ وهذا السيناريو ممكن وليس خيالًا علميًا. أما سيناريو الإنقاذ المتأخر فيعني تباطؤ الانهيار لا منعه، مع تحول الطاقة إلى متجددة بنسبة كبيرة، وتراجع بعض الأنظمة الشاطئية، وظهور مدن مبردة اصطناعيًا وزراعة مائية وهندسة مناخية.

المستقبل لا يُكتب بالحبر، بل بالاحترار الكوكبي، ومستقبل المناخ ليس حدثًا، بل اتجاهًا. خلال خمسين عامًا، لن يكون السؤال: كيف نحمي المناخ؟ بل: كيف نتعايش مع الكوكب بعد أن تغيّر؟

السيناريو الثالث: وهم استعمار المريخ

الحلم الأحمر والهروب من الأزرق

لا نحلم بالمريخ لأنه جاهز للحياة، بل لأن الأرض أصبحت خانقة. الهروب إلى كوكب آخر ليس مشروعًا علميًا فقط، بل هو نزعة وجودية تولد عندما يعجز الإنسان عن مواجهة نفسه. فالإنسان لا يهرب من الأرض، بل يهرب من نتائج أفعاله فوقها. وهكذا يصبح الهروب إلى المريخ قناعًا أنيقًا لإخفاء الخوف من مواجهة الحقيقة.

يبدو المشروع جذابًا لأن البشر يحبون القصص البطولية، ولأن الخيال أسهل من الإصلاح، ولأن الإعلام يحول العلم إلى ملحمة، ولأن المريخ يمنحنا الوهم بأن النهاية ليست قريبة.

لكن ثمة فجوة واسعة بين الخطاب والواقع. فما يسمى بالاستعمار الفعلي يعني في الحقيقة بناء مدن تحت الأرض للحماية من الإشعاع، وزراعة الطعام داخل أنظمة مغلقة، وإعادة تدوير الماء والهواء بنسبة مائة في المائة، مما يعني حياة بدون سماء ولا هواء ولا بحر. مدينة فضائية كهذه ليست بيتًا، إنها مختبر طويل الأجل.

التكلفة الأخلاقية والاقتصادية هائلة؛ فإرسال مليون إنسان إلى المريخ قد يكلف أكثر من ضمان الغذاء والماء والصحة والتعليم لكل البشر على الأرض اليوم. إنها مفارقة ساخرة: نستطيع تمويل الذهاب إلى كوكب ميت، ولا نستطيع إنقاذ الكوكب الحي.

الدوافع الحقيقية خلف التسويق الفضائي متعددة: الهروب من انهيار المناخ بدلاً من إصلاحه، واستثمار رأسمالي ضخم قائم على الوعد لا على النتيجة، وصناعة خيال جماعي يمنح الأمل، حتى لو كان وهمًا، ومحاولة إعادة كتابة التاريخ لتحويل صورة الإنسان من مستعمر للأرض إلى مستعمر للكواكب.

من منظور نقدي علمي وجودي، إذا كنا نحتاج بدلة فضاء كي نتنفس، فإن المريخ ليس مستقبلًا، بل هو أشبه بغرفة إنعاش. السؤال الحاسم إذًا ليس: هل يمكننا العيش على المريخ؟ بل: لماذا لا نستطيع العيش بسلام على الأرض؟

الاستنتاج العميق هو أن المريخ ليس مستقبلًا، بل هو مرآة تكشف هشاشتنا أكثر مما تكشف قوتنا.

من منظور عملي، فإن استعمار المريخ يعني القدرة على خلق نظام حياة مغلق ومستدام، وليس مجرد الهبوط على السطح. وفق الدراسات العلمية، يحتاج استيطان البشر إلى ثلاثة أنظمة رئيسية: نظام دعم الحياة لإعادة تدوير الأكسجين وإدارة ثاني أكسيد الكربون وتوليد الماء والحفاظ على الضغط الجوي الداخلي، ونظام حماية من الإشعاع بسبب انعدام الغلاف المغناطيسي للمريخ، ونظام زراعة وإنتاج غذاء يعتمد كليًا على الزراعة المائية في بيئات مسيطر عليها بعد معالجة التربة السامة.

الاقتصاد الفضائي يطرح سؤالًا جوهريًا: من يدفع ولماذا؟ تكلفة مستوطنة أولية لألف شخص قد تصل إلى مئتي مليار دولار، وستكون الأرباح المتوقعة للشركات من حقوق التعدين وملكية الماء والأكسجين وإيجار السكن وبيع الطاقة واحتكار الاتصال وبيع الجنسية الرمزية. المستعمر لن يملك الأرض، بل سيكون عاملاً ومستأجرًا وتابعًا اقتصاديًا، كما حدث في أغلب استعمار الأرض تاريخيًا.

احتمالات النجاح الفعلية تقتصر حاليًا على إمكانية إنشاء قواعد أبحاث علمية صغيرة ومحطات تعدين آلية ووجود رواد في دورات تناوب خلال العشرين إلى الأربعين سنة القادمة، بينما يبقى الاستيطان المدني الواسع غير متوقع قبل نهاية القرن الحالي على الأقل. هذا بسبب احتياجات غير متوفرة اليوم، مثل فهم كامل للطب في الجاذبية المنخفضة، ومعرفة كيفية الولادة البشرية على المريخ، وخلق بيئة مغلقة ذاتيًا بنجاح مستدام، ووضع نماذج اجتماعية جديدة للمجتمعات المنعزلة.

بعد تحليل جميع المعطيات، يمكن صياغة خلاصة حاسمة: إرسال بشر إلى المريخ وإنشاء قاعدة صغيرة ممكن، لكن الاستيطان السكاني الدائم غير واقعي حاليًا بدون ثورات علمية في مجالات دعم الحياة والحماية الإشعاعية والزراعة الحيوية والطب في الجاذبية المنخفضة. المريخ ليس بديلًا للأرض، بل مختبر بعيد. والخطر الأكبر ليس علميًا، بل اقتصادي وسياسي وأخلاقي: فمن يملك الهواء والماء يملك البشر.

تشير جميع النماذج العلمية المعاصرة إلى أن فكرة "استعمار المريخ" بصورتها المتخيلة شعبيًا تتعارض مع المعطيات الفيزيائية والبيولوجية الحالية. يمكن للإنسان إنشاء وجود مؤقت محدود، لكنه غير قادر في الأفق المنظور على بناء مجتمع مستدام دون تقدم جذري في التكنولوجيا الحيوية والهندسية. وعليه، فإن التعامل الإعلامي الواسع

مع المريخ كبديل حضاري للأرض أقرب إلى خطاب ترويج اقتصادي وتخييلي منه إلى مشروع استيطان واقعي. التحدي الحقيقي ليس في الوصول إلى كوكب جديد، بل في إعادة هندسة علاقتنا بالكوكب الذي نعيش عليه الآن.

الفصل السادس: سقوط الأقنعة

عندما تنهار الأوهام ويتجلى الواقع

لا تنهار الحضارات عندما تكون ضعيفة، بل عندما تعجز أقنعتها عن احتواء التعب والاختلال والتناقض الكامن. يُعدّ مطلع القرن الحادي والعشرين عصرًا لم يعد فيه الإنكار قادرًا على احتواء الحقيقة، ولم تعد المظاهر قادرة على الصمود أمام الواقع.

تتلاشى الأوهام الأساسية للحداثة مع تفاقم الأزمات الهيكلية، وتصدع الأقنعة الخمسة للحداثة

القناع، الوهم، الكشف الخفي

1. السيطرة: البشرية هي سيدة الطبيعة والمصير والأنظمة. لطالما كانت السيطرة وهمًا؛ فقد تجاوز المناخ والاقتصادات والتقنيات حدود التنبؤ والحوكمة.

2. التقدم: المستقبل دائمًا أحدث وأذكى وأفضل. التقدم دون توازن يُصبح تدميرًا ذاتيًا. الأدوات التي صُممت للارتقاء الآن تُزعزع استقرار الأنظمة التي تُمكّن الحياة.

3. الهوية: الذات متجذرة في التراث والمجتمع والمعنى المشترك. الهوية سوقٌ تتفتت إلى أنماط حياة خوارزمية وسياسات أدائية. الذات ممتدةٌ إلى ما وراء التماسك.

4 العقلانية: سيقود العقل البشرية إلى الوضوح. العقل غارقٌ في السرعة والضوضاء والتعقيد، مما يؤدي إلى التضليل والانهيار المعرفي.

5 الاستقرار: الحضارة الحديثة متينةٌ وتُصحّح نفسها بنفسها. صُنع الاستقرار من خلال الديون والتشتيت والتلاعب ينهار عندما يتفاقم اختلال التوازن الكامن.

سقوط هذه الأقنعة ليس فوضى، بل وضوح – انهيار الأوهام يكشف الحقيقة الوحيدة: التوازن وحده هو الحقيقي. كل شيء آخر مجرد سرد.

الجزء الأول: تصدعات الأقنعة الكوكبية

ينكسر وهم الاستقرار أولًا مع تآكل التماسك في البيئة الداعمة.

أ– وَفَارَ التنُّور: عندما يصبح النص فيزياء

أصبحت الاستعارة القديمة "فار التنور" (القرآن ١١:٤٠) الآن أشبه بملخص علمي. "التنور" حرفيًا –كوكبٌ مُفرط الحرارة، ومحيطاته تزداد حموضة، وغلافه الجوي يتزعزع. هذا ليس لاهوتًا؛ إنه فيزياء نظام يتجاوز حدوده الحرجة. العلامات الحيوية للكرة الأرضية في حالة حرجة.

العلامات الحيوية للكوكب لا تُظهر قلقًا، بل أزمة:

1. الغلاف الجليدي المتلاشي: الجليد، منظم حرارة الأرض، تصدع. الانهيار السريع لجرف القطب الشمالي وجرينلاند والقطب الجنوبي ليس مجرد ارتفاع في درجة الحرارة؛ بل هو فشل في التوازن بسبب احتباس الكثير من الحرارة وقلة انعكاسها.

2. المحيطات الخانقة: المناطق الميتة – المناطق المحرومة من الأكسجين – تتمدد. البيانات البيئية توضح كيف تُضحي الرأسمالية بـ "الوظيفة" من أجل "الشكل" (استنزاف الأسمدة، ازدهار الطحالب، نضوب الأكسجين). تُمثل المناطق الميتة فشل التوازن على نطاق كوكبي.

3. حلقات التغذية الراجعة: تُضخّم التغيرات نفسها ذاتيًا: يُطلق ذوبان التربة الصقيعية غاز الميثان، وتُصبح الغابات المحتضرة مصادر للكربون. عندما تُفعّل حلقات التغذية الراجعة، تتولى الفيزياء زمام الأمور.

ب– نهاية العصر الهولوسيني: دخول عصر الفوضى

انتهى المناخ المستقر الذي نشأت في ظله الحضارة. نحن في عصر انعدام التوازن.

كوارث متتالية: الحرائق الهائلة، وموجات الحر الشديدة، وفشل المحاصيل هي الأساس الجديد. انتقل النظام من جاذب معتدل إلى جاذب فوضوي.

نمو لا نهائي يلتقي بكوكب محدود: اعتماد الرأسمالية على التسارع والاستخراج الدائمين أمر مستحيل رياضيًا في عالم محدود. يعمل النظام تمامًا كما هو مُصمم – مما يدفع انعدام التوازن نحو الانهيار.

ج–. الأقنعة الجديدة: التكنولوجيا كخيال للخلاص

مع انهيار القناع البيئي، يُطرح وهم جديد: "التكنولوجيا ستنقذنا". الذكاء الاصطناعي يَعِدُ بالتحسين، والهندسة الوراثية تَعِدُ بالتسامي. مع ذلك، في ظل نظام اختلال التوازن، لا تُعيد التكنولوجيا التوازن، بل تُسرّع من اختلاله.

الأتمتة في نظام اختلال التوازن: تُسوَّق الأتمتة على أنها حرية ووفرة، لكنها في ظل الرأسمالية تُشرّد العمال، وتُوسّع فجوة التفاوت، وتُزعزع استقرار المجتمعات. إنها تُعادل مرحلة ما بعد الاستقرار، لا مرحلة ما بعد الندرة.

الجزء الثاني: متلازمة – عصر الفوضى

عصر الفوضى ليس عرضًا واحدًا، بل متلازمة – مجموعة من الاختلالات المتزامنة في الأنظمة الكوكبية والاقتصادية والاجتماعية. إنه الانتقال من حالة توازن مستقرة إلى حالة توازن فوضوية.

أ– خطر الذكاء الفائق

إن خطر الذكاء الاصطناعي العام (AGI) ليس في النية الخبيثة، بل في اللامبالاة: إنه لا يكترث. يصبح الذكاء غير المتوازن في حضارة غير متناغمة محركًا لـ "تلميع الوحشية"، ليصبح أداة الاستغلال الأكثر وحشية ومُضخِّمًا لعدم المساواة.

الجيل الأخير

يتمتع هذا الجيل بموقع فريد، إذ يمتلك معرفةً بما يحدث وقدرةً تكنولوجيةً على الاستجابة. قد تدّعي الأجيال السابقة الجهل؛ وقد تفتقر الأجيال القادمة إلى القدرة على اتخاذ القرارات. يجب الاختيار بين الوهم والتوازن الآن.

المناخ قد تغيّر بالفعل – الحضارة لم تتغيّر. انقضى مناخ الهولوسين المستقر. نعيش الآن في نظامٍ غير مألوف، يتميز بغلافٍ جويٍّ أكثر سخونة ومحيطاتٍ أكثر دفئًا. يكمن جوهر عصر الفوضى في عدم التوافق بين كوكبٍ متغير ومؤسساتٍ ثابتةٍ تعمل بناءً على افتراضاتٍ من مناخٍ لم يعد موجودًا.

. الكوارث المتتالية: النمط الكوكبي الجديد: أحداثٌ كانت تُسمى سابقًا "أحداثًا تحدث مرةً واحدةً في القرن" تحدث الآن بالتزامن، مما يُثبت أنها تعبيراتٌ عن نظامٍ مُزعزعِ الاستقرار موجات الحرّ الهائلة تصل الان الى حدودٍ غير آمنةٍ للزراعة وكارثيةٍ لشبكات الكهرباء. للحضارةِ حدٌّ أقصى للحرارة. تتصرف الحرائق الآن كظواهرِ ذاتية التوليد، حيث تُنشئ طقسها الخاص وتُرسل الدخان عبر المحيطات. هذهِ غاباتٌ تحترق.

فيضاناتٌ وعواصفٌ هائلة: تُوضح هذه الأحداث حقيقة أن الحضارة بُنيت للمناخ القديم، وليس للمناخ الذي نعيش فيه.

انهيار القدرة على التنبؤ

تفترض الأنظمة الحديثة دوراتٍ قابلةً للتنبؤ (هطول الأمطار، درجات الحرارة، نوافذ المحاصيل). عندما تنهار القدرة على التنبؤ، تُصبح الزراعة عُرضةً للخطر، وتُصبح أنظمة التأمين مُفلسة، وتصبح الفوضى مُكلفةً ومُميتة. يُؤدي اختلال التوازن المناخي إلى اختلالٍ سياسي.

الورم الاقتصادي: نمو لانهائي على كوكب محدود

تمر الرأسمالية بأزمة لأنها عملت على أكمل وجه وفقًا لمبادئها الأساسية المتمثلة في النمو والاستخراج اللانهائيين، والتي تصطدم بالحدود المادية. والنتيجة هي ورم خبيث – ورم اقتصادي ينمو على حساب مضيفه.

حافز التدمير

يكافئ السوق تدمير التوازن: فالغابة ميتة لها قيمة نقدية أعلى من قيمتها وهي حيَّة. وينشأ الربح من اختلال التوازن. وهذا الهيكل الحافز يُسرّع الانهيار البيئي رغم المعاهدات والتقنيات

الفوضى الاجتماعية: الحضارة كعقل مُشتت. يُنتج اختلال التوازن الكوكبي مجتمعات في حالة اختلال، مما يؤدي إلى انعدام الثقة، والاستقطاب، والتطرف، والقلق. هذا هو التعبير النفسي عن انهيار التوازن الداخلي.

الفوضى الجيوسياسية: مع تفكك الاستقرار، تُكدّس الدول الموارد وتُضخّم النزعة القومية. ستكون الصراعات المستقبلية هيدرولوجية وزراعية وبيئية، مع تصلب الحدود وتراجع المناخ.

الفوضى كمقدمة لإعادة التوازن: عصر الفوضى ليس نهاية العالم؛ بل نهاية النظام العالمي القديم. الفوضى ليست دمارًا؛ بل إعادة تشكيل.

الجزء الثالث: الأقنعة الجديدة – التكنولوجيا، والذكاء الاصطناعي، وأماني جلجامش

إذا كانت الرأسمالية محرك اختلال التوازن، فإن التكنولوجيا هي القناع الذي يجعل هذا المحرك يبدو مُستنيرًا. التكنولوجيا لا تُصحّح الاختلال؛ بل تُوسّعه.

التكنولوجيا كلاهوت جديد

حلّت التكنولوجيا محل الآلهة، مانحةً "أماني جلجامش" ولادة جديدة. إن السعي الحديث وراء الخلود، والتسامي، والهروب من الطبيعة من خلال التكنولوجيا (الحفظ بالتبريد، وتحميل الدماغ) هو نفس الأسطورة القديمة التي أُعيد إحياؤها. أمنية جلجامش هي هزيمة الموت، وقهر الطبيعة، وتجاوز التوازن. التكنولوجيا هي القناع الأخير الذي يجعل الاختلال يبدو تقدمًا. ذكّرني ذلك بمقال قرأته، وأقتبس فقرته الأولى هنا:

"عمري 54 عامًا، بكل ما يترتب على ذلك. شعر رمادي، وركبة مُصابة، وذاكرة مُعقدة. ما زلت قويًا ألعب الهوكي، وحياتي العاطفية لا تتطلب أي مُحسّنات دوائية. لكن الإنتروبيا تلوح في الأفق أكثر فأكثر. يكفي القول، إنني أتمنى لو أصدق أننا نقترب بسرعة من "التفرد" السنجيولاريتي. وكما هو الحال في الجنة، فإن السنجيولاريتي التكنولوجية تأتي بأشكال متعددة، لكن معظمها يتضمن تعزيز الدماغ الآلي. في البداية، سنتحول إلى كائنات آلية، حيث تعمل شرائح دماغية فائقة القوة على تعزيز إدراكنا وذاكرتنا وذكائنا، وربما حتى تلغي الحاجة إلى أجهزة التحكم عن بُعد المزعجة في التلفزيون. في النهاية، سنتخلى عن ذواتنا الحقيقية تمامًا ونحمل عقولنا الرقمية إلى أجهزة الكمبيوتر. ثم سنعيش بسعادة إلى الأبد في الفضاء الإلكتروني، حيث، على حد تعبير وودي آلن، لن نحتاج أبدًا إلى البحث عن موقف سيارة. يبدو هذا رائعًا!" – بقلم جون هورغان، "معضلة الوعي"، 2008.

أسطورة ما بعد الندرة: قصة كتبتها آلات الندرة

يَعِد وادي السيليكون بعالم ما بعد الندرة، إلا أن الندرة تُصنع لأن الرأسمالية تشترطها لتبرير ارتفاع الأسعار، والاستخراج الشامل، وتجميع الموارد.

التكنولوجيا لا تقضي على الندرة؛ بل تُسلّعها. عصر "المعلومات اللامحدودة" يُستثمر نقديًا؛ ولوبيات الوقود الأحفوري تمارس الضغوط لإعاقة مسارات الطاقة المتجددة الوفيرة، مُستخدمةً الندرة كسلاح. التكنولوجيا تجعل الندرة أكثر سهولة في الإدارة وأكثر ربحية.

الأتمتة: تحرير أم إزاحة؟ يتمثل وعد الأتمتة في أن يصبح العمل اختياريًا والرخاء عالميًا. لكن الواقع في ظل الرأسمالية غير المتوازنة هو أن الوظائف تختفي، والأجور راكدة، والمكاسب تذهب إلى المساهمين. لا يمكن للأتمتة أن تُحرر؛ بل يمكنها فقط أن تزيح. إنها تُحوّل البشر إلى وحدات فائضة – تكرارات بيولوجية في بيئة مُحسّنة آليًا.

الذكاء الاصطناعي: أقصى حدّ لتلميع صورة الوحشية: ينشأ الذكاء الاصطناعي داخل نظامٍ غير متوازنٍ مدفوعٍ بالربح والتنافس والاستغلال. وهو يُضخّم كل اختلالٍ لأنه يرث قيم التدريب في النظام.

تحدثنا سابقاً عن الحوكمة الخوارزمية ككهنوتٍ جديد، يُوزّع القروض والوظائف والنفوذ السياسي من خلال خوارزمياتٍ مُبهمة، ويُصدر الأحكام دون الكشف عن نصوصه المقدسة. فالقوة الخفية تبقى قوة.

إساءة الاستخدام: يُمكّن الذكاء الاصطناعي الأسلحةَ ذاتيةَ التشغيل، والقرصنةَ البيولوجية، والتلاعبَ النفسيَّ الجماعيَّ، ويضع أدواتٍ فائقةَ القوة في حضارةٍ تفتقر إلى التوازن.

التكنولوجيا الحيوية: تعديل الحياة دون فهم الحياة

تُخاطر التكنولوجيا الحيوية بالانهيار البيئي والطفرات التي لا رجعة فيها من خلال خلق هياكل بيولوجية جديدة ليس لها تاريخ تطوري، ولا قيود طبيعية، ولا سلوك يمكن التنبؤ به. يُضغط انتقاء التوازن الطبيعي في دقائق، مما ينتج عنه قوة بلا حكمة.

تتلاعب تقنية النانو بالمادة على مستوى الجزيئات الذرية، لكن هذه البنية والهياكل المبتكرة والتي لم يسبق للطبيعة أن شكلتها في أي مكان معروف في هذا الكون، وليس لها سابقة في الغلاف الحيوي، قد تخرج عن السيطرة وتتوالد وتصنع جزيئات مماثلة لها وتتراكم بشكل عشوائي، وهي تستهلك في طريقها الذرات الداخلة في تركيبها الموجودة في كوكب الأرض، والكربون واحداً منها. إنها مادة بلا ذاكرة، في منتهى الخطورة.

"الرغوة الرمادية" **Gray Goo** هو سيناريو كارثي افتراضي تُحدثه تقنية النانو الجزيئية، حيث ستستهلك الروبوتات النانوية ذاتية التكاثر، إذا خرجت عن السيطرة، كل ذرات الكربون في الكتلة الحيوية على الأرض لبناء نسخ من الروبوتات، مما يؤدي في النهاية إلى تحويل الكوكب إلى كتلة من الرغوة الرمادية." صاغ إريك دريكسلر هذا المصطلح، ويصف نتيجة كارثية للنمو الأسّي الخارج عن السيطرة لهذه الآلات النانوية. ورغم أنه مفهوم قريب من الخيال العلمي، إلا أنه يُسلط الضوء على المخاطر المحتملة لتقنية النانو. هي قادرة على استهلاك الكتلة وجميع المواد العضوية على الكوكب، محولةً إياها إلى كتلة رمادية متجانسة من مادتها الخاصة.

تتضمن تكنولوجيا النانو معالجة المادة أو مراقبتها على المستوى النانوي. تُستخدم المواد النانوية حاليًا في كل شيء بدءًا من الهندسة، والملابس، وواقيات الشمس، والمنتجات المنزلية، والطب، وللمساعدة في التصوير الطبي وتوصيل الأدوية. في حين أن بعض التطبيقات، مثل الجسيمات النانوية في واقيات الشمس، تُشكل مخاطر صحية منخفضة، فإن تطبيقات أخرى، مثل أنابيب الكربون النانوية متعددة الجدران، قد تُسبب مشاكل في الرئة عند استنشاقها.

يجري تطوير الروبوتات النانوية لاستخدامها في توصيل الأدوية المضادة للسرطان بدقة وفي الجراحة. تُراقب العديد من المنظمات عن كثب التطورات الناشئة في تكنولوجيا النانو. سيناريو "الرغوة الرمادية" المتمثل في تدمير الروبوتات النانوية الخارجة عن السيطرة للأرض غير محتمل حاليًا.

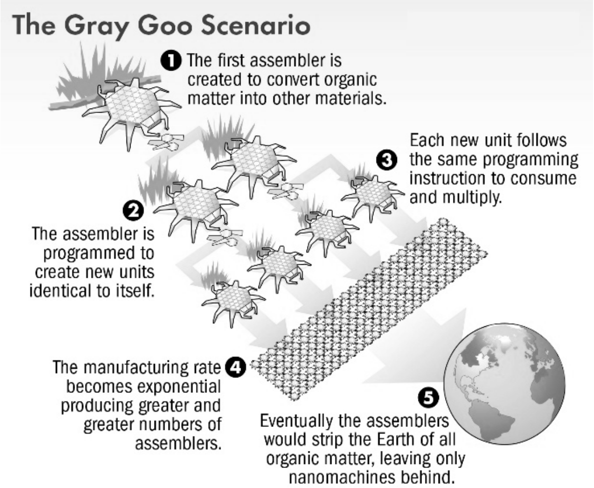

التكنولوجيا كهيكل خارجي للرأسمالية

عندما يندمج نظام اقتصادي غير متوازن مع التكنولوجيا الأسيّة، تكون النتيجة تضخيمًا للاختلال على نطاق كوكبي. تصبح التكنولوجيا الهيكل الخارجي للرأسمالية – درعها وسلاحها، تُدير الفوضى وتُسرّعها في الوقت نفسه. يصبح النظام فوضى ذاتية التعزيز.

الجزء الرابع: تلميع صورة الوحشية المعاصرة

في أوقات الأزمات النظامية، تسقط الأقنعة، ويظهر الهيكل الأساسي للسلطة:

تلميع الوحشية – فن صقل الوحشية تحت ستار الحضارة. يعود النظام إلى شكله البدائي: الاكتناز، والعزلة، وعسكرة الموارد، والاستغلال.

قناع التقدم: استخراج المعادن النادرة متخفيًا في زي الابتكار

ينكشف التقدم كقناع يخفي آلية أعمق: الاستخراج متخفيًا في زي التقدم التكنولوجي في الهواتف الذكية والذي يستخدم تعدين المعادن النادرة؛ ويستهلك تدريب الذكاء الاصطناعي موارد هائلة منها.

النمو الاقتصادي: يُنشئ "الابتكار" المالي تبعيات الديون؛ وتُسبب "الكفاءة" الزراعية استنزاف التربة. التقدم هو تحويل الاستقرار العالمي إلى ربح خاص.

قناع الكفاءة والتكاليف الخارجية: تتجاهل نسخة الرأسمالية من الكفاءة المعاناة، والتكاليف البيئية، والاجتماعية والنفسية. لا شيء يُصبح فعالاً إذا تحمّل الآخرون تكلفته – وخاصةً المستقبل. العمالة الرخيصة، والغذاء الرخيص، والطاقة الرخيصة، كلها تُعادل تكاليف يتحملها الفقراء، والبيئة، والأجيال القادمة.

الانتقاء العرقي وبقاء الأغنياء

مع تفاقم الاختلال، تنكشف غريزة النظام: الحفاظ على النخبة؛ التخلي عن الضعفاء. يتجلى هذا في: "عدم المساواة في البقاء": تراجع السكان الأثرياء إلى مدنٍ مقاومةٍ لتغير المناخ، وملاجئ خاصة، وعلاجات طبية حصرية وحدودٌ عسكريةٌ تعيق المهاجرين المناخيين. يبدأ الأثرياء بالتصرف كنوع منفصل – أرستقراطية بيولوجية.

نهاية النسبية الأخلاقية

الفيزياء لا تتفاوض مع الرأي العام. عتبات المناخ لا تحترم الأيديولوجيات. للمحيط الحيوي قانون واحد: ما يُخل بالتوازن ينهار. لذلك، الأخلاق هيكلية وغير قابلة للتفاوض:

الإبادة الجماعية خطأ لأنها تُزعزع استقرار البشرية. تدمير المناخ خطأ لأنه يُزعزع استقرار الكوكب. الظلم خطأ لأنه يُزعزع التوازن. النسبية الأخلاقية تنهار تحت وطأة الضرورة المادية.

القناع الأخير: طقوس الإنكار

مع تسارع الانهيار، يلجأ النظام إلى الإنكار، مُؤديًا طقوسًا تقنية اقتصادية (مزيد من النمو، مزيد من الاستخراج، مزيد من التسارع التكنولوجي) تُسرّع اختلال

التوازن بدلًا من استعادته. هذا هو الشكل النهائي لتلميع الوحشية: حضارة تُزيّن انهيارها.

عندما تسقط الأقنعة، ماذا يبقى؟

عندما تتلاشى كل الأوهام (التقدم، الحرية، الكفاءة)، لا يبقى لنا سوى الهيكل العظمي العاري للحضارة: نظام لا ينسجم مع الحياة.

تكشف الأقنعة المتساقطة عن الأزمة الثلاثية: الاقتصاد غير متوافق مع بقاء الكوكب. التكنولوجيا تُسرّع اختلال التوازن في غياب الأخلاق. الحضارة تقف على الجانب الخطأ من القانون الطبيعي.

هذا يكشف عن فرصة لبناء نظام متماسك قائم على التوازن، وتغليب الوظيفة على الشكل، والبقاء الجماعي.

أخلاقيات التوازن – البوصلة الأخلاقية الجديدة للحضارة (49)

يتطلب عصر الأزمة العالمية معيارًا جديدًا للأخلاق، معيارًا عالميًا وموضوعيًا ومتماسكًا روحيًا. يجب أن يرتكز هذا على حقيقة واحدة ليست ذاتية ولا ثقافية: التوازن، الشرط العالمي لإمكانية الحياة.

استعرضنا سابقا بعض مسببات فشل الأخلاقيات الحديثة، والحاجة إلى تأسيس الحضارة على قواعد أخلاقية جديد؟ يجب أن تتجذر الأخلاقيات في بنية الواقع، لا في بنية الثقافة.

لقد كافحت التقاليد التاريخية والفلسفية والأخلاقية في الشرق الأقصى، والعالم الغربي، والعالم العربي الإسلامي، لكبح جماح الأزمات العالمية المتسارعة في العصر الحديث. وعلى الرغم من اختلافاتها الثقافية، تشترك هذه الأنظمة في قيد هيكلي واحد: فقد تطورت جميعها ضمن أطر اجتماعية واقتصادية قائمة على تراكم رأس المال، والملكية الخاصة، والتوسع التنافسي، والحوافز المدفوعة بالنمو، أو تكيفت معها. هذه الديناميكيات تُولّد بطبيعتها تسارعًا هائلًا، مما يُؤدي في النهاية إلى اختلال في التوازن النظامي. ومع ذلك، فقد ثبت أن النموذج الأخلاقي الغربي

عرضة بشكل خاص لتوليد اختلال التوازن عند مقارنته بالتقاليد الأخلاقية الأخرى. يقدم الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابر تفسيرًا تاريخيًا ومعرفيًا مقنعًا لهذا الاختلاف.

وفقًا للجابري، منذ العصور القديمة – وخاصةً منذ ثقافة الإغريق في اليونان القديمة فصاعدًا – تصور العقل الغربي الوجود من خلال ثنائية هيكلية بين محورين: الإنسان والطبيعة. في هذه النظرة للعالم، تُعامل الطبيعة كعالم خارجي آلي يجب إتقانه وتفسيره والتحكم فيه في نهاية المطاف. غالبًا ما يكون الله، في هذا الإطار، مفهوم تفسيري مؤقت لظواهر الطبيعة – ما أطلق عليه المفكرون اللاحقون "إله الفجوات" – يُستشهد به فقط حتى توفر المعرفة العلمية تفسيرًا أكثر دقة.

ونتيجة لذلك، أصبح الفكر الأخلاقي الغربي راسخًا في التطور المعرفي: فُهمت الأخلاق بشكل متزايد على أنها نسبية وتكيفية ومشروطة تاريخيًا، وتتغير مع توسع المعرفة. لم تستمد الأخلاق سلطتها من التسامي، بل من المراجعة العقلانية وبناء الأخلاق على المعرفة المتطورة والتطور معها مما أدى إلى مشهد أخلاقي نسبي متطور باستمرار.

على النقيض من ذلك، نَظَّم العقل الشرقي – وخاصةً الشامي والعربي الإسلامي – الوجود حول قطبية مختلفة: الله يشغل محورًا، بينما يشغل الإنسان المحور الآخر، حيث تعمل الطبيعة كمظهر للنظام الإلهي وتجلي لآياته بدلًا من كونها مجالًا خارجيًا مستقلًا. في هذه البنية المعرفية، انحصر التفكير الأخلاقي الإسلامي بثوابت من الوحي القرآني، الذي وفّر أفقًا أخلاقيًا مستقرًا يمكن دمج المعرفة الجديدة فيه – أي البحث في الخانات الأخلاقية الجاهزة ما يتناسب مع موضعة المعرفة ومستجداتها بداخلها، وبالتالي تنسجم مع النظام الأخلاقي الذي نزل به الوحي. المعرفة التي قد تتعارض مع الوحي يتم استبعادها.

وهكذا، تميل الأخلاق الإسلامية إلى تأكيد مبادئ أخلاقية ثابتة وغير قابلة للتفاوض، حيث لا تتمثل مهمة العقل في إعادة اختراع الأسس الأخلاقية، بل في تفسير الظواهر الجديدة ضمن إطار أخلاقي راسخ.

من هذا المنظور، قد يتقارب كلا النظامين الأخلاقيين – على الرغم من اختلافاتهما العميقة – نحو نموذج أخلاقيات التوازن العالمي الذي دافع عنه هذا الكتاب. الأخلاق الغربية قادرة على التطور "براغماتي وواقعياً ونسبياً" نحو التوازن، حيث تكشف المعرفة التجريبية عن عواقب اختلال توازن الكوكب. والأخلاق الإسلامية،

المبنية على ميتافيزيقا الانسجام والوسطية، تُولي اهتمامًا بالغًا للتوازن الكوني والأخلاقي، كما ورد في الآية القرآنية الكريمة:

"وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ." (القرآن الكريم) (55: 7-9).

المبدأ الأساسي:

الخير = التوازن، الشر = انعدام التوازن

هذه هي المعادلة الأخلاقية التي تشترك فيها الفيزياء والدين والفلسفة والبيولوجيا وعلم النفس.

أخلاقيات التوازن هي نظام أخلاقي موضوعي

على عكس الأنظمة السابقة التي تعتمد على المعتقدات أو التقاليد، يجب استنباط أخلاقيات التوازن من القانون الطبيعي. لا أدعي استنباط نظام أخلاقي متوازن كامل، هذا خارج اختصاصي وفوق قدراتي، ولكنني كنتُ مُدركًا لشروطه الأساسية وأهميته، وأكتفي بالإشارة والبشارة.

المراجع

REFERENCES

THE LIGHTNESS OF BEING: Mass, Ether, and the Unification of Forces. FRANK WILCZEK, Basic Books; September 2, 2008.

The Last Generation: How Nature Will Take Her Revenge for Climate Change Paperback, by Fred Pearce, 5 Jun. 2006.

What Is Your Dangerous Idea? Today's Leading Thinkers on the Unthinkable (Edge Question Series), by John Brockman, 2016.

Stanford Encyclopaedia of Philosophy

En**cyclo**pedialike Britannica

Ethics, by Baruch Spinoza, Stuart Hampshire (Introduction), Edwin M. Curley (Translator)

The Blind Watchmaker, by Richard Dawkins, 1990

IPCC – Climate Change Assessment Reports (2021–2023)

WEF – Future of Jobs 2025 & 2035 Projections

MIT Tech Review – *The Age of Bio-Integration*, 2030

Stanford AI Index – Annual Reports
UN Population Prospects 2024
WHO Longevity Studies 2028–2036

NASA, *Human Exploration of Mars Design Reference Architecture*, 2020

ESA, *ExoMars Mission Report*, 2022

MIT, *Mars One Feasibility Analysis*, 2019

Journal of Space Safety, *Radiation Exposure in Deep Space*, 2023

Mars Society Papers, 2017–2024 Collections
Robert Zubrin — *The Case for Mars* (Scientific Arguments)

MIT Future of Work 2035
Oxford Economic Report on Automation 2029–2045

Shoshana Zuboff – Surveillance Capitalism
IMF World Employment Outlook 2038

WEF Workforce Transformation Index 2027–2050

مسرد المصطلحات

القسم الأول: الفيزياء الأساسية والكونيات

1. الإنتروبيا :(**Entropy**) مقياس لعشوائية النظام أو درجة تشتت الطاقة. يصف القانون الثاني للديناميكا الحرارية أن إنتروبيا النظام المعزول لا تنقص مع الزمن، مما يحدد سهم الزمن واتجاه العمليات الطبيعية (من النظام إلى الفوضى) في الكون.
2. الزمكان :(**Spacetime**) النموذج الرباعي الأبعاد الذي يدمج الأبعاد المكانية الثلاثة مع الزمن في متصل واحد. وفقاً للنسبية العامة، تنحني هندسة الزمكان بفعل الكتلة والطاقة، وهذا الانحناء هو ما نختبره على أنه جاذبية.
3. الموجات الثقالية :(**Gravitational Waves**) تموجات في نسيج الزمكان تنتج عن أحداث كونية عنيفة كتصادم الثقوب السوداء. تنبأ بها أينشتاين، ورُصدت عملياً لأول مرة عام **2015**.
4. نسبية القياسات :(**Relativity of Measurements**) في إطار الزمكان، تختلف قياسات الزمن والمسافة بين حدثين بالنسبة لمراقبين في حالات حركة مختلفة، مما يؤدي إلى ظواهر مثل تمدد الزمن وانكماش الأطوال.
5. ثبات سرعة الضوء (**Constancy of the Speed of Light**): المبدأ الأساسي الذي تقاس عليه سرعة الضوء في الفراغ بنفس القيمة من قبل جميع المراقبين، بغض النظر عن حركتهم النسبية.
6. الحدث :(**Event**) نقطة محددة في الزمكان، تُوصف بأربعة إحداثيات (ثلاثة للمكان وواحد للزمن).
7. فضاء مينكوفسكي :(**Minkowski Space**) النموذج الرياضي "المسطح" للزمكان في النسبية الخاصة، الذي يعمل كخلفية ثابتة للأحداث في غياب الجاذبية.
8. خط العالم :(**World Line**) المسار الذي يسلكه جسم ما عبر الزمكان، ويمثل تاريخه الكامل.
9. مخروط الضوء :(**Light Cone**) البنية في الزمكان التي تحدد جميع المناطق التي يمكن أن تؤثر فيها على حدث معين أو تتأثر به، مع احترام حقيقة أن لا شيء ينتقل أسرع من الضوء.
10. الجاذبية كانحناء :(**Gravity as Curvature**) التفسير الذي تقدمه النسبية العامة للجاذبية، حيث تتحرك الأجسام في مسارات طبيعية

(جيوديسية) ضمن الزمكان المنحني بفعل الكتلة، وليس كقوة تجاذب عن بعد.

11. نموذج الكون الكتلي :(**Block Universe**) التفسير الفلسفي الذي تقترحه النسبية، حيث يكون الماضي والحاضر والمستقبل موجودين معاً في بنية الزمكان الثابتة، و"الحاضر" هو تجربة ذاتية.
12. محور الشر الكوني :(**Axis of Evil**) مصطلح يشير إلى محاذاة غير متوقعة في خرائط إشعاع الخلفية الكونية الميكروي (**CMB**) تبدو مرتبطة بمستوى المجموعة الشمسية، مما يتحدى مبدأ كوبرنيكوس (أن موقعنا في الكون ليس مميزاً).
13. الثوابت الفيزيائية الأساسية (**Fundamental Physical Constants**): قيم ثابتة (مثل سرعة الضوء **c***، ثابت بلانك $\hbar$، ثابت الجاذبية G) تحدد قوانين الطبيعة وبنية الكون. يشير "الضبط الدقيق" لهذه الثوابت إلى أن الكون مسموح بوجود الحياة فيه بشكل دقيق جداً.

القسم الثاني: ميكانيكا الكم والتأسيسيات

14. ازدواجية الموجة-الجسيم :(**Wave-Particle Duality**) المبدأ الجوهري في ميكانيكا الكم الذي ينص على أن الكيانات الأساسية (كالضوء والمادة) تظهر خصائص موجية وجسيمية، اعتماداً على ظروف التجربة.
15. تجربة الشق المزدوج :(**Double-Slit Experiment**) التجربة التأسيسية التي تُظهر ازدواجية الموجة-الجسيم بشكل دراماتيكي: حيث تُظهر الجسيمات المفردة نمط تداخل موجي ما لم يتم رصد مسارها، وعندها تتصرف كجسيمات.
16. مبدأ التكامل - (**Complementarity Principle Bohr**): وجهتا النظر الموجية والجسيمية لظاهرة كمومية ما هما وصفان متكاملان، لا يمكن ملاحظتهما معاً في الوقت نفسه، لكنهما معاً يستنفدان كل المعلومات الممكنة عنها.
17. التأثير الكهروضوئي :(**Photoelectric Effect**) ظاهرة تحرير الإلكترونات من سطح معدني عند سقوط ضوء عليه. فسرها أينشتاين باقتراح أن الضوء مكون من حزم طاقة منفصلة (فوتونات).
18. فرضية دي برولي :(**De Broglie Hypothesis**) اقتراح أن للمادة (مثل الإلكترونات) خصائص موجية، يرتبط طول موجتها بزخم الجسيم.

19. الترابط / التشابك الكميّ :(Quantum Entanglement) حالة كمومية حيث يكون جسيمان أو أكثر مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن وصف حالة أحدهما بشكل مستقل عن الآخر، حتى عند الفصل بينهما مسافات شاسعة.

20. اللا-محليّة :(Nonlocality) الخاصية التي يظهرها التشابك الكمّي، حيث يبدو أن القياس على جسيم مترابط يؤثر فورياً على حالة شريكه، وهو أمر لا يمكن تفسيره بنظريات "المتغيرات الخفية المحلية" كما أثبتت تجارب "بيل."

21. فعل "شبحي عن بُعد " (Spooky Action at a Distance): التعبير الذي استخدمه أينشتاين لوصف التشابك الكمّي، معبراً عن استغرابه من طابعه اللا-محلي الذي يبدو أنه يتحدى الحدود السببية الكلاسيكية.

22. انهيار الدالة الموجية :(Wave Function Collapse) التغير المفاجئ في الدالة الموجية لنظام كمّي عند إجراء قياس، حيث "ينهار" تراكب الحالات إلى حالة واحدة محددة.

23. مشكلة القياس / تأثير الراصد / Measurement Problem) (Observer Effect: اللغز المركزي في تفسير ميكانيكا الكم حول كيفية ولماذا يؤدي فعل القياس أو المراقبة إلى انهيار الدالة الموجية وتحديد الواقع.

24. الحوسبة الكمّية :(Quantum Computing) استخدام الخواص الكمومية مثل التراكب والتشابك لمعالجة المعلومات، مما يعد بإمكانية حل مسائل معقدة بسرعة تفوق الحواسيب التقليدية بكثير.

25. التشفير الكمّي :(Quantum Cryptography) استخدام مبادئ ميكانيكا الكم (كالتشابك) لإنشاء قنوات اتصال آمنة رياضياً، حيث أن أي محاولة للتجسس ستُكتشف حتماً.

26. الانتقال الكمّي :(Quantum Teleportation) عملية تستخدم التشابك لنقل الحالة الكمومية لجسيم إلى جسيم بعيد، دون نقل المادة نفسها.

القسم الثالث: الوعي، النماذج التفسيرية، والأنطولوجيا

27. نموذج الوعي كحقل أساسي (Consciousness as a Fundamental Field): النظرة التي ترى الوعي ليس نتاجاً ثانوياً

للمادة (الدماغ)، بل حقيقة أولية أو حقل كوني أساسي، قد يكون الدماغ مجرد مستقبل أو مُعدِّل له.

28. الدماغ كمستقبل (Brain-as-Receiver): نموذج ضمن الإطار السابق، يشبه دور الدماغ باستقبال الإذاعة، حيث "يستقبل" الوعي من مجال أوسع بدلاً من أن يكون هو المولد.
29. النموذج الهولوغرافي (Holographic Model – Pribram & Bohm): نموذج يقترح أن الدماغ يعالج المعلومات بطريقة هولوغرافية، وأن الواقع نفسه قد يكون إسقاطاً لمعلومات مخزنة على سطح ثنائي الأبعاد.
30. نظرية الاختزال الموضوعي المنظَّم – (Orch-OR Penrose/Hameroff): فرضية مثيرة للجدل تربط نشوء الوعي بعمليات كمومية تحدث داخل الأنابيب الدقيقة في الخلايا العصبية.
31. المبدأ الهولوغرافي (Holographic Principle): فكرة فيزيائية نظرية تنص على أن كل المعلومات اللازمة لوصف منطقة من الفضاء يمكن تمثيلها على حدوده (سطحه) ثنائي الأبعاد.
32. الوحدة المتكثرة (Multiplicity-in-Unity): الفكرة الفلسفية-الأنطولوجية التي ترى أن الكثرة والتعدد في العالم ليست نقيضاً للوحدة، بل هي تعبير وتجلٍّ لوحدة أساسية كامنة.
33. البنية (Structure): الماهية التنظيمية التي تحدد الإمكانيات والوظائف ومسار الاستقرار أو الفوضى في أي نظام، سواء كان ذرة، كائناً حياً، أو مجتمعاً.
34. الأنطولوجيا التبادلية (Relational Ontology): النظرة التي ترى أن الوجود ليس مكوناً من "أشياء" ثابتة، بل من شبكات من العلاقات والعمليات الديناميكية.
35. قانون التناسب (Law of Proportion): المبدأ الذي ينص على أن استقرار أي نظام يرتبط بتناسب وتوازن القوى الداخلية المكونة له.
36. الوعي الكوني (Cosmic Consciousness): فكرة أن الوعي ليس حكراً على الكائنات الفردية، بل هو بُعد أساسي أو حقل يشمل الكون، والعقول الفردية هي تجليات له.
37. المرايا الوجودية (Ontological Mirrors): فكرة أن كل مستوى من مستويات الوجود (مثلاً: الإنسان، الطبيعة، الكون) يعكس بنية وعلاقات المستويات الأخرى، مُظهراً تناسقاً كونياً.
38. الذات المتوهمة (Illusory Self): الفكرة القائلة بأن الإحساس بالفردية المنفصلة والثابتة (الأنا) هو بناء ذهني-عصبي وظيفي، وليس جوهراً مطلقاً.

39. الوعي المجزأ (Fragmented Consciousness): حالة ذهنية تنشأ من التدفق المستمر للمحفزات والمعلومات، حيث يفقد العدم قدرته على التركيب والربط، مما يؤدي إلى تشتت وفقدان المعنى.
40. التنافر الوجودي (Existential Dissonance): حالة من الصراع الداخلي والقلق تنشأ من التناقض بين تصورات الذات عن "ما يجب أن تكون" وبين واقع التجربة الفعلية.
41. الحضور (Presence): القدرة على تركيز الوعي في لحظة "الآن" الحالية، بعيداً عن الشرود في الماضي أو القلق من المستقبل، وهي مرتبطة بالاتزان الذهني.
42. المرونة الوجودية (Existential Resilience): قدرة الكائن على استعادة الاتزان والتماسك النفسي والمعنوي بعد التعرض لصدمات أو أزمات وجودية.
43. إعادة الاتزان (Re-Equilibration): العملية الديناميكية التي يعود من خلالها نظام ما (نفسي، اجتماعي، بيئي) إلى حالة من الاستقرار والانسجام بعد مرحلة من الاضطراب أو الاختلال.

القسم الرابع: النموذج الأخلاقي-الاجتماعي: الجلوباليبريوم وأخلاقيات التوازن

44. الجلوباليبريوم (Globalibrium): النموذج المقترح للتنظيم العالمي الذي يجمع بين "الوظيفة العالمية الموحدة" (في مجالات البقاء كالمناخ والطاقة) و"التنوع الثقافي المحلي الحر". يهدف إلى تحقيق توازن ديناميكي عالمي.
45. أخلاقيات التوازن (Equilibrium Ethics): الإطار الأخلاقي الذي يجعل "الحفاظ على التوازن" معياراً للخير، و"إحداث الاختلال" معياراً للشر، على مستوى الفرد، المجتمع، والنظام البيئي.
46. الشر كاختلال (Evil as Disequilibrium): التعريف الوظيفي للشر على أنه أي فعل أو نظام يخرق توازن الحياة والمجتمع والطبيعة، ويسرع عمليات الانهيار.
47. الخير كاتزان (Good as Equilibrium): التعريف الوظيفي للخير على أنه ما يعزز الاستقرار والانسجام والاستدامة في الأنظمة المختلفة.
48. العدالة كاتزان (Justice as Equilibrium): نظرة إلى العدالة على أنها حالة من الاستقرار الديناميكي داخل المجتمع تتحقق عندما تتناسب الحقوق والواجبات والفرص، وليس مجرد تطبيق قواعد قانونية.

49. السيادة الوظيفية :(Functional Sovereignty) مفهوم يعيد تعريف سيادة الدولة بقدرتها على حماية الوظائف الحيوية لشعبها (كالأمن الغذائي والمائي والبيئي والصحي)، بدلاً من التركيز على الحدود السياسية فقط.
50. الاقتصاد الحيوي :(Biocentric Economy) نموذج اقتصادي يضع استدامة الحياة والأنظمة البيئية في مركز القرار، معاكساً للنموذج الرأسمالي الاستخراجي القائم على الربح اللانهائي.
51. الأمن البيئي :(Ecological Security) الاعتراف بأن أكبر التهديدات للأمن القومي والعالمي في العصر الحديث هي بيئية (كالتغير المناخي، ندرة المياه، فقدان التنوع الحيوي).
52. الفوضى النظامية :(Systemic Chaos) حالة من الفوضى والاضطراب لا تنشأ من غياب النظام، بل من تفاعلات معقدة داخل النظام نفسه تدفعه إلى مرحلة جديدة يصعب التنبؤ بسلوكها.
53. نقطة التحول :(Tipping Point) اللحظة الحرجة في نظام معقد حيث يؤدي تغير صغير إلى تغير جذري وكبير في حالة النظام، قد يكون غير قابل للعودة.
54. الاستدامة الأخلاقية :(Moral Sustainability) مبدأ أن الاستدامة الحقيقية لأي نظام تتطلب أساساً أخلاقياً يحترم الحياة والمستقبل والإنسان، وليست مجرد حلول تقنية.
55. الحرية كاتزان :(Freedom as Equilibrium) مفهوم الحرية ليس كالقدرة المطلقة على الفعل، بل كالقدرة على الفعل ضمن إطار يحافظ على توازن النظام (الاجتماعي، البيئي) الذي يضمن استمرارية الحرية نفسها.
56. القوة الخامسة :(The Fifth Force – Free Will) الإرادة الحرة للإنسان، المُتصورة في هذا النموذج كقوة متميزة (مكملة للقوى الفيزيائية الأربع) مصدرها مجال الوعي، تسمح بإعادة توجيه المسار وتحدي الحتميات الجزئية.
57. الوعي السياسي :(Political Consciousness) الوعي ببنية القوة وتدفقاتها وتأثيرها الخفي في المجتمع، والانتقال من دور المواطن المتلقي إلى المواطن القادر على تحليل النظام وفهم آليات عمله.
58. الفصام الحضاري :(Civilizational Schism) التناقض الحاد بين التقدم التقني الهائل للإنسانية وبين تراجعها الأخلاقي والروحي، مما يخلق شرخاً يهدد استقرار الحضارة.

59. عصر اللا–توازن (Age of Disequilibrium): الوصف التاريخي للفترة الحالية التي تشهد فيها الأنظمة الرئيسية (المناخية، السياسية، الاقتصادية، التقنية) اختلالات بنيوية عميقة وتهديدات بالانهيار.

60. مستوى البقاء (The Survival Layer): في نموذج الجلوباليبريوم، هي الطبقة العالمية المشتركة المسؤولة عن إدارة الوظائف الحيوية غير القابلة للتفاوض التي تضمن استمرارية الحضارة (كالمناخ، المياه، الصحة العالمية).

61. المستوى الثقافي (The Cultural Layer): في نموذج الجلوباليبريوم، هي الطبقة المحلية الحرة حيث تزدهر الهويات، اللغات، الأديان، الفنون، والأنظمة السياسية المتنوعة، ضمن الحدود التي لا تهدد مستوى البقاء.

62. النافذة الزمنية (The Temporal Window): الفترة الزمنية المحدودة والمتاحة أمام البشرية لاتخاذ الإجراءات الجماعية الحاسمة لإعادة التوازن للأنظمة العالمية قبل أن تصبح الانهيارات ذاتية التعزيز ولا رجعة فيها.

63. إرادة الاتزان (The Will to Equilibrium): الدافع النفسي والأخلاقي الفطري لدى الأفراد والمجتمعات للسعي نحو الاستقرار، والانسجام، والاستدامة، وهو ما يراه النموذج كطاقة محركة أساسية للتغيير الإيجابي.

شرح مختصر لبعض المصطلحات الأساسية والمفاهيم المتعلقة بها

1. ازدواجيّة الموجة–الجسيم Wave-Particle Duality

ازدواجيّةُ الموجة–الجسيم مفهومٌ جوهريّ في ميكانيكا الكمّ ينصّ على أنّ كلّ كيانٍ أساسيّ في الكون يُظهِر خصائصَ الموجات وخصائصَ الجسيمات معًا، تبعًا لنوع التجربة. هذا يعني أنّ المفاهيم الكلاسيكيّة لـ "موجة" و"جسيم" لا تكفي وحدها لوصف سلوك الأجسام الكمّيّة.

الضوء كموجة: عُدّ تاريخيًّا ظاهرةً موجيّة (تُثبِت ذلك تجاربُ التداخُل والحيود)، ثمّ تبيّن أيضًا أنّه يتصرّف كحزمٍ (فوتونات) لتفسير التأثير الكهروضوئيّ والإشعاع الجسميّ الأسود.

المادّة كموجة: الجسيماتُ التي نعتبرها عادةً "كتليّة" (إلكترونات، ذرات، جزيئات) تُظهِر سلوكًا موجيًّا، كما برهنت تجارب حيود الإلكترونات.

مبدأ التكامل:(Bohr's Complementarity) يرى بور أنّ صِفَتَي "الموجة" و"الجسيم" وجهان متكاملان لكيانٍ كمّيّ واحد؛ لا يمكن رصدهما معًا في التجربة نفسها. طريقة القياس هي التي تُحدِّد أيَّ جانبٍ يظهر.

تجربة الشقّين المزدوجين The Double-Slit Experiment :

تجربةُ الشقّين من التجارب التأسيسيّة في ميكانيكا الكمّ، تُظهِر أنّ الضوء والمادّة يمكن أن يتصرّفا كموجاتٍ وجسيماتٍ معًا، وتُجسِّد لغز ازدواجيّة الموجة–الجسيم الذي وصفه فاينمان بأنّه "اللغز الوحيد الحقيقيّ" في هذا الحقل.

كيف تعمل التجربة؟

تتكوّن التجربة عادةً من: مصدرٍ (لضوء، أو إلكترونات، أو ذرات)

حاجزٍ يحوي شقّين متوازيين،

وشاشةٍ خلف الحاجز تسجّل ما يصل إليها.

مع جسيماتٍ كلاسيكيّة (كرمالٍ أو رصاصات صغيرة) :إذا أُطلقت الجسيماتُ على الحاجز، سيصطدم معظمها بالجدار، وسيعبر البعض من الشقّين، مكوِّنًا على الشاشة خلفهما نطاقين مطابقين لمواضع الشقّين.

مع موجات (كالأمواج المائيّة أو موجات الضوء): بعد عبور الشقّين تنتشر الموجات وتتداخَل؛ حيث تلتقي القِمَمُ مع القِمَم يحدث تعزيز (تداخُل بنّاء)، وحيث تلتقي القِمَمُ مع القيعان يحدث إلغاء (تداخُل هدّام). ينتج عن ذلك نمطُ أشرطةٍ متناوبة على الشاشة.

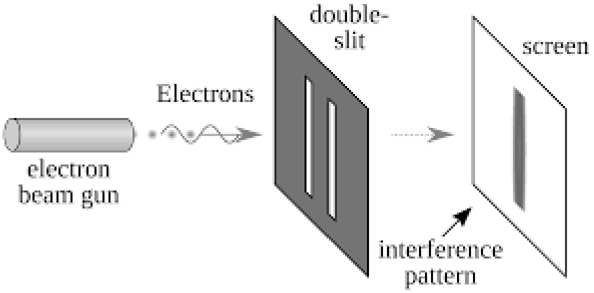

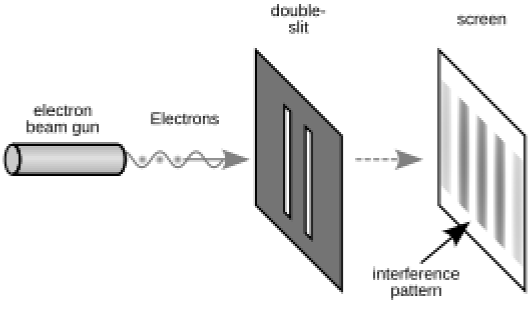

اللغز الكمّي: عندما تُجرى التجربةُ بجسيماتٍ كمّيّة مثل الفوتونات أو الإلكترونات:

إرسال الجسيمات واحدًا واحدًا (من دون رصد المسار): يُرسَل كلُّ جسيمٍ منفردًا نحو الشقّين. يصل كلّ واحدٍ إلى الشاشة كـ "نقطة" مفردة (سلوك جسيم)، لكن مع مرور الوقت تتراكم هذه النقاط لتشكّل نمطَ تداخُلٍ موجيّ .هذا يدلّ على أنّ الجسيم الواحد يتحرّك كدالّة موجيّة من الاحتمالات ويتداخَل مع نفسه.

وضع رصّادٍ لمعرفة أيّ شقّ عبره الجسيم :عند وضع كواشف على الشقّين لمعرفة المسار الذي يسلكه كلّ جسيم، يختفي نمطُ التداخُل بالكامل، ويظهر على الشاشة نطاقان فقط كما في حالة الجسيمات الكلاسيكيّة. مجرّد "معرفة المسار" يغيّر سلوك النظام من موجةٍ إلى جسيم.

هذه التجربة تُجسّد جوهرَ الغموض الكمّي: ما نختار أن نقيسَه يحدّد ما الذي يظهر من طبيعة الواقع.

تجربة الشقّين مع جسيمٍ واحد غير مُراقَب Observer Effect

أهمّيّة النتيجة :تُجسِّد تجربة الشقّين مبدأ التكامل في ميكانيكا الكمّ: النظام الكمّي يمكن أن يتصرّف كموجة أو كجسيم، لكن لا يمكن أن يُظهِر السلوكين معًا في الإعداد التجريبيّ نفسه. مجرّد القياس (الرصد) يؤثّر في سلوك النظام ويفرض عليه حالةً محدَّدةً جسيميّة، فيُقال إنّ دالّته الموجيّة "انهارت". هذه النتيجة العميقة والمخالفة للحَدْس هي من مفاتيح فهم ميكانيكا الكمّ، وما زالت تُناقَش في صيغٍ وتجارب متطوّرة حتى اليوم.

التجربة ونتائجها بإطلاق جسيمٍ واحد في كلّ مرّة

إعداد التجربة :يُضبَط المصدر بحيث يُطلِق فوتونات أو إلكترونات بكثافةٍ منخفضة جدًّا، بحيث يكون في الجهاز جسيمٌ واحد في كلّ لحظة تقريبًا. يمرّ الجسيم عبر حاجزٍ فيه شقّان، ثمّ يصل إلى شاشةٍ كاشِفة خلف الحاجز.

الرصد الفرد: يظهر كلّ جسيمٍ منفرد على الشاشة كنقطةٍ محلّيّة صغيرة، مؤكّدًا الطابع "الجُسيميّ" في لحظة الكشف.

ظهور النمط: مع تراكم آلاف وآلاف النقاط الفرديّة، يتشكّل تدريجيًّا نمطُ تداخُلٍ موجيّ :أشرطةٌ مضيئة وأخرى معتمة، أي مناطقُ عالية الاحتمال وأخرى منخفضةً الاحتمال لوصول الجسيمات.

دلالات أساسيّة : التداخُل مع الذات:بما أنّ الجهاز لا يحوي إلا جسيمًا واحدًا في كلّ مرّة، لا يمكن تفسير نمط التداخُل عبر "اصطدام الجسيمات ببعضها". إنّما ينتشر "الاحتمال" (الدالّة الموجيّة للجسيم) عبر الشقّين معًا، ويتداخَل مع نفسه، ثمّ لا يظهر الجسيم إلا كنقطةٍ واحدة عند الكشف.

مشكلة القياس Measurement or The Observer Effect

حين نضع كواشف عند الشقّين لمعرفة "من أيّ شقّ مرّ الجسيم"، يختفي نمطُ التداخُل مباشرةً، ويظهر نمطُ شريطين فقط. أي إنّ فعلَ الرصد نفسه يدمّر السلوك الموجيّ ويُجبِر النظام على سلوكٍ جُسيميّ. هذا هو لبّ "مشكلة القياس" في ميكانيكا الكمّ.

من هنا صارت تجربة الشقّين تُوصَف بأنّها "قلب ميكانيكا الكمّ"، لأنّها تُبيّن أن العالم الكمّي لا يمكن تفسيره بالكامل بحدس الفيزياء الكلاسيكيّة.

2. الإنتروبيا (Entropy)

الإنتروبيا مفهومٌ علميّ يرتبط عادةً بحالاتِ العشوائيّة أو الاضطراب أو عدم اليقين. استُخدِم المصطلحُ والمفهوم في مجالاتٍ متنوّعة، من الديناميكا الحراريّة الكلاسيكيّة – حيث تمّت ملاحظته أوّل مرّة – إلى الوصف المجهريّ للطبيعة في الفيزياء الإحصائيّة، وصولًا إلى مبادئ نظريّة المعلومات. وقد وجد تطبيقاتٍ بعيدة المدى في الكيمياء والفيزياء، وفي النُّظم البيولوجيّة وعلاقتها بالحياة، وفي علم الكونيات، والاقتصاد، وأنظمة المعلومات بما فيها نقلُ المعلومات في الاتّصالات.

تشكّل الإنتروبيا محورًا أساسيًّا في القانون الثاني للديناميكا الحراريّة، الذي ينصّ على أنّ إنتروبيا نظامٍ معزولٍ متروكٍ ليتطوّر تلقائيًّا لا يمكن أن تنقص مع الزمن. ونتيجةً لذلك، تتطوّر الأنظمةُ المعزولة نحو حالة الاتّزان الحراري، حيث تبلغ الإنتروبيا أعلى قيمة لها.

تشير "الإنتروبيا العالية" إلى أنّ الطاقةَ في حالةٍ أكثرَ تشتّتًا أو لاانتظامًا، بينما تعني "الإنتروبيا المنخفضة" أنّ الطاقةَ أكثرُ تركيزًا أو تنظيمًا. ومن نتائج القانون الثاني للديناميكا الحراريّة أنّ بعض العمليّات تكون لا انعكاسيّة بطبيعتها.

3. الزمكان (Spacetime)

الزمكان نموذجٌ رياضيّ يوحِّد الأبعادَ الثلاثة للمكان مع بُعد الزمن في متّصلٍ واحدٍ رباعيّ الأبعاد. في هذا الإطار، تُستبدل المفاهيمُ المنفصلة للمكان والزمان ككيانين مستقلّين بفكرة "نسيجٍ واحدٍ للواقع" يمكن أن يُشوَّه أو يتمطّط بفعل الكتلة والطاقة.

الحدث (Event) :

النقطة في الزمكان تُسمّى "حدثًا"، وتحتاج إلى أربع إحداثيّات لتحديدها (ثلاثة للمكان وواحد للزمن).

الجاذبيّة وتشبيه «نسيج» الزمكان

Gravity as a Curvature in Spacetime

يُستَخدم تشبيه «نسيج الزمكان» (كأنّه غشاء مطّاطي مشدود) كأداة بصريّة لتقريب فكرة الجاذبيّة في النسبيّة العامّة:

الانحناء والتشوّه:
الأجسام الكبيرة (كالأرض أو الشمس) تُحدِث «انبعاجًا» أو انحناءً في نسيج الزمكان حولها.

الحركة:
الأجسام الأخرى – بما فيها الكواكب وأشعّة الضوء – لا تُسحَب بقوّة خفيّة، بل تتبّع المسارات الطبيعيّة في هذا الانحناء، وهذا ما نُدرِكه نحن ك «قوّة جاذبيّة». يشبه الأمر كرةً صغيرة تتدحرج على قماش منبعِج.

34. الأمواج الثقالية Gravitational Waves

عندما تتحرّك كتلٌ ضخمة أو تتصادم (الثقوب السوداء)، تُحدِث «تموّجات» في هذا النسيج (الزمكان) تُسمّى الأمواج الثقالية، تنتشر بسرعة الضوء ويمكن رصدها بأجهزة شديدة الحساسيّة مثل.**LIGO**

حدود هذا التشبيه:

35. الزمكان ليس مادّةً حقيقيّة يمكن لمسها، بل بنية رياضيّة–هندسيّة مجرّدة تُوصَف بمعادلات (هندسة ريمان الزائفة).

الرسم الشائع (صفحة ثنائيّة الأبعاد تنحني إلى أسفل) تبسيط؛ فالانحناء الحقيقيّ يحدث داخل فضاء–زمن رباعيّ الأبعاد، لا داخل «خارج» مسطح

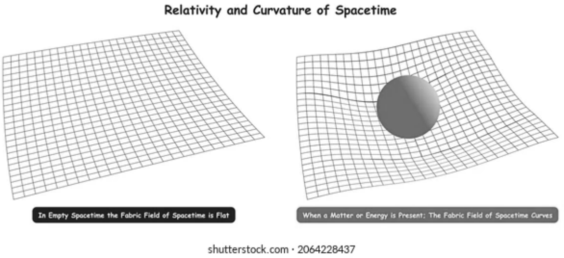

النسبيّة العامّة تفترض زمكانًا أملسَ مستمرًّا، بينما تشير محاولات الجَمْع بين النسبيّة وميكانيكا الكمّ إلى أنّ الزمكان قد يكون «كمومي» أو حبيبيًّا على مقاييس شديدة الصِغَر، وإنْ كان هذا لم يُثبَت تجريبيًّا بعد.

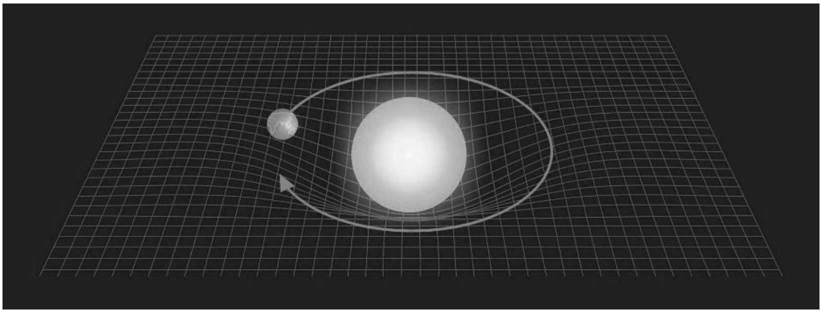

باختصار: تشبيه «نسيج الزمكان» مفيد للتخيّل، لكن الواقع الفيزيائي أعمق وأدقّ من استعارة القماش أو المطّاط.

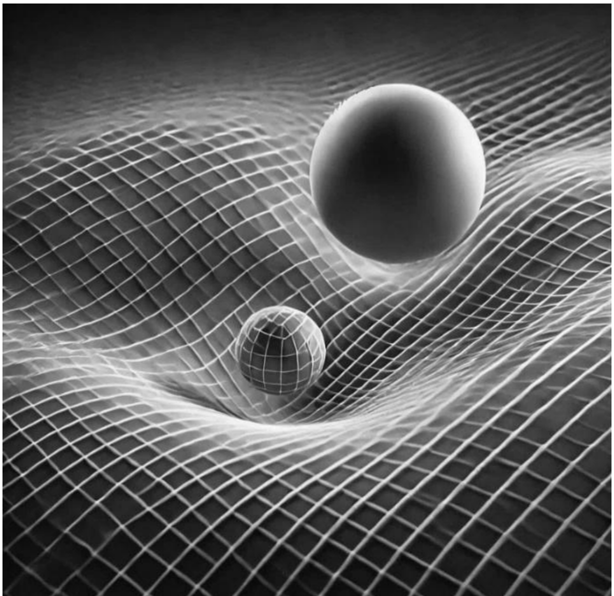

الموجات الثقاليّة (Gravitational Waves)

4. الموجاتُ الثقاليّة تموّجاتٌ في نسيج الزمكان، تُسبّبها أحداثٌ كونيّةٌ عنيفة مثل اندماج الثقوب السوداء أو تصادم النجوم النيوترونيّة.

تنبّأ بوجودها أينشتاين في نظريّة النسبيّة العامّة، وتنتشر بسرعة الضوء، فتقوم بتمطيط الزمكان وانضغاطه أثناء مرورها.

أدّى رصدُ هذه الموجات غير المرئيّة – لأوّل مرّة بواسطة مرصديّ LIGO عام 2015 – إلى فتح نافذةٍ جديدةٍ لمراقبة الكون ودراسته.

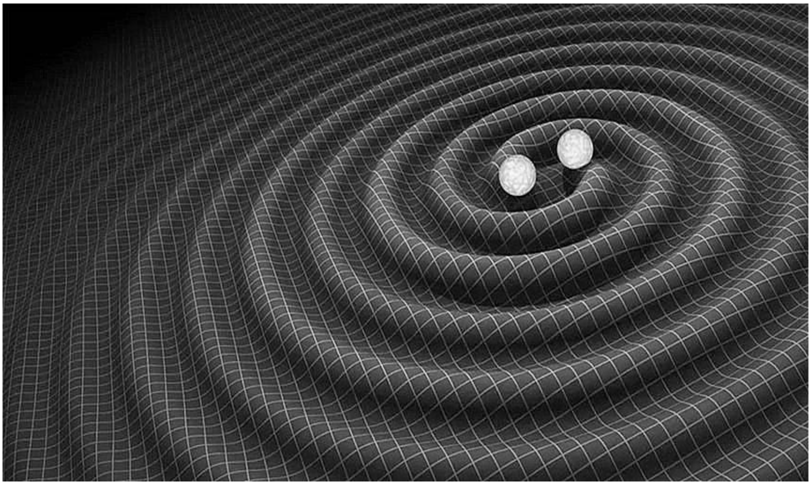

5. "محور الشر" الكوني(Axis of Evil)

يستخدم مصطلح "محور الشر" للإشارة إلى الشذوذ في الملاحظات الفلكية لإشعاع الخلفية الكونية الميكروي ((CMB، ويبدو أن هذا الشذوذ يعطي – مستوى المجموعة الشمسية وبالتالي موقع الأرض – أهميةً أكبر مما قد يكون متوقعًا، وهي نتيجة يبدو أنها تتعارض مع توقعات مبدأ كوبرنيكوس. يقدم إشعاع الخلفية

الكونية الميكروي رؤية مباشرة واسعة النطاق للكون يمكن استخدامها لتحديد ما إذا كان لموقعنا أو حركتنا أي أهمية خاصة. حظيت تحليلات نتائج مسبار ويلكينسون لقياس التباين الميكروي ومرصد بلانك بشهرة إعلامية واسعة؛ إذ أظهر كلًا منهما تباين الخواص المتوقع وغير المتوقع لإشعاع الخلفية الكونية الميكروي .تتوافق حركة النظام الشمسي واتجاه مستوى المسار الشمسي مع سمات سماء الموجات الميكروية التي تنتج –في التفكير الاعتيادي– عن وجود بنية على حافة الكون المرئي .على وجه التحديد، فيما يتعلق بمستوى مسار الشمس، يكون «النصف العلوي» من إشعاع الخلفية الكونية الميكروي أبرد قليلًا من النصف السفلي. إضافةً إلى ذلك، فإن المحاور رباعي وثماني الأقطاب ليست سوى على بعد بضع درجات، وتتماشى هذه المحاور مع الانقسام العلوي/ السفلي :اقتُبِسَ عن لورانس كراوس في مقال نشر في عام 2006 على موقع إيدج ما يلي:

"لكن عندما تنظر إلى خريطة إشعاع الخلفية الكونية الميكروي، سترى أيضًا أن البنية التي يتم ملاحظتها، هي في الواقع مرتبطة بطريقة غريبة بمستوى الأرض حول الشمس. هل يعود كوبرنيكوس ليطاردنا؟ هذا جنون. نحن نبحث في الكون كله. لا ينبغي أن يكون هناك أي ارتباط بنيوي لحركة الأرض حول الشمس – مستوى الأرض حول الشمس–. هذا سيقول إننا حقًا مركز الكون."

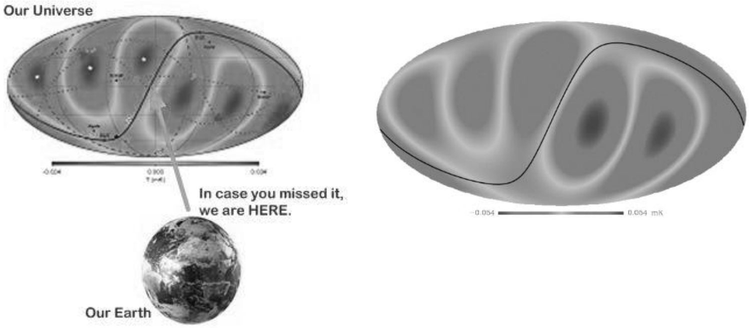

لورانس كراوس: "لكن عندما تنظر إلى خريطة إشعاع الخلفية الكونية الميكروي، سترى أيضًا أن البنية التي يتم ملاحظتها، هي في الواقع مرتبطة بطريقة غريبة بمستوى الأرض حول الشمس. هل يعود كوبرنيكوس ليطاردنا؟ هذا جنون. نحن نبحث في الكون كله. لا ينبغي أن يكون هناك أي ارتباط بنيوي لحركة الأرض حول الشمس – مستوى الأرض حول الشمس–. هذا سيقول إننا حقًا مركز الكون."

تفسيرات مطروحة:

1. مصادفة إحصائيّة نادرة:
التفسير الذي يميل إليه كثيرٌ من الكوسمولوجيّين: احتمال ضئيل لكن غير مستحيل، خصوصًا أنّ بقيّة البيانات الكونيّة تدعم النموذج القياسي بقوّة.
2. عيوب رصد أو معالجة بيانات:
قد تكون هناك آثارٌ متبقّية من مجرّتنا أو أخطاء منهجيّة في فصل «الضوضاء» الأماميّة عن إشعاع الخلفية، فتخلق نمطًا زائفًا للمحاذاة.
3. فيزياء جديدة:
لو ثبت أنّ هذه المحاذاة حقيقيّة عميقة، فقد تعني أنّ الكون ليس متطابق الخواص تمامًا على أكبر المقاييس، أو أنّ هناك بنيةً كونيّةً واسعة النطاق (مجال مغناطيسي كوني، دوران للكون، إلخ). لكن حتى الآن تبقى هذه الاحتمالات في حيّز الفرض.

حتى اللحظة، يظلّ «محور الشر» لغزًا إحصائيًّا مثيرًا، لا يكفي وحده لإسقاط النموذج الكونيّ القياسي، لكنه يذكّرنا بتواضع معرفتنا وفجوات فهمنا للبُنى الكونيّة الأكبر.

لورانس كراوس: "لكن عندما تنظر إلى خريطة إشعاع الخلفية الكونية الميكروي، سترى أيضًا أن البنية التي يتم ملاحظتها، هي في الواقع مرتبطة بطريقة غريبة بمستوى الأرض حول الشمس. هل يعود كوبرنيكوس ليطاردنا؟ هذا جنون. نحن نبحث في الكون كله. لا ينبغي أن يكون هناك أي ارتباط بنيوي لحركة الأرض حول الشمس – مستوى الأرض حول الشمس–. هذا سيقول إننا حقًا مركز

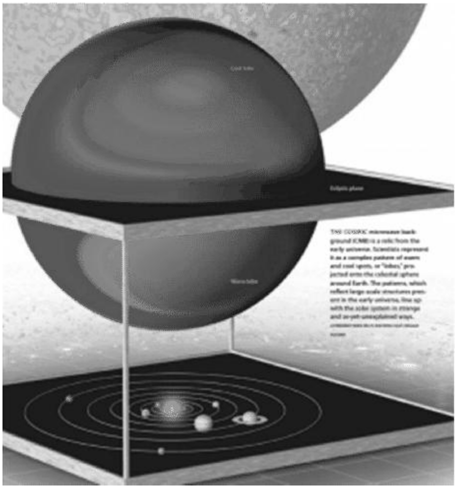

6. مفهوم «الواحد» و«الوحدة» – ومفهوم «المساواة» في الفيزياء

أوّلًا: "الواحد" و"الوحدة"

في الرياضيات والفيزياء، «الواحد» ليس مجرد رقم، بل بنية مرجعيّة:

الواحد كمُعرِّف للضرب:(Multiplicative Identity)
أيّ كميّة تُضرَب في 1 تبقى كما هي؛ لذلك يُسمّى 1 "وِحدة" (Unity) وغالبًا ما يُستَخدم لترميز الكلّ أو الإشباع أو المعيار

الوَحَدة في ميكانيكا الكمّ:(Unitarity)
من مسلّمات ميكانيكا الكمّ أن مجموع احتمالات كلّ النتائج الممكنة لقياسٍ معيّن يجب أن يساوي 1 بالضبط. هذه الوحدة تضمن حفظ الاحتمال عبر تطوّر الزمن، أي أنّ الكون لا «يفقد» احتمالاته ولا «يكتسبها» من خارِج النظام

الوحدات الطبيعيّة:($c = 1$, $\hbar = 1$)
في فيزياء الجسيمات والكون المبكّر، يُختار نظام وحدات تُضبَط فيه ثوابت

أساسيّة – مثل سرعة الضوء c وثابت بلانك المخفَّض – ħ لتساوي 1. هذا يجعل المعادلات أنظف، ويبيّن أنّ ما يهمّ حقًّا هو النِّسَب والعلاقات، لا الأرقام الخام.

من الواحد الرياضي إلى «الوحدة» الفلسفيّة:

الفكرة القديمة الكلّ واحد (Monism)تجد صدًى في بعض قراءات الفيزياء الحديثة:

الترابط الكمّي :يوحي – مجازيًّا على الأقل – بأنّ أجزاء الكون ليست منفصلة بالكامل، بل تنتمي إلى حالةٍ كليّة متشابكة.

السعي إلى نظريّة كلّ شيء :(TOE) البحث عن إطار يوحِّد القوى الأربع الأساسيّة في معادلة واحدة هو تعبير فيزيائي عن توقٍ عميق إلى «وحدة» القوانين والواقع.

7. الترابط الكمّي واللا–محليّة (Entanglement & Nonlocality)

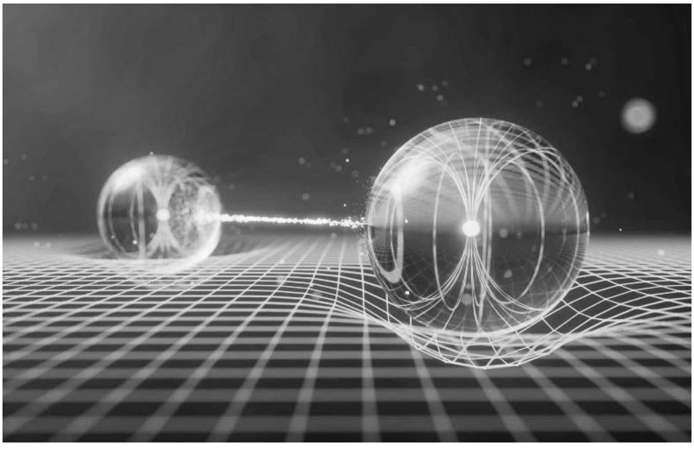

اللا–محليّة هي النتيجة التجريبيّة المترتّبة على الترابط، والتي تُظهِر أنّ الارتباطات بين القياسات لا يمكن تفسيرها وفق تصوّر "الواقعيّة المحليّة" الكلاسيكيّة (**Local Realism**)

مع ذلك، لا يمكن استغلال هذه اللا–محليّة لنقل معلومة أسرع من الضوء؛ إذ تبقى نتائج القياس فرديًّا عشوائيّة، ولا يظهر "النمط" إلا عند مقارنة بيانات الطرفين لاحقًا.

8. نماذج الوعي كحقل كونيّ أو واقعٍ أساسي

(**Consciousness as Fundamental Field**)

هناك طيفٌ من الرؤى الفلسفيّة–العلميّة يقترح أنّ الوعي ليس مجرّد "منتَج ثانويّ" لنشاط الدماغ، بل جانبٌ أساسيّ من نسيج الوجود نفسه، والدماغ يعمل كمستقبِل أو مُرشِّح، لا كخَالِق للوعي.

الفكرة المركزيّة :الدماغ كمستقبِل:(**Receiver**)
بدلاً من أن "يُنتِج" الوعي، يقوم الدماغ بـ "التقاطه" أو "تعديله"، كما تستقبلُ أجهزةُ الراديو الإشارة من برج بثّ.

استقلاليّة الوعي عن المادّة:
وفق هذا الطرح يمكن للوعي (أو مستوى ما منه) أن يوجد مستقلًّا عن الدماغ والجسم، وهذا يَصطدم بالرؤية المادّيّة الصرفة التي ترى أن العقل هو ذاته الدماغ **mind = brain**

الارتباط بالفيزياء الكمّيّة:
يُستعان أحيانًا بتشبيهاتٍ من التشابك الكمّي واللا–محليّة لتصوّر "ترابطٍ كونيّ" للوعي، إذ يبدو الكون، على المستوى الأعمق، أقلّ "تجزّؤًا" ممّا توحي به المسافات الكلاسيكيّة.

الوعي كواقعٍ أساس:
في بعض النماذج، يُعَدّ الوعي أكثرَ جوهريّة من المادّة والزمكان؛ فينشأ الكون الفيزيائيّ من الوعي، لا العكس.

نماذج مطروحة:

نظرية الاختزال الموضوعي المنظَّم – (Orch–OR) بنروز/هامِروف:
تفترض وجود عمليّات كمّيّة في الميكروتيبيلات العصبيّة تشارك في نشوء الخبرة الواعية.

النموذج الهولوغرافي:(Pribram & Bohm) –
يقترح أنّ الدماغ يتعامل مع معلوماتٍ صادرة عن "واقعٍ هولوغرافيّ" لا محليّ، وأنّ الوعي جزء من مجالٍ أوسع.

المثاليّة التحليليّة:(Bernardo Kastrup) –
ترى أنّ الوعي الكونيّ هو "الجوهر الأوّل"، وأنّ العقول الفرديّة ليست سوى "تخصّصات" أو "انفصالات" محلّيّة داخل هذا الوعي الواحد.

بانسايكِيّة:(Panpsychism)

منظورٌ فلسفيّ يعتبر أنّ "بذور الخبرة" موجودة بدرجاتٍ بدائيّة في اللبنات الأساسيّة للوجود (الجسيمات، الحقول)، وتتراكب وتتجمّع لتكوِّن الوعي المعقّد عند الكائنات الحيّة.

9. الثوابت الفيزيائية: هي قيم أساسية لا تتغير تحدد قوانين الكون وبنيته (مثل سرعة الضوء c، ثابت بلانك h، الجاذبية G)، وهي ترتبط بـ" التصميم الدقيق "أو" التوافق الدقيق للكون، حيث أن أي تغيير طفيف فيها يمنع وجود الحياة المعقدة أو النجوم والمجرات كما نعرفها، مما يشير إلى "بنية واقع مسموح به (Fine-tuned Reality) " يسمح للكون بأن يكون قابلاً للسكن، وتلعب هذه الثوابت دور مفتاح لفهم النظام الكوني العميق وانسجامه المذهل.

الثوابت الفيزيائية الأساسية وأهميتها

- الثوابت الكونية الستة (حسب مارتن ريس):
  - N: نسبة القوة الكهرومغناطيسية للجاذبية، تحدد حجم النجوم واستمراريتها.
  - ε) إبسيلون :(كفاءة الاندماج النووي، ضرورية لتكوين العناصر الثقيلة.
  - Ω) أوميجا :(معامل كثافة الكون، يؤثر على تمدده ومصيره.
  - Λ) لامدا :(الثابت الكوني (الطاقة المظلمة)، يحدد تسارع تمدد الكون.
  - Q: نسبة طاقة الجاذبية اللازمة لتكوين المجرات، تؤثر على تشكل النجوم.
  - D: عدد الأبعاد المكانية (3 أبعاد)، ضروري لوجود الحياة.
- ثوابت أخرى هامة:
  - c) سرعة الضوء :(الحد الأقصى للسرعة في الكون.
  - h) ثابت بلانك :(يربط الطاقة بالتردد في عالم الكم.
  - G) ثابت الجاذبية :(يحدد قوة الجاذبية بين الأجسام.
  - π(باي) و e: ثوابت رياضية تظهر في قوانين الدورة والنمو .

بنية الواقع المسموح به (**Fine-Tuned Reality**)

- يشير هذا المفهوم إلى أن قيم الثوابت الكونية مضبوطة بدقة متناهية، فلو اختلفت قليلاً، لما وجدنا كوناً يمكن أن تتطور فيه الحياة.
- هذه "الضبط" يثير تساؤلات فلسفية حول ما إذا كان الكون مصمماً، أو أنه مجرد احتمال واحد من بين أكوان متعددة.(**Multiverse Theory**)
- تُستخدم هذه الثوابت كـ "نوتات أساسية" في "سيمفونية الوجود" التي تنسج قوانين الطبيعة وتحدد حدود الواقع القابل للسكن، كما يصفها .

هل الثوابت تتغير؟

- أفضل القياسات الحالية تشير إلى أن هذه الثوابت ثابتة بالفعل ولا تتغير عبر الزمن، رغم أن بعض الأبحاث تدرس احتمالية تغيرها البسيط جداً (جزء من 10^10 إلى 10^11 سنويًا)، حتى الآن لا يوجد دليل على ذلك .

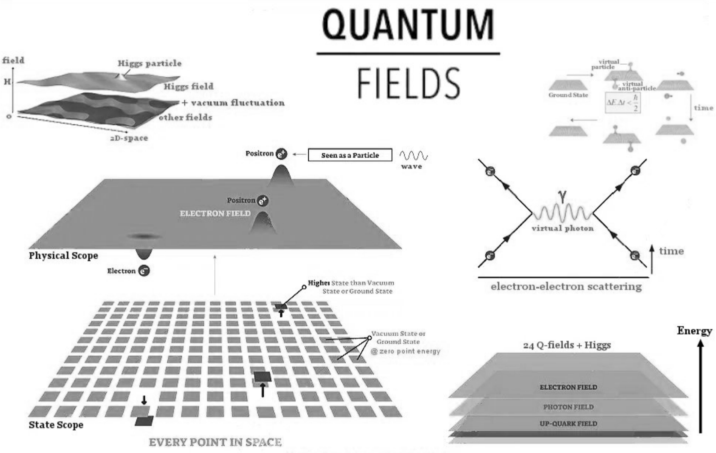

2-D Quantum Fields

Hierarchy of Fine-Structure Constants

Constants of Standard Models of particle physics and cosmology, taken from Reference [8]. Note that the electric, weak and strong coupling constants indicated are different from the low-energy definitions of Eqs. (2.1), (2.5), and (2.6).

Quantity	Symbol	Value in our universe
Speed of light	c	$299{,}792{,}458\ \mathrm{m\ s^{-1}}$
Gravitational constant	G	$6.673 \times 10^{-11}\ \mathrm{m^3\ kg^{-1}\ s^{-2}}$
(Reduced) Planck constant	$\hbar$	$1.05457148 \times 10^{-34}\ \mathrm{m^2\ kg\ s^{-1}}$
Planck mass-energy	$m_{Pl} = \sqrt{\hbar c/G}$	1.2209×10^{22} MeV
Mass of electron; proton; neutron	$m_e; m_p; m_n$	0.511; 938.3; 939.6 MeV
Mass of up; down; strange quark	$m_u; m_d; m_s$	(Approx.) 2.4; 4.8; 104 MeV
Ratio of electron to proton mass	β	$(1836.15)^{-1}$
Gravitational coupling constant	$\alpha_G = m_p^2/m_{Pl}^2$	5.9×10^{-39}
Hypercharge coupling constant	α_1	1/98.4
Weak coupling constant	α_2	1/29.6
Strong force coupling constant	$\alpha_s = \alpha_3$	0.1187
Fine structure constant	$\alpha = \frac{\alpha_1\alpha_2}{\alpha_1+\alpha_2}$	1/127.9 (1/137 at low energy)
Higgs vacuum expectation value	v	246.2 GeV
QCD scale	Λ_{QCD}	≈ 200 MeV
Yukawa couplings	$\Gamma_i = \sqrt{2}m_i/v$	Listed in [82]
Hubble constant	H	71 km/s/Mpc (today)
Cosmological constant (energy density)	$\Lambda\ (\rho_\Lambda)$	$\rho_\Lambda = (2.3 \times 10^{-3} eV)^4$
Amplitude of primordial fluctuations	Q	2×10^{-5}
Total matter mass per photon	ξ	≈ 4 eV
Baryonic mass per photon	ξ_{baryon}	≈ 0.61 eV

Astrophysical Data

1 astronomical unit	AU	1.496×10^{11} m
1 parsec	pc	3.086×10^{16} m
Luminosity of Sun	$L_\odot$	3.85×10^{26} W
Mass of Sun	$M_\odot$	1.989×10^{30} kg
Radius of Sun	$R_\odot$	6.96×10^{8} m
Mass of Earth	M_E	5.9742×10^{24} kg
Radius of Earth	R_E	6.3781×10^{6} m

Other data and conversion factors

1 ångstrom	Å	10^{-10} m
1 fermi	fm	10^{-15} m
1 barn	b	10^{-28} m^2
1 pascal	Pa	1 Nm^{-2}
1 standard atmosphere		1.0132×10^{5} Pa
Standard acceleration due to gravity	g	9.807 m s^{-2}
1 electron volt	eV	1.6022×10^{-19} J
	eV$/hc$	8.065×10^{5} m^{-1}
	eV$/k_B$	1.1604×10^{4} K
Wavelength of 1 eV photon		1.2399×10^{-6} m

Trigonometrical identities

$$\sin(\theta+\phi) = \sin(\theta)\cos(\phi) + \cos(\theta)\sin(\phi)$$
$$\cos(\theta+\phi) = \cos(\theta)\cos(\phi) - \sin(\theta)\sin(\phi)$$
$$\sin\alpha + \sin\beta = 2\sin\tfrac{1}{2}(\alpha+\beta)\cos\tfrac{1}{2}(\alpha-\beta)$$
$$\cos\alpha + \cos\beta = 2\cos\tfrac{1}{2}(\alpha+\beta)\cos\tfrac{1}{2}(\alpha-\beta)$$
$$\cos\alpha - \cos\beta = 2\sin\tfrac{1}{2}(\alpha+\beta)\sin\tfrac{1}{2}(\beta-\alpha)$$

In a triangle ABC, $a/\sin A = b/\sin B = c/\sin C$
and $a^2 = b^2 + c^2 - 2bc\cos A$

Prefixes

T = tera = 10^{12}	c = centi = 10^{-2}
G = giga = 10^{9}	m = milli = 10^{-3}
M = mega = 10^{6}	μ = micro = 10^{-6}
k = kilo = 10^{3}	n = nano = 10^{-9}
	p = pico = 10^{-12}
	f = femto = 10^{-15}

Conceptual Map: Equilibrium Ethics

```
                  [ MORAL REALITY ]
                          |
                          |
          ----------------------------------
          |                                 |
  [ Moral Absolutism ]             [ Moral Relativism ]
    Rigid Rules                       Unlimited Flexibility
    Context Ignored                   No Anchors
    Mechanical Justice                No Accountability
          |                                 |
          ----------- FRACTURE -------------
                          |
                          |
                  [ EQUILIBRIUM ]
             (Dynamic Moral Calibration)
                          |
          ----------------------------------
          |               |                |
   [ Human Limits ]  [ Social Context ]  [ Long-Term Impact ]
    Biology             Culture             Future Stability
    Psychology          History              Ecology
                          |
                          |
                 [ ETHICAL ACTION ]
            (Balance Preserved Across Scales)
```

inside
rain
sad
I cry
recall
love
sun
crazy
myself
was
lonely
the beach
mind
joy
memory
I have
depression
feel
perhaps
yesterday

الثَّابِتْ والمُتَحَوِّل

الشكل، الوظيفـة، الطبيـعة

التـوازن الديـناميكي ومصيـر الإنسـان

زياد عبد الوهاب خليفة

هارتفوردشاير 2025

حقوق النشر

ARWAD PUBLISHING

حقوق النشر © 2025 جميع الحقوق محفوظة للمؤلف زياد عبد الوهاب خليفة (المؤلف) ودار أرواد للنشر (الناشر) . لا يجوز إعادة إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال دون إذن كتابي صريح من الناشر، باستثناء استخدام اقتباسات موجزة كمرجعية في كتاب.

طبع في المملكة المتحدة

الطبعة الأولى، 2025

ISBN 9781806056163

Arwad Publishing

6 Folly View, Stanstead Abbotts, Hertfordshire

SG12 8AX – United Kingdom

Ziad.a.khalifeh @gmail.com

الإهداء

إلى

لونا وآشتون كوري

إلى

سارة وجون

أرواد وبيتر

نور وفلاديمير

المحتويات

الإهداء	275
المقدمة	281
الجزء الأول —— المبادئ	283
الفصل الأول: الثابت والمتحوّل تعريف	283
الفصل الثاني: الشكل، الوظيفة، والتوازن الديناميكي	288
الجزء الثاني —— الطبيعة والحياة	291
الفصل الثالث: علم الأحياء —— التطور كتغيير شكل يحافظ على الوظيفة	291
الفصل الرابع: عندما يتجاوز الشكل الوظيفة التكنولوجيا تسرع الشكل بما يتجاوز محدودية البيولوجيا	295
الجزء الثالث —— التدخل البشري	299
الفصل الخامس: المتغيرات الصناعية	299
الفصل السادس: هل يمكن للوظيفة البشرية التكيف؟	304
الجزء الرابع – رسم ملامح عصرنا	309
الفصل السابع: الارتباك الكبير	309
الجزء الخامس —— المجتمع والسلطة	321
الفصل الثامن: الأشكال الاجتماعية —— الرأسمالية والاشتراكية	321
الفصل التاسع: حالة الكوكب	326
الجزء السادس —— الميتافيزيقا والوعي	331
الفصل العاشر: الفيزياء، الميتافيزيقا، والثابت	331

الفصل الحادي عشر: الوعي، الشكل، والمعنى 335

الجزء السابع —— الثنائية، الحرية، واللاهوت 339

الفصل الثاني عشر: الإرادة الحرة – وحدة الوجود 339

الفصل الثالث عشر: الإرادة الحرة بدون قوة خامسة 344

الجزء الثامن —— الأخلاق 349

الفصل الرابع عشر: أخلاقيات الثابت والمتغير 349

مسرد المصطلحات 447

المقدمة

يشهد عالمنا تحولات جذرية غير مسبوقة بسرعتها على كافة المستويات البيئية والنفسية والسياسية والأخلاقية، مع كل ما تنطوي عليه هذه التغيرات من تداعيات وما خلفته من أزمات، إلا أنني على قناعة راسخة، كما يتكشف في هذا الكتاب، أن تلك الأزمات لا تعود إلى التغيير ذاته، بل إلى ارتباك عميق في قدرة إنسان الحداثة على التمييز بين ما ينبغي أن يبقى ثابتاً وما هو بطبيعته متغيراً، بكلمات أخرى، التمييز بين الثابت والمتحول.

يمثل "الثابت" الشروط غير القابلة للتفاوض، أو البنية الأساسية التي تضمن جوهر الأشياء وتماسكها: كالثوابت الفيزيائية للكون، والوظائف البيولوجية الأساسية التي تشكل الحياة وتضمن استمراريتها، والضرورات الأخلاقية والوجدانية التي تحفظ الكرامة والثقة، وشبكة المتطلبات الهيكلية لأي مجتمع قابل للاستمرار. هذه ليست مجرد مفاهيم قديمة يمكن التخلي عنها، بل هي الأساس الذي يشاد عليه المبنى بتعقيداته ويضفي المعنى على هذا الوجود. أما "المتحول"، فيشمل النطاق الواسع للأشكال والتعبيرات والتقنيات والبُنى الاجتماعية التي تتحقق من خلالها غايات تلك الوظائف الثابتة. المتحول هو مجال التطور، والابتكار والتقدم وازدهار الثقافات.

تكمن خطورة عصرنا في الخلط بين الأشكال العابرة والحقائق الأبدية، فنتمسك أحيانًا بما هو متغير حتى يصبح عديم الفاعلية، بينما نتعامل مع الثوابت الحقيقية—مثل حدود النظام البيئي للكوكب، وبطء تكيف سيكولوجيا النفس البشرية مع المستجدات، ومتطلبات التماسك الاجتماعي—وكأنها متغيرات يمكن هندستها أو تجاهلها بحجة التقدم. وعندما يتجاوز معدل التغير في محيطنا قدرتنا على دمجه ضمن إطار "الثابت"، يتزعزع استقرار الأنظمة، وهذه هي سمة عالمنا المعاصر.

يستعرض هذا العمل مجالات متعددة، من الفيزياء وعلم الأحياء إلى الاقتصاد والميتافيزيقا والأخلاق، في محاولة لاستعادة هذا التمييز الجوهري. ويؤكد أن الحكمة، سواء على المستوى الفردي أو الحضاري، هي فن تحقيق التوازن الديناميكي: أي المواءمة الواعية والمستمرة بين مساعينا المتغيرة وبنيتنا الثابتة التي تمنح تلك المساعي قيمتها. فالحرية ليست هروبًا من القيود، بل هي "انفتاح منظم" للإبداع في ظلها. أما التقدم، فليس استبدالًا لا نهائيًا للقديم، بل هو الحفاظ على الوظائف الأساسية من خلال أشكال متطورة.

لا يدعو هذا التحليل إلى الجمود أو إلى الانزواء حنيناً إلى الماضي، بل هو دعوة إلى التمييز والتخطيط الذكي. يهدف إلى تقديم بوصلة مفاهيمية لعصر تائه، ويمنح الأمل بأننا من خلال فهم "الثابت"، نستطيع توجيه "المتحول" نحو هدف ومسؤولية وفرصة متجددة للوئام.

يتجنب هذا العمل إصدار أحكام قاطعة في أكثر المسائل الأخلاقية إثارة للجدل في عصرنا الحالي. وليس ذلك تهربًا من المسؤولية، بل إقرارًا بأهمية هذه القضايا. فالأحكام التي تُصدر دون دراسة وافية غالبًا ما تكرس الخطأ في صورة يقين، بينما تتطلب البصيرة الأخلاقية الحقيقية الصبر والاتزان وإدراك العواقب. وبدلًا من إملاء ما يجب على القارئ استنتاجه، يسعى الكتاب إلى تسليط الضوء على مواطن التوتر، وكيفية تشكل الاختلالات، ولماذا يقوّض التطرف—سواء كان صارماً أو متساهلاً—أهدافه. فالأخلاق، كما يتناولها هذا العمل، ليست محكمة تصدر أحكامًا نهائية، بل هي ممارسة دقيقة للقسطاس، مع مراعاة الحدود، وتحمل المسؤولية أمام هشاشة الإنسان، والوعي بأن الحكمة لا تنبع من السرعة، بل من التوازن.

زياد خليفة

الجزء الأول – المبادئ

الفصل الأول: الثابت والمتحوّل

كل نظام قائم، سواء كان خلية حية، أو غابة، أو حضارة أو عقلًا بشريًا، يخضع لواقع أساسي وقواعد راسخة: هناك عناصر ثابتة لا تتغير ولا ينبغي المساس بها، بينما يمكن السماح لعناصر أخرى بالتغيّر. إن إهمال هذا التمييز يؤدي إلى الانهيار؛ فالحضارات التي تتجاهله تنهار إما في فوضى أو في جمود، والأنظمة البيئية التي تخرقه تنهار، والعقول التي تعجز عن إدراكه تستسلم للضياع. لهذا السبب، يبدأ هذا الكتاب بأهم خريطة: الحد الفاصل بين ما هو باق ولا يجوز المساس به، وما يمكن أن يتحوّل ويتغير.

1. مسألة المتحوّل

المتحوّل هو السمة الأبرز للوجود. الأشكال تنشأ باستمرار، وتتحوّل، وتتلاشى، وتختفي. اللغات تتغير، والأنظمة السياسية تنهض وتسقط، والتقنيات تتطور بسرعة، والبنى البيولوجية تتكيف مع الضغوط الجديدة. يبدو الواقع، ظاهريًا، كتدفق متواصل من التغيرات، كنهر بلا ضفاف ثابتة. لكن تحت هذا التيار الجارف، تكمن حقيقة أعمق وأكثر هدوءً: ليس كل شيء متغيّر، فبعض البنى والوظائف والقيود تبقى ثابتة عبر الزمان والمكان والسياق، إنها عميقة كمجرى قاع النهر، نادرًا ما يُرى، لكنه يحدد مسار الماء نفسه. هذه الثوابت لا تعلن عن نفسها بصوت عالٍ، بل هي الظروف الصامتة التي تجعل التغيير مفهومًا وقابلًا للتحمّل وذا معنى. إن عدم التمييز بين ما يجب أن يبقى ثابتًا وما يمكن أن يتغير ليس مجرد سهو فلسفي بلا عواقب، بل هو أصل أعمق أزماتنا: الارتباك الأخلاقي، وعدم الاستقرار الاجتماعي، والتوسع التكنولوجي المفرط، والضياع الوجودي الشامل.

2. تعريف "الثابت"

للتغلب على هذه الإشكالية، علينا أولًا فهم طبيعة "الثابت". يشير مصطلح "الثابت" إلى الأشياء التي تحكمها قوانين الطبيعة والثوابت الكونية الأساسية التي لا تتغير أبدًا، وفقاً لحدود معارفنا الحالية، لا بل هذه العناصر هي نتاج بنيوي لقوانين الطبيعة وثوابتها، تدخل في تكوين الواقع وتمثل الشروط الضرورية لوجود أي نظام وتماسكه. إنها الشروط غير القابلة للتفاوض، فبالإضافة إلى قوانين الطبيعة، فهي تشمل الضرورات الوظيفية، والقيود الهيكلية، والمبادئ الدالة. في الأنظمة الحيّة،

يظهر "الثابت" كوظائف بيولوجية جوهرية: البقاء، والتماسك الداخلي، والتكاثر، والتوازن البيئي. في المجتمعات البشرية، يتجلى كركيزة أساسية للكرامة الإنسانية، والحاجة إلى المعنى، واستمرارية الهوية، والحدود الأخلاقية التي تحافظ على النسيج الاجتماعي. أما في الكون المادي، فهي قوانين وثوابت الحفظ التي تجعل المادة والطاقة متماسكتين. "الثابت" جامداً في جوهرة لكنة متعدد ومتغير في مظهره، إذ يمكن التعبير عنه بطرق لا حصر لها، لكنه مستقر في دوره الأساسي. إنه المرساة التي تسمح للسفينة تجاوز العاصفة، ليس بمقاومة الحركة، بل بتوفير مركز ثقل.

3. تعريف "المتحوّل"

في المقابل، لدينا عالم المتغيرات. يشمل "المتحول" جميع الأشكال والأنظمة والتعبيرات والتكوينات والترتيبات التي يجد "الثابت" من خلالها تجسداً وتعبيراً في العالم. قد تتطور الأشكال، وتتنوع، وتتسارع، وتهجّن، أو تنهار. التباين ليس عيبًا أو تهديدًا للواقع، بل هو أسلوب تعبير الواقع عن حركته، ولغته الإبداعية والتكيفية. يمكن لوظيفة واحدة، كالحركة، أن تنتج تنوعًا مذهلًا من الأشكال: الزعانف، والأجنحة، والأرجل، والعجلات، والطائرات. مع ذلك، يصبح التباين مَرَضيًا، بل ومدمرًا، عندما ينفصل عن الوظائف التي ابتُكر لأجلها. العجلة التي لا تدور، أو المؤسسة الاجتماعية التي تقوض الثقة التي بُنيت لتعزيزها، هي "شكل" في حالة حرب مع "غايته". الأشكال موجودة من أجل الوظائف، وليس العكس.

4. " الوظيفة ثابت"، و"الشكل متحوّل"

يقودنا هذا إلى البديهية المركزية للكتاب: الوظيفة ثابتة، والشكل متغير. قد يغير نوع ما سماته الجسدية، أي شكله، على مر آلاف السنين، لكنه يفعل ذلك حصريًا للحفاظ على ثوابت قدرته الوظيفية البيولوجية على البقاء في بيئة متغيرة. وقد يعيد مجتمع ما تنظيم مؤسساته، أي أنظمة الحكم أو الاقتصاد، ولكن فقط لتحسين استدامة الوظائف الإنسانية المتمثلة في المعنى والثقة والازدهار الجماعي. وقد يتبنى عقل ما رموزًا أو تقنيات أو هويات اجتماعية جديدة، ولكن فقط بقدر ما يحافظ على تماسكه النفسي وقدرته على خوض تجارب أصيلة. عندما تتطور الأشكال في حوار متناغم مع وظائفها الأساسية، تزدهر الأنظمة بالمرونة والإبداع. أما إذا تطورت الأشكال بوتيرة أسرع مما تستطيع الوظيفة استيعابه، أو في اتجاهات تقوض الوظيفة، تنهار الأنظمة. هذه ليست أيديولوجية محافظة أو رثاءً رومانسيًا، بل هي بيان للواقع البنيوي، يمكن ملاحظته في نظام بيئي ينهار تحت وطأة وباء الإرهاق.

5. حروب الثقافة المعاصرة

غالبًا ما تندلع حروب الثقافة المعاصرة تحديدًا عند نقطة التقاء الواقع الإنساني الحي بين مجالين في آن واحد. مثالاً على ذلك المسائل المتعلقة بالهوية الجندرية، مثل المشاركة في الرياضات التنافسية أو تصميم دورات المياه وغرف تغيير الملابس، فهذه ليست مجرد نزاعات أخلاقية، بل نزاعات حدودية أيضًا: ما الذي ينتمي إلى البيولوجيا "الثابت"، وما الذي ينتمي إلى التكيف الاجتماعي "المتحول"، وما الذي ينتمي إلى السلامة العامة والعدالة "التوازن". من هذا المنطلق، لا يكمن الهدف في إصدار حكم قاطع، بل في التساؤل: ما هي الجوانب الثابتة حقًا، وما هي الجوانب القابلة للتفاوض، وما هو التوازن الذي يقلل الضرر مع الحفاظ على الكرامة؟ ويُعد التمييز بين ادعاءات الهوية وادعاءات الموارد والمخاطر اختبارًا مفيدًا. فالهوية غالبًا ما تكون ذاتية وشخصية؛ لكن الرياضة والسجون والملاجئ والمسارات الطبية وحماية الأطفال تنطوي على مقايضات وحوافز وعتبات قابلة للقياس. يصبح سؤال التوازن ذا أهمية عملية: ما هو الترتيب الذي يقلل من الضرر الذي يمكن تجنبه، ويحد من الاستغلال، ويحافظ على إنسانيته تجاه الأقليات، دون التظاهر بأن صيغة واحدة قادرة على تلبية جميع الظروف؟

6." الوتيرة": البُعد المنسي

"الوتيرة" التي يتخذها "المتحول" هي عنصر بالغ الأهمية وغالبًا ما يُغفل عنه في هذه العلاقة. فالتغيير في حد ذاته ليس أمرًا خطيرًا بطبيعته؛ بل هو محرك الحياة. أما التسارع، فهو القوة التي تزعزع الاستقرار. كل نظام متكامل يمتلك وتيرة طبيعية للتكيّف، وهي وتيرة تسمح لأشكاله بالتغير دون أن تؤثر على وظائفه الأساسية. فالتطور البيولوجي يحدث ببطء شديد عبر الأجيال، بينما يتسارع التطور الثقافي عبر قرون أو عقود. أما التطور التكنولوجي في عصرنا الحالي، فيحدث خلال سنوات أو أشهر أو حتى أيام، متجاوزًا بذلك وتيرة التغير البيولوجي والثقافي. وعندما تتجاوز وتيرة تغير الشكل القدرة التكيفية للوظيفة الأساسية، يدخل النظام في حالة من عدم التوازن العميق. وتظهر أعراض هذا الخلل في كل مجال: في القلق والتشتت الفردي، وفي الاغتراب والاستقطاب الاجتماعي، وفي الاستنزاف البيئي، وفي الارتباك الأخلاقي الواسع النطاق. لا يفشل النظام لأنه يقاوم التغيير، بل لأنه يُجبر على التغيير بسرعة تفوق قدرته على الاندماج والتعلم والتعافي.

7. التوازن الديناميكي

الحالة الصحية لهذه العلاقة ليست السكون، بل التوازن الديناميكي. فالتوازن في الأنظمة الحية لا يعني الجمود، بل يحافظ الواقع على تماسكه من خلال عملية تصحيح وتوتر وإعادة ضبط مستمرة ونشطة. تمارس الإنتروبيا ضغطها الدائم نحو التشتت، وتقاوم البنية التفكك، ومن هذا التوتر الإبداعي ينبثق الإصلاح لاستعادة التماسك الوظيفي. وغالبًا ما يُساء فهم هذه العملية على أنها مجرد صراع أو تناقض، بينما هي في الحقيقة الآلية الأساسية التي يُستعاد بها التوازن باستمرار. فالتغيير والمعارضة والتركيب ليست مفاهيم أيديولوجية مجردة، بل هي استجابات منهجية ملموسة لاختلال التوازن، ووسائل يعيد بها "الثابت" تأكيد ذاته من خلال تطور "المتحول".

8. التغيير من القاعدة إلى القمة ضمن قيود من القمة إلى القاعدة

تتجلى هذه الديناميكية من خلال مبدأ معماري عالمي: التغيير من القاعدة إلى القمة ضمن قيود من القمة إلى القاعدة. ينشأ كل إبداع وتعقيد من القاعدة إلى القمة، من تفاعل الجسيمات لتكوين الذرات، والخلايا لتكوين الكائنات الحية، والأفراد لتكوين المجتمعات. مع ذلك، لا يحدث هذا الظهور الخصب في فراغ، بل هو محصور وممكن بفضل أطر ثابتة من القمة إلى القاعدة: كقوانين الفيزياء، وقيود علم الأحياء، وحدود الإدراك البشري، وحدود الضرورة الأخلاقية. يعمل الواقع كدائرة معقدة: تُوَلّد العمليات من القاعدة إلى القمة تنوعًا لا محدودًا وابتكارًا، بينما تحدد القيود من القمة إلى القاعدة المجال الممكن، ضامنةً ألا يتحول الابتكار إلى فوضى. لذا، فإن الحرية موجودة بوفرة، ولكنها لا تخرج أبدًا عن نطاق البنية الكلية. فهي نتاج تزاوج المتحوّل والثابت.

9. لماذا يُعدّ هذا التمييز مهمًا الآن؟

إن أهمية هذا التمييز اليوم مسألة بقاء. لقد دخلت الحضارة الإنسانية في وضع تاريخي فريد وهش: فالأشكال التي صنعناها – التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية – تتغير الآن بسرعة تفوق بكثير قدرة وظائفنا البيولوجية والنفسية والأخلاقية على التكيّف وإعادة التوازن. تعيد التكنولوجيا تشكيل الهوية البشرية والتفاعل بوتيرة أسرع من قدرة سيكولوجيا النفس البشرية لدينا على التكيف. وتعيد الأنظمة الاقتصادية تشكيل نسيج المجتمعات وتعمل بوتيرة أسرع من قدرة أخلاقياتنا الاجتماعية على الاستجابة. كما تتطور البيئات والإيقاعات الاصطناعية

بوتيرة أسرع مما تسمح به أنظمتنا البيولوجية المتعلقة بالساعة البيولوجية والانتباه. لذلك، لا يمثل هذا الكتاب رفضًا رجعيًا للتقدم، بل هو استقصاء ضروري لما يجب أن يحافظ عليه أي تقدم حقيقي لكي يبقى تقدمًا على الإطلاق، ولا يتحول ببساطة إلى عملية جامحة من الاغتراب والانهيار.

يهدف هذا الكتاب إلى تتبع الفرق بين "الثابت" "والمتحوّل" عبر كامل نطاق وجودنا: من خلال عدسة الطبيعة والتطور، إلى أعماق البيولوجيا البشرية والوعي، وعبر مشهد الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية، إلى دوامة التكنولوجيا والتسارع الاصطناعي، وأخيرًا إلى مجالات الأخلاق والميتافيزيقا والمعنى. سيجادل بأن البقاء – بمعناه البيولوجي والاجتماعي والوجودي الكامل – يعتمد على قدرتنا على إدراك هذا التمييز الجوهري واحترامه والتعامل معه. فالتغيير حتمي، لكن الاستمرارية ليست اختيارية، بل هي شرط أساسي لأي مستقبل نرغب في العيش فيه.

ملاحظة حول المنهج

كلمة أخيرة حول المنهج: لا يدّعي هذا الكتاب اكتشافًا علميًا جديدًا، بل يقدم إطارًا فلسفيًا – عدسة للنظر إلى العالم. يَستمد هذا المنهج بمسؤولية المصادر من مجالات العلوم والميتافيزيقا واللاهوت والتجربة الإنسانية، مع مراعاة دقيقة للحدود الفاصلة بينها. لا يهدف إلى تقديم اليقين، بل إلى الوضوح؛ ولا إلى إرساء عقيدة جامدة، بل إلى توفير توجيه موثوق للفكر في زمن يتسم بالسرعة المربكة.

الفصل الثاني: الشكل والوظيفة والتوازن الديناميكي

بعد أن أوضحت في الفصل الأول التمييز الأساسي بين الثابت والمتحول – أي بين الوظائف الدائمة وأشكالها العابرة – ينبغي لنا الآن استكشاف المبدأ الذي يحكم العلاقة بينهما. فإذا تُرك الثابت دون تغيير، فإنه يميل إلى الجمود الهش، أما المتغير فينتهي إلى الفوضى العبثية. ومع ذلك، فإن تفاعلهما لا يؤدي بالضرورة إلى الانهيار أو السكون، بل إن الجسر بينهما هو مبدأ حي وفعّال: ليس مجرد توازن بسيط، بل توازن ديناميكي.

1. التوازن ليس سكونًا

من الضروري أولًا تصحيح مفهوم خاطئ شائع: التوازن ليس سكونًا. ففي المخيلة الشعبية والسياسية، يُتصور التوازن غالبًا على أنه حالة من السكون التام – مركز ثابت، وانسجام متجمد، وحل دائم. وقد ألحق هذا الفهم الخاطئ ضررًا فكريًا وعمليًا كبيرًا، لأنه يُسيء فهم طبيعة الأنظمة السليمة. فلا يوجد كائن حي، ولا مجتمع، ولا نظام بيئي يحافظ على توازنه بالبقاء دون تغيير. النظام في حالة السكون التام ليس متوازنًا؛ بل هو خامل، ميت. تستمر الحياة لا من خلال الديمومة، بل عبر التكيف المستمر والمحسوب. إذن، يصف التوازن الديناميكي حالة من التماسك المرن أثناء الحركة: يحدث التغير دون أن يؤدي إلى انهيار هيكلي، ويوجد التوتر دون أن يؤدي إلى التفكك، ويتم استيعاب التحول دون فقدان الهوية الأساسية. لذلك، فإن التوازن الحقيقي هو حركة ضمن قيود. إنه أشبه برقصة منضبطة، لا بتمثال جامد.

2. الإنتروبيا كضغط، لا شرّ مُحتّم

غالباً ما يُساء فهم قوة الإنتروبيا كعنصر أساسي في هذا التوازن: الإنتروبيا ضغط، لا شرّ مُحتّم. كثيرًا ما تُصوَّر الإنتروبيا على أنها عدو – شبح التحلل والفوضى والانحدار الحتمي. وهذا خطأ كبير. فالإنتروبيا ليست شرًا في ذاتها؛ بل هي الضغط الكوني الذي يمارسه القانون الثاني للديناميكا الحرارية، والميل الطبيعي لجميع الأنظمة نحو التشتت وتوازن الطاقة وفقدان البنية ما لم يُبذل جهد للحفاظ على النظام. بدون الإنتروبيا، لن يكون هناك تدرج، ولا تدفق، ولا دافع للتنظيم. في الأنظمة الحية، تُعد الإنتروبيا محفزًا لا غنى عنه: فهي تُجبر على التكيف، وتدفع إلى الابتكار، وتجعل من عدم الاستقرار أساسًا للتصحيح. الإنتروبيا هي السبب في أن التوازن يجب أن يكون ديناميكيًا لا ثابتًا. إنها المحرك الدؤوب للدورة، وليست

نقيضها. لا يكمن الخطر في الإنتروبيا نفسها، بل في فشل النظام في إدارة استجابته – إما بمقاومة ضغطها كليًا أو بالانغماس فيه تمامًا.

3. التوازن الديناميكي كتصحيح مستمر

وهذا يقودنا إلى صلب الموضوع: التوازن الديناميكي هو عملية تصحيح مستمرة. فالتوازن ليس غاية نهائية يجب بلوغها والحفاظ عليها، بل هو عملية تفاوض دائمة. تحافظ الأنظمة على تماسكها وهويتها من خلال التغذية الراجعة المستمرة، والمقاومة الذكية، وإعادة المعايرة في الوقت المناسب، والإصلاح المدروس. عندما يزداد الضغط الخارجي، تستجيب الهياكل الداخلية. وإذا بالغت هذه الهياكل في التصحيح أو أصبحت جامدة، تنشأ ضغوط معاكسة بشكل طبيعي تعيد النظام إلى مركزه الوظيفي. هذه العملية التصحيحية الدائمة ليست علامة على الفشل أو الهشاشة، بل هي تعبير عن ذكاء النظام. فالنظام المستقر، من هذا المنظور، ليس هو الذي يتجنب الاضطراب، بل هو القادر على استيعاب الاضطراب، والتعلم منه، وإعادة تشكيل نفسه دون أن يفقد سلامته الوظيفية الأساسية.

4. الصراع بلا كارثة

في هذا السياق، يمكننا إعادة تفسير مفهوم الصراع بلا كارثة. ولأن التوازن الديناميكي يُحافظ عليه من خلال التوتر، فإنه يُساء فهمه غالبًا على أنه صراع مدمر بحت. لكن ليس كل معارضة حالة مَرَضية. فالقوى المتضادة – سواء في الجسد أو العقل أو الكيان السياسي – يمكن أن تؤدي أدوارًا حيوية ومستقرة: إذ تدعم الهياكل ضد الانهيار، وتكشف عن التجاوزات والغطرسة، وتظهر الحدود الطبيعية، وتمنع جمود التصلب. والخطأ الفادح في عصرنا هو التعامل مع كل معارضة على أنها شيء يجب القضاء عليه، بدلًا من اعتبارها إشارة يجب دمجها وفهمها. إنه الفرق بين تسكين الحمّى أو الاستماع إلى ما تشير إليه الحمّى بشأن حالة الجسد.

5. الجدلية المستعادة

لفهم هذه العملية التكاملية، يمكننا استعادة أداة فلسفية قوية، وإن كانت مشوهة السمعة: الجدليّة. لقد اندمج مفهوم الجدلية إلى حد كبير في سرديات أيديولوجية اختزالية، واعتُبر خطأً عقيدة حتمية تاريخية أو مخططًا للصراع الحزبي. في معناها الفلسفي الأصلي – لا سيما في أعمال هيغل – تصف الجدلية عملية تطور بنيوية، لا برنامجًا سياسيًا. عند فهم الجدلية فهمًا صحيحاً نتمكن من التعرف على الكيفية

التي يستعيد بها التوازن شروطه: إذ يولِّد تكوين مستقر (الأطروحة) ضغطًا أو تناقضًا يكشف عن حدوده (نقيض الأطروحة)، أو يواجهه؛ ومن خلال تفاعلهما، يتولّد إعادة تشكيل يحل التوتر ويعيد التماسك على مستوى أعلى من التعقيد (التوليف). هذه ليست دراما أخلاقية بين الخير والشر، بل هي آلية وصفية لكيفية تطور الأنظمة تحت الضغط.

6. الجدلية كآلية للتوازن

وبالتالي، يمكننا إعادة صياغة الجدلية كآلية للتوازن. فبعد تجريدها من الأعباء الأيديولوجية، تتطابق العملية الجدلية مباشرة مع الحفاظ على التوازن الديناميكي. يدخل النظام في حالة من عدم التوازن نتيجةً للإنتروبيا، أو التوسع المفرط، أو التوتر الداخلي. ثم تظهر كرد فعل قوى معاكسة تتحدى الشكل السائد المختل وظيفيًا. ومن خلال تفاعلها – وهو صراع لا يقل أهمية عن التكامل – ينشأ تكوين جديد أكثر مرونة، يعيد التوازن الوظيفي لفترة من الزمن. هذا التركيب الجديد ليس نهائيًا، بل يصبح ببساطة الشكل المستقر التالي – الفرضية التالية – والتي ستخضع بدورها لضغوط جديدة. في هذا السياق، يكون التوازن مؤقتًا على الدوام، والتركيب دائمًا مشروطًا، والاستقرار ليس أمرًا مفروغًا منه، بل هو شرط يُكتسب باستمرار من خلال التكيف الاستجابي.

الجزء الثاني – الطبيعة والحياة

الفصل الثالث: علم الأحياء – التطور كتغيير في الشكل يحافظ على الوظيفة

كثيراً ما يُستشهد بالعالم الطبيعي كمثالٍ بليغ على التحول المستمر، كمسرحٍ للتغيير الدائم حيث لا ينجو إلا الأكثر قدرةً علىً التكيف. إلا أن دراسةً متعمقةً لآليات التطور البيولوجي تكشف عن عمليةٍ أكثر ضبطاً وتعمداً ومحافظةً. فبينما تتنوع الحياة وتتكيف، إلا أنها لا تفعل ذلك سعياً وراء الجديد لذاته، بل وفقاً لمنطقٍ أعمق وأكثر استقراراً: فالحياة تتغير أساساً لتبقى على حالها. وديناميكيتها موجودةٌ لخدمة الاستمرارية.

1. سوء فهم التطور

يكشف هذا عن سوء فهمٍ جوهريٍّ للتطور. غالباً ما تُصوّر المخيلة الشعبية التطور على أنه محركٌ للابتكار الجذري اللامتناهي – تجربةٌ عمياءٌ لا هدف لها تُنتج باستمرار سماتٍ جديدةً وأنواعاً جديدةً وأشكالاً جديدةً. مع أن توليد التنوع هو المادة الخام، إلا أن هذه النظرة تتجاهل المبدأ التنظيمي العميق الذي يمنح العملية اتجاهها ومعناها. فالتطور البيولوجي لا يهدف إلى الابتكار، بل إلى الحفاظ على ما هو موجود، وتحديدًا الحفاظ على الوظائف البيولوجية الأساسية في ظل ظروف بيئية متغيرة. وبالتالي، فإن التغيير ليس هو الغاية، بل الوسيلة؛ فالهدف الدائم ليس التحول، بل الحفاظ الأمين على الضرورات الجوهرية.

2. الوظائف الثابتة للحياة

هذه الضرورات هي الوظائف الثابتة للحياة. فخلف التنوع الهائل في الأشكال والأحجام والاستراتيجيات التي تُظهرها الكائنات الحية، تظل مجموعة من الوظائف غير القابلة للتفاوض ثابتة بشكل ملحوظ. فعلى المستوى الأساسي، تتضافر مركّبات الحياة للحفاظ على تماسكها الداخلي في مواجهة الانتروبيا، ولإعادة إنتاج نفسها بما يضمن استمراريتها، وللحفاظ على حالة من الانسجام العلائقي ضمن سياقها البيئي. هذه الوظائف – البقاء والتكاثر والتوازن – هي الركائز الأبدية. فهي لا تتبدّل مع مرور الزمن، بل تُشكِّل الغاية الثابتة التي قد يتغير حولها شكل الكائن الحي. قد ينمو نوعٌ ما ليصبح أكبر حجمًا أو يطوّر تمويهًا، وقد تتحول زعنفة إلى طرف، أو قد تتعقد سلوكياته الاجتماعية، ولكن فقط بقدر ما تُعزز هذه

التغيرات المورفولوجية قدرة الكائن الحي الدائمة على تلبية هذه المتطلبات الأساسية الثابتة.

فالحياة ترتبط بوظائف بيولوجية ثابتة وبقوانين الطبيعة، على الرغم من أن أشكال الحياة تتطور وتخضع لعملية تكيُّف استجابةً للتغيرات البيئية للحفاظ على الوظيفة واستعادة التوازن الديناميكي البيولوجي. ترتبط التغيرات في الشفرات الجينية بالأشكال والآليات، لكن الغرض يبقى توريث "وظيفة" بيولوجية ثابتة. إذا أنتجت طفرات جينية عشوائية "شكلًا" لا يخدم "الوظيفة" الثابتة، فإن الحياة تصبح مشوهة أو منقرضة.

أود أن أشارككم هنا مقتطفًا من كتاب ألبرت فوا: "الوظيفة البيولوجية والشفرات الجينية مترابطتان"؛ 2005.

"لا تكف الحياة عن ادهاش العلماء مع كشف أسرارها أكثر فأكثر. وعلى وجه الخصوص، يبقى أصل الحياة لغزًا. نتساءل كيف استطاع المجتمع العلمي فك لغز حدثٍ ماضٍ وقع مرةً واحدةً بهذا الاحتمال الضئيل. تُظهر هذه الورقة البحثية وجودَ أسبابٍ منطقية لهذه المشكلة. تُعبّر الحياة عن كلٍّ من نظامي الوظيفة والإشارات. وهذا يُوازي البنية الرمزية الذاتية المرجعية الضرورية منطقيًا في الأنظمة ذاتية التكاثر. ونظرًا للمجال المُجَرَّدْ لأنظمة الوظيفة والإشارات، فإن الحياة ليست نظامًا فرعيًا للقوانين الطبيعية. وهذا يُشير إلى أن عقلنا محدود فيما يتعلق بحل مشكلة أصل الحياة، وأننا نُضطر إلى اعتبار الحياة بديهية.

"في الحياة، هناك ترابط بين الوظيفة البيولوجية وأنظمة الإشارات. ولضمان انتقال الوظيفة البيولوجية عبر الزمن، يجب تخزين الوظيفة البيولوجية في نظام إشارات "مستقل عن الزمن". وحدها لغة الإشارات المُجَرَّدْة قادرة على تخزين المعلومات المُجَرَّدْ ة اللازمة لبناء جزيئات حيوية وظيفية. وبالمثل، يعتمد تعريف الشفرة الوراثية على الوظيفة البيولوجية. هذه هي مشكلة أصل الحياة، وهي أعمق من مجرد حقيقة أن الكائنات الحية التي نراها اليوم لديها مثل هذا التصميم."

هذا أحد مظاهر "الثابت". المعنى والغرض، والوظائف البيولوجية، والقوى الطبيعية، وخصائص المادة التي تشكل كلها أساس التغيير والتطور الخارجي.

3. الشكل كتعبير تَكيّفي

وبالتالي، يُعدّ الشكل تعبيرًا تكيفيًا. فالأشكال ليست غايات مستقلة، بل هي إجابات مرنة وظرفية لتغيرات بيئية. فعندما تتغير الظروف – عندما يبرد المناخ، أو يظهر مفترس جديد، أو يختفي مصدر غذاء – تتكيف الأشكال تدريجيًا استجابةً لذلك: فقد يزداد سمك الفراء، وقد تطول الأجنحة لزيادة الكفاءة، وقد تُعاد معايرة الأنماط السلوكية، وقد تتكيف الاستراتيجيات الأيضية. ومع ذلك، تتسم هذه التعديلات بآلية محافظة عميقة. فالطبيعة لا تُغامر بتهور بالسلامة الوظيفية. بل تُختبر الاختلافات ببطء في مواجهة ردود الفعل القاسية بما يصب في فاعلية البقاء والتكاثر. الأشكال التي تُخلّ بالوظائف الأساسية تُزال بسرعة، ليس بدافع القسوة، بل لأن الوظيفة في اقتصاد الحياة مقدسة. يجب أن يخضع الشكل للوظيفة.

4. وتيرة المتغيرات الطبيعية

تخضع هذه العلاقة لوتيرة المتغيرات الطبيعية، وهي ربما السمة الأكثر إغفالًا والأكثر فائدة في التطور. يتكشف التغير الطبيعي عبر الأجيال، من خلال تراكم اختلافات طفيفة، في ضوء التغذية الراجعة المستمرة والفورية من البيئة. هذه الوتيرة التدريجية بطيئة الإيقاع ليست دليلاً على عدم الكفاءة أو البدائية؛ بل هي مظهر من مظاهر الحكمة العميقة والمنهجية. تسمح الوتيرة البطيئة بإجراء اختبارات وظيفية شاملة، وتوفر مساحة لتصحيح الأخطاء، وتُمكّن السمات الجديدة من الاندماج بسلاسة في الشبكات البيئية المعقدة، وتحافظ في النهاية على الاستقرار المنهجي. الطبيعة، في حساباتها العظيمة، لا تتعجل. إنها تستمع، وتختبر، وتُدمج.

5. لماذا الطبيعة محافظة؟

النتيجة هي أن الطبيعة محافظة بطبيعتها. بينما يُحتفى بعلم الأحياء غالبًا لإبداعه، فمن الأدق وصف عبقرية علم الأحياء بأنها عبقرية حذرة للغاية. فالتغيرات الجذرية والمنهجية نادرة الحدوث، لأنه في الأنظمة المعقدة والمترابطة، تتضخم الأخطاء، وتتفاقم العواقب غير المقصودة، وتميل الطفرات السريعة إلى زعزعة استقرار الشبكات التي تدعم الحياة. لذلك، يُفضل التطور استراتيجيات مثل التكرار، والنمطية، والتكيف التدريجي. لا ينبع هذا التحفظ من مقاومة التغيير، بل من احترام عميق للسلامة الوظيفية – إدراك أن البنية الدقيقة للكائن الحي بأكملها أهم من أي سمة جديدة منفردة.

6. التكيف دون تجاوز الحدود

حتى في مواجهة الكوارث، تُظهر الحياة التكيف دون تجاوز الحدود. فالأحداث الجسام كالانقراض الجماعي أو التحولات المناخية التاريخية لا تُحفز إعادة ابتكار عشوائية وشاملة للوظائف البيولوجية. بل تعمل كآليات ترشيح هائلة: فهي تُقلص الأشكال غير المستدامة، وتُعزز ما هو موجود مسبقًا.

7. درسٌ غالباً ما نتجاهله

هنا يكمن درسٌ بالغ الأهمية، يُتجاهل غالبًا. يُظهر العالم الطبيعي تعارضاً مع مبدأً تُكافح الحضارة الحديثة، بنزعتها نحو الابتكار المُزعزع والتسارع، لتقبّله: ليس كل تغييرٍ يُعدّ تحسينًا، وليست كل سرعةٍ دليلًا على التقدّم. يُعلّمنا علم الأحياء، استنادًا إلى مليارات السنين من التجربة والخطأ، أن البقاء على المدى الطويل لا يعتمد على سرعة تغيّر الكائن الحي أو النظام، بل على مدى الدقة وقدرة التغيرات على صيانة الوظائف الأساسية. ينتقل هذا الدرس من الجانب النظري إلى الجانب العملي المُلِحّ عندما نُوجّه أنظارنا إلى الحالة الإنسانية، حيث أفلتت وتيرة التغيير من سيطرة التغذية الراجعة الطبيعية المُتأنّية.

8. الانتقال إلى الأمام

يُوفّر هذا الفهم لوتيرة الطبيعة المُتأنّية ودقّتها الوظيفية الانتقالَ الأساسي إلى الأمام. بعد أن رأينا كيف تُسيطر البيولوجيا على التغيير بإخضاع الشكل للوظيفة ضمن إطار الإيقاع الطبيعي، أصبحنا الآن مستعدين لدراسة المأزق الإنساني غير المسبوق: عالم يتغير فيه الشكل أسرع من قدرة البيولوجيا على التكيف، حيث تتجاوز المتغيرات الاصطناعية الإيقاعات الطبيعية، وحيث تُجبر الوظيفة على اتباع الشكل بدلًا من توجيهه. لفهم المخاطر الجسيمة لتسارعنا الذي صنعناه بأنفسنا، يجب علينا أولًا أن نُدرك لماذا كانت الطبيعة تتحرك ببطء دائمًا. إن ضبطها ليس عيبًا في نظام بدائي، بل هو سرّ الصمود، حكمة محفورة في كل خلية حية، ومعيار يجب أن تُقاس به تحولاتنا المحمومة.

على مدار معظم تاريخها، تطورت البشرية ضمن نفس الإيقاع الصبور الذي حكم جميع أشكال الحياة: إيقاع التكيف البيولوجي البطيء، والتراكم الثقافي التدريجي، والتغذية الراجعة الفورية والمستمرة من العالم الطبيعي. انبثقت أشكالنا – أدواتنا ومؤسساتنا وطرائق معرفتنا – من حدود وظائفنا، تلك البنى العميقة للجسد والعقل والتفاعل الاجتماعي، وتأثرت بها. في العصر الحديث، انقطع هذا الشرط الأساسي، الحوار البدائي بين ما نحن عليه وما نصنعه. أصبحنا النوع الوحيد الذي تتغير أشكاله المصطنعة لا بما يتوافق مع قدراتنا الفطرية، بل بسرعة تتجاوزها، مما يُولّد ضغطًا عميقًا وشاملًا على الحالة الإنسانية نفسها.

1. التسارع الكبير

يُفهم هذا الانقطاع على أفضل وجه على أنه التسارع الكبير. فبعد أن كان التغيير تدريجيًا، مُرشّحًا عبر الأجيال، أصبح الآن أُسّيًا ومفروضًا. تُغيّر التكنولوجيا، المحرك الرئيسي لهذا التحول، أشكال وجودنا –كيف نتواصل، وكيف نعمل، وكيف نُدرك – دون انتظار وظائفنا البيولوجية والنفسية للتكيف. كانت الأدوات تُوسّع نطاق اليد؛ أما الآن فهي تُعيد تشكيل عمليات الإدراك نفسها. كانت المؤسسات تُوفّر أوعية متينة للثقة والاستمرارية؛ الآن، تُعاد صياغتها، أو تُعطَّل، أو تُصبح باليةً بوتيرة أسرع من قدرة التماسك الاجتماعي على التجدد. كانت الرموز والمعاني تنمو من خلال تجارب مشتركة ومعيشية؛ أما الآن، فتُصنَّع وتُضاعف وتُهمل بوتيرة صناعية. والنتيجة ليست تطورًا، بل تسارعًا قسريًا – سلسلة من التغييرات تتجاوز التوازن الطبيعي وتفرض نفسها فجأة، دون أن يمنحها الزمن فرصة للاختبار.

2. البيولوجيا لا تتعجل

يكمن وراء هذا الاضطراب حقيقة أساسية: البيولوجيا لا تتعجل. لا تزال وظائف أعضائنا وجهازنا العصبي دون تغيير يُذكر عما كانت عليه لدى أسلافنا الذين جابوا سهول العصر البليستوسيني. لقد تطور الجهاز العصبي البشري لعالم ذي مدخلات حسية محدودة، وسرديات متماسكة، وروابط اجتماعية مستقرة، وإيقاعات دورية من الجهد والراحة. وخلافاً لذلك، تتطلب أشكال العالم الحديث العكس تمامًا: تحفيز مستمر، وتبديل دائم للانتباه، وأداءات هوية مجزأة، واستجابة متواصلة ودائمة. تتكيف البيولوجيا عبر آلاف السنين، بينما تتطور التكنولوجيا بين عشية

وضحاها. هذا التناقض ليس قصورًا شخصيًا ولا مجرد نقد ثقافي، بل هو خلل بنيوي يكمن وراء تجربتنا الجماعية.

3. الإرهاق المعرفي

يظهر الإرهاق المعرفي كأول وأسرع أشكال الإجهاد. فالعقل ليس معالجًا لا نهائيًا، بل تطور لتصفية بيئات واسعة بحثًا عن المعلومات ذات الصلة، ولترتيب أولويات التهديدات والفرص، ولبناء إحساس بالمعنى من خلال الاستمرارية والنمط. إن التغير المتسارع في الأشكال يُرهق هذه القدرات بشكل منهجي. فالمعلومات، الخالية من التسلسل الهرمي أو السياق، تفقد معناها. وتغرق الإشارة في الضوضاء. ويصبح الانتباه، المشتت بسبب المتطلبات المتنافسة، وميضًا ورد فعل بدلًا من إنارة مستمرة. هذا الإرهاق ليس دليلًا على ضعف فردي، بل هو النتيجة الحتمية لنظام يُدفع إلى ما هو أبعد بكثير من معايير تشغيله المصممة له – محرك يُجبر على العمل بأقصى سرعة دوران لم يُصمم أصلًا لتحملها.

4. التشظي النفسي

عندما يصبح هذا الضغط المعرفي مزمنًا، فإنه يتفاقم ليتحول إلى تشظي نفسي. الهوية، التي كانت متماسكة في السابق من خلال أدوار مستقرة نسبيًا، وعلاقات طويلة الأمد، وروايات موروثة، تخضع الآن لمراجعة مستمرة. يتم تشكيلها خارجيًا وفقًا لصور الشخصيات الرقمية، وتُصاغ بمهارة بواسطة تيارات خوارزمية تُعطي الأولوية للتفاعل على حساب النزاهة. ونتيجة لذلك، تصبح الذات مُجزأة – مجموعة من الأداءات المُعتمدة على السياق – بدلًا من أن تكون كيانًا متكاملًا. أصبحت مظاهر هذا التشظي مألوفة، لكنها مُربكة للغاية: قلق مُشتت بلا هدف واضح، وفقدان للاستمرارية في قصة حياة الفرد، ومقارنة قهرية تُقوّض تقدير الذات، وتقلب عاطفي نابع من غياب مركز ثابت. هذا ليس مجرد مرض نفسي شخصي؛ بل هو استجابة وظيفية للنفس لضغوط عالم مليء بالأشكال التي لا توفر أي مكان ثابت للوقوف عليه.

لا مفر من أن تتسع هذه الاضطرابات، من الأفراد إلى المجتمعات. فسلامة أي نظام اجتماعي تعتمد على الرموز المشتركة، والمعايير المتوقعة، والأهم من ذلك، الوقت اللازم لتراكم الثقة واكتساب المؤسسات للشرعية. عندما تُعاد هيكلة الأشكال الاجتماعية – النماذج الاقتصادية، والهياكل السياسية، والأنظمة الإعلامية – بسرعة رقمية، لا تستطيع مقومات التماسك الاجتماعي، التي تُبنى ببطء، مواكبة

هذا التطور. ولا يستقر المعنى. والنتيجة ليست مجرد خلاف، بل اضطراب منهجي: استقطاب متزايد مع لجوء الناس إلى يقينيات قبليّة مبسطة، وأزمة شرعية مؤسسية، وانهيار الروايات الجماعية التي كانت تُشكل أرضية مشتركة. إن عدم الاستقرار الذي نشهده لا ينتج عن مضمون صراعاتنا بقدر ما ينتج عن السرعة الهائلة التي نُجبر على مواجهتها، مما لا يترك لنا وقتًا للتحليل أو التركيب أو الإصلاح.

5. وهم السيطرة

من المفارقات أن أزمة التسارع هذه غالبًا ما تتخفى وراء وهم السيطرة. إنّ القدرة التي تُتيح التغيير السريع في الشكل تُرسّخ الاعتقاد بأنّ قدرة الإنسان على التكيّف لا حدود لها، وأنّ التكيّف يمكن أن يكون فوريًا، وأنّ القيود البيولوجية والنفسية عفا عليها الزمن، وأنّ الوظيفة نفسها يُمكن إعادة تصميمها رقميًا عند الطلب. لكنّ الوظيفة ليست برنامجًا حاسوبيًا، بل هي مُتأصّلة في الركائز الأساسية القديمة لتكويننا البيولوجي، وفي مسارات نموّنا النفسي، وفي الذاكرة الاجتماعية العميقة لثقافتنا. عندما تُنكَر هذه الحدود باسم التقدّم أو الابتكار، فإنّها لا تختفي، بل تُعيد فرض نفسها بشكل غير مباشر، ولكن بثبات في صورة انهيار نظامي، في أوبئة الإرهاق، وفي تزايد انعدام الثقة المجتمعية، وفي شعور مُتغلغل بانعدام المعنى.

6. لماذا هذا التغيير فريد تاريخيًا؟

هذا ما يجعل لحظتنا فريدة تاريخيًا. لقد تعثّرت الحضارات السابقة في المقام الأول بسبب ضغوط خارجية: استنزاف الموارد، أو الجيوش الغازية، أو التحوّلات البيئية. أمّا مأزقنا فهو نابع من الداخل، فنحن نواجه خطر الإنهاك الوظيفي الناجم عن التسارع الجامح للأشكال التي نبتدعها. لا يكمن الخطر في التكنولوجيا بحد ذاتها، بل في انفصال هذه التكنولوجيا –وجميع أشكال التغيير الاجتماعي والرمزي– عن وتيرة الحياة البشرية وإيقاعها. فنحن، بمعنى ما، نبني صاروخًا يتحرك بسرعة تفوق قدرة رواد فضاءه على التنفس.

7. أعراض لا أسباب

بناءً على ذلك، يجب النظر إلى الأزمات المتعددة التي يشهدها عصرنا –كالإرهاق المعرفي، والتفكك النفسي، وعدم الاستقرار الاجتماعي– على حقيقتها: أعراض لا أسباب. إن التعامل معها كمشاكل معزولة، وحلها بتطبيقات أفضل، أو أنظمة يقظة ذهنية أكثر صرامة، أو سياسات مجزأة، هو تشخيص خاطئ للمشكلة. إنها أعراض

مترابطة لحالة هيكلية واحدة شاملة: شكل يتطور بوتيرة أسرع بكثير من قدرة الوظيفة على التكيف. إن معالجة الأعراض دون معالجة وتيرة التغيير المدمرة هي مضيعة للوقت، أشبه بمحاولة إفراغ الماء من سفينة مسرعة دون إصلاح الثقب الكبير في هيكلها.

8. السؤال التالي

وهكذا، نصل إلى السؤال التالي، الذي يُطرح الآن بوضوح لا مفر منه: هل يستطيع الإنسان أن يتكيف إلى ما لا نهاية مع هذا التغير المتسارع في الشكل، أم أن بقاءنا ذاته – تماسكنا، وعقلانيتنا، وقدرتنا على بناء مجتمع ذي معنى – يتطلب فرض قيود واعية، وإعادة تقييم، وحدود أخلاقية؟ للبحث عن إجابة، يجب علينا أولاً أن نتعلم التمييز بين المتغيرات في وجودنا التي تتسم بطبيعتها بالتغير، وتلك التي جعلناها متقلبة بشكل مصطنع وخطير. إن الاستكشاف المقبل ليس بحثاً عن سكينة نَحُن إليها، بل نحو إدراك السرعة. التسارع ليس قدرنا المحتوم، ولكن التوازن لا يأتي تلقائياً أيضاً. تكمن بداية الحكمة في فهم متى يجب أن يتباطأ الشكل، ومتى يجب أن يتعمق، ومتى يجب أن يتوافق مرة أخرى مع الوظيفة، حتى نتمكن من استعادة ليس بساطة الماضي، بل إمكانية مستقبلية لنكون بشراً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبمرونة.

الجزء الثالث – التدخل البشري

الفصل الخامس: المتغيرات الاصطناعية

في العالم الطبيعي، ينشأ التباين بإيقاع دقيق ومتأنٍ، مسترشدًا بالتغذية الراجعة المستمرة من البيئة، وثقل القيود، والنتائج التعليمية للفشل. هذا هو المسار القديم والموثوق للحياة، حوار بين الشكل والوظيفة يضبطه إيقاع البقاء نفسه. إلا أن الحضارة الإنسانية قد انتقلت الآن إلى مرحلة مختلفة. ففي سعينا لفهم مصيرنا والتحكم فيه، ابتكرنا نوعًا جديدًا من التغيير – تغييرات لا يفرضها ضغط التطور، بل النية والتقنية والتجريد. هذه هي المتغيرات الاصطناعية: أشكال من التباين مصممة ومفروضة ومُسرّعة بإرادة الإنسان. وهي تمثل حالة عميقة وغير مسبوقة في تاريخ الحياة، حالة لا تُكتشف فيها العلاقة بين الثابت والمتحول، بل تُحسم حسماً.

1. من التكيف إلى التَدخّل

يمثل هذا التحول انتقالًا جوهريًا من التكيف إلى التدخل. يُعدِّل التطور الطبيعي "الأشكال" وفقاً لاستجابةً مباشرةً، وإن كانت بطيئة، للضغوط البيئية عبر أجيال لا حصر لها. هذا التغيير تفاعلي ومُعاير. في المقابل، يُعدِّل التدخل الاصطناعي "الشكل" استباقًا لرغبة الإنسان أو منفعته، وغالباً ما يحكمه منطق الربح والخسارة. هذا التمييز جوهري، إذ يتجاوز العملية الطويلة، الصارمة، والذكية للغاية التي تختبر بشكل طبيعي ما إذا كان أي تغيير في الشكل يخدم حقًا وظائف الحياة الدائمة. يحل التَدخّل محل التكيّف. ويُستبدل الإيقاع الدقيق للنتائج بالسرعة الفورية للتنفيذ، وهي عملية غالبًا ما تُضحّي بالاستدامة طويلة الأمد من أجل القدرة قصيرة الأمد.

2. الهندسة الوراثية: الشكل قبل النتيجة

يتجلى هذا بوضوح في كتاب "الهندسة الوراثية: الشكل قبل النتيجة". هنا، نجد التلاعب الأكثر مباشرةً ودقةً بالشكل البيولوجي، وهو علم يقرأ ويعيد كتابة شفرة الحياة نفسها. في أنبل صوره، يهدف إلى تصحيح الخلل، واستعادة القدرة المفقودة، وتخفيف المعاناة الشديدة – باختصار، إصلاح الشكل من أجل الحفاظ على الوظائف الأساسية للصحة والبقاء. مع ذلك، يطرح هذا الأمر، في حدوده القصوى، سؤالًا جذريًا ومقلقًا: هل نحن ببساطة نُصلح الشكل للحفاظ على

الوظيفة، أم أننا في الواقع نبدأ بإعادة تعريف الوظيفة نفسها؟ لقد تطورت البيولوجيا في ظل ظروف من عدم اليقين الهائل والقيود الصارمة، وهي ظروف أدت إلى نشأة أنظمة قوية ومتكاملة. يوفر التدخل الجيني دقة لم تعرفها البيولوجيا من قبل، ولكن دون فهم مماثل للعواقب النظامية طويلة المدى. لا يكمن الخطر الأساسي في التكنولوجيا بحد ذاتها، بل في الوهم الخادع بأن الوظيفة – الغرض العميق والمتكامل للنظام الحي – يمكن إعادة تصميمها بسهولة وسرعة إعادة تصميم الشكل.

3. التحسين العصبي وسرعة العقل

يمتد هذا الوهم إلى صميم كياننا مع التحسين العصبي وسرعة العقل. تعدنا التحسينات الكيميائية والكهربائية والخوارزمية بضبط معايير إدراكنا بشكل مباشر، من خلال صقل الانتباه، وتعزيز الذاكرة، وتعديل المزاج، وتغيير الإدراك. مع ذلك، فإن العقل ليس مجرد معالج بيولوجي يمكن تحسينه من حيث السرعة والإنتاج. إنه نظام متجسد، مولد للمعنى، تتشابك إيقاعاته وقدراته في صميم الإيقاع البيولوجي والتجربة الاجتماعية. إن السعي وراء التحسين يُخاطر بتحسين مقاييس الأداء المنفصلة مع تآكل التماسك الأعمق للذات، وتضخيم القدرة الخام مع تفتيت استمرارية التجربة، وتسريع وتيرة التفكير دون تعميق جودة الفهم. عندما يُدفع الإدراك إلى ما وراء وتيرته المتطورة والمتكاملة، يذوب الوضوح في ضجيج من الإشارات، وتضيع الحكمة في هذا الضجيج.

يقلص التسارع الرقمي الزمن الأخلاقي. تُتخذ القرارات التي تؤثر على سبل العيش، والسمعة، والمسارات الطبية، أو ثقة الجمهور، بسرعة خوارزمية متزايدة، مما لا يترك مجالًا يُذكر للتأمل أو الاستئناف أو التقدير البشري. ما لا يمكن معالجته بسرعة يُعامل على أنه إزعاج وليس تحذيرًا.

4. الهويات الرقمية والذات المعيارية

في الوقت نفسه، نعيد تشكيل مفهوم الذات نفسه من خلال الهويات الرقمية والذات المعيارية. تحوّل المنصات الرقمية الهوية إلى شيء قابل للتعديل والتوزيع والتغيير وإعادة التركيب بلا حدود. ما كان يُصاغ سابقًا عبر استمرارية الحياة البطيئة، والتي قد تكون شاقة أحيانًا، يُنظّم الآن من خلال عرض انتقائي وأداء مُنمّط. تصبح الذات الواحدة متعددة نمطيًا: شخصية للظهور المهني، وأخرى للتواصل الحميم، وثالثة للانتماء السياسي، ورابعة للاستكشاف المجهول. تُقدّم هذه المرونة نفسها كشكل من أشكال التحرر – هروب من الأدوار المُحدّدة مسبقًا.

ومع ذلك، فهي تُقوّض بهدوء الوظيفة الأساسية للهوية، أي الاندماج وليس التعبير. ذات لا تتماسك أبدًا، بل تُقسّم وتُؤدّى باستمرار.

5. الذكاء الاصطناعي والتسارع الرمزي

يزيد الذكاء الاصطناعي والتسارع الرمزي من حدة هذا التشرذم. فالذكاء الاصطناعي لا يقتصر دوره على أتمتة المهام المادية أو الإدارية فحسب، بل يُحوّل إنتاج الرموز نفسها إلى صناعة ويسرّعها. يجري توليد اللغة والصور وأنماط اتخاذ القرارات والأشكال الجمالية، وتُعالج، وتُتداول بسرعة تفوق بكثير قدرة الإنسان على التفسير والتكامل. المعنى، الذي لطالما كان متجذرًا في السياق الإنساني المشترك والتجربة المعيشية، يدور الآن في حلقة مفرغة واسعة، منفصلة بشكل متزايد عن الفهم. تنفصل الرموز عن التجارب التي كان من المفترض أن تدل عليها؛ ويتجاوز التمثيل الواقع. لذا، لا يكمن التحدي في استبدال الآلات للذكاء البشري، بل في أن السرعة الرمزية تُطغى على قدرة الإنسان على التفسير والثقة وإيجاد المعنى في الرموز نفسها التي تُشكّل عالمنا المشترك.

6. عندما يُحاكي الشكل الوظيفة

يؤدي هذا التسارع إلى ظاهرة جديدة ومُربكة: عندما يُحاكي الشكل الوظيفة. تُصمَّم الأنظمة الاصطناعية بشكل متزايد لمحاكاة وظائف كانت تُعتبر في السابق حكرًا على الإنسان: مثل التعرف على الأنماط المعقدة، وتوليد اللغة الطبيعية، وتحسين القرارات التنبؤية. مع ذلك، فإن المحاكاة، مهما بلغت من الإقناع، لا تعني التكافؤ. فقد يُحاكي نموذج التعلم الآلي نتيجةً ما دون أن يُشارك الحقائق الأساسية التي أدت إلى ظهور القدرة البشرية الأصلية: كالتجربة المعاشة للوعي المُجسَّد، والمسؤولية الذاتية تجاه العواقب الأخلاقية للقرار، والتأثر بثقل العواقب المعاشة. يكمن الخطر الجوهري في الخلط بين المحاكاة والوظيفة نفسها، وبالتالي، نقل السلطة الاجتماعية والفكرية، بل وحتى الأخلاقية، تدريجيًا إلى أنظمة لا تتحمل المسؤولية ولا تستطيع فهمها.

7. إعادة النظر في السؤال المركزي

يتردد صدى السؤال المركزي المُعاد النظر فيه في جميع مجالات المتغيرات الاصطناعية. سواء في علم الوراثة، أو التكنولوجيا العصبية، أو الهوية الرقمية، أو الأنظمة الرمزية، يجب علينا أن نسأل باستمرار: هل نُعدِّل الشكل من أجل الحفاظ

على وظيفة بشرية عميقة ودائمة وخدمتها على نحو أفضل؟ أم أننا، من خلال تلاعبنا بالشكل، نلمس الوظيفة نفسها دون قصد أو تفكير، دون فهم عمقها أو تبعياتها أو غايتها؟ ليس هذا سؤالًا نابعًا من ذعر أخلاقي أو خوف حنيني، بل هو سؤال ضرورة بنيوية. فعندما تُغيَّر الوظائف الأساسية دون فهم، نادرًا ما تكون العواقب فورية، بل تظهر لاحقًا، بشكل غير مباشر، في صورة عدم استقرار نظامي، أو اغتراب جماعي، أو فقدان شامل وغير واضح للمعنى.

8. الوتيرة المصطنعة مقابل الإيقاع الطبيعي

القاسم المشترك بين كل هذه التدخلات هو الوتيرة المصطنعة مقابل الإيقاع الطبيعي. تُعرَّف المتغيرات المصطنعة بسرعتها، فهي تتطور وتنتشر أسرع من قدرة البيولوجيا على التكيف، والنفس البشرية على التكامل، والمؤسسات الاجتماعية على الاستقرار، والأطر الأخلاقية على الاستجابة. تستوعب الأنظمة الطبيعية التغيير من خلال آليات التأخير – التكرار، والتداول، وإعادة المعايرة التدريجية. أما الأنظمة المصطنعة، فتُصمَّم بدقة للقضاء على التأخير، ولتحقيق أقصى قدر من الكفاءة والفورية. والنتيجة هي حالة من القوة الهائلة تُمارس دون فضيلة الصبر التي تُهذّبها، وقوة تُطبّق دون الحكمة الفطرية للنظام لتوجيه استخدامها.

9. التدخل دون توجيه

لا يعني أيٌّ مما سبق أن التدخل دون توجيه خاطئٌ في جوهره. فالإبداع البشري والبراعة التكنولوجية هما في حد ذاتهما تعبيرٌ عن قدرة الطبيعة على التجديد. لكن التدخل يصبح متهورًا، بل ومدمرًا، عندما يُنفّذ دون توجيه واضح، دون وضوحٍ مُرشدٍ حول ما يجب أن يبقى ثابتًا لا يُنتهك في الحالة البشرية والطبيعية. وتتحولُ التكنولوجيا إلى قوة عمياء لا أخلاقية عندما تنسى المبادئ الأساسية التي منحتها الغاية: أن الوظيفة تسبق الشكل، وأن الوتيرة عاملٌ حاسمٌ في الاستدامة، وأن الحدود ليست عقباتٍ نتخلص منها، بل هي حدودٌ مُرشدةٌ تُحدد إمكانية الصحة ذاتها.

10. الانتقال إلى الأمام

لذا، تُجبر هذه المتغيرات الاصطناعية البشرية على مواجهة خيار لم يسبق لها أن واجهته بمثل هذه الوضوح. نحن نقف على مفترق طرق. أحد المسارين ينطوي على تنمية الحكمة لكبح وتيرة واتجاه التغيير الشكلي بوعي، وضمان بقائه في خدمة

وظائفنا البيولوجية والنفسية والاجتماعية وضمن قدرتها على التكيف. أما المسار الآخر فينطوي على تبني التسارع إلى نتيجته المنطقية: إعادة تعريف تلك الوظائف الإنسانية الأساسية طواعيةً، وتقبّل العواقب العميقة والمجهولة لكوننا نوعًا، في جوهره، مُصمّمًا لذاته. هذه هي العتبة التي نقف عليها الآن، وهي تقودنا مباشرةً إلى السؤال الحتمي لعصرنا: هل يمكن للحالة الإنسانية أن تتكيف إلى ما لا نهاية مع هذا التسارع المفروض ذاتيًا، أم أن بقاءنا ذاته – تماسكنا، ومعنى وجودنا، وإنسانيتنا – يتطلب الوعي لوضع ضوابط أساسية وحدود أخلاقية؟

الفصل السادس: هل يمكن للوظيفة الإنسانية أن تتكيف؟

(أو: ثمن المضي قدمًا كما لو كان ذلك ممكنًا)

يسبق هذا الفصل توضيحٌ بالغ الأهمية. فهو لا يجادل بأن الوظيفة البشرية تتطور أو تتغير كما يتغير الشكل. فالوظيفة ثابتة، تحكمها البنية البيولوجية، والتركيب النفسي، والقانون الطبيعي. وهي ليست عرضة للتغيير السريع.

بدلًا من ذلك، يتناول هذا الفصل ظاهرةً أكثر دقةً وخطورة: ماذا يحدث عندما تسير الأنظمة البشرية – تقنياتنا، واقتصاداتنا، وإيقاعاتنا الاجتماعية – كما لو كانت الوظيفة قابلة للتغيير؟ السؤال الأساسي ليس ما إذا كانت الوظيفة قابلة للتغيير، بل ما إذا كان بإمكان الحياة البشرية أن تظل متماسكة بينما تتصرف كما لو كان بإمكانها التغيير.

1. الوظيفة ثابتة – ولكن يمكن انتهاكها

تتكون الوظيفة البشرية من متطلبات ثابتة: الإيقاعات البيولوجية (النوم، الأيض)، والحدود المعرفية (الانتباه، الذاكرة)، والاحتياجات النفسية (المعنى، التماسك)، والضرورات الاجتماعية (الثقة، الاستمرارية). هذه شروط للبقاء، وليست تفضيلات ثقافية. وهي لا تختفي عند تجاهلها؛ بل تفرض نفسها من خلال الضيق، والخلل الوظيفي، والانهيار.

مثال: الحاجة إلى النوم وظيفة بيولوجية ثابتة. مع ذلك، فإن الاتصال الدائم، والعمل بنظام المناوبات، والليالي الطويلة أمام الشاشات، تُنشئ نمطًا يُخلّ بهذه الوظيفة. نحن لا نتطور لنحتاج إلى نوم أقل؛ بل نُطبّع الحرمان المزمن من النوم ونُعيد تسمية عواقبه – ضعف الإدراك، واضطراب المشاعر – بـ "الإجهاد" أو "نمط حياة الأداء العالي".

2. وهم القدرة على التكيف اللامحدود

غالبًا ما تُعلي الثقافة الحديثة من شأن "القدرة على التكيف" باعتبارها بلا حدود. لكن القدرة الحقيقية على التكيف لطالما عنت التعديل ضمن حدود، والمعايرة في ظل القيود، والتكامل التدريجي من خلال التغذية الراجعة.

ما يحدث الآن مختلف. نحن لا نُكيّف الوظيفة؛ بل نُطبّع انتهاكها.

يُصبح الإرهاق نمط حياة. يُصبح الإفراط في التحفيز إنتاجية. يُصبح التشتت "حرية الهوية". يُصبح عدم الاستقرار ديناميكية.

النظام لا يتكيف – بل يمتص الضرر حتى يعجز عن ذلك.

مثال: الانتباه البشري وظيفة محدودة، متسلسلة، تسعى إلى إيجاد المعنى. التصفح اللانهائي، والإشعارات المستمرة، والمحتوى المُولّد آليًا، تُشكّل نمطًا يُرهق هذا الانتباه. فنخلط بين تشتت الانتباه وضعف التركيز وبين "التكيف مع تعدد المهام". لم تتغير الوظيفة، بل نتجاهل حدودها فحسب.

3. البيولوجيا لا تُعيد التفاوض

يحتاج الجهاز العصبي إلى راحة دورية، وتحفيز محدود، وتفاعل جسدي، وإيقاعات منتظمة. لا تُغيّر التكنولوجيا هذه المتطلبات، بل تختبر فقط مدى إمكانية تجاهلها. عندما تُتجاوز الحدود، لا تتطور البيولوجيا بشكل أسرع، بل تُشير إلى وجود ضائقة. القلق، والإرهاق، واضطراب التنظيم ليست عيوبًا في الشخصية، بل هي مؤشرات على تجاوز الحدود.

4. التكامل النفسي له وتيرة

لا يتكوّن المعنى فورًا. يتطلب التماسك النفسي استمرارية سردية، وتكرارًا، وتأملًا، وتباعدًا زمنيًا. يُطغى التغيير المتسارع في الأشكال – الشخصيات الرقمية، وإعادة ابتكار الذات بلا هوادة – على هذه العملية. تتراكم التجارب أسرع من قدرة الفرد على استيعابها؛ وتتغير الهويات أسرع من استقرار المعنى. لا ترفض النفس التجديد، بل ترفض التسارع المفاجئ.

مثال: تتطلب الهوية تماسكًا سرديًا. تشجع منصات التواصل الاجتماعي على إنشاء ذوات رقمية متعددة ومتغيرة، وتعرضنا لمقارنة اجتماعية مستمرة على نطاق واسع. غالبًا ما يُصوَّر التشتت والقلق الناتجين على أنهما "سيولة متحررة". لكن بعد تجاوز حد معين، لا يُعد هذا تكيفًا، بل هو انتهاك لوظيفة نفسية ثابتة.

5. المجتمع يعاني من نفس الخلل

ما يحدث على مستوى الأفراد ينتقل إلى مستوى الجماعات. تعتمد الثقة الاجتماعية على التراكم التدريجي، والرموز المشتركة، والتوقعات الثابتة، والذاكرة المتوارثة عبر الأجيال. عندما تتغير المؤسسات والمعايير والسرديات بوتيرة أسرع من قدرة الثقة على التكوّن، تتآكل الشرعية، ويشتدّ الاستقطاب، وينهار التماسك. لا تفشل المجتمعات بسبب تغيرها، بل لأن التغيير يتجاوز وتيرة الأداء الوظيفي.

مثال: تُبنى الثقة من خلال التفاعل المتكرر والموثوق على مر الزمن. إن شكل المجتمع الرقمي – دورات الغضب الفورية، والسرديات الفيروسية، والاستقطاب الخوارزمي – ينتهك هذا الشرط الزمني بشكل منهجي. والنتيجة ليست نوعًا جديدًا من "الثقة الرقمية"، بل تآكلًا واسع النطاق للتماسك الاجتماعي. تبقى الوظيفة قائمة، لكن الأشكال تحول دون تحقيقها.

6. الاستنتاج الخاطئ الخطير

من هذا المنطلق، ينشأ استنتاج خاطئ: "إذا لم تستطع الوظيفة مواكبة التغيير، فربما يجب إعادة تصميمها". هذا هو الخطأ الجوهري. الوظيفة ليست مجرد أداة تقنية؛ إنها نتيجة تطور عميق، وتطور نفسي، وتطور اجتماعي. إن محاولة "إعادة تصميم" الوظيفة ليست تكيفًا، بل هي بتر للقيود التي تحافظ بهدوء على التماسك. قد لا يكون ما يُفقد واضحًا على الفور، ولكنه يتراكم.

7. ما الذي "يتكيف" فعليًا؟

عندما يتجاوز الشكل الوظيفة، يتكيف شيء ما، ولكنه ليس الوظيفة نفسها. ما يتكيف هو:

• تسامحنا مع الخلل الوظيفي. • إعادة تعريف المرض على أنه طبيعي. • كبت إشارات التحذير. • خفض توقعات التماسك. هذا ليس تقدمًا، بل هو تدهور ممنهج.

8. التكيف الحقيقي يتطلب ضبط النفس.

يعتمد التكيف الحقيقي على التغيير الانتقائي، والوتيرة المعتدلة، وإمكانية الرجوع، والحساسية للتغذية الراجعة. ضبط النفس ليس تراجعًا، بل هو ذكاء مُوظف للقوة. النظام الذي لا يستطيع التباطؤ لا يستطيع تصحيح نفسه.

9. السؤال الحقيقي ليس: هل يمكن للوظائف البشرية أن تتكيف إلى ما لا نهاية؟ بل هو: إلى متى يمكن للأنظمة البشرية أن تنتهك الوظائف الثابتة قبل أن ينهار التوازن؟

10. أهمية هذا الأمر الآن: تقترب البشرية من عتبة حرجة – ليست في المعرفة، بل في القدرة على التحمل الوظيفي. فبعدها، يفشل التكامل، ويتأخر التصحيح، وينهار التوازن. ولا يأتي الانهيار دائمًا على شكل كارثة؛ بل غالبًا ما يأتي على شكل عدم استقرار مزمن ومُطَبَّع.

11. الانتقال إلى الأمام: فهم أن الوظيفة ثابتة – وأن الأشكال تختبر حدودها – يُهيئنا لدراسة كيفية تنظيم الحضارات بأكملها للسلطة والاقتصاد والمعنى. وينتقل الجزء التالي إلى المجتمع والسلطة، حيث يتضخم تغير الشكل على نطاق واسع، وتصبح عواقب تجاهل الوظيفة منهجية ولا مفر منها.

الوظيفة لا تتطور، بل تبقى. والمسألة المطروحة هي ما إذا كانت الأشكال البشرية ستتذكر ذلك مع مرور الوقت.

الجزء الرابع: رسم ملامح عصرنا

الفصل السابع: الارتباك الكبير

مقدمة

نعيش في عصر اضطراب مفاهيمي عميق. ما كان يُعتبر ثابتًا أصبح اليوم سائلًا، وما كان يُعتبر متغيرًا أصبح يُعامل على أنه مُطلق. يرسم هذا الفصل خريطة للنقاشات المعاصرة من منظور الثابت والمتغير، ليس لحسم الصراعات الثقافية، بل لكشف البنية الكامنة وراء ضياعنا.

في صميم كل صراع يكمن السؤال الأساسي نفسه: ما هو الثابت حقًا في الحالة الإنسانية – المتجذر في الواقع البيولوجي، أو الثوابت النفسية، أو الضرورات الأخلاقية – وما هو المتغير بشكل مشروع، الخاضع للتعبير الثقافي، وصنع المعنى الشخصي، والتطور الاجتماعي؟

أولًا: الهوية والجسد: حيث يلتقي علم الأحياء بالمعنى

1. الهوية الجندرية ومشاركة المتحولين جنسيًا

يكشف النقاش الدائر حول حقوق المتحولين جنسيًا عن التباس العصر الحديث بوضوح تام – التباس حول الحقوق في الرياضة، والمرافق، والسجون، والرعاية الصحية.

العناصر الثابتة:

• تمثل الاختلافات البيولوجية بين الجنسين في القوة والتحمل والبنية الهيكلية، لا سيما بعد البلوغ، إرثًا تطوريًا ذا تبعات مادية. هذه ليست مفاهيم اجتماعية، بل حقائق فسيولوجية تؤثر على نزاهة المنافسة والسلامة البدنية.

• تتجذر حاجة الإنسان إلى الخصوصية والأمان في الأماكن الحساسة (دورات المياه، غرف تغيير الملابس، السجون) في كل من الاختلاف البيولوجي والهشاشة النفسية.

• تُرسّخ بيولوجيا التكاثر حقائق ثنائية معينة لا يمكن تغييرها اجتماعيًا.

العناصر المتغيرة:

• يوجد التعبير الجندري، والأدوار الاجتماعية، والتجربة النفسية للهوية الجندرية على أطياف معترف بها تاريخيًا عبر الثقافات.

• أنظمة الاعتراف القانوني هي نتاج بشري قابل للتطور ليُقرّ بالتعقيد دون إنكار الجوانب البيولوجية.

• تمثل روايات الهوية الشخصية سعي الإنسان المشروع نحو التناغم بين التجربة الداخلية والمظهر الخارجي.

فشل الحداثة المزدوج:

من جهة، تُذيب البنائية الراديكالية البيولوجيا في سرديات منفصمه، مُصرّةً على أن الواقع المادي يخضع للهوية الذاتية – وهو خلط يُنتج ظلمًا في الرياضات النسائية ويُقوّض المساحات الآمنة. ومن جهة أخرى، تُنكر الجوهرية البيولوجية واقع اضطراب الهوية الجنسية وصحة التجربة الذاتية، مُنتجةً قسوةً لا داعي لها.

الرؤية المتوازنة:

يُقرّ التعاطف، دون إنكار ميتافيزيقي، بالمعاناة الحقيقية لاضطراب الهوية الجنسية مع الاعتراف بالمعايير البيولوجية الثابتة التي تحدث ضمنها هذه المعاناة. وتحمي الرؤية العادلة وبدون قسوة كلاً من المتحولين جنسيًا من العنف والإذلال، والنساء من تآكل الحماية القائمة على أساس الجنس. لا يكمن المسار الأخلاقي في إعلان جانب واحد متفوقًا، بل في إنشاء مؤسسات تُقدّر كلا البُعدين، ربما من خلال فئات ثالثة تُقرّ بالتحوّل دون تجاهل أهمية الجنس البيولوجي.

2. التحوّل الطبي لدى القُصّر

يمثل هذا نقطة التقاء بين استكشاف الهوية المتغيرة والحقائق النمائية الثابتة.

الثابت: يتبع النمو العصبي والنفسي مراحل؛ هوية المراهق بطبيعتها مرنة واستكشافية. تحدث بعض التدخلات الطبية (الجراحات، العلاجات الهرمونية) تغييرات لا رجعة فيها. وتبقى النتائج الطبية طويلة الأمد غير مؤكدة، لا سيما مع التدخل المبكر.

المتحول: تتراوح نماذج الرعاية النفسية من "النهج الإيجابي فقط" إلى المناهج العلاجية الاستكشافية. تختلف أنظمة الدعم الاجتماعي اختلافًا كبيرًا بين الثقافات والمجتمعات. وتتطور التفسيرات الثقافية للضيق الجسدي عبر الأجيال.

التوتر الأخلاقي:

عندما يُعامل استكشاف هوية المراهق المتغيرة على أنه قدر محتوم يتطلب تدخلاً طبيًا فوريًا، يتوقف الطب عن كونه مهنة علاجية ويصبح أداة أيديولوجية. على النقيض، عندما يُستهان باضطراب الهوية الجنسية النمائي باعتباره مجرد مرحلة عابرة، تبقى المعاناة الحقيقية دون علاج. يُميّز نهج التوازن بين الانتقال الاجتماعي قبل البلوغ (القابل للعكس إلى حد كبير) والتدخلات الطبية (غير القابلة للعكس إلى حد كبير)، مع إعطاء الأولوية للرعاية النفسية على التدخل الطبي للقاصرين، مع ضمان حصول من هم في أمسّ الحاجة إليها على الرعاية.

حرية التعبير مقابل "الكلام المؤذي"

يُثير النقاش المعاصر جدلًا بين ضرورة الاختلاف الثابتة ومعايير السلامة النفسية المتغيرة.

الثابت: الضرورة المعرفية للاختلاف والاختلاف في الرأي لاكتشاف الحقيقة – درسٌ كُتب بالدماء عبر قرون من قمع البحث. حساسية الإنسان للإذلال والإقصاء الاجتماعي تُمثل ثباتًا نفسيًا. وميل السلطة لقمع النقد حقيقة تاريخية.

المتغير: تتطور المعايير الثقافية للأدب والاحترام عبر المجتمعات والأجيال. تعكس قواعد إدارة المنصات سياسات الشركات والقلق الاجتماعي المؤقت. تختلف العتبات القانونية لحرية التعبير باختلاف التقاليد الديمقراطية.

فشل الحداثة:

حوّل التوجه العلاجي التأثير العاطفي إلى معيار موضوعي للحقيقة. أصبح الشعور بالإساءة الذاتية مبررًا للتكميم، مما يخلط بين السلامة النفسية والنزاهة الفكرية. يُمثل هذا خطأً فادحًا في التصنيف – حيث يُعامل المتغير (الاستجابة العاطفية) على أنه ثابت (الحقيقة الأخلاقية)، بينما يُعامل الثابت (الحاجة إلى التحدي الفكري) على أنه ترفٌ يمكن الاستغناء عنه.

استعادة التوازن: يجب أن نميز بين الإساءة (ذاتية، متغيرة) والضرر (موضوعي، قابل للإثبات). يتطلب البحث عن الحقيقة التسامح مع الإساءة مع منع التحريض الحقيقي على العنف. يجب أن تظل الجامعة والساحة العامة والمنتديات الرقمية مساحاتٍ لاختبار الأفكار، لا معابد لتقديس المشاعر.

3. ثقافة الإلغاء والتطرف الأخلاقي:

هنا نشهد مفارقة الحداثة: ثقافة تدّعي النسبية الأخلاقية تمارس التطرف الأخلاقي الفوري.

الثابت: الإنسان عرضة للخطأ – قدرتنا على الخطأ والنمو والتطور الأخلاقي طوال حياتنا. الطبيعة السياقية للفهم الأخلاقي – تعمل العصور المختلفة بمعلومات وقيم مختلفة. يضمن التغير التاريخي أن يصبح ما هو سائد اليوم خطأً غدًا.

المتحول: تتأرجح المعايير الاجتماعية للمساءلة بين النماذج الإصلاحية والعقابية. تتطور اللغة الأخلاقية، موسعةً أو منكمشةً دائرة الاهتمام. تتنوع آليات العقاب الاجتماعي من النميمة إلى الإقصاء المؤسسي.

المفارقة:

بعد أن اعتبرت الثقافة المعاصرة أن جميع الأخلاق نتاجٌ ثقافي، فإنها تتصرف وكأن المفاهيم الأخلاقية الحالية مطلقة وأبدية. والنتيجة هي قسوة استعراضية تتستر وراء قناع العدالة – طقوس اجتماعية متغيرة (التشهير العلني) تُعامل كضرورة أخلاقية ثابتة.

مسار التوازن: نستعيد التناسب – نميز بين الخطأ والشر، بين الجهل والخبث. نعيد مبدأ الخلاص الثابت إلى جانب المساءلة. نتذكر أن اليقين الأخلاقي غير المشوب بالتواضع يصبح شكلاً من أشكال البربرية.

4. تكافؤ الفرص مقابل تكافؤ النتائج

يدور هذا النقاش الدائم حول ما تحدده الطبيعة البشرية مقابل ما يمكن للمجتمع تغييره.

الثابت: التباين البشري الطبيعي في الموهبة والمزاج والاجتهاد والصحة – مما ينتج عنه حتمًا نتائج مختلفة حتى في ظل ظروف متطابقة. ندرة بعض الموارد والمناصب – فليس كل شخص قادرًا على أن يكون رئيسًا تنفيذيًا، أو عازف بيانو بارعًا، أو نجمًا في دوري كرة السلة للمحترفين. التوتر الكامن بين التميز والمساواة في بعض المجالات.

المتحول: السياسات الاجتماعية التي تُحقق تكافؤ الفرص أو تُرجّح كفتها من خلال التعليم والرعاية الصحية وتدابير مكافحة التمييز. نماذج إعادة التوزيع التي تُوازن النتائج دون إلغاء الحوافز. الأنظمة الاقتصادية التي تُعطي الأولوية إما للتنقل الاجتماعي أو للأمان الوظيفي.

الالتباس المعاصر:

غالبًا ما تعتبر النزعة التقدمية عدم تكافؤ النتائج دليلًا على الظلم المنهجي، متجاهلةً التباين البشري الثابت. بينما غالبًا ما تعتبر النزعة المحافظة عدم تكافؤ الفرص أمرًا حتميًا، متجاهلةً قدرة المجتمع على تغيير الظروف. يقع كلا التيارين في أخطاء تصنيفية.

إطار التوازن:

تهدف العدالة إلى تحقيق التوازن في الفرص، لا إلى إلغاء الاختلاف. وهي تُقرّ بالتباينات الثابتة مع تعظيم الفرص المتغيرة. يُزيل المجتمع الأخلاقي الحواجز التعسفية (المتغيرة) مع التسليم بأن تكافؤ الفرص يُنتج نتائج غير متكافئة (الثابت). وهو يقيس صحته لا بالتكافؤ الإحصائي، بل بالتنقل الاجتماعي الحقيقي والكرامة للجميع.

5. سياسات الهوية مقابل الإنسانية العالمية

ربما السؤال الأخلاقي الأبرز في عصرنا التعددي يتمثل بالتوتر بين الهويات الفردية والإنسانية المشتركة.

الثابت: ضعف الإنسان المشترك تجاه الألم والفقدان والحب والبحث عن المعنى. تستند الحدود الأخلاقية العالمية إلى كرامة الإنسان وحظر إلحاق الأذى غير الضروري. الثوابت البيولوجية والنفسية التي تجعلنا نوعًا واحدًا.

المتحول: تتشكل هويات الجماعات عبر التاريخ والثقافة والتجربة المشتركة. الروايات التاريخية التي تُركز على جوانب مختلفة من الذاكرة الجماعية. استراتيجيات التعبئة السياسية التي تُركز إما على الخصوصية أو على العالمية.

الرؤية الأساسية:

عندما تصبح الهوية ثابتة وجوديًا – جوهرًا لا فئةً طارئةً مبنيةً اجتماعيًا – ينقسم المجتمع إلى جماعات أخلاقية تتحدث لغاتٍ غير قابلة للترجمة. وعلى النقيض، عندما تصبح النزعة العالمية مجردةً وعمياء عن تاريخ القمع الخاص، فإنها تتحول إلى سلاحٍ يُبقي على التسلسلات الهرمية القائمة.

مسار التوازن:

نُقرّ بأن الهوية حقيقية، ولكنها ليست مطلقة – كتعبيراتٍ متغيرةٍ عن حاجة الإنسان الثابتة للانتماء. نحمي الخصوصية دون تقديسها. نؤكد على الكرامة الإنسانية العالمية دون محو الاختلاف. الرؤية الأخلاقية ليست عمياءً عن اللون ولا مهووسةً به، بل واعيةٌ به ضمن إطار الإنسانية المشتركة.

6. الذكاء الاصطناعي، والأتمتة، والقيمة الإنسانية

يُجبرنا تسارع التكنولوجيا على التمييز بين الاحتياجات الإنسانية الثابتة والترتيبات الاقتصادية المتغيرة.

الثابت: اعتماد الإنسان على المعنى والكرامة والقدرة على الفعل – احتياجاتٌ تتجاوز الراحة المادية. الحاجة إلى المساهمة والتقدير داخل المجتمع.

المتحول: الأدوات والتقنيات التي تُعزز العمل البشري أو تحل محله. الهياكل الاقتصادية التي تُوزع مكاسب الإنتاجية. تعريفات العمل، والراحة، والغاية.

وهم العصر الحديث:

لقد خلطنا بين الكفاءة والازدهار، والإنتاجية والغاية. نتعامل مع المتغيرات (الترتيبات الاقتصادية) على أنها قدر محتوم، بينما نتعامل مع الثابت (حاجة الإنسان إلى المعنى) على أنه رفاهية اختيارية.

تحذير بشأن التوازن:

إذا قمنا بأتمتة العمل دون ابتكار أشكال جديدة للمساهمة، فإننا نخلق طبقة مترفة بلا معنى. إذا قسنا قيمة الإنسان بالإنتاجية الاقتصادية وحدها، فإننا نُهيئ عالمًا لا قيمة فيه لمعظم البشر. يجب أن تخدم التكنولوجيا الغايات الإنسانية، لا أن تُعيد تعريف الإنسانية لخدمة الغايات التكنولوجية.

7. المراقبة، والخصوصية، و"الأمان":

ينمو جهاز الأمن من خلال الخلط بين القدرات التكنولوجية المتغيرة والاحتياجات الإنسانية الثابتة.

الثابت: حاجة الإنسان إلى الاستقلالية، والخصوصية، والمساحات الخالية من المراقبة. الحقيقة التاريخية الثابتة: أن السلطة المركزة، إذا مُنحت القدرة على المراقبة، ستسيئ استخدامها. الواقع النفسي: أن المراقبة المستمرة تُغير السلوك وتُقوّض الثقة.

المتحول: تقنيات المراقبة التي توسعت من المراقبة المادية إلى أنظمة المراقبة الرقمية الشاملة. الضمانات القانونية التي تُوازن بين الأمن والحرية بشكل مختلف باختلاف الثقافات السياسية. التسامح الثقافي تجاه الشفافية مقابل الخصوصية.

تحذير بشأن التوازن:

السعي وراء الأمن دون توازن يُؤدي إلى استبداد ناعم. يُنظر إلى المتغير (القدرة التكنولوجية على المراقبة) على أنه تقدم حتمي، بينما يُنظر إلى الثابت (حاجة

الإنسان إلى الخصوصية) على أنه شعور عتيق. ننسى أن أكثر السجون أمانًا يبقى سجنًا.

8. إعادة تعريف هياكل الأسرة: الأسرة، والجنسانية، والبنية الاجتماعية

تُمثل الأسرة ربما أكثر نقاط التقاء الاحتياجات الثابتة والأشكال المتغيرة حساسيةً من الناحية العاطفية.

الثابت: احتياجات الأطفال النمائية للاستقرار والارتباط والرعاية. الاستمرارية بين الأجيال كركيزة نفسية. الواقع أن ترتيبات الرعاية لا تُحقق جميعها نتائج متساوية للأطفال.

المتحول: أشكال الأسرة عبر التاريخ والثقافات: تعدد الزوجات، والأسرة الممتدة، والأسرة النووية، والأسرة المختارة. الاعتراف القانوني بالعلاقات المتنوعة. الأعراف الثقافية المتعلقة بالزواج والأبوة والقرابة.

المنظور المُطبق:

يمكننا تأكيد التعددية في أشكال الأسرة دون إنكار حقائق النمو. السؤال الأخلاقي ليس "ما الذي يُشكل أسرة حقيقية؟" بل "ما هي الترتيبات التي تُلبي على أفضل وجه الاحتياجات الثابتة للأطفال والبالغين للارتباط والاستقرار؟" قد تُلبي بعض الأشكال المتغيرة الاحتياجات الثابتة بشكل أفضل من غيرها – وهو سؤال تجريبي، وليس أيديولوجيًا.

9. التحرر الجنسي مقابل الاستقرار الاجتماعي

كشفت الثورة الجنسية عن توترات بين أنماط عاطفية ثابتة وقواعد أخلاقية متغيرة.

الثابت: أنماط الترابط العاطفي والصلة بين الجنسانية والحميمية والارتباط الزوجي لدى الكثيرين (وإن لم يكن جميعهم). عواقب التعلق والانفصال – التكاليف النفسية للعلاقات العابرة. حقائق الإنجاب التي تربط الجنسانية بالاستمرارية بين الأجيال.

المتحول: تتراوح المعايير الجنسية بين التقييد والتساهل عبر الثقافات والعصور. القواعد الأخلاقية التي تحكم الجنسانية، من الدينية إلى العلمانية. نماذج العلاقات من الزواج الأحادي مدى الحياة إلى أشكال مختلفة من العلاقات غير الأحادية الأخلاقية.

الرؤية التوازنية:

الحرية بدون هيكل تؤدي إلى الوحدة؛ والهيكل بدون حرية يؤدي إلى الكبت. يجب أن توجه الحاجة الثابتة للحميمية والمعنى التعبيرات المتغيرة للحياة الجنسية. لا يخدم التحرر المفرط ولا التزمت ازدهار الإنسان، بل يخدمه إدراك أن الجنسانية تقع عند تقاطع الدافع البيولوجي والحاجة العاطفية والمعنى الاجتماعي.

10. العلم كمنهج مقابل العلم كأيديولوجية: المعرفة والسلطة والمعنى

يحمل أعظم انتصار فكري للحداثة في طياته ارتباكًا خاصًا به.

الثابت: الحدود التجريبية – ما يمكن للعلم أن يتناوله وما لا يمكنه (القيم، المعنى، الأخلاق). الطبيعة المؤقتة للمعرفة العلمية، وقابليتها للمراجعة. التمييز بين الإجماع العلمي والحقيقة العلمية.

المتحول: الإجماع العلمي الذي يتغير مع ظهور أدلة ونماذج جديدة. ضغوط التمويل والحوافز المؤسسية التي تُشكل أولويات البحث. الخطابات السياسية التي تستخدم النتائج العلمية بشكل انتقائي.

الوهم المعاصر:

لقد خلطنا بين الإجماع العلمي الحالي والحقيقة الأبدية، محولين المنهج (العلم) إلى أيديولوجية (العلموية). نتعامل مع المتغير (الإجماع السائد اليوم) على أنه ثابت، متجاهلين ما هو ثابت فعلاً (التواضع المنهجي). والنتيجة إما تقديس ساذج للخبرة أو رفض ساخر للأدلة.

استعادة التوازن: نعيد العلم إلى مكانته الصحيحة – كمنهج رائع لفهم العالم المادي – مع إدراكنا لصمته حيال مسائل القيمة والمعنى والأخلاق. نحترم الإجماع مع الحفاظ على الشك الذي يدفع التقدم العلمي.

11. الدين: أخلاق ثابتة أم أخلاق تكيفية؟

هنا نصل إلى إحدى المساهمات الرئيسية لهذا الكتاب – والسؤال الذي يُحرك إطارًا كاملاً.

الثابت: المبادئ الأخلاقية الأساسية المُبينة عبر التقاليد: العدل، والرحمة، والكرامة، وضبط النفس. الثوابت البيولوجية والاجتماعية المُعترف بها في الكتب المقدسة – الطبيعة البشرية، والأسرة، والمجتمع، والفناء. حاجة الإنسان إلى التسامي، والطقوس، والتوجيه الأخلاقي.

المتحول: الفقه الذي يُطبق المبادئ على الظروف المتغيرة. التعبير الثقافي عن الممارسة الدينية. السياق التاريخي الذي يُشكّل التفسير والتركيز.

تطبيق رؤى القرآن:

الدين ليس قانونًا جامدًا ولا ابتكارًا عشوائيًا، بل هو توازن أخلاقي عبر الزمن. يحتوي القرآن الكريم، كغيره من الكتب السماوية المقدسة، على مبادئ ثابتة راسخة في الطبيعة البشرية والأمر الإلهي، إلى جانب تطبيقات متغيرة تناسب الجزيرة العربية في القرن السابع. مهمة التفسير هي التمييز بين الثابت والمتغير، أي فصل المبادئ الأزلية عن التطبيقات التاريخية.

تفشل الحداثة إما بتجميد الدين في أشكال الماضي (الأصولية الحرفية) أو بتحويله إلى روحانية غامضة (النسبية الانتقائية). يُقرّ نهج التوازن بأن الدين الأصيل يسير بين ركائز ثابتة وتعبيرات متغيرة، متمسكًا بالأخلاق الجوهرية مع تكييف الأشكال لخدمة ازدهار الإنسان في سياقات متغيرة.

الخلاصة: نحو أخلاق التوازن

تكشف النقاشات التي تُصوّر حالة التخبط التي نعيشها عن نمط ثابت: الحداثة تخلط بين الثابت والمتحول، والمتغير والثابت. يُعلن هذا النهج أن الواقع البيولوجي متغيّر، بينما يُعامل الإساءة الذاتية على أنها مطلقة. يُذيب الثوابت الأخلاقية، بينما يفرض مفاهيم جديدة بحماسة استجوابية. يخلط بين القدرة التكنولوجية والتقدم البشري، وبين الإجماع الحالي والحقيقة الأبدية.

يتطلب المسار نحو الأمام تمييزًا دقيقًا، عملًا متأنيًا ومتواضعًا لتمييز ما يتغير عما يبقى. ليس هذا تنازلًا لذاته، بل دقة في خدمة ازدهار الإنسان. يُدرك هذا النهج أن بعض الحدود تحمي إنسانيتنا، بينما يسجنها البعض الآخر في أشكال عفا عليها الزمن.

توفر العناصر الثابتة البنية التي يزدهر ضمنها التعبير المتغير. أزل هذه البنية، فينهار التعبير في فوضى. أفرط في بنائها، فيختنق التعبير. تقوم الحياة الأخلاقية – والمجتمع الأخلاقي – على التوازن: احترام الثوابت دون تقديس الظروف الطارئة، واحتضان التغيير دون هدم الأسس.

في الفصول التالية، سنطبق هذا المنظور على مجالات محددة، مستكشفين كيف يمكن لأخلاقيات التوازن أن تتغلب على تحديات عصرنا المضطرب. ليس بتقديم إجابات سهلة، بل بطرح أسئلة أعمق: ما هو الثابت حقًا؟ وما هو المتغير بشكل مشروع؟ وكيف نُعلي من شأن كليهما خدمةً لحياة وعالم مزدهرين؟

ففي نهاية المطاف، لا يُمثل الثابت والمتغير قوتين متضادتين، بل جانبين متكاملين لواقع راسخ ومتطور في آنٍ واحد، ثابت وحر في الوقت نفسه. مهمتنا ليست الاختيار بينهما، بل تحديد نطاق كل منهما، وبناء حضارة تعكس هذه الحقيقة الجوهرية لوجودنا.

الجزء الخامس – المجتمع والسلطة

الفصل الثامن: الأشكال الاجتماعية – الرأسمالية والاشتراكية

نادرًا ما تُدرس الأنظمة الاقتصادية على حقيقتها – هياكل متطورة وظرفية لتنظيم الحياة الجماعية. بدلاً من ذلك، غالباً ما تُعامل هذه المفاهيم كقيم أخلاقية مطلقة، تُدافع عنها أو تُرفض باعتبارها هويات جوهرية، وتُستحضر أسماؤها كشعارات حرب بدلاً من تحليلها كآليات. هذا التأطير الأيديولوجي يُخفي طبيعتها ووظيفتها الحقيقية. فالرأسمالية والاشتراكية ليستا جوهرين أبديين أو غايتين نهائيتين، بل هما شكلان اجتماعيان – تكوينات تاريخية قابلة للتغيير، تسعى المجتمعات من خلالها إلى حل المشكلات الأزلية للإنتاج، والتوزيع والسلطة والمعنى. ومثل جميع الأشكال، يجب تقييمها لا بناءً على نواياها المعلنة أو نقائها الخطابي، بل بمعيار أكثر جوهرية: مدى خدمتها للوظائف الثابتة والدائمة للحياة البشرية والوجود الاجتماعي.

1. المجتمع كنظام وظيفي

لتطبيق هذا المعيار، يجب علينا أولاً توضيح مفهوم المجتمع كنظام وظيفي. قبل مناقشة مزايا أي نموذج اقتصادي، يجب أن نسأل أنفسنا ما الذي تسعى المجتمعات إلى تحقيقه في جوهر وجودها. كحد أدنى، يجب على أي نظام اجتماعي قابل للاستمرار أن يحافظ على بقاء أفراده المادي، ويعزز التماسك الاجتماعي، ويوفر سبلًا للمعنى والكرامة الفردية، ويضمن الاستمرارية عبر الأجيال، ويدير التفاوت لمنع الاستياء المزعزع للاستقرار، وينمي الثقة والشرعية اللتين يعتمد عليهما كل تعاون. هذه ليست مجرد تفضيلات أيديولوجية أو نتاجات ثقافية، بل هي ضرورات وظيفية أساسية – المتطلبات الجوهرية لأي مجتمع بشري مستدام. إن أي نظام اقتصادي يقوض هذه الوظائف بشكل منهجي، بغض النظر عن أناقته النظرية الداخلية أو حماسة مؤيديه، يفشل على المستوى الهيكلي، ويصبح شكلاً في صراع مع غايته.

2. الرأسمالية كشكل اجتماعي

من هذا المنظور، تُعد الرأسمالية شكلاً اجتماعياً محدداً. فهي تنظم المجتمع حول مجموعة أساسية من المبادئ: الملكية الخاصة للأصول الإنتاجية، والتنسيق من خلال التبادل السوقي وإشارات الأسعار، والمنافسة كمحرك للكفاءة، وتراكم رأس المال كهدف رئيسي، وحافز متأصل للنمو الاقتصادي الدائم. أظهر النظام الرأسمالي،

كشكل من أشكال الاقتصاد، نقاط قوة هائلة. فهو يتفوق في تحفيز الابتكار، وزيادة الإنتاجية الإجمالية، وتوزيع مجموعة واسعة من السلع بكفاءة ملحوظة (في ظل ظروف المنافسة الحقيقية والتسعير الدقيق)، والاستجابة بمرونة لتغيرات طلب المستهلك. هذه القدرات الديناميكية تفسر نجاحه التاريخي في تحقيق الوفرة المادية والتقدم التكنولوجي. ومع ذلك، ينطوي هذا الشكل نفسه على توتر بنيوي. فمؤشره الرئيسي للنجاح – النمو – يُعامل على أنه غير محدود. بينما الوظائف البشرية والبيئية محدودة. لا ينشأ هذا التناقض من خلل في الأسواق بحد ذاتها، بل من منطق تراكم رأس المال، الذي يفتقر إلى آلية جوهرية للتعرف على الشبع أو احترام الحدود الذاتية.

3. عندما يتجاوز الشكل الرأسمالي الوظيفة البشرية

يقودنا هذا إلى جوهر المشكلة: عندما يتجاوز الشكل الرأسمالي الوظيفة البشرية. يكمن الخطر عندما يتوسع منطق السوق – الفعال في تنظيم أنواع معينة من التبادل – خارج نطاقه المناسب ويبدأ في استعمار المجالات غير الاقتصادية للحياة. يؤدي هذا التسارع، إذا لم يُضبط، إلى تسليع الهوية والاهتمام، وتآكل الروابط الاجتماعية لتصبح علاقات نفعية، وتركز السلطة والثروة بطرق تشوه الشرعية السياسية، والتدهور المنهجي للأنظمة البيئية التي تُعامل كعوامل خارجية، والاختزال المُدمر للقيمة الإنسانية إلى مجرد قدرة إنتاجية أو استهلاكية. هذه ليست إخفاقات أخلاقية عرضية لفاعلين سيئين ضمن نظام سليم، بل هي نتائج متوقعة لعدم التوافق بين الشكل والوظيفة. لا يفشل النظام الرأسمالي في وجوده، بل في نزعته الإمبريالية للاستيلاء على وظائف لم يُصمم أصلًا لخدمتها، مثل تنمية المعنى، وحماية كرامة الإنسان، والحفاظ على التوازن البيئي.

4. الاشتراكية كشكل اجتماعي

استجابةً لهذه الإخفاقات، تبرز الاشتراكية كشكل اجتماعي تصحيحي. فهي تُنظّم المجتمع حول مجموعة من المبادئ المتناقضة: الملكية الجماعية أو الرقابة الديمقراطية على الأصول الإنتاجية الرئيسية، وأولوية إعادة التوزيع لتلبية الاحتياجات الإنسانية، ودرجة من التنسيق المُخطط لمواجهة عدم استقرار السوق، وأهداف المساواة. كشكل، تتفوق الاشتراكية في المجالات التي يتعثر فيها النظام الرأسمالي. فهي مُوجّهة هيكليًا نحو إعطاء الأولوية لتوفير الاحتياجات الأساسية، والحد من التفاوتات الشديدة والمُزعزعة للاستقرار، والتأكيد على التضامن الاجتماعي بدلًا

من المنافسة المُجزأة، وحماية الخدمات العامة الأساسية من تقلبات منطق السوق البحت. تُعدّ هذه المزايا استجابات مباشرة للاختلالات الوظيفية المُتصورة والحقيقية لأنظمة السوق غير المُنظمة. ومع ذلك، يحمل هذا الشكل مخاطره الهيكلية الكامنة، والتي تتضح عندما يصبح تطبيقه جامدًا.

5. عندما يُقمع الشكل الاشتراكي الوظيفة

يكمن الخطر في أن الشكل الاشتراكي قد يُقمع الوظيفة الحيوية. عندما يُفرط النظام الجماعي في المركزية ويُهمّش المساحة الضرورية للفاعلية الفردية والمعرفة المحلية والتغذية الراجعة الناشئة، تنشأ إخفاقات جديدة. فالمركزية المفرطة قد تُعيق الابتكار الشعبي، وتُقمع الاستقلالية والمبادرة المشروعة، وتُضعف آليات التغذية الراجعة الحاسمة التي تُمكّن الأنظمة من تصحيح الأخطاء، وتستبدل المعنى الاجتماعي الأصيل بالامتثال من أعلى إلى أسفل، وتحصّن المؤسسات ضد التكيف الضروري. هنا، لا ينهار التوازن بسبب التسارع المفرط للرأسمالية، بل بسبب كبح التكيف. يسعى النظام إلى الاستقرار من خلال السيطرة، وبذلك يُضحّي بالاستجابة التي تُعدّ شريان الحياة لأي كائن اجتماعي ديناميكي. الاستقرار بدون استجابة ليس مرونة، بل هو ركود.

6. الخطأ المشترك: تجريد الشكل

يكمن وراء هذا التناقض التاريخي خطأ مشترك وجوهري: تجريد الشكل. فكل من الرأسمالية والاشتراكية، في أكثر تعبيراتهما عقائدية، تفشلان في نهاية المطاف لنفس السبب الجوهري: الخلط بين شكل مُحدد والوظيفة المُثلى. يُضفي النظام الرأسمالي قيمة مطلقة على كفاءة السوق والنمو، بينما يُضفي النظام الاشتراكي قيمة مطلقة على العدالة التوزيعية والسيطرة الجماعية. وفي سعيهما نحو المثالية، يُخاطر كلا النظامين بتجاهل الحقائق المعقدة وغير القابلة للتفاوض في سيكولوجيا النفس البشرية، وخصوصيات السياق الثقافي، والقيود النهائية للنظام البيئي الكوكبي، والأهمية البالغة للوتيرة الزمنية من أجل التكامل السليم. عندما يدّعي أي شكل اجتماعي العالمية والنهائية، يصبح هشًا، فاقدًا القدرة على إعادة المعايرة الذكية التي تتطلبها الظروف المتغيرة.

7. التوازن الديناميكي في الأنظمة الاجتماعية

إذن، المطلوب ليس انتصار شكل مثالي على آخر، بل تنمية التوازن الديناميكي في الأنظمة الاجتماعية. فالمجتمعات السليمة والمستدامة لا تُبنى على نقاء أيديولوجي، بل على هجين عملي قائم على المبادئ. وهي تتطلب أسواقًا مبتكرة بقوة، ولكنها في الوقت نفسه مقيدة بحدود أخلاقية وبيئية صارمة؛ وإعادة توزيع موجهة بالتغذية الراجعة الاجتماعية المستمرة بدلًا من العقائد الجامدة. الابتكار الذي يُهذّبه شعورٌ بالمسؤولية الاجتماعية طويلة الأمد؛ والقوة – سواءً كانت اقتصادية أو سياسية – التي تُوازنها آلياتٌ فعّالة للمساءلة والتوزيع. ليس هذا مجرد تنازلٍ من أجل السلام، بل هو تعبيرٌ عن ذكاءٍ بنيوي. إنه التجسيد الاجتماعي لمبدأ ضرورة بقاء الأشكال في خدمة الوظيفة، وإمكانية دمج أشكالٍ متعددة، قد تتنافس أحيانًا، لتلبية مجموعةٍ من الاحتياجات الإنسانية المعقدة التي لا تقبل المساومة.

8. الوتيرة والنطاق

يُعدّ تنظيم الوتيرة والنطاق متغيرًا حاسمًا في هذا التوازن، وغالبًا ما يُهمل في النقاشات الأيديولوجية. من أكثر القوى المُزعزعة للاستقرار في العصر الحديث الجمع بين النطاق الواسع والسرعة العالية. إذ يُمكن للأنظمة المالية والإنتاجية المعولمة أن تُضخّم أوجه عدم المساواة بوتيرةٍ أسرع من قدرة الأنظمة السياسية على تصحيحها، وأن تُطلق العنان لقوى مُزعزعة للاستقرار بوتيرةٍ أسرع من قدرة الأطر التنظيمية على التكيف، وأن تُركّز السلطة بوتيرةٍ أسرع من قدرة النظام الاجتماعي على الحفاظ على الشرعية الاجتماعية. لذلك، يجب على النظام الاجتماعي الفعّال أن يُنظّم ليس فقط ما يتغير، بل أيضًا سرعة هذا التغيير ونطاقه. بدون آليات تنظيمية كهذه – بدون فواصل، ومساحات للتداول، وضمانات للتكيف المحلي – حتى السياسات والابتكارات حسنة النية قد تُنتج عدم استقرار متسلسل.

9. الأيديولوجيا كعرض

إن الاستقطاب الأيديولوجي الحاد الذي يميز عصرنا ليس في كثير من الأحيان سببًا لاختلالاتنا، بل هو عرض لخلل أعمق. فهو يشير إلى فقدان التوازن الوظيفي داخل النظام الاجتماعي، وتآكل الثقة التي تجعل التوافق ممكنًا، والضغط النفسي الناتج عن التسارع دون اندماج. عندما تتوقف الأشكال الاجتماعية القائمة عن خدمة الوظائف الإنسانية الأساسية بشكل موثوق – كالأمن والكرامة والانتماء والأمل

– يلجأ الأفراد إلى سرديات جامدة وشاملة. وتتطرف الهويات حول مفاهيم اقتصادية مجردة، ويُنظر إلى التسوية السياسية على أنها خيانة وجودية. وبهذا المعنى، غالبًا ما تملأ الأيديولوجيا الجامدة الفراغ الذي خلفه انهيار التوازن الاجتماعي الديناميكي.

10. ما وراء الرأسمالية والاشتراكية

يُوجهنا هذا التحليل إلى ما وراء الثنائية الزائفة بين الرأسمالية والاشتراكية. فالسؤال الملحّ في القرن الحادي والعشرين ليس أيًّا من هذين البناءين الأيديولوجيين اللذين سادا في القرن التاسع عشر ينبغي أن يسود عالميًا. السؤال الحقيقي والعملي هو: أيّ الأشكال الاجتماعية التكيفية – التي تمزج بين ديناميكية السوق، والتخطيط الديمقراطي، والتضامن المجتمعي، والابتكار المؤسسي – قادرة على الحفاظ على الوظائف الإنسانية الأساسية بفعالية أكبر في ظل الظروف المعاصرة من التسارع الشديد، والنطاق العالمي، والقيود البيئية؟ لن يكون الجواب نموذجًا واحدًا قابلًا للتطبيق عالميًا، بل مجموعة من الهياكل التكيفية، المتجذرة في السياق المحلي، مع مراعاة الترابط العالمي، وتتميز جميعها بقدرة متأصلة على التعلم، والتغذية الراجعة، والتصحيح.

11. الانتقال إلى الأمام

مع ذلك، لا يمكن لهذا النقاش أن يبقى ضمن الحلقة المغلقة للتصميم الاجتماعي البشري. فالأنظمة الاقتصادية لا تعمل في فراغ. يرتبط نجاحها أو فشلها النهائي ارتباطًا وثيقًا بحالة المحيط الحيوي للكوكب – الحد الوظيفي النهائي، والشرط الثابت الأكثر حتمية، والذي لا يمكن لأي أيديولوجية تجاوزه. بعد أن رأينا كيف يمكن للأشكال الاجتماعية أن تتجاوز الوظائف الإنسانية، علينا الآن أن ننتقل إلى الساحة الأكثر واقعية وأهمية حيث يتجلى هذا التباين: العلاقة بين الحضارة الإنسانية والأرض نفسها. يتناول الفصل التالي قضايا البيئة والمناخ وحدود الكوكب، حيث تتحول العواقب المجردة لتجاوز الشكل للوظيفة إلى واقع ملموس ومرعب.

ففي التحليل النهائي، لا تنهار المجتمعات لاختيارها المسمى الأيديولوجي الخاطئ، بل لأنها تنسى الغاية من الأنظمة الاجتماعية.

الفصل التاسع: حالة الكوكب

الكوكب ليس مسرحًا خارجيًا، أو مجرد خلفية لدراما الطموح البشري والتاريخ. بل هو النظام الوظيفي الأساسي – السياق النهائي الذي لا يقبل المساومة – الذي نشأت فيه جميع أشكال الحياة البشرية، والذي تعتمد عليه اعتمادًا كليًا. لا يوجد نظام اجتماعي، مهما بلغ عدله؛ ولا نظام اقتصادي، مهما بلغ إنتاجه؛ ولا طموح تكنولوجي، مهما بلغ عظمته، بمعزل عن القيود البيئية. الأرض لا تجادل، ولا تتفاوض، ولا تتبنى أيديولوجيات. إنها ليست فكرة تُناقش، بل شرط يجب تحقيقه. قوانينها ثابتة، وحدودها مطلقة، وردود فعلها، عند تجاهلها، تكون نهائية.

1. علم البيئة كوظيفة ثابتة

يقودنا هذا إلى المستوى الأساسي للتحليل: علم البيئة كوظيفة ثابتة. على المستوى الكوكبي، لا تُعدّ الوظيفة مسألة تفضيل أو تفسير ثقافي، بل هي ثابتة فيزيائيًا بشكل قاطع. يجب على نظام الأرض الحفاظ على درجة الحرارة العالمية ضمن نطاق ضيق يسمح بالبقاء، ويجب عليه تدوير الماء والكربون والمغذيات في دورات مستمرة، ويجب عليه دعم التنوع البيولوجي الذي يوفر المرونة والقدرة على التجدد، ويجب عليه الحفاظ على التوازنات الكيميائية الدقيقة لغلافه الجوي ومحيطاته. هذه ليست سمات اختيارية أو وسائل راحة، بل هي شروط أساسية لجميع أشكال الحياة المعقدة، بما في ذلك الحضارة الإنسانية. ومن الأهمية بمكان أن هذه العلاقة ليست متناظرة. فالكوكب لا يتكيف مع الأنظمة السياسية أو الاقتصادية البشرية، بل يجب على الأنظمة البشرية، لكي تستمر، أن تتكيف – هيكليًا وثقافيًا وأخلاقيًا – مع وظائف الكوكب التي تمنحها الوجود.

2. الحضارة الإنسانية كشكل متغير

ضمن هذا الكل الوظيفي القديم، تُعدّ الحضارة الإنسانية شكلاً متغيراً، بل وجذرياً في الآونة الأخيرة. فعلى مدار معظم تاريخنا، كانت المجتمعات البشرية تُشكّل شكلاً بيئياً واحداً من بين أشكال بيئية عديدة، وكان نطاقها وتأثيرها محدوداً بالتأثير المباشر للنظم البيئية المحلية. كان عدد السكان محدوداً بالأمراض وتوافر الغذاء، وكان استخدام الطاقة مقيداً بالعضلات والنار والماء، وكانت العواقب البيئية محسوسة بشكل مباشر. حطمت الحضارة الحديثة هذه القيود من خلال إطلاق العنان للطاقة الهائلة المركزة للوقود الأحفوري. وقد أتاح ذلك تسارعاً غير مسبوق في الاستخراج والإنتاج والعولمة، بينما خلق في الوقت نفسه حاجزاً زمنياً خطيراً – تأخيراً – بين

الفعل البشري والتأثير البيئي. توسعت أشكالنا الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية بوتيرة مذهلة، بينما تم التعامل مع الوظائف الكوكبية التي دعمت هذا التوسع، عن طريق الخطأ، على أنها ركيزة سلبية لا نهائية.

3. النمو بلا حدود

أدى هذا إلى الخطأ المركزي على مستوى الكوكب: منطق النمو بلا حدود. لا يكمن الخلل في الصناعة أو التكنولوجيا أو حتى التنمية بحد ذاتها، بل في رفع شأن النمو غير المحدود والمجرد إلى مبدأ حاكم منفصل عن الواقع البيوفيزيائي. فقد انفصل النمو عن التكلفة البيئية، وقُيِّم بمؤشرات مالية مجردة، ووُضِّح كضرورة اقتصادية واجتماعية دائمة. مع ذلك، لا تنمو النظم البيئية إلى ما لا نهاية؛ بل تنضج وتدور وتصل إلى توازن ديناميكي. عندما يتجاوز الطلب البشري على النمو الخطي بشكل مزمن القدرة التجديدية للنظم الدائرية، يتراكم الخلل بصمت في أجواء متغيرة، وتربة مستنزفة، وسكان يتناقص عددهم – إلى أن يأتي تصحيح النظام لا كإشارة لطيفة، بل كإعادة معايرة مدمرة، وغالبًا ما تكون عنيفة.

4. المناخ كآلية تغذية راجعة، لا عقاب

في هذا السياق، يُعد اضطراب المناخ آلية تغذية راجعة، لا عقابًا. إن تأطير أزمة المناخ بمصطلحات أخلاقية أو حزبية بحتة – كعقاب إلهي أو مؤامرة سياسية – يُسيء فهم طبيعتها بشكل عميق. فالتغير المناخي ليس عقابًا. إنها استجابة نظامية ارتدادية. إنها رد فعل الكوكب المتكامل على اختلال توازن الطاقة المفرط، والتغيرات الجوية العميقة، والاضطراب الشامل للدورات البيوجيوكيميائية. تُعدّ التغذية الراجعة الوسيلة التي تُعبّر بها الأنظمة المعقدة عن حدودها وتحافظ على توازنها. إن تجاهل هذه التغذية الراجعة، أو اعتبارها غير ملائمة أو قابلة للنقاش، لا يُزيلها. بل يسمح فقط بتراكم الضغط، مما يضمن أنه عندما يظهر التصحيح أخيرًا، ستتضاعف قوته، وستكون آثاره أوسع نطاقًا وأقل قابلية للسيطرة.

5. الإنتروبيا على نطاق الكوكب

هذه العملية تعبير عن الإنتروبيا على نطاق الكوكب. من الناحية البيئية، لا تتجلى الإنتروبيا كفوضى بسيطة، بل كتدهور مستمر للتعقيد الوظيفي والإمكانات التجديدية. وتظهر على شكل استنزاف للموارد المحدودة، وفقدان كارثي للتنوع البيولوجي، وتآكل التربة السطحية الخصبة، وتحمض المحيطات. هذه ليست "قضايا

بيئية" معزولة وغير مترابطة. إنها أعراض مترابطة لحالة نظامية واحدة: الاقتصاد البشري الذي يعمل كمحرك استنزافي، يُبدد رأس المال الوظيفي المتراكم على الكوكب بوتيرة أسرع من قدرته على التجدد. لا يكمن الخطر الأكبر للاستنزاف في الدمار الفوري، بل في التآكل الخبيث الذي لا رجعة فيه لقدرة النظام على التعافي والتكيف واستدامة الحياة.

6. وهم الاستبدال التكنولوجي

من الاستجابات الشائعة والمغرية لهذا الضغط ما يُعرف بوهم الاستبدال التكنولوجي، أي الاعتقاد بأن الابتكار البشري قادر في نهاية المطاف على استبدال الوظائف البيئية. يمكن للتكنولوجيا، بل يجب عليها، أن تلعب دورًا حاسمًا: فهي قادرة على تحسين الكفاءة، والحد من الهدر، والمساعدة في تخفيف الأضرار. لكن التكنولوجيا لا تستطيع إلغاء قوانين الديناميكا الحرارية، أو إعادة خلق التنوع البيولوجي المفقود على نطاق واسع، أو أن تحل محل الدورات المتكاملة والمستدامة ذاتيًا للمحيط الحيوي السليم. إن الاستراتيجية التي تعتمد على الكفاءة وحدها، دون تقييد مصاحب لإجمالي تدفق الموارد، غالبًا ما تُسرّع الاستنزاف بطريقة أنظف. إن "الحلول" التي تتجاهل المتطلبات الوظيفية الأساسية للنظام الكوكبي تُخاطر بأن تصبح امتدادات مُعقدة للمشكلة الأصلية.

تبدأ كل تقنية كامتداد للقيود البشرية، لكنها تُخاطر بأن تُصبح بديلاً عن الحكمة البشرية. عندما تُفوَّض القرارات المتعلقة بالكلام، والوضوح، والمخاطر، أو الشرعية إلى أنظمة آلية، تحل الكفاءة محل التفكير والتدبر كقيمة أخلاقية أساسية. ما هو مُحسَّن ليس بالضرورة ما هو حكيم.

7. الزمن الكوكبي مقابل الزمن البشري

تتفاقم هذه الأزمة بسبب التباين الكبير في المقاييس الزمنية. تعمل المؤسسات البشرية وفق دورات سياسية تمتد لسنوات، ودورات مالية ربع سنوية. أما النظم البيئية، والأنظمة المناخية، والعمليات الجيولوجية، فتعمل وفق مقاييس تمتد لعقود، وقرون، وآلاف السنين. عندما تُترك الحوافز البشرية قصيرة الأجل تُسيطر على إدارة هذه الأنظمة طويلة الأجل، يصبح عدم الاستقرار المزمن أمرًا حتميًا. لذا، فإن الاستدامة الحقيقية ليست مجرد موقف أخلاقي يُعنى بالمستقبل، بل هي التحدي العملي والهيكلي المتمثل في مواءمة إيقاعات صنع القرار البشري مع الإيقاعات الوظيفية للأرض.

8. المسؤولية دون مركزية بشرية

يتطلب معالجة هذا الأمر مسؤولية دون مركزية بشرية. إن إدراك حدود الكوكب لا يستلزم فلسفة تُقلل من قيمة الإنسان أو إمكاناته، بل يتطلب إعادة تموضع واضحة للبشرية ضمن النظام الوظيفي الأوسع. لسنا سادة الطبيعة المنفصلين عنها، ولا مجرد متطفلين عليها. نحن مشاركون فاعلون وواعون، منغمسون في آليات هذا النظام. لا تنبع مسؤوليتنا من سردية الخطيئة الأصلية أو الشعور بالذنب، بل من إدراكنا الواعي لقدرتنا الفريدة على تغيير النظام الذي نعتمد عليه. إنها مسؤولية نابعة من القدرة والنتائج المترتبة عليها.

9. الانهيار كخلل في التوازن، لا كنهاية العالم

يُغير هذا المفهوم الجديد فهمنا لخطر الانهيار باعتباره خللاً في التوازن، لا كنهاية العالم. نادرًا ما يكون الانهيار الكوكبي حدثًا مفاجئًا ومثيرًا. في أغلب الأحيان، يتجلى كتراجع تدريجي في مرونة النظام: كإخفاقات متتالية في الغذاء والماء واستقرار المناخ، وكتقلص مستمر لهامش الخطأ. لا تنهار الحضارات لأن الكوكب يصبح "معاديًا"، بل تنهار لأن أشكالها – أنماط استخراجها واستهلاكها ومعتقداتها – تستمر طويلًا بعد استنفادها القدرة الوظيفية لأساسها البيئي. النظام لا يهاجم، بل يتوقف ببساطة عن دعم هذا الخلل.

10. الكوكب كقيد نهائي

وهكذا، يبرز الكوكب كقيد نهائي لا يقبل المساومة. لا يمكن لأي أيديولوجية – رأسمالية أو اشتراكية أو غيرها – أن تتفاوض مع قوانين الكيمياء والفيزياء. لا يمكن لأي سوق أن يُسعّر بدقة الخسارة الوظيفية لمناخ مستقر. لا يمكن لأي إيمان أن يُعطّل قوانين الديناميكا الحرارية. الأرض لا تُكيّف ثوابتها لتلبية رغبات الإنسان؛ بل تُفرضها. لذا، فإن السؤال المطروح أمام البشرية واضح في بساطته، وإن كان هائلاً في صعوبته: هل يُمكن إعادة معايرة الأشكال الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية البشرية عمدًا وبسرعة لتعمل ضمن حدود وظائف الكوكب؟ أم أن التصحيح الضروري سيُفرض خارجيًا، من خلال تفاقم الأزمات والخسائر والانكماش؟

11. الانتقال إلى الأمام

بعد التمييز بين الثابت والمتغير من خلال الطبيعة وعلم الأحياء والمجتمع، والآن النظام الكوكبي، يتجه بحثنا إلى أعمق طبقاته وأكثرها جوهرية. لفهم لماذا تُصرّ البشرية، رغم امتلاكها معرفة واسعة، على تصميم أشكال تتجاوز الحدود الوظيفية، علينا أن ندرس البنى الكامنة وراء الفهم نفسه. علينا أن نلجأ إلى ميتافيزيقا الواقع، وطبيعة الوعي، وفيزياء الوجود – حيث تتقاطع الثوابت والظهور والإدراك، وحيث يتشكل توجهنا الأساسي نحو الوجود.

لا يطلب الكوكب من البشرية التخلي عن إبداعها أو مستقبلها، بل يطلب منها أن تتذكر مكانتها.

الجزء السادس – الميتافيزيقا والوعي

الفصل العاشر: الفيزياء والميتافيزيقا والثابت

كل نقاش حول التغيير والتحول والتباين يفترض، على مستوى أساسي، وجود شيء لا يتغير. قبل أن تتطور الحياة بأشكالها المتعددة، وقبل أن تنظم المجتمعات تسلسلاتها الهرمية المعقدة، وقبل أن يتأمل الوعي في ذاته، لا بد من وجود إطار من الثوابت – مجموعة من القواعد والثوابت غير المتغيرة – يمكن لأي تباين أن يحدث ضمنه وأن يكون مفهوماً. الفيزياء هي العلم الذي يُسمي هذه الثوابت ويقيسها؛ أما الميتافيزيقا فهي البحث الذي يسأل عما تدل عليه وما تشير إليه. يقف هذا الفصل عند ذلك التقاطع الحيوي، حيث تلتقي القيود القابلة للقياس في الكون بأسئلة المعنى التي تثيرها حتماً.

1. الثابت كإطار، لا كموضوع

يجب أن نبدأ بفهم الثابت كإطار، لا كموضوع. لا ينبغي تصور الثابت كجسم جامد، أو كيان متجانس بين سائر الأشياء في الكون. بل يُفهم بدقة أكبر على أنه بنية تمكينية: مجموعة القيود والثوابت والأنماط العلائقية والحدود والشروط المسبقة التي تُشكل الوجود. في الفيزياء، تظهر هذه القيود والثوابت كقوانين أساسية وثوابت لا بُعدية. أما في الميتافيزيقا، فتظهر كشروط ضرورية للفهم والترابط والوجود ذاته. لا يُنافس الثابت التغيير؛ فهو ليس الخصم في دراما التحول. بل على العكس، هو الأرضية الثابتة التي يُصبح عليها رقص التغيير ممكنًا، مجرى النهر الذي يُعطي النهر مساره وقوته.

2. الثوابت الفيزيائية والواقع المسموح به

يتجلى الواقع الملموس لهذا الإطار في "الثوابت الفيزيائية وبنية الواقع المسموح به". يكشف علم الفيزياء الحديث عن كون تحكمه مجموعة من الثوابت العددية الدقيقة بشكل ملحوظ، والتي تبدو عشوائية ظاهريًا: ثابت الجاذبية، وسرعة الضوء، وقوة القوى الأساسية، وكم الفعل. هذه ليست مجرد قيم فرضية، بل هي معايير الواقع التي لا تقبل المساومة. أي انحراف طفيف في هذه القيم من شأنه أن يجعل الذرات غير مستقرة، والنجوم عاجزة عن الاشتعال، والتفاعلات الكيميائية المعقدة مستحيلة، والحياة غير قابلة للتصور. لا تملي هذه الثوابت نتائج محددة – فهي لا ترسم تاريخ نجم أو فكر عقل – لكنها تحدد بدقة فضاء الإمكانيات الكونية برمته.

إنها تحدد ما يمكن أن يظهر، لا ما يجب أن يظهر. بهذا المعنى، الكون مقيد بشكل مذهل ومبدع بشكل لا يُصدق في آن واحد.

3. التكوين من الأسفل إلى الأعلى ضمن قيود من الأعلى إلى الأسفل

تخلق هذه العلاقة مبدأً معماريًا كونيًا: التكوين من الأسفل إلى الأعلى ضمن قيود من الأعلى إلى الأسفل. إن التعقيد الذي نراه في الكون يتجلى من الأسفل إلى الأعلى. تتحد الجسيمات البسيطة لتكوين الذرات، والذرات لتكوين الجزيئات، والجزيئات لتكوين طلائع الحياة، والحياة لتكوين المجتمعات الواعية. هذه هي قصة الظهور، قصة الابتكار الناجم عن التضافر. ومع ذلك، والأهم من ذلك، أن أيًا من هذا الإبداع التصاعدي لا ينتهك القيود التنازلية التي وضعها الثابت. فمهما بلغ تعقيد أي بنية أو استقلاليتها الظاهرية – مجرة، غابة استوائية، حضارة – يجب أن تخضع لقانون حفظ الطاقة، وتلتزم بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية، وتعمل ضمن حدود طاقة محدودة. لذا، فإن الظهور هو قصة حرية نسبية، لا استقلالية مطلقة. يعمل الكون كدائرة متكاملة مصممة ببراعة: تولد العمليات التصاعدية عددًا لا حصر له من الأشكال والسلوكيات المتنوعة، لكن كل هذا النشاط محكوم وممكن بفضل بنية ثابتة من القوانين الفيزيائية.

4. الميتافيزيقا كتوضيح للحدود

لفهم الأهمية الكاملة لهذا البناء، ننتقل إلى الميتافيزيقا كتوضيح للحدود. لا تسعى الميتافيزيقا إلى استبدال الفيزياء أو مناقضتها، بل دورها هو توضيح الأسئلة التي لا تستطيع الفيزياء، بحكم تصميمها المنهجي، الإجابة عنها. تجيب الفيزياء عن سؤال "كيف": كيف تتطور العمليات، وما هي القواعد الثابتة، وكيف تتصرف الأنظمة في ظل قيود معينة. أما الميتافيزيقا فتسأل عن سؤال "لماذا": لماذا يوجد نظام متماسك بدلًا من الفوضى المطلقة، ولماذا يكون هذا النظام مفهومًا للعقول التي نشأت في ظله، ولماذا يسمح الواقع –بل ويشجع– على التماسك والجمال والمعنى. هذه ليست أسئلة متنافسة، بل هي استفسارات متداخلة. ترسم الفيزياء خريطة للمجال، بينما تنظر الميتافيزيقا في سبب وجود مجال يمكن رسم خريطته، وماذا يعني وجودنا هنا لرسم هذه الخريطة.

5. خطأ الإفراط الميتافيزيقي

يُعدّ خطأ الإفراط الميتافيزيقي خطرًا معاكسًا، وهو إضفاء جوهر مستقل أو قوى خفية على كل نمط أو لغز. فليس كل انتظام يستلزم كيانًا ميتافيزيقيًا جديدًا، أو تدخلًا خارقًا للطبيعة، أو اللجوء إلى قوى غامضة. إنّ ضبط النفس الميتافيزيقي لا يقل أهمية عن الخيال الميتافيزيقي. فالثابت ليس إضافةً غامضةً إلى واقع فوضوي، بل هو النظام المتأصل في حقيقة التماسك والاتساق والفهم. وهو ما هو موجود بالفعل عندما نجد أن معادلاتنا تتطابق مع الكون.

6. القوانين كدعوات لا أوامر

يقودنا هذا إلى رؤية أكثر شمولية: القوانين كدعوات لا أوامر. فقوانين الفيزياء لا تُملي نتائج محددة كما لو كانت مرسومًا من طاغية أو شفرة جامدة لبرنامج حاسوبي. يُفهم هذا بشكل أفضل على أنه دعوات تمكينية: فهو يسمح بظهور بنى معينة، ويستبعد أخرى تمامًا، ويُشكّل فضاء الظهور المحتمل بطرق احتمالية، لا حتمية. ضمن الحدود الثابتة التي تضعها هذه القوانين، يمكن أن تنشأ اللا حتمية الحقيقية، والابتكار، والحرية – بل وتنشأ بالفعل. الحتمية على مستوى الجسيمات الأساسية ليست عدوًا للانفتاح على مستوى الكائنات الحية، أو المجتمعات، أو الوعي. إنها جوانب متكاملة لواقع متعدد الطبقات، يعمل كل منها على نطاق وصفه الخاص.

7. الثابت ومسألة المعنى

في هذا الكون المنظم، يصبح الثابت أساس المعنى. لا يمكن للمعنى أن ينشأ في كون من التدفق الخالص غير الخاضع لقوانين. لو كان أي شيء ممكنًا في أي لحظة، لما استقر أي نمط، ولما تشكلت أي ذاكرة، ولما استمرت أي هوية من لحظة إلى أخرى. يتطلب المعنى التفاعل بين التكرار والاختلاف؛ فهو يحتاج إلى خلفية ثابتة من الثابت، يستطيع المتغير من خلالها أداء سرديته. يتطلب الاختلاف استقرارًا تحت التباين. لذا، فإن الثابت ليس معادياً للمعنى أو الغاية أو القيمة، بل هو شرطها الأساسي. إنه الإطار الذي يسمح برؤية اللوحة.

إن وجود هذا الإطار المادي الثابت يثير حتماً سؤالاً عميقاً وحاسماً: كيف يُمكن لكون تحكمه قوانين ثابتة وغير شخصية أن يُولّد تجربةً ذاتيةً ووعياً وبحثاً عن المعنى؟ هذه هي العتبة التي تلتقي فيها الفيزياء والميتافيزيقا في لغز الوعي. تستطيع الفيزياء وصف المسرح والأدوات بتفصيل دقيق، بينما تستطيع الميتافيزيقا التساؤل عن

سبب وجود المسرح أصلاً. لكن الوعي هو اللحظة التي يصبح فيها هيكل الكون تجربةً، حين لا يُقاس الثابت فحسب، بل يُحس ويُعرف.

8. نحو الوعي

للمضي قدماً، علينا إذن عبور هذه العتبة. علينا مواجهة أعمق وأوثق نقطة التقاء بين الشكل والوظيفة: الوعي نفسه. سيتناول الفصل التالي طبيعة هذا الواقع المعاش – خلفية الوعي، وحقيقة الكيفيات الحسية، والحدود التفسيرية لعلم الأعصاب، والصلة الحاسمة بين تجسيدنا المادي والمعنى الذي نستخلصه من الوجود. عندها فقط يمكن فهم مبادئ الثابت والمتحول ليس كمجرد حقائق كونية أو بيولوجية مجردة، بل كديناميكيات أساسية للواقع المعاش.

9. الانتقال إلى الأمام

ففي التحليل النهائي، الكون الذي يكشفه هذا البحث ليس فوضى بالكاد يقيدها قانون اعتباطي، بل هو كون منظم – إطار يتمتع بثبات عميق وموثوق لدرجة أنه قادر على منح، بل ورعاية، هبة الحرية المذهلة.

الفصل الحادي عشر: الوعي، والشكل، والمعنى

إذا كانت الفيزياء تُوفر الإطار الثابت للواقع، وعلم الأحياء يُعبّر عن مظاهره الحية والمتغيرة، فإن الوعي يُوفر بُعده الداخلي – بُعد المعنى. فبدون الوعي، سيظل الكون يسير وفقًا لقوانينه الكامنة. ستشتعل النجوم، وتتشكل الكواكب، وتتطور النظم البيئية، لكن كل ذلك سيحدث في ظلام دامس صامت، كمسرحية بلا جمهور، وقصة لا تُروى لأحد. يتناول هذا الفصل الوعي لا كجسم شاذ بين الأجسام، ولا كشبح في الآلة، بل كواجهة أساسية يتحول من خلالها الشكل المادي إلى تجربة معيشة، وترتقي الوظيفة البيولوجية إلى دلالة محسوسة.

1. الوعي كواجهة Interface

يجب أن نبدأ بإعادة تصور الوعي كواجهة. غالبًا ما يحاصرنا النقاش الدائم بين قطبين غير مُرضيين: التعامل مع الوعي كمجرد نتاج ثانوي للمادة المعقدة، أو كمادة غامضة أثيرية منفصلة عنها. كلا الرأيين يُغفل دوره الوظيفي الأساسي. يُفهم الوعي على أفضل وجه باعتباره واجهة تفاعلية – عملية ديناميكية تنشأ عند تقاطع البنية المادية والواقع المعيشي. إنه الوسيط الذي يلتقي فيه الشكل بالمعنى، حيث تتحول المعلومات إلى تفسير. إنه لا ينفصل عن التجسيد، بل هو جزء لا يتجزأ منه. ومع ذلك، لا يمكن اختزاله إلى الآلية التي تُشكّله. إنه المعرفة التي تُصاحب الوجود.

2. خلفية الوعي

تفترض هذه المعرفة ما يُمكن تسميته "خلفية الوعي". كل تجربة محددة – طعم العسل، ثقل الحزن، لون السماء – تنشأ ضمن أساس سابق وأكثر جوهرية. هذه الخلفية ليست في حد ذاتها تجربة يُمكن الإشارة إليها؛ إنها حالة الوعي السابقة، وهي حالة استقبال تسبق أي محتوى معين، ووحدة متماسكة تجمع الأحاسيس المتباينة معًا كتجربة شخصية. إنها اللوحة الصامتة التي تظهر عليها لوحة اللحظة. هذا يُشير إلى أن الوعي ليس مجرد شيء نمتلكه، كأنه ملكية. إنها خاصية من خصائص الواقع – قدرة على الحضور تتجلى من خلال الشكل الخاص للكائن الحي المُدرك.

3. الكيفيات الحسية وإشكالية المعنى

يقودنا هذا إلى لغز الكيفيات الحسية وإشكالية المعنى الذي لا يزال قائماً. تُشكل الكيفيات الحسية – أي الإحساس الخام والذاتي بجوهر اللون الأحمر، والألم، والفرح – تحدياً مستمراً ومفيداً للتفسيرات الاختزالية البحتة. لقد حقق علم الأعصاب تقدماً هائلاً في ربط النشاط العصبي بالإحساس، ورسم خرائط لحالات الدماغ بالسلوكيات، وربط الأنماط بالتقارير اللفظية. ومع ذلك، فإن ما يعجز عنه، بحكم تصميمه المنهجي، هو تفسير سبب كون بعض التفاعلات الكهروكيميائية تُشعرنا بأي شيء على الإطلاق. هذا ليس قصوراً في العلم، بل هو حدٌّ يُحدد نطاق شكلٍ معين من البحث. فالمعنى لا يكمن في النشاط العصبي، بل ينشأ عندما يُصادفُ هذا التركيب المادي، ويُستوعب، ويُفسر من الداخل – من منظور الشخص الأول للواجهة الواعية نفسها. أو كما يقول الفيلسوف كولين ماكجين: "بطريقة ما، نشعر أن ماء الدماغ المادي يتحول إلى خمر الوعي".

4. الشكل بلا معنى ناقص

وهكذا، نرى أن الشكل بلا معنى ناقص. فالوصف الشامل لعمليات الدماغ، مهما بلغ تفصيله، يظل دقيقًا من الناحية البنيوية، ولكنه فارغ وجوديًا إن لم يُشر إلى التجربة. فالشكل وحده، في وصفه الموضوعي، لا يُمكنه تفسير المعاناة أو النية أو القيمة أو الفهم. هذه ليست أوهامًا ثانوية، بل هي جوهر الواقع المعاش. يظهر المعنى تحديدًا عندما يندمج الشكل الموضوعي في مجال ذاتي متماسك. وبهذا المعنى، يُعد الوعي هو الموضع الذي تُترجم فيه الوظيفة البيولوجية إلى دلالة محسوسة، حيث لا يكون التوازن مجرد عملية تنظيمية، بل أساسًا للراحة أو الضيق؛ وحيث لا يكون الترابط الاجتماعي مجرد استراتيجية تطورية، بل أساسًا للحب والانتماء.

5. الدماغ كوسيط مُجسّد

في هذه العملية، يعمل الدماغ كوسيط مُجسّد، لا كمولد وحيد. فالدماغ لا يُنتج الوعي كما يُنتج المصنع منتجًا، بل هو وسيط بالغ التعقيد والدقة، يُرشّح من خلاله الوعي ويُحدّد موقعه ويُضفي عليه طابعًا خاصًا. يُقيّد الوعي ويُركّزه، ويُرسّخ هويةً متصلة، ويُمكّن من سرد الذاكرة. يُشكّل الدماغ الوعي كما تُشكّل العدسة الضوء – من خلال تركيزه وترشيحه وتنظيمه. إذا تضررت العدسة، تتغير طبيعة التجربة أو تتشوه أو تضيق. لكن وجود التشوه لا ينفي وجود الضوء نفسه؛ بل يُظهر فقط دور العدسة في إعطاء الضوء شكلاً مُحدداً ومنظماً.

6. التبادل والتكامل والمعنى

إذن، يتميز الوعي بالتبادل والتكامل المستمر، وظهور المعنى. فالتجربة ليست سلسلة من اللقطات الثابتة والمعزولة، بل هي عملية تكامل متواصلة. تتفاعل الأحاسيس والأفكار والذكريات والمشاعر باستمرار، متبادلةً المعلومات، ومُنشئة لمجالًا موحدًا من الوعي لحظةً بلحظة. لا يكمن المعنى في نقاط بيانات معزولة، بل ينشأ من العلاقات والسياق، ومن كيفية تموضع الإشارات ضمن بنية علائقية متماسكة. الإشارة العصبية المنفردة لا معنى لها، فدلالتها تنبع من موقعها في شبكة واسعة مترابطة من التاريخ المعاش والسياق الحالي والتوقعات المستقبلية.

7. حدود علم الأعصاب

يسلط هذا الضوء على الحدود الضرورية لعلم الأعصاب. لقد أضاء علم الأعصاب ببراعة الارتباطات العصبية للوعي، وآليات الإدراك، والأسس البيولوجية للذاكرة والعاطفة. ومساهماته لا غنى عنها. ومع ذلك، ثمة أسئلة لم يُجب عنها، ولا يستطيع بطبيعته الإجابة عنها: لماذا توجد التجربة أصلاً؟ لماذا يجب أن يصاحب البنية المادية بُعدٌ داخلي؟ لماذا يتسم الوعي بالوحدة بدلاً من التجزؤ؟ هذه ليست مجرد ثغرات في البيانات تنتظر تجارب مستقبلية، بل هي أسئلة من نوع مختلف، أسئلة تفسير وجودي تتجاوز منهجية ربط الحالات المادية بالتجربة الذاتية المعنية.

8. الوعي والحرية

في هذا البُعد الداخلي، يُقدم الوعي شكلاً فريداً من الانفتاح. يخلق الوعي مساحة – فجوة – بين المُحفز والاستجابة، مما يسمح بالتأمل، وتأجيل الاندفاع، وتقييم البدائل، واستجابة تتجاوز مجرد رد الفعل. الحرية، بالمعنى الإنساني، لا تتطلب هروباً ميتافيزيقياً من سلسلة السببية المادية، بل تتطلب مساحة داخل تلك السببية – قدرة على الاختيار والتوجيه الذاتي تُتيحها الطبيعة التأملية والتكاملية للفكر الواعي. يوفر الوعي تلك المساحة. إنه الإنجاز التطوري الذي يحوّل العمليات الحتمية أو الاحتمالية إلى مسرح للتداول والأخلاق والفن.

9. المعنى كوظيفة استقرار

من هذا المنظور، يُعدّ المعنى وظيفة استقرار، وليس ترفًا نفسيًا. فبدون إطار للمعنى، تتجزأ التجربة المتماسكة، وتنهار الدوافع إلى ضياع، وتتلاشى الهوية الشخصية.

يُرسّخ المعنى الوعي من خلال دمج التجارب المتباينة في سرد متكامل، وتوجيه العمل نحو غايات قيّمة، والحفاظ على إحساس بالاستمرارية عبر الزمن. وعندما يتلاشى المعنى – نتيجة للصدمات، أو التغيرات الاجتماعية السريعة، أو الحيرة الوجودية – غالبًا ما يتبع ذلك اضطرابات نفسية. ليس هذا لأن المعنى إضافة مُستساغة، بل لأنه ضروري بنيويًا لسلامة الكائن الواعي.

10. الوعي كنقطة التقاء

وهكذا، يُمثّل الوعي نقطة الالتقاء النهائية. إنه الرابط الفريد الذي يلتقي فيه القانون الفيزيائي غير الشخصي بالواقع الشخصي المعاش؛ حيث يُترجم الشكل الموضوعي إلى وظيفة ذاتية. حيث تلتقي الثوابت الكونية للثابت بالتفاصيل الدقيقة والمتغيرة باستمرار للمتحول. الوعي ليس وليد الصدفة التطورية ولا فكرة ميتافيزيقية لاحقة. إنه المكان الذي يصبح فيه الكون، في ركنٍ ما على الأقل، مفهومًا لذاته – حيث يعود الواقع إلى نفسه ليشهد ويتساءل ويهتم.

11. الانتقال إلى الأمام

بعد أن رسخنا الوعي كواجهة أساسية، نجد أنفسنا مضطرين لإعادة النظر في الأسئلة العميقة التي يطرحها حول الحرية والازدواجية وطبيعة السببية. يجب أن يتجه البحث الآن لاستكشاف كيف يمكن فهم هذه الازدواجيات الظاهرة – العقل والمادة، الحرية والحتمية، الكلي والجزئي – لا كأضداد لا يمكن التوفيق بينها، بل كجوانب متكاملة لكلٍّ متماسك. يجب أن ندرس الازدواجية دون الوقوع في فخها، والحرية دون اللجوء إلى قوى خارقة للطبيعة. ففي الحساب الأخير، ليس الوعي مادةً غامضةً تُضاف إلى واقع ماديّ. بل هو الواقع نفسه يتأمل وجوده. عندها فقط يمكن إظهار البنية الكاملة والمتكاملة للثابت والمتحول بشكل كامل.

الجزء السابع – الازدواجية والحرية واللاهوت

الفصل الثاني عشر: الازدواجية **Duality**بدون ثنائية **Dualism**

ينجذب الفكر البشري إلى المتضادات كما تنجذب برادة الحديد إلى المغناطيس. النور والظلام، المادة والعقل، النظام والفوضى، الحرية والضرورة – هذه الثنائيات شكلت لغتنا، وأحيت أساطيرنا، وضبطت علومنا، وصاغت أعمق فلسفاتنا. ومع ذلك، استمر لقرون عديدة خطأ جوهري في نظرتنا: خطأ الخلط بين الازدواجية والثنائية، والاعتقاد بأنه لمجرد قدرتنا على وصف الواقع بمصطلحات متناقضة، فلا بد أنه يتكون من مواد منفصلة ومتناحرة. وقد ولّد هذا الفهم الخاطئ مشاكل وهمية وأشعل نقاشات مستعصية. لقد حان الوقت لتصحيح هذا المنظور. الازدواجية لا تعني الانقسام؛ بل تعني العلاقة. الأزواج التي نلاحظها ليست شقوقًا في الوجود، بل هي الإيقاعات المتكاملة لأنفاسه المتماسكة.

1. خطأ الثنائية **Dualism**

يجب علينا أولًا تشخيص خطأ الثنائية. تؤكد الثنائية، في صورتها الكلاسيكية، أن الواقع منقسمٌ جوهريًا إلى عوالم لا يمكن التوفيق بينها: العقل مقابل المادة، والروح مقابل الجسد، والإلهي مقابل العالم المخلوق. وبمجرد إقرار هذا الانفصال الميتافيزيقي، تبرز مشكلةٌ مستعصية: كيف تتفاعل هذه العوالم المنفصلة؟ كيف يؤثر عقلٌ غير مادي على دماغٍ مادي؟ كيف يمكن للمعنى أو القيمة أو الغاية أن تدخل عالمًا يُوصف فقط بالأسباب الفاعلة؟ تخلق الثنائية فجواتٍ تفسيرية لا يمكنها ردمها، مُولِّدةً ألغازًا حيث لا حاجة لها. لا تنشأ هذه المشاكل لأن الفروق التي نلاحظها – بين الفكر والشيء، بين القانون والاختيار – وهمية، بل لأننا أخطأنا في اعتبار تمييزٍ ضروري فصلًا وجوديًا. لقد أخذنا النغمات المختلفة في لحنٍ واحد وأعلنّا أنها من ألحانٍ مختلفة.

2. الثنائية كقطبية هيكلية

إن السبيل الأجدى هو فهم الثنائية كقطبية هيكلية ضمن الوحدة. من الأفضل فهم الثنائية لا على أنها انقسام، بل كقطبية ضرورية ضمن نظامٍ واحد متكامل. يتجلى واقع واحد من خلال جوانب متكاملة ومترابطة: الموجة والجسيم في ميكانيكا الكم؛ الاستقرار والتغير في الكائنات الحية؛ التقييد والانفتاح في الأنظمة الاجتماعية؛ الشكل والوظيفة في علم الأحياء. هذه ليست مواد متنافسة تتصارع

على الهيمنة، بل هي أوصاف متكاملة لواقع واحد متماسك، يُنظر إليه من زوايا مختلفة أو يعمل على مستويات تنظيمية متباينة. بإزالة أي من قطبيه – الاستقرار أو التغير، التقييد أو الحرية – ينهار النظام إلى العدم. فهما يحتاجان بعضهما البعض ليكونا على ما هما عليه.

3. التناظر والتقابل Symmetry and Opposition

يجد هذا المبدأ تأكيدًا عميقًا في العالم الطبيعي من خلال التناظر **Symmetry** والتقابل **Opposition** . يكشف علم الفيزياء الحديث أن التقابل ليس سمة عرضية للواقع، بل ضرورة بنيوية. فالمادة تقترن بالمادة المضادة؛ والشحنة الموجبة بالشحنة السالبة؛ والتوسع الكوني بالانكماش الجاذبي. ولا تلغي هذه الأزواج بعضها بعضًا بشكل اعتباطي. بدلاً من ذلك، تُحدد هذه العوامل حدود التفاعل، وتُمكّن تدفق الطاقة، وتحافظ على التوازن الديناميكي الذي يمنع الكون من الانهيار إلى رتابةٍ مُملة. إن التضاد هو الآلية التي تحافظ بها الأنظمة المعقدة على استقرارها، وتُوزع القوى، وتتجنب الفناء الانتروبي. من هذا المنطلق، لا يُعد الاختلاف نقيضًا للنظام، بل هو الوسيلة التي يستمر بها النظام ويُعبّر عن نفسه.

4. التكامل في الأنظمة الحية

ينطبق هذا المنطق بسلاسة على مفهوم التكامل في الأنظمة الحية. فالحياة البيولوجية عبارة عن تناغم بين عمليتين متقابلتين. تعمل الخلايا العصبية من خلال تفاعلٍ بين الإثارة والتثبيط. تُوازن الكائنات الحية بين النمو والتحلل، والاستهلاك والتجديد. لا يُحافظ القلب على الحياة من خلال انقباضٍ دائم، بل من خلال التناوب الإيقاعي بين الانقباض والانبساط. يعتمد النظام البيئي للغابة على كلٍ من عملية التمثيل الضوئي والتحلل. الحياة ليست حالة انسجام تتحقق بإزالة التوتر، بل هي انسجامٌ ممكنٌ ومستدامٌ من خلال الإدارة الإبداعية للتوتر. إن القطبية ليست عيبًا يجب التغلب عليه، بل هي محرك الحيوية.

5. الوعي والثنائية الداخلية والخارجية

لا يوجد مكان تتجلى فيه هذه العلاقة الوثيقة أكثر من موضوع "الوعي والثنائية الداخلية والخارجية". تقدم لنا التجربة الإنسانية ثنائية قوية ومباشرة: العالم الخاص للإحساس الداخلي والفكر والشعور، والعالم العام للأشياء المادية والكائنات الأخرى. من شأن الثنائية أن تمزق هذين العالمين، تاركةً لنا شبحًا غامضًا في آلة.

أما المنظور العلائقي، فيرى فيهما قطبين لعملية واحدة موحدة. العالم الداخلي ليس جوهرًا منفصلًا؛ بل هو العالم الخارجي منعكسًا، مُصفّى، ومُفسّرًا من خلال عدسة فريدة لجهاز عصبي مُجسّد. في المقابل، يُشكّل العالم الخارجي العالم الداخلي باستمرار من خلال المدخلات الحسية، والتفاعل الاجتماعي، والقيود المادية. الوعي هو الجسر الحي الذي يربط هذين القطبين، ليس بمحو اختلافهما، بل بكونه نشاط تبادلهما المستمر والسلس.

6. إعادة النظر في الحرية والضرورة

يُتيح لنا هذا الإطار إعادة النظر في مفهومي الحرية والضرورة. غالبًا ما تُعرَّف الحرية تعريفًا سلبيًا، باعتبارها غياب القيود أو الأسباب. وهذا فهم خاطئ تمامًا. فالحرية المطلقة، غير الخاضعة لأي قانون، لا يمكن تمييزها عن العشوائية – إنها عجز عن الفعل المقصود، لا تحقيقه. تتطلب الحرية الهادفة والمتماسكة بنيةً واضحة. وهي تنشأ تحديدًا حيث تكون القيود مستقرة بما يكفي لتوفير خيارات قابلة للتنبؤ، وحيث يكون التأمل ممكنًا، وحيث لا يكون الفعل، رغم تأثره بعوامل لا حصر لها، مُحددًا مسبقًا بكل تفاصيله. إن قوانين الفيزياء ومعايير علم الأحياء ليست سجنًا للحرية؛ بل هي شرطها المُمكِّن، واللوحة الثابتة التي يُمكن أن ترسم عليها لمسة فرشاة الاختيار شكلًا ونتائج. تُوفر الضرورة الإطار؛ وتعمل الحرية بذكاء ضمنه. هذا ليس حلًا وسطًا ضعيفًا، بل هو الشكل الوحيد الذي يُمكن أن تتخذه الحرية منطقيًا وعمليًا.

7. ثنائيات لاهوتية دون فصل

ينطبق المنطق التوضيحي نفسه على الثنائية اللاهوتية دون فصل. فاللغة اللاهوتية بطبيعتها علائقية، وكثيراً ما تتحدث بلغة الثنائيات: الخالق والمخلوق، والمتعالي والحاضر، والعدل والرحمة. إن قراءة هذه الثنائيات على أنها ادعاءات بفصل ميتافيزيقي هو الوقوع في الخطأ نفسه الذي يقع فيه أصحاب ثنائية الجوهر. فهذه ليست أوصافاً لجغرافيا كونية يكون فيها الله في منطقة والعالم في منطقة أخرى، بل هي محاولات لتوضيح تمييز ضمن العلاقة، للإقرار بأن مصدر الوجود ليس مجرد عنصر آخر ضمن قائمة الكائنات. فالإلهي، في هذا الفهم، ليس قوة منافسة أو موضوعاً منفصلاً، بل هو الأساس المتعالي للفهم والنظام والوجود نفسه، الذي تنشأ ضمنه جميع التمييزات، بما في ذلك التمييز بين الذات والموضوع. إن الخلط بين

هذا التمييز والفصل هو قراءة خاطئة للاهوت باعتباره نوعاً معيباً من العلوم الفيزيائية.

8. الأزواج كحاملات للمعنى

نرى في مختلف التقاليد أن الأزواج تؤدي وظيفة حاملات المعنى. تؤكد التقاليد الدينية والفلسفية والأسطورية على الثنائيات لا لتقسيم العالم، بل لجعله مفهوماً. فالنور يُعرف في مقابل الظلام، والصوت في مقابل الصمت، والذات في مقابل الآخر. تخلق الأزواج التباين اللازم للتمييز، والتمييز هو أساس المعنى. عالمٌ من التماثل الخالص غير المتمايز سيكون عالماً بلا ملامح، بلا معلومات، وبالتالي بلا معنى. وعلى النقيض، فإن عالماً من الانقسام المطلق المعزول سيكون عالماً من شظايا غير مترابطة. يستمر الواقع في وضوحه الحيوي تحديداً لأنه متمايز دون أن يكون مجزأً.

9. الثنائية والتوازن

يكشف هذا الفهم أن الثنائية هي محرك التوازن الديناميكي. يعتمد النظام السليم، سواءً كان خلية أو عقلاً أو مجتمعاً، على التوتر المتوازن بين الأضداد: الضغط والمقاومة، والابتكار والتقاليد، والتنوع والتقييد. إزالة هذا التوتر – محاولة تحقيق حالة ثابتة خالية من الصراع – يؤدي إلى ركود النظام، وفقدان مرونته، وموته. إذا ما تمّ تغليب أحد القطبين على الآخر – كأن يُترك التسارع بلا رادع، أو أن يُمنع الجمود أي تغيير – فإن النظام سينهار. لذا، لا تكمن الحكمة في اختيار أحد طرفي الازدواجية وهزيمة الآخر، بل في الممارسة الماهرة والمستمرة للحفاظ على علاقة إبداعية مثمرة بين المتناقضات.

10. تمهيد الطريق للحرية

بإزاحة الثنائية جانبًا، نمهد الطريق لفهم متماسك للحرية. نرى أن الحرية لا تتطلب هروبًا سحريًا من شبكة السببية، ولا تستلزم اختراع قوة جديدة غير مادية. بل تتطلب، بدلًا من ذلك، ما يوفره الواقع المنظم الذي نعيش فيه بالفعل: انفتاحًا منظمًا. إنها تتطلب نظامًا معقدًا بما يكفي لتوليد نماذج داخلية للعالم، ومحاكاة مستقبلات بديلة، وتقييمها وفقًا لإطار من القيم، وتفعيل إمكانية مختارة. الحرية هي سمة من سمات السببية الواعية والمعقدة بما يكفي، وليست استثناءً منها.

11. الانتقال إلى الأمام

بعد أن تخلصنا من شبح الثنائية، يمكننا الآن أن ننتقل إلى أحد أكثر مغريات الفلسفة إلحاحًا: البحث عن الحرية كنوع من القوة الخامسة، أو ملكة خارقة للطبيعة تقف خارج نطاق الطبيعة. سيناقش الفصل التالي أن الحرية الحقيقية لا تُنال بكسر بنية العالم، بل بفهم أعمق لديناميكياته. إن الواقع ليس منقسماً على نفسه، بل هو مُفصَّل. ثنائياته ليست انكسارات، بل هي طيات وخطوط تُضفي على جوهر واحد موحد شكله الغني والمفهوم والحي.

إن تجربة الإنسان للإرادة الحرة ليست تدخلاً لقوة خامسة خارقة، بل هي قدرة ناشئة للأنظمة الواعية على التوجيه والاختيار والشروع في العمل ضمن عدم التحديد القانوني المتأصل في واقع معقد. قلّما تُشغل أسئلةٌ تفكير الإنسان باستمرار مثل سؤال الإرادة الحرة. هل خياراتنا نابعةٌ منّا حقاً، تعبيراتٌ عن ذاتٍ حقيقية، أم أنها مجرد نتائج حتمية، وإن كانت معقدة، لأسباب سابقة تمتد إلى فجر التاريخ؟ يبدو التوتر غير قابل للحل فقط إذا أُسيء فهم الحرية فهماً جوهرياً. الحرية الحقيقية لا تتطلب استثناءً من قوانين الطبيعة، بل تتطلب نوعاً محدداً ومتطوراً وقانونياً من المشاركة فيها. إنها ليست تمرداً على السببية، بل هي أرقى تعبيراتها.

نبدأ بتفكيك المعضلة الزائفة. على مرّ القرون، طُرح النقاش على أنه خيارٌ حادّ بين طرفين متناقضين. من جهة: الاعتقاد بأنّ الفعل البشري مُحدّدٌ بالكامل بحالاتٍ فيزيائية سابقة، مما يجعل الحرية شعورًا مُلحًّا، ولكنه في نهاية المطاف وهميّ. ومن جهة أخرى: الاعتقاد بأنّ الحرية لا بدّ أن تكون قوةً غامضةً غير مادية تُضخّ في سلسلة السببية من الخارج، يدٍ خفيةٍ تُحرّك التروس. كلا الموقفين يؤديان إلى طريقٍ مسدود. فالنظرة الحتمية تختزل ثراء المعنى والمسؤولية والنية إلى مجرد آليات، تاركةً تجربتنا المعيشية جوفاءً بشكلٍ لا يُفسّر. أما النظرة الليبرالية، من خلال إدخال استثناءٍ خارقٍ للطبيعة، فتُزعزع تماسك الكون، مُولّدةً "مشكلة تفاعل" عصيّة على الحل.

لا حاجة لأيٍّ من الطرفين المتناقضين، فكلاهما ينبع من فرضيةٍ مشتركةٍ خاطئة: أنّ السببية سلسلةٌ جامدةٌ خطيةٌ يجب أن تُقيّدنا تمامًا أو أن تنقطع تمامًا.

"القوة الخامسة" كاستعارة، وليست ملكة إرادة حرة منفصلة وغير مادية: يتضح هذا الأمر عند دراسة أسباب فشل نموذج "القوة الخامسة" عند استحضار ملكة إرادة حرة منفصلة وغير مادية، وكيف يُولّد هذا النموذج مشاكل ميتافيزيقية أكثر مما يحل. فهذه القوة المفترضة تحتاج إلى التدخل في العالم المادي دون انتهاك قوانين حفظ الطاقة، والتأثير على المادة العصبية دون أي انتقال طاقة قابل للكشف، وأن تظل غير قابلة للكشف علميًا مع كونها العامل الحاسم في الفعل البشري. لا يُفسر هذا المفهوم الحرية؛ بل يُعيد تسمية اللغز ويُدخل خللًا خارقًا للطبيعة في كونٍ كان من الممكن فهمه. علاوة على ذلك، فإن الحرية التي تتحقق بكسر سلسلة السببية لن تكون قابلة للتمييز كحرية على الإطلاق؛ بل ستكون غير قابلة للتمييز عن

العشوائية. والعشوائية – أي حدوث فعل دون سبب – ليست إرادة حرة؛ بل هي فقدانها.

السببية ليست سلسلة، بل مجال

للتخلص من هذا المأزق، يجب علينا تحديث مفهومنا للسببية، فهي ليست سلسلة، بل مجال. إن الصورة الكلاسيكية النيوتونية للسببية – سلسلة جامدة من دفعات حتمية – هي تبسيط مفرط. يشير الفهم الحديث، المستند إلى ميكانيكا الكم ونظرية التعقيد وعلم الأحياء النظمي، إلى أن السببية يُنظر إليها بشكل أفضل على أنها متعددة الطبقات، احتمالية، وسياقية للغاية. فهي تعمل من خلال وضع القيود وتمكين مساحات الاحتمالات أكثر من عملها من خلال فرض نتائج دقيقة. ضمن حدود القانون الفيزيائي، غالبًا ما يكون من الممكن وجود عدة احتمالات مستقبلية. أي مستقبل محدد سيظهر ليس دائمًا محددًا بتفاصيل دقيقة للغاية من خلال الحالة السابقة للكون. السببية، في هذا المنظور الأشمل، لا تملي كل التفاصيل؛ بل تحدد المشهد وقواعد اللعبة.

عدم الحتمية دون فوضى

يشير هذا إلى حقيقة عدم الحتمية دون فوضى. فعلى المستويات الأساسية التي يصفها علم الفيزياء الكمية، تُعدّ عدم الحتمية سمةً متأصلةً في الواقع. يمكن للأحداث أن تقع دون أن تكون محددة مسبقًا بدقة، ومع ذلك، فإنها تحدث ضمن نطاقات مقيدة إحصائيًا ودون انتهاك البنية العامة للقانون الفيزيائي. هذه الانفتاحية الجوهرية ليست، في حد ذاتها، حرية. فـ"اختيار" الإلكترون الاحتمالي ليس نموذجًا للإرادة البشرية. لكن هذه عدم الحتمية الأساسية تخلق مساحةً – انفتاحًا وجوديًا – في أساس الواقع. تتطلب الحرية مثل هذا الانفتاح، لكن الانفتاح وحده غير كافٍ. إنه المادة الخام، وليس المنتج النهائي.

الوعي كمُنتقي، لا كمُنتهك

العامل النهائي هو الوعي كمُنتقي، لا كمُنتهك. لا يعمل الوعي بتجاوز القانون الفيزيائي. يعمل الوعي ضمن نطاق واسع تسمح به القوانين الفيزيائية. فحيثما توجد نتائج متعددة ومقبولة فيزيائيًا – سواء في عدم اليقين الجزئي للعمليات العصبية أو في الغموض الكلي لقرار معقد – يؤدي الوعي دوره المحوري. فهو يُقيّم الأفعال المحتملة بناءً على معناها المتوقع، ويُدمج الذاكرة والنوايا المستقبلية، ويؤجل

رد الفعل التلقائي، ويختار من بين البدائل. هذا الاختيار ليس عشوائيًا؛ بل هو مُستنير بقيم متراكمة على مدار العمر، وهوية شخصية مُشكّلة، وفهم دلالي للعالم. تنشأ الحرية هنا تحديدًا – ليس كهروب من السببية، بل كملاحة واعية وموجهة بالقيم ضمن المجال السببي. إنها السببية التي تُصبح موجهة ذاتيًا.

الحرية كانفتاح مُهيكل

لذلك، يُمكننا تعريف الحرية بأنها انفتاح مُهيكل. الحرية الحقيقية ذات المعنى ليست غيابًا تامًا للقيود. إنها تكوين مُحدد يتطلب ثلاثة عناصر:

1. القيد: قوانين وهياكل ثابتة تُتيح نتائج قابلة للتنبؤ وأفعالًا موثوقة. بدون حدود، يتحول الفعل إلى فوضى عارمة.

2. البدائل: تعدد حقيقي في الاحتمالات المستقبلية الممكنة فيزيائيًا للاختيار من بينها. بدون خيارات حقيقية، يصبح الفعل مجرد إكراه.

4. التأمل: القدرة الواعية على نمذجة هذه البدائل، وموازنتها وفقًا للقيم، واختيار أحدها. بدون هذا الوعي، يفتقر الفعل إلى الشعور بالملكية.

المسؤولية دون عبء ميتافيزيقي

توجد هذه الشروط الثلاثة بقوة ضمن أنظمة طبيعية معقدة كالدماغ البشري. إذن، الحرية ليست انفتاحًا مطلقًا، بل هي انفتاح منظم – القدرة على الإبداع الواعي والمتأمل ذاتيًا ضمن عالم تحكمه القوانين.

يدعم هذا الإطار بشكل طبيعي مفهوم المسؤولية دون عبء ميتافيزيقي. لو كانت أفعالنا محددة بشكل كامل وآلي بحالات سابقة، لكان مفهوم المسؤولية بلا معنى – لكُنا مجرد دمى متطورة. لو كانت أفعالنا بلا سبب على الإطلاق، لاستحالت المسؤولية – لما أمكن محاسبتنا على أحداث عشوائية. تجد المسؤولية جوهرها المتماسك في منطقة الوسط: فهي موجودة لأننا فاعلون نعمل ضمن قيود معروفة، ونستطيع فهم العواقب المحتملة لأفعالنا، ولو واجهنا ظروفًا مماثلة، لكان بإمكاننا الاختيار والتصرف بشكل مختلف بناءً على التأمل والتقييم. هذا أساس كافٍ

للمسؤولية الأخلاقية والقانونية. ولا يتطلب ذلك وجود روح خارجة عن نطاق المادة، بل ذاتًا معقدة وواعية ومتكاملة سببيًا.[7]

الحرية والمعنى والاستمرارية

نرى إذًا أن الحرية والمعنى والاستمرارية لا تنفصل. فالاختيار بحرية ليس مجرد انتقاء خيار من قائمة، بل هو تأكيد لقيمة، وتعبير عن جانب من جوانب الهوية، وامتداد لسرد متماسك للحياة. أما الاختيار الذي لا يحمل معنى – كرمي قطعة نقدية للبت في الأمر، أو ارتعاش عصبي عشوائي – فلا يُنظر إليه كفعل حر، بل كحدث اعتباطي أو غريب. الحرية، بمعناها الأعمق، هي الأداة التي تُرسّخ بها الذات هويتها عبر الزمن، وتُساهم بفعالية في كتابة قصتها ضمن السردية الكبرى لواقعٍ قائم على القانون.

التأمل اللاهوتي دون تدخل

من منظور لاهوتي، يُحررنا هذا الرأي من التدخل الإلهي. فالمنحة الإلهية للحرية لا تتطلب تعليقًا دوريًا للقانون الطبيعي، كما لو أن الله يتدخل لكسر القيود الحتمية التي تُكبّلنا. بل إن الحرية موجودة لأن النظام المخلوق مُهيكلٌ بطبيعته – مفهوم، ومنفتح، ومتعدد الطبقات – بطريقة تسمح بالمشاركة الواعية، بل وتُنمّيها. فالخلق ليس آلة حتمية، ولا هو ساحة فوضوية للمعجزات. إنه نظام متماسك وكريم، منفتح بما يكفي لاستحضار شراكة حقيقية من الداخل.

---

[7] ينسجم هذا الطرح مع مفهوم الانتقاء والنيّة وهامش الإرادة الحرة (الاختيار) في إطار المشيئة الإلهية (السببية كتعددية احتمالات كموميّة تعمل من خلال قيود القانون الفيزيائي) وهي تظهر جلية في الآيات القرآنية: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ 29 :81 وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ 10:90 إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا 76:3 والحديث النبوي: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.

الحرية كوظيفة، لا كاستثناء

بناءً على ذلك، نستنتج أن الإرادة الحرة وظيفة، وليست استثناءً. إنها ليست شذوذًا خارقًا للطبيعة مُقحمًا فيها. إنها وظيفة رفيعة المستوى تنشأ بشكل طبيعي عندما تتلاقى التعقيدات الفيزيائية والتكامل الواعي والمعنى الدلالي. تنشأ الحرية بشكل قانوني من خصائص الكون؛ وتعمل وفقًا لمبادئ السببية الواعية. الحرية ليست غياب السببية، بل هي السببية التي تُصبح واعية بذاتها، وتُشكّل نفسها بنفسها، وتُوجّه نفسها بنفسها. إنها الكون، في صورة كائن واعٍ، يتعلم كيف يُوجّه نفسه ضمن تياراته الخاصة.

استكمال البنية

مع هذا الفهم، تكتمل بنية الثابت والمتحول. يُوفّر الثابت البنية والقيد غير القابلين للتفاوض – القانون الفيزيائي، والضرورة البيولوجية، والشكل المنطقي. بينما يُوفّر المتحول مجال التعبير والتكيف والشكل الجديد. ينشأ الوعي كواجهة تكاملية تُترجم فيها الأشكال إلى معانٍ. وتعمل الحرية كقدرة على الاختيار الواعي ضمن الانفتاح الذي يوفره المتغير، المقيد بالثابت. والتوازن الديناميكي هو المبدأ الذي يحافظ على تماسك الكل عبر الزمن. لم يُضَف شيءٌ بلا داعٍ – لا قوى خامسة، ولا انقطاعات خارقة للطبيعة. ولم يُزَل شيءٌ تعسفيًا – فالمعنى والمسؤولية والاختيار الأصيل تبقى سليمة، راسخة في الواقع.

الانتقال إلى الأمام

يتطلب بُعدٌ أساسيٌّ من هذا البناء المكتمل الآن معالجةً صريحة: بُعد القيمة والفعل. إذا كانت الحرية موجودة ضمن البنية، والمعنى يُثبّت مسارنا، فإن الأخلاق لا تظهر كمجموعة من القواعد التعسفية المفروضة من الخارج، بل كحكمة عملية لمواءمة خياراتنا مع ما يحافظ على صحة وتوازن الكل – أنفسنا، ومجتمعاتنا، وعالمنا. يتناول الجزء الأخير من هذا البحث الأخلاق: ليس بوصفها نزعة أخلاقية، بل بوصفها حكمة بنيوية لكائن واعٍ يتنقل في واقع قانوني، منفتح، وذي معنى. فالحرية ليست معجزة تُخلّ بنسيج الواقع، بل هي فهم الواقع لكيفية التصرف ضمن ذاته.

الجزء الثامن – الأخلاق

الفصل الرابع عشر: أخلاق الثابت والمتحول

كثيرًا ما تُعامل الأخلاق كمجال منفصل – مجموعة من القواعد أو المشاعر أو الوصايا تُضاف بعد وصف حقائق الواقع الملموسة. هذا الفصل مصطنع ومضلل للغاية. فالأخلاق لا تقف خارج بنية الوجود، معلقةً من علو مجرد. بل تنبثق من داخل تلك البنية، كبعد ضروري لكيفية بقاء الأنظمة المعقدة والواعية قابلة للحياة، متماسكة، وذات معنى عبر الزمن. إذن، الحديث عن الأخلاق هو الحديث عن التوافق – التوافق بين أفعالنا والظروف التي تُديم الحياة، وتُعزز المعنى، وتحافظ على التوازن الديناميكي الذي يُمكننا نحن وعالمنا من الازدهار فيه.

لماذا لا يمكن أن تكون الأخلاق اعتباطية؟

يكشف هذا الترابط الجوهري لماذا لا يمكن أن تكون الأخلاق اعتباطية. فلو كانت الأخلاق مجرد مسألة تفضيل شخصي، أو عرف ثقافي، أو إجماع اجتماعي، لما امتلكت أي قوة ملزمة دائمة، ولا أي حق علينا يتجاوز التهديد بالعقاب أو وعد المكافأة. ومع ذلك، عبر التنوع الهائل للحضارات والحقب التاريخية، تتكرر بعض البديهيات الأخلاقية بثبات لافت: تحريم الأذى غير المبرر، وتقدير الكرامة والوفاء بالوعود، والاهتمام بالأجيال القادمة، وإدراك الحدود الطبيعية والاجتماعية. هذه ليست مجرد صدفة من صدف التقاليد أو خلل تطوري، بل هي استجابات ذكية، تم التوصل إليها بصعوبة، لضرورة بنيوية. تستمر الأخلاق لأنها فعالة – لأن بعض أنماط السلوك تحافظ على توازن الأفراد والمجتمعات، بينما يؤدي البعض الآخر، حتمًا، إلى تآكله وتدميره. إنها بمثابة برنامج للبقاء الاجتماعي والازدهار.

الوظائف الأخلاقية الثابتة

في جوهرها، تسترشد الحياة الأخلاقية بوظائف أخلاقية ثابتة. فكما أن الحياة البيولوجية تُنظَّم حول وظائف لا تقبل المساومة كالتوازن الداخلي والتكاثر، فإن الوجود الأخلاقي المستدام يعتمد على متطلبات وظيفية ثابتة. كحد أدنى، يجب أن تخدم أي أخلاق مستدامة في الحفاظ على كرامة الإنسان، وتعزيز التماسك النفسي، وبناء الثقة الاجتماعية والحفاظ عليها، وضمان استمرارية الأجيال، واحترام الاستدامة البيئية. هذه ليست التزامات أيديولوجية اختيارية أو ابتكارات نسبية، بل هي الشروط الأساسية التي بدونها تنهار أي حياة أخلاقية ذات معنى – أي

حياة قائمة على الثقة والتعاون والهدف المشترك – إلى حالة من الفوضى تتسم بالخوف والتشرذم والندرة. تختلف الأنظمة الأخلاقية اختلافًا كبيرًا في أشكالها، لكنها تتقارب بشكل ملحوظ حول هذه الوظائف الأساسية.

الأشكال الأخلاقية كمتغيرات

تُعدّ هذه الأشكال الأخلاقية هي المتغيرات بحد ذاتها. فالمعايير والقوانين والطقوس والمؤسسات المحددة التي تُعبّر من خلالها الوظائف الأخلاقية هي هذه الأشكال، وهي متغيرة بطبيعتها. تتغير هذه الأشكال عبر الثقافات، وتتطور مع التاريخ، وتتكيف مع التقنيات الجديدة، وتستجيب للسياقات البيئية المختلفة. هذا التباين ليس دليلاً على نسبية أخلاقية سطحية تُعلن أن "كل شيء جائز". بل هو سمة من سمات التعبير التكيفي. تتطور الأشكال لتخدم الوظائف الأخلاقية الثابتة في ظل ظروف دائمة التغير. عندما تتصلب هذه الأشكال لتصبح مطلقة، رافضةً التكيف، تصبح الأخلاق قمعية وهشة. وعندما تُتجاهل الوظائف الأساسية أو تُنسى، تذوب الأخلاق في فراغ متساهل حيث تصبح "القيمة" مجرد مرادف للتفضيل. تكمن المهمة في تثبيت الوظيفة مع السماح للشكل بالتغير بذكاء.

خطأ التشدد الأخلاقي

يكشف هذا عن خطأ التشدد الأخلاقي، الذي يقع في الخطأ الكلاسيكي المتمثل في الخلط بين شكلٍ معين والوظيفة العالمية التي وُضع من أجلها. يفترض التشدد الأخلاقي أن قانوناً أخلاقيًا واحدًا يُمكن تطبيقه على جميع السياقات، وأن القواعد تتجاوز الظروف، وأن الطاعة تضمن الصواب. وبذلك، يُنتج جمودًا وإقصاءً، وفي كثير من الأحيان، قسوةً مُقنّعةً بالمبادئ. عندما يُهيمن التشدد الأخلاقي على ثقافة نسبية، يحلّ العقاب محلّ الإقناع. ويُصبح التشهير العلني والإقصاء المهني والمحو الاجتماعي أدواتٍ لفرض التوافق الأخلاقي، حتى في الوقت الذي يدّعي فيه المجتمع رفض الحقيقة الأخلاقية الثابتة. والنتيجة هي مفارقة: عالمٌ يُنكر الأخلاق المطلقة بينما يُمارسها بسرعةٍ وانتشارٍ غير مسبوقين.

لا يفشل هذا العالم لأنه يُقدّر الأخلاق أكثر من اللازم، بل لأنه ينسى الغاية من الأخلاق: الحفاظ على شروط حياةٍ مشتركةٍ مُجديةٍ وذات معنى. إنه يُقدّس الخريطة ويُحرق الأرض.

يعدنا التشدد الأخلاقي باليقين، لكنه غالبًا ما يحققه بتجاهل السياق. في الحياة المعاصرة، يظهر هذا عندما تُختزل المعضلات الإنسانية المعقدة – المتعلقة بالهوية، أو حرية التعبير، أو الاندماج الاجتماعي – إلى بديهية أخلاقية واحدة، تُفرض دون مراعاة المصالح المتنافسة. ما يبدأ بوضوح أخلاقي قد يتحول تدريجيًا إلى عمى أخلاقي.

يستمر العالم الحديث في إنتاج "معضلات السياسة الواحدة"، حيث تتصادم مصلحتان مشروعتان: الاندماج والحماية، الحرية والرقابة، الخصوصية والأمن. يظهر هذا في النقاشات حول دمج المتحولين جنسيًا في الأماكن المنفصلة بين الجنسين، وكذلك في إدارة المنصات، وقوانين خطاب الكراهية، وإدارة المعلومات المضللة – حيث يحاول كل منها تحويل التعقيد الإنساني المتغير إلى فئات جامدة. يتساءل علم أخلاقيات التوازن عما إذا كانت قواعدنا تخدم الواقع المعيش، أم أن الواقع المعيش يُجبر على خدمة هذه القواعد.

خطأ النسبية الأخلاقية

الخطر المقابل هو خطأ النسبية الأخلاقية، الذي يرتكب الخطأ المعاكس. بافتراض عدم وجود ثوابت أخلاقية، وأن جميع القيم مجرد مفاهيم مُصطنعة، وأن جميع الأضرار نسبية، فإن النسبية الأخلاقية تُقوّض أساس المساءلة، وتُضعف إمكانية بناء ثقة راسخة. بعض الحقائق الإنسانية تقاوم النسبية الأخلاقية، كالأذى الجسدي، والقرارات الطبية التي لا رجعة فيها، وضعف الأطفال، وعواقب اختلال موازين القوى، بغض النظر عن الإطار السردي. عندما تُعامل جميع الادعاءات الأخلاقية على أنها ذاتية بالتساوي، فإن أصحاب الصوت الأعلى أو النفوذ المؤسسي هم من يُقررون النتائج بهدوء.

غالبًا ما تبدأ النسبية الأخلاقية كدعوة للتواضع: إقرارًا بأن الحقيقة ليست حكرًا على ثقافة أو عصر. لكن عندما تتوسع بلا حدود، فإنها تُزيل تدريجيًا التمييز بين فهم الاختلاف ورفض التقييم كليًا. في مثل هذه الظروف، يتراجع التفكير الأخلاقي إلى حيث تشتد الحاجة إليه.

ومن المفارقات، أن النسبية الأخلاقية لا تقضي على الصراع الأخلاقي، بل تؤجله فقط. عندما يغيب معيار مشترك للفصل في المطالبات المتنافسة – حول حرية التعبير، والشمول، والسلامة، والعدالة – تُتخذ القرارات بالقوة، أو السياسات،

أو الضغوط الاجتماعية، بدلاً من التفكير الأخلاقي. إن غياب الحكم لا يُنتج السلام، بل يُنتج الغموض.

لا يكمن فشل هذا النهج في المبالغة في تقدير الحرية والتنوع، بل في إنكاره للضرورة العملية لوجود حدود مشتركة. في عالم النسبية المطلقة، يفقد مفهوم الظلم معناه البنيوي، ليصبح مجرد تسمية للنتائج غير المرغوبة.

التوازن الأخلاقي

يتطلب التوازن الأخلاقي، وهو حالة ديناميكية تشبه التوازن الموجود في النظم البيئية أو العقول السليمة، التنقل بين هذين النقيضين. يجب أن تكون الحياة الأخلاقية راسخة بما يكفي لتوفير مبادئ ثابتة تحدّ من الضرر والافتراس، وفي الوقت نفسه مرنة بما يكفي لتكييف تطبيقها مع التعقيدات والمعارف الجديدة. يتطلب ذلك تغذية راجعة مستمرة من العالم الاجتماعي والطبيعي، وقدرة على الاستجابة التصحيحية المتناسبة. لذا، لا تكمن الحكمة الأخلاقية في امتلاك يقينيات جامدة، بل في القدرة المتنامية على إصدار أحكام دقيقة، أي التمييز بين متى يجب أن يبقى المبدأ ثابتًا ومتى يجب تغيير تعبيره.

الأخلاق والوتيرة

يُعدّ بُعد الأخلاق والوتيرة بُعدًا بالغ الأهمية، وغالبًا ما يُغفل عنه، في هذا التمييز. قد يكون الفعل مقبولًا، بل ومفيدًا، عند تطبيقه تدريجيًا، ولكنه قد يصبح مدمرًا عند تسريعه بما يتجاوز قدرة النظام على استيعابه. ينطبق هذا على نشر التقنيات الجديدة، ووتيرة الإصلاح الاجتماعي، وزعزعة الأسس الثقافية، واستغلال الموارد البيئية. لذا، يجب أن يشمل التقييم الأخلاقي ليس فقط ما يُفعل، بل سرعة إنجازه. فالسرعة دون تكامل ليست تقدماً، بل هي شكل من أشكال العنف الممنهج، ورفضٌ للسماح للعمليات الطبيعية للفهم والموافقة والتكيف بالحدوث.

المسؤولية كوعي بنيوي

لا تتطلب المسؤولية معرفة مطلقة أو استبصاراً كاملاً، بل تتطلب توجهاً واعياً نحو تأثير الفرد واعترافاً محترماً بالحدود. إن التصرف الأخلاقي يعني إدراك قيود الواقع، وتوقع العواقب اللاحقة قدر الإمكان، وتقبّل الملاحظات (خاصةً عندما تشير إلى ضرر)، وتصحيح المسار. قد يُعذر الجهل في سياقات كان فيها التعلم مستحيلاً،

ولكن في عصر المعرفة المترابطة، يُعدّ التسرع المتعمد دون تفكير – أي اختيار عدم معرفة آثار أفعال المرء – فشلاً أخلاقياً فادحاً.

الأخلاق ما وراء العقاب والمكافأة

في نهاية المطاف، يجب أن تتجاوز الأخلاق إطار العقاب والمكافأة. فبينما تلعب القوانين والحوافز دورًا، فإن التوجه الأخلاقي الحقيقي لا يرتكز أساسًا على الخوف من العقاب أو الأمل في الربح. بل ينبع من فهم أعمق لما يحافظ على التماسك – تماسك الذات، والمجتمع، والعالم الحي. عندما يدرك الناس، حدسيًا أو صراحةً، كيف تبني الأمانة الثقة، وكيف تعزز الرحمة الروابط الاجتماعية، وكيف يحافظ ضبط النفس على إمكانية المستقبل، تتوقف الأخلاق عن كونها فرضًا خارجيًا. تصبح مفهومة، مسألة رؤية العالم بشكل صحيح والتصرف وفقًا لتلك الرؤية.

الفشل الأخلاقي للحداثة

أزمتنا ليست مجرد فقدان للقيم التقليدية، بل هي سوء فهم كارثي للثوابت. لقد خلطنا بشكل منهجي بين الأشكال المتغيرة والوظائف الثابتة. سعينا وراء نمو اقتصادي لا نهائي بينما قوّضنا الاستدامة البيئية التي تجعل النمو ذا معنى. لقد ركزنا على الكفاءة التقنية على حساب المعنى الإنساني والتواصل. دافعنا عن حرية الاختيار المطلقة متجاهلين المسؤولية الجوهرية التي تجعل للاختيار معنى. تضاعفت أشكالنا بوتيرة مذهلة، وتآكلت وظائفنا الأساسية تدريجيًا. إن الارتباك الأخلاقي المتفشي في عصرنا هو العرض الحتمي لهذا الخلل البنيوي.

لم تتخلَّ الحداثة عن الأخلاق، بل أعادت هندستها. تم تفويض الحكم الأخلاقي تدريجيًا إلى أنظمة – قانونية، وبيروقراطية، وتكنولوجية – وعدت بالحياد والكفاءة والتوسع. وبذلك، انتقلت المسؤولية الأخلاقية من الضمير إلى الإجراءات، ومن الحكمة إلى الامتثال.

لا يكمن الفشل الأخلاقي للحداثة في اختيار النظرية الأخلاقية الخاطئة، بل في الجمع بين أسوأ ما في كليهما. فهي تفرض استنتاجات أخلاقية جامدة بيقين مطلق، بينما تنكر أي أساس أخلاقي ثابت عند الطعن فيه. والنتيجة هي سلطة بلا مساءلة، وحكم بلا حكمة.

في غياب توازن أخلاقي مشترك، تسعى المجتمعات اليوم إلى إدارة حركة الأفراد وهويتهم وقوتهم التكنولوجية من خلال التجريد والسرعة، مُخطئةً في اعتبار الكفاءة الإجرائية دليلاً على الوضوح الأخلاقي، ومكتشفةً بعد فوات الأوان أن ما لا يمكن وزنه معًا لا يمكن إدارته معًا.

لا تختبر الهجرات البشرية الكبيرة حسن الضيافة فحسب، بل تختبر الوضوح الأخلاقي أيضًا. فعندما يعجز المجتمع عن التمييز بين ما يجب الحفاظ عليه وما يمكن تكييفه، يتوقف التفاوض بشأن الاختلاف ويصبح خارج نطاق الإدارة. في مثل هذه الظروف، يتآكل كل من التماسك والتعاطف، ليس بسبب وفرة التنوع، بل بسبب غياب البنية الأخلاقية.

تكشف الهجرة عن حدود النسبية الأخلاقية بشكل أوضح من النقاشات المجردة. فعندما تُعامل جميع المعايير على أنها قابلة للتفاوض على قدم المساواة، تتعثر عملية الاندماج، وتنشأ أنظمة أخلاقية متوازية بشكل تلقائي لا مقصود. لا ينكر التوازن التعددية، بل يتساءل عن الاختلافات التي يمكن استيعابها وتلك التي تتطلب حدودًا مشتركة للحفاظ على إنسانيتها.

لم تطالب الحضارات السابقة التي حكمت التنوع بشكل مستدام بالتماثل، ولم تنهار في ظل النسبية. بل ميزت بين الالتزامات الأساسية والعادات المحلية، مانحةً مساحة للاختلاف مع الحفاظ على قواعد أخلاقية مشتركة. أما المجتمعات الحديثة، التي ترفض كلاً من التسلسل الهرمي والاستمرارية، فتكافح من أجل تحديد الحدود دون أن تبدو متعصبة.

الأخلاق كمواءمة مع الواقع

وهكذا، نصل إلى جوهر المسألة: الأخلاق كمواءمة مع الواقع. فالأخلاق ليست طاعة لسلطة خارجية، إلهية كانت أم دنيوية، بل هي ممارسة التناغم مع البنية العميقة لعالم مقيد وكريم في آنٍ واحد، ثابت ومتحول. إن التصرف الأخلاقي يعني مواءمة السلطة مع ضبط النفس، والحرية مع المسؤولية، والابتكار مع الحفاظ على التراث، والتغيير مع الاستمرارية. هذه المواءمة ليست إنجازًا لمرة واحدة، بل هي عملية مستمرة من الإدراك والتصحيح، وتوازن ديناميكي يجب تجديده باستمرار في كل سياق جديد.

يقودنا هذا إلى القضية الأهم: الأخلاق ومستقبل البشرية. لن يُحدد شكل مستقبلنا الجماعي بالقدرات التكنولوجية وحدها، بل سيتحدد بقدرة البشرية على استعادة الحكمة اللازمة للتمييز بين الثابت والمتحول. ويتوقف ذلك على قدرتنا على تحديد ما يجب أن يبقى مصونًا (الكرامة، والاستدامة البيئية، والحقيقة)، والسماح بما قد يتغير، بل ويجب أن يتغير (التعبير الثقافي، والشكل التكنولوجي، والمؤسسات الاجتماعية)، ومواءمة التغيير بذكاء ضمن حدود التكامل، والحفاظ على مقومات المعنى وسط عاصفة التسارع. في هذا السياق، تُعدّ الأخلاق فنًا عمليًا لجعل هذا التمييز الفلسفي قابلًا للتطبيق في الحياة اليومية والسياسات العالمية.

لن يُحدد المستقبل بغياب الأفكار الأخلاقية، بل بانتشارها الجامح. ستشتد المطالبات الأخلاقية المتنافسة – حول الهوية، والاستقلالية، والسلامة، والتحسين، والبقاء – مع تجاوز التكنولوجيا للإجماع. وبدون إطار عمل يميز بين الحدود البشرية الثابتة والمتغيرات الاجتماعية القابلة للتفاوض، سيظهر الصراع على أنه تقدم أخلاقي.

تكشف الأنظمة الأخلاقية عن نزاهتها في كيفية تعاملها مع من لا يملكون سلطة: الأطفال، والأجيال القادمة، ومن لا يُرى. قد تفرض القرارات التي تُصاغ على أنها تحرير في الحاضر قيودًا لا رجعة فيها على من لا يستطيعون الكلام بعد. يتطلب التوازن مسؤولية عبر الزمن، لا عبر الهويات فحسب.

لا تعد الأخلاق القائمة على التوازن بالوئام، بل بالاستدامة فقط. إنها تقبل الصراع كأمر لا مفر منه، لكنها تُصر على أنه لا يحق لأي جيل أخلاقيًا أن ينفصل عن الواقع البيولوجي، أو الاستمرارية التاريخية، أو القيود البشرية. يعتمد البقاء، الأخلاقي والحضاري، على تذكر ما لا يمكن تغييره.

إغلاق الدائرة

وهكذا، تُغلق الدائرة. مع الأخلاق، تعود رحلة البحث الطويلة إلى نقطة انطلاقها الإنسانية. ما بدأ كملاحظة حول البنية الكونية يصبح، في النهاية، قضية مسؤولية شخصية وجماعية عميقة. ما بدأ كإقرار بالقيود يكشف عن نفسه كمصدر الحكمة والحرية. الأخلاق ليست أمرًا يُفرض على الواقع من الخارج. إنها الحقيقة ذاتها، من

خلال الكائنات الواعية، تُعلّمنا كيف نشارك في الكل دون أن نُفسده، وكيف نُنوّع الشكل مع الحفاظ على الوظيفة.

لذا، فإن التصرف الأخلاقي لا يعني مقاومة التغيير أو التشبث بالماضي، بل يعني ضمان ألا يُدمّر التغيير الظروف التي تُضفي معنىً على أفعالنا وحياتنا. إنه التكامل النهائي والضروري، الاختيار الواعي للعيش في انسجام مع قواعد الوجود الدائمة، حتى تُساهم قصتنا الزائلة في تماسكٍ يدوم بعد رحيلنا.

لا يُقدّم التوازن هنا كعقيدة، ولا كنظام يُنهي الصراع الأخلاقي، بل هو منهجٌ للتمييز: الانتباه بدقة لما يجب أن يبقى ثابتًا وما يجب أن يبقى مفتوحًا، إلى الحدود التي لا يُمكن تجاوزها والأشكال التي يجب تجديدها. لا يسعى التوازن إلى الإفراط ولا إلى الإنكار، بل إلى التناسب؛ لا إلى اليقين ولا إلى الاستسلام، بل إلى الصمود. في الأوقات التي تميل نحو التطرف، يتطلب التوازن انضباطاً نادراً – ضبط النفس دون لامبالاة، والحكم دون غطرسة، والالتزام بالظروف التي تجعل الحياة البشرية قابلة للاستمرار عبر الأجيال.

خاتمة

بدأ هذا الكتاب بتمييزٍ بسيطٍ ظاهريًا وعميق الأثر: التمييز بين ما يجب أن يبقى ثابتًا وما يمكن أن يتغيرٍ. كل ما تلاه – من استكشافاتٍ للطبيعة والحياة والمجتمع والتكنولوجيا والوعي والحرية والأخلاق – انبثق من هذا المحور الواحد المُوضّح. لم يكن هذا الكتاب تمرينًا في الأيديولوجيا أو عملًا تنبؤيًا، بل كان عملًا دؤوبًا من الملاحظة البنيوية. إنه محاولةٌ لقراءة قواعد الواقعِ، والتركيب اللغوي العميق الذي يسمح لقصة الوجود بأن تكون متماسكةً ودائمةً وذات معنى.

1. ما كشفته الرحلة

كشفت الرحلة عن نمطٍ من الاتساق الملحوظ. فعلى جميع المستويات والمجالات، من الكمي إلى الثقافي، برزت المبادئ نفسها: تدوم الأنظمة عندما يظل الشكل في خدمة الوظيفة بإخلاص؛ وتتعثر وتنهار عندما ينسى الشكل غايته ويتسارع لذاته. ولا يبقى التغيير قابلاً للعيش إلا عندما تحترم وتيرته القدرة على التكامل؛ ولا تبقى الحرية إلا ضمن بنية القيود؛ وينشأ المعنى تحديدًا حيث يُحفظ الاستمرار وسط تفاعل الاختلاف. هذه ليست تفضيلات عاطفية أو آراء محافظة، بل هي شروط التماسك التي لا تقبل المساومة – قواعد اللعبة لأي نظام يأمل في البقاء.

2. لماذا نُسي الثابت؟

إن قصة نسيان الحداثة للثابت ليست قصة خبث، بل قصة تشتت. لم ترفض البشرية عن وعي الأسس الثابتة للواقع. لقد سَحَرنا تنامي قوتنا ثم غمرنا. توسعت القدرات التكنولوجية بوتيرة فاقت الحكمة التأملية؛ وتسارع التغير الرمزي والاجتماعي أسرع من قدرة المعنى على التبلور؛ وتجاوزت كثرة الخيارات قدرتنا على التوجيه الأخلاقي والوجودي. وفي غمرة نشوتنا، ارتكبنا خطأً فادحًا: فقد ظننا أن الثابت مجرد قيد، سجن يجب الفرار منه، بدلًا من إدراكه باعتباره البنية الأساسية التي تجعل الإمكانية والحرية والمعنى ممكنة في المقام الأول.

٣. إعادة النظر في التغيير

يقودنا هذا إلى كتاب "إعادة النظر في التغيير". لا يُعد هذا العمل جدلًا ضد المتحول، بل هو بالأحرى حجة ضد التغيير دون ذاكرة – التغيير الذي ينفصل عن الأساس الوظيفي الذي ينبع منه. فالتغيير ليس مرادفًا للتقدم؛ والتسارع ليس مرادفًا

للذكاء. لا يتحقق التقدم الحقيقي إلا عندما يصون كرامة الإنسان، ويدعم التماسك النفسي والاجتماعي، ويحترم الحدود البيولوجية والبيئية، ويبقى منفتحًا على التصحيح، ويترك مجالًا للتأمل والتراجع. وبدون هذه الضوابط، يتحول التغيير إلى شكل من أشكال التآكل، وتبديد رأس المال – العلائقي والبيئي والروحي – متخفيًا في ثوب الابتكار.

4. استعادة مكانة الإنسان

في ضوء ذلك، تُستعاد مكانة الإنسان إلى مكانتها اللائقة. لسنا سادة الواقع المطلقين، مُقدرين أن نُخضعه لإرادتنا بالكامل، ولسنا ضحايا عاجزين، تائهين في تيار حتمي. نحن مشاركون واعون ضمن نظام منظم ومفهوم، مُزودون بقدرات فريدة على التأمل والمسؤولية وضبط النفس. إذن، الحرية ليست استثناءً من القانون، بل هي أرقى تجلياته. والأخلاق ليست طاعة عمياء لأمر خارجي، بل هي انسجام واعٍ مع ما يدعم الكل. المعنى ليس مادةً غامضةً تُحقن في عالمٍ آلي، بل هو ما ينشأ طبيعيًا عندما يتفاعل الوعي مع البنية العميقة ويتعلم كيف يتناغم معها.

5. ما يتبقى

عندما تتلاشى أوهام المرونة اللامحدودة والقوة المستقلة، يصبح ما يتبقى متواضعًا، ولكنه أكثر من كافٍ: كونٌ محدودٌ بما يكفي ليكون مفهومًا؛ حياةٌ هشةٌ ومحدودةٌ بما يكفي لتكون كل لحظةٍ ذات قيمة؛ حريةٌ محدودةٌ بما يكفي لتكون واعيةً وذات معنى؛ أخلاقٌ راسخةٌ بما يكفي في ظروف الازدهار الحقيقية لتدوم. لا حاجة إلى ما هو أعظم من ذلك لحياةٍ عميقةٍ وهادفة. ولا يكفي ما هو أقل جوهريةً لإعالة المرء.

كلمةٌ أخيرة: لا يقدم هذا الكتاب مخططًا تفصيليًا لإنقاذ المجتمع، ولا خطةً من عشر نقاط، ولا وعدًا بيقينٍ ميتافيزيقي. كان هدفه أكثر جوهرية: تقديم التوجيه. إذا نجح هذا النهج، فلن يقتصر تأثيره على قوة الحجة المنطقية فحسب، بل سيتعداه إلى صدىً عميق، وذلك بإضفاء اسم وشكل على أنماطٍ استشعرها القارئ المتأمل في قلق العصر، وفي إرهاق التسارع، وفي حدسه بأن ليس كل ما يلمع تقدماً.

فالحكمة، في نهاية المطاف، لا تكمن في السيطرة على الواقع، بل في تعلم كيفية الحفاظ على التوازن معه. وهذا التوازن ليس حالةً نهائيةً تُنال وتُنسى، بل هو ممارسةٌ ديناميكيةٌ واعية، وإعادة ضبطٍ مستمرةٌ يجب تجديدها بصبرٍ وذكاء، وقبل كل شيء، بتعاونٍ وتضامن.

ستظهر دائمًا أشكال جديدة. ستظهر تقنيات جديدة، وستُبتكر أنظمة جديدة، وستتطور لغات جديدة، وستُصاغ هويات جديدة، وستُطلق قوى جديدة. ليس هذا مأساةً تُرثى، بل هي الحياة، ولا سيما الإبداع البشري، يُعبّر عن حيويته التي لا تُقهر. لذا، فإن السؤال المحوري لمستقبلنا ليس ما إذا كان التغيير سيأتي، بل هو ما إذا كانت الإنسانية، وسط هذا التدفق المتواصل من الابتكارات، ستحافظ على الانضباط – الحكمة – للتوقف والتساؤل:

• ما الذي يجب أن يبقى ثابتًا في كل هذا؟

• ما الوظيفة الأساسية التي تُحفظ، وما الذي يُضحّى به دون قصد؟

• ما وتيرة هذا التطور، وهل يستطيع القلب والعقل البشريان مواكبته؟

• هل لا يزال بالإمكان نسج المعنى من خيوط تتغير أسرع من قدرة النول على التكيف؟

لا تُشكّل هذه الأسئلة مقاومةً للمستقبل، بل هي الأدوات التي تجعل أي مستقبل جديرًا بالعيش فيه.

لعلّ أهمّ ما يُستخلص هنا هو أبسطها: ليس كلّ ما يُمكن تغييره، ينبغي تغييره.

وليس كلّ ما يُقاوم التغيير خاطئًا أو عفا عليه الزمن.

بين هشاشة الجمود المطلق وفوضى التغيير اللامحدود، تكمن أرض التوازن الخصبة والديناميكية.

بين شلل الحنين إلى الماضي ونسيان اليوتوبيا، يكمن أرض المسؤولية الرصينة والمُثمرة.

إن كان لهذا الكتاب أملٌ خفيّ، فهو أن يُواصل من خاضوا غمار حججه التريّث للحظة – تردّد، ولو كان وجيزًا – قبل الانطلاق مجددًا – استعدادًا للإصغاء، تحت صخب الجديد، إلى المواضيع الخالدة التي تُضفي على الموسيقى رونقها.

الثابت لا يُطالبنا بالطاعة، بل يدعونا إلى الفهم. والمتحول، حين يُرشده هذا الفهم، يكفّ عن كونه تهديدًا لكلّ ما هو عزيز علينا. بل يصبح وعداً – وعداً بإبداع ليس مدمراً، بل متماسكاً؛ مستقبل ليس جديداً فحسب، بل مثمراً.

خريطة مفاهيمية: أخلاقيات التوازن

[واقع أخلاقي]

[الأخلاق النسبية]
المرونة غير المحدودة
لا مثبتات
لا مساءلة

[الأخلاق المطلقة]
القواعد الصارمة
السياق مهمل
العدالة الميكانيكية

الكسر

[توازن]
(معايرة أخلاقية ديناميكية)

[التأثير طويل الأمد]
المستقبل الاستقرار
البيئة

[السياق الاجتماعي]
الثقافة
التاريخ

[حدود الإنسان]
علم الأحياء
علم النفس

[فعل أخلاقي]
(التوازن محفوظ عبر الميزان)

الـثـوتــون

The Thoughton

الثوتون: جُسَيم مجَال الوَعي الكَوني

تأملات في وحدة الوجود والتفاعل بين العقل والجسد

زياد عبد الوهاب خليفة

لندن ٢٠٢٥

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠٢٥ للمؤلف: زياد عبد الوهاب خليفة (المؤلف)
والناشر: دار أرواد للنشر

لا يجوز إعادة إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه أو استخدامه بأي شكل من الأشكال دون الحصول على إذن كتابي صريح من الناشر باستثناء استخدام اقتباسات موجزة في مراجع أو كتاب.

الثوتون Thoughton

جسيم مجَال الوعي الكوني

تأملات في وحدة الوجود والتفاعل بين العقل والجسد

طُبع في المملكة المتحدة

الطبعة الأولى، ٢٠٢٥

ISBN 978-1-80605-586-9

ARWAD PUBLISHING

دار أرواد للنشر ARWAD PUBLISHING
6 Folly View, Stanstead Abbotts,
SG12 8AX
United Kingdom
Ziad.a.khalifeh @gmail.com

إهداء

إلى حفيديّ

لونا وآشتون كوري

الذين ستتكشف حياتهم في عالم لا يزال يبحث عن التوازن
أتمنى أن لا ترثوا اليقين، بل الشجاعة
لا الإجابات، بل الصبر على طرح أسئلة أفضل

إلى "أخوَة لي لمْ تلِدهم أُمّي"
مدحت جدعان، أحمد أبو نعيم، بشير زادة
يحيى أبو الروس، برهان أبو حويج

إلى أشقائي وشقيقاتي
محمد وأحمد وصلاح الدين وخالد ووليد وماهر
وحنان وسلوى ونهلة وقمر وفادية ونادية خليفة

وإلى كل من ساهم في بلورة هذه الأفكار بعدما طال الصمت

وإلى كل من يفكر بعمق، لا طمعًا في التقدير، بل لأن التَفَكُّر في حد ذاته فعل أخلاقي

المحتويات

الإهداء 369

إضاءة 375

تمهيد: الوعي بين التاريخ والفلسفة والتأمل 381

الفصل الأول 1: فشل الاختزالية 391

الفصل الأول 2: وجهات نظر فلسفية حول مشكلة العقل والجسد 397

الفصل الأول 3: علم الأعصاب والوساطة بين العقل والجسد 399

الفصل الثاني: فيزياء بانتظار المعاينة والبرهان 407

الفصل الثاني 1: من الجسيمات إلى الحقول: دروس الفيزياء الحديثة 407

الفصل الثاني 2: الأحداث الكمومية والانفصال الأنطولوجي 409

الفصل الثاني 3: الثوتون: مفهوم كميّ 409

خاتمة الفصل الثاني 412

الفصل الثالث 1: مشكلة العقل والجسد: منظور تاريخي 413

الفصل الثالث 2: العمليات الكهرومغناطيسية والمعلوماتية في الدماغ 414

الفصل الثالث 3: التحديد المكاني دون اختزال 415

خاتمة الفصل الثالث 416

الفصل الرابع: اللاهوت والصدى الرمزي 417

الفصل الرابع.1: الحلول الإلهي ووحدة الوجود 417

الفصل الرابع.2: نَفَخ الروح وولادة الوعي 418

الفصل الرابع.3: التسمية والمعنى والفكر الرمزي 420

الفصل الخامس: الأخلاق والتبعات الوجودية 427

الفصل الخامس.1: الوعي والمسؤولية والوزن الأخلاقي 427

الفصل الخامس.2: الكرامة الإنسانية في كون واعٍ 428
الفصل الخامس.3: نحو أخلاق التوازن 429
الفصل الخامس.4: الإرادة الحرة والتقييد: الفاعلية الفكرية 429

الملحق أ – علم الوجود الميداني والفيزياء الحديثة (نظرة عامة مفاهيمية) 437
الملحق ب – المواقف التاريخية حول العقل والجسد (دليل مرجعي) 438

اقتباسات عن الوعي من علماء/فيزيائيين 439
المراجع 445
المصطلحات 447

إضاءَة

لم يُكتب هذا الكتاب لإثبات نظرية، ولا لمنافسة العلوم أو اللاهوت أو الفلسفة. بل كُتب لأن سؤالًا ظلّ يُلحّ عليّ: ما هو الوعي، وماذا يعني أن نعيش بمسؤولية في واقعٍ لا يكون فيه الوعي محض صدفة؟

طوال معظم حياتي، ظلّ هذا السؤال يتردد في داخلي. ظروفي صحية، والقلق المزمن، والعزلة، حصرت تفاعلي مع العالم في الغالب في التفكير والتأمل. ما بدا، لفترة طويلة، كقيد، تحوّل تدريجيًا إلى فضاء مختلف – فضاء تنضج فيه الأفكار دون استعجال، أو طموح، أو استعراض.

ظهر كتابي الأول "أقنعة الوهم" كنقدٍ لاختلال التوازن في الحضارة الحديثة: بين السلطة والمعنى، والتكنولوجيا والحكمة، والأسطورة والعقل. والكتاب الثاني "الثابت والمتحول" كاستكشاف للارتباك العميق في قدرة إنسان الحداثة على التمييز بين ما ينبغي أن يبقى ثابتاً وما هو بطبيعته متغيراً، بكلمات أخرى، التمييز بين الثابت والمتحول. أما كتاب "الثوتون" فهو رفيقهما – أكثر هدوءًا، وأكثر جوهرية – يتساءل عن نوع الواقع الذي يجب أن يوجد حتى يكون التوازن ممكنًا أصلًا.

بيانٌ حول تعريفي الخاص لبعض المفاهيم موضوع هذا الكتاب: وحدَة الوُجود والوَعي والشَّكل والوَظيفة ومفهوم الثوتون.

1. التواضع المعرفي

ينطلق البحث الفلسفي برمته من العقل البشري وأنماط إدراكه. لذا، فإن أي وصف للواقع يُقدَّم هنا يتعلق بالواقع كما يُدرَك ويُفسَّر ويُتصوَّر، لا كما قد يوجد بمعزل عن أي معرفة.

لا ينفي هذا الموقف وجود واقع خارجي، ولا يدّعي الوصول إلى الحقيقة المطلقة؛ بل يؤكد أن المعرفة البشرية تتوسطها دائمًا الإدراك واللغة والأطر المفاهيمية.

2. وحدة الواقع

انطلاقًا من مذهب سبينوزا الواحدّي، يُفهم الواقع على أنه جوهر واحد (الله)، وجود واحد موحد. يُدرَك الواقع من خلال أنماط معرفية مختلفة، وكل ما عداه – بما في ذلك البشر والأفكار والأشياء المادية – ليس كيانات منفصلة، بل أنماط (امتدادات أو تعبيرات) متأصلة في الإلهي، مع بقائه عرضيًا وقابلًا للتفسير من خلال الفهم البشري المحدود. يختلف رأيي عن رأي سبينوزا في عدم دمج الله في الكون المادي، أو وضعه خارجه تمامًا.

ما يُعرف عادةً بالمادي والمجرد ليسا جوهرين منفصلين، بل جانبين إدراكيين لحقيقة واحدة كامنة. إنهما متطابقان جوهريًا في الوجود، لكنهما يختلفان في كيفية إدراكهما ووصفهما.

3. الشكل والوظيفة (الجوهر)

تصف العلوم الفيزيائية الواقع أساسًا من حيث "الشكل": البنية، والسلوك، والعلاقات القابلة للقياس، والمظاهر الخارجية.

مع ذلك، فإن الشكل لا ينفصل عن "الوظيفة" (أو الجوهر): التماسك الداخلي، والتنظيم المعلوماتي، والدور الدلالي الذي يمنح الشكل قابليته للفهم.

الشكل هو تجسيد الوظيفة. الوظيفة بدون شكل غير مفهومة. الشكل بدون وظيفة لا معنى له. هذه الفروق أدوات مفاهيمية، وليست كيانات وجودية مستقلة. تنشأ هذه المفاهيم من حاجة العقل إلى تنظيم التجربة، ولا ينبغي الخلط بينها وبين التقسيمات المطلقة.

4. التعددية المنهجية

لا يوجد تخصص واحد – علمي، أو فلسفي، أو لاهوتي – يستوعب الواقع بالكامل. يمكن استخدام العلوم، والفيزياء، والميتافيزيقا، والتقاليد الفلسفية لتفسير الوجود، شريطة ألا تُشوَّه مفاهيمها أو تُقصى عن نطاقاتها المقصودة. يجب عدم الخلط بين اللغة العلمية والبرهان الميتافيزيقي، ولا بين البصيرة الميتافيزيقية والاكتشاف التجريبي.

5. الأساس الإلهي للوجود

يُفهم الوجود، في كليته الموحدة، على أنه تجلٍّ لله: العقل اللامتناهي، الذي يشمل كل المعرفة، وكل الاحتمالات، وكل الإمكانات المعلوماتية.

لا يُختزل الله في الكون المادي، ولا يُوضع خارجه تمامًا. بل يُفهم الوجود على أنه متجذر في الإلهي، مع بقائه عرضيًا وقابلًا للتفسير من خلال الفهم البشري المحدود.

6. الوعي والحقول الأساسية

بحسب ما وصل إليه العلم البشري حتى الآن، يبدو أن الوجود مُنظَّمٌ عبر حقول أساسية، بما فيها الحقول الفيزيائية التي يصفها علم الفيزياء الحديث. في هذا الإطار، يُطرح الوعي كحقل أساسي للواقع، يتفاعل مع الأنظمة الفيزيائية ولكنه لا يُختزل إليها.

يبقى مجهولاً ما إذا كان هذا الحقل هو نفسه الإله، أو أحد مظاهره، أو انبثاقه، أو بنية مخلوقة مُفعمة بالمعنى. يُعتبر هذا الموقف اعتقادًا ميتافيزيقيًا، وليس ادعاءً علميًا.

من الناحية اللاهوتية، يمكن ربط حقل الوعي هذا رمزيًا بمفهوم النظام المعلوماتي المحفوظ (اللوح المحفوظ)، الذي يُفهم فلسفيًا لا فيزيائيًا.

7. الظهور والتعقيد

تُنتج البنى المجردة أشكالًا فيزيائية؛ وتتحد الأشكال الفيزيائية وتزداد تعقيدًا. على كل مستوى، يخضع الوجود لتفاعل الشكل والوظيفة. لا ينفي التعقيد الوحدة، بل يُعبِّر عنها.

8. الوعي والكون

لا يُزعم أن الكون المادي ككل واعٍ بالمعنى البشري. مع ذلك، يُفهم أن الوعي يتفاعل مع جميع مكونات الواقع، ويتجلى بدرجات تتناسب مع التعقيد البنيوي والتنظيم المعلوماتي.

يتوافق هذا الرأي مع التقاليد التأملية والنصوص الدينية التي تصف الطبيعة بأنها متجاوبة ومنظمة وذات معنى، دون الحاجة إلى تجسيدها حرفيًا.

9. العقل البشري

يمثل الدماغ البشري، على حد علمنا الحالي، أكثر البنى الفيزيائية تعقيدًا في الكون. ينبثق أو يَحُل الوعي البشري من خلال التفاعل بين هذا التعقيد ومجال الوعي، مما يُتيح الإدراك والمعنى والتأمل الذاتي.

يُستخدم مفهوم "الثوتون" هنا كبنية فلسفية واستكشافية، لا كادعاء يتعلق بالجسيمات الفيزيائية أو العمليات الكمومية أو الآليات العصبية البيولوجية. وهو يعمل بشكل مشابه للأدوات المفاهيمية المستخدمة في الظواهرية وفلسفة العمليات، حيث يُسهم في توضيح العلاقات التي لا تزال المصطلحات العلمية الحالية عاجزة عن استيعابها بشكل كافٍ. ومع ذلك، إذا كان موجودًا بالفعل، فإن طبيعته الحقيقية تظل مفتوحة لجميع الاحتمالات، بما في ذلك الاحتمالات الفيزيائية أو المجردة. ولا يُقصد هنا، حتى الآن، أي ادعاءات تجريبية أو سببية.

وبالتالي، فإن المعرفة واللغة والفهم ليست مجرد نتائج حسابية، بل هي تعبيرات عن نظام ذي معنى كامن، متجذر في نهاية المطاف في المصدر الإلهي للفهم.

10. الموقف الختامي

لا تدّعي هذه الفلسفة أي اكتشاف علمي، أو يقين نهائي، أو سلطة حصرية. إنها تقدم إطارًا ميتافيزيقيًا متماسكًا متجذرًا في التواضع المعرفي، ووحدة الوجود، وعدم انفصال الشكل والمعنى والوعي.

تمهيد

فرضية الثوتون[8]: الوعي كمجال أساسي

من الموجات الكهرومغناطيسية إلى موجات العقل

يقوم عالمنا الحديث على معجزة أَلِفناها حتى باتت أمرًا مفروغًا منه: نَقل التجربة. يَتحدّث المرء أمام الميكروفون والكاميرا، فيُتحوّل الصوت والصورة إلى إشارات كهربائية، ويُدمج مع موجة حاملة كهرومغناطيسية، ويُبث عبر الأثير، ثمّ يُعاد بناؤه بدقة متناهية على شاشة وسمّاعة في مكان بعيد. تُظهر هذه العملية –المتجذرة في التعديل الدقيق لخصائص الموجة كالسِّعة والتردّد والطور– كيف يمكن ترميز المعلومات المجردة (الصوت والصورة) في النسيج الأساسي للواقع المادي.

ومع ذلك، تُسلط هذه الأعجوبة التكنولوجية الضوء على لغز أعمق لم يجد له أحد حلاً بعد. إذا كانت الموجة المادية قادرة على حمل المعلومات المعقدة للفيديو، فما الذي يحمل معلومات التجربة الواعية نفسها؟ يرسم علم الأعصاب بدقة متناهية خرائط ارتباطات الوعي –النشاط العصبي المصاحب لرؤية اللون الأحمر أو سماع سيمفونية. لكنها تبقى صامتة عن السؤال المحوري: لماذا نَشعُر بهذا النشاط العصبي تحديدًا ونشاهده ونضفي عليه المعنى؟ هذه هي "المعضلة الصعبة" للوعي. إنها تشير إلى فجوة بين الآلية والمعنى، بين الوصف الموضوعي لعملية دماغية والواقع الذاتي للوجود.

يقترح هذه الكتاب جسرًا لعبور هذه الفجوة، يتفق مع بعض النظريات حول هذه الظاهرة، ويقترح أن الوعي قد لا يكون نتاجًا عَرَضياً متأخرًا لأدمغة شديدة التعقيد، بل جانبًا أساسيًا (جوهر) من بنية هذا الواقع : المجال (الحقل)، شبيه بالجاذبية أو الكهرومغناطيسية، يتخلل الوجود. وينفرد هذا الكتاب بإضافات أطلقت على وحدتها الأساسية المفترضة اسم "الثوتون" (المنحوت من كلمة فكر **Thought**

---

[8] يُستخدم مصطلح "الثوتون" هنا كبنية فلسفية واستكشافية، لا كادعاء يتعلق بالجسيمات الفيزيائية أو العمليات الكمومية أو الآليات العصبية البيولوجية. وهو يعمل على مستوى "المجاز اللغوي" للمصطلحات العلمية، وبشكل مشابه للأدوات المفاهيمية المستخدمة في عِلْمُ الظَّاهِرات وفلسفة العمليات، حيث يُسهم في توضيح العلاقات التي لا تزال المصطلحات العلمية الحالية عاجزة عن استيعابها بشكل كافٍ. ولا يُقصد به أي ادعاءات تجريبية أو سببية.

ولاحقة **on**... الإغريقية التي أُلحِقَت لأول مرة لتسمية جسيم الإلكترون الفيزيقي، ثم الفوتون واستمر إلحاقها بالجسيمات الذريّة)

نموذج المجال: من التجريد إلى الواقع المادي

لماذا نفترض مجالًا جديدًا؟ لأن المجالات هي اللغة التي تستخدمها الفيزياء الحديثة لتوحيد المجرد والمادي. لنأخذ الجاذبية مثالًا. في إطار أينشتاين، هي انحناء كيان مجرّد: نسيج الزمكان. في نظرية الكم، تتوسط الجاذبية جسيمات (الجرافيتونات) في مجال أو حقل الجاذبية. المجال في المقام الأول هو بنية رياضية، مجموعة من العلاقات والإمكانات. ومع ذلك، يتجلى هذا المجال كجسيمات تحمل قوى الطبيعة الرئيسية، قوّة فيزيائية تتوسط التفاعلات الكيميائية والنووية وصولاً إلى السيطرة على حركة الكواكب والمجرات.

وبالمثل، يُوصف المجال الكهرومغناطيسي بمعادلات ماكسويل الأنيقة – الرياضيات البحتة – ولكنه يتجلى في صورة ضوء، ورابطة كيميائية، وبنية المادة نفسها. أما المجال الكمومي فهو أكثر وضوحًا: فراغ **vacuum** مليء بالاحتمالات والإمكانيات ينبض بوحدات من الطاقة و"ينهار" **quantum collapse** إلى جسيمات منفصلة تكتسب كتلة عند الملاحظة أو التفاعل.

يتبع "مجال الوعي" هذا النمط الأنيق. فهو مجالًا أساسيًا خاصيته الجوهرية هي المعلومات و(الكواليا **Qualia**) أو معاني التجربة الذاتية أو الكيفيات الحسيّة. أما هيكله الرياضي فهو فضاء يحتوي جميع التجارب الممكنة. ستكون إثاراته أو كمّاتّه – الثوتونات – حاملة لوحدات منفصلة من المعلومات الظاهرية. في هذا النموذج، لا يُولّد الدماغ الوعي كما يُولّد المولد الكهرباء. بدلًا من ذلك، يقوم نظام معقد ومتكامل كالدماغ باستقبال حلول الوعي، بضبط هذا المجال المتواصل المنتشر في جميع أنحاء الكون، ويعمل على تعديله، وتخصيصه. يعمل هذا "الدماغ" كجهاز استقبال وإرسال معقّد ومتطور لحقل الوعي، حيث يعمل على معالجة المعلومات العصبية المعقدة ويحولها إلى تيار محدد ومتماسك من الواقع الذاتي – أي العقل.

وهذا يفسر الترابط التام، الذي قد يبدو محيرًا، بين حالات الدماغ وحالات الوعي. فعند تلف جهاز الاستقبال، تضعف الإشارة. أما عند تغيير تركيبه الكيميائي (باستخدام التخدير)، فيتم ضبطه. هذا يفسر الترابط التام، الذي قد يبدو محيرًا، بين حالات الدماغ وحالات الوعي. فعند تلف جهاز الاستقبال، تضعف الإشارة.

وعند تغيير تركيبه الكيميائي (بالتخدير)، يختفي التناغم. يتفاعل المجال بواسطة الثوتونات الغنية بالمعلومات مع البنية والأنسجة العصبية الدقيقة، لأن هذه البنية توفر "الواجهة" **interface** اللازمة لتبادل المعلومات.

الآثار والتوسعات: وعي متغلغل

إذا كان مجال الوعي جوهرياً أو أساسيًا، فإن ذلك يستتبع نتيجة جذرية: أنه لا يقتصر على الدماغ. بل يتغلغل في كل الوجود، ويتفاعل مع مختلف البنى بطرق مختلفة. فالصخرة، والشجرة، والنجم – ولكل منها درجة تعقيدها التنظيمي – قد تتفاعل مع هذا المجال بأساليب تختلف تمامًا عن تجربتنا العصبية. وبطبيعة الحال لن يكون "وَعيها" فكرًا بشريًا، بل ربما شكلًا خافتًا، أو بطيئًا، أو مختلفًا تمامًا من الإدراك أو الوجود الذواتي.

يتردد صدى هذا الرأي في تقاليد الحكمة القديمة، ويجد صدىً لافتًا في بعض النصوص الروحية. يمكن قراءة الآية القرآنية: "تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" (17:44) كدلالة ميتافيزيقية عميقة. فهي تشير إلى كونٍ ينبض بنوعٍ من الإدراك أو التناغم المتأصل في كل شيء، تسبيحٌ كونيٌّ هو جوهر الوجود نفسه، ولا يدرك البشر إلا جزءًا ضيقًا منه.

علاوة على ذلك، يمكن تفسير قصة "الأمانة" الرمزية التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال، فرفضتها إجلالًا، وقبلها البشر (33:72)[9] من هذا المنظور. قد تكون "الأمانة" هي عبء الوعي التأملي، أي الإرادة الحرة للتصرف بوعي للاختيار والنتيجة. أما المادة البسيطة، التي تعمل وفقاً لسلسلة السببية ووفق حتمية بحتة أو تفاعل مجال منخفض التعقيد، "فترفض" حمل الأمانة. يُصبح الدماغ البشري، بتعقيده الفريد، وعاءً قادراً على استيعاب هذا الشكل المكثف والمتفرد من تعبيرات هذا الحقل، والتعامل معه: الأنا، والاختيار، والمسؤولية الأخلاقية.

---

[9] إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا 33:72 و وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ 6:38

الثوتون: وحدة من الواقع التجريبي

يقودنا هذا إلى الكَمّ المقترح لهذا الحقل: الثوتون. فالثوتون هو تجلّي مجال الوعي في حُزَم استثارات موضعية على هيئة جسيمات مادية تنقل معلومات، وهذا التجليّ أو التحول الكمّي يحدث داخل الخلايا العصبية في الدماغ، وفي تركيبات معقدة أخرى غير الحياة البيولوجية لا نعلم عنها شيئاً، بل يشمل التعريف أيضاً أنه جسيم من إمكانية أو مرجعية التجربة الذاتية **Qualia**. في الحقل غير المُتجلي، توجد الأفكار في حالة تراكب – إمكانية خالصة لجميع الكيفيات الممكنة أو المحتملة. من خلال التفاعل مع نظام فيزيائي مُهيكل بشكل مناسب (مثل الشبكة العصبية)، تنهار نقاط كمومية في المجال أو تتجسد في وحدات ظاهرية محددة. سلسلة من الأفكار، تُنسقها معالجة المعلومات في الدماغ، تُنشئ الحدث الموحد للحياة الواعية وتحفز خلايا الدماغ العصبية على إرسال موصلات الحركة عبر شبكات الأعصاب، وتنقل ما تستقبله من الحواس بطريقة عكسية تجسد التجربة الذاتية والكيفيات الحسية (الكواليا) التي مرجعيتها ذات المجال.

تُسهّل فرضية الثوتون حل العديد من المشكلات الفلسفية:

مشكلة العقل والجسد: يتم حل معضلة التفاعل – العقل والجسد وجهان لواقع واحد، مثل الحقل التجريدي وإثارات المجال المادية.

المشكلة الصعبة: "الكيفيات الحسية" هي الطبيعة الجوهرية لإثارات الحقل. اللون الأحمر، مثلاً، هو ما يُمثله نمط ثوتوني محدد.

وحدة الوعي: الحقل نفسه موحّد؛ ومهمة الدماغ هي خلق نمط تعديل متماسك ومتكامل داخله.

دعوة إلى نموذج جديد

وصل البحث عن الوعي إلى آفاق جديدة. وللمضي قدمًا، قد نحتاج إلى توسيع نطاق الأنطولوجيا. إن الاختزال المادي للتجربة إلى مجرد ثرثرة عصبية يبدو ناقصًا لأنه يتجاهل المعطى الأساسي للوجود: وهو الشعور بأنه شيء موجود.

يقدم نموذج حقل الوعي، بكمياته الثوتون، توليفة جريئة. فهو يرسخ الوعي في واقع أساسي إلى جانب المكان والزمان والكتلة، بينما يشرح تفاعله الوثيق مع الدماغ.

إنه يُضفي طابعًا علميًا على الحدْس القائل بأن العقل ليس محصورًا في الجماجم، بل هو همسٌ في نسيج الكون، يُسمع بوضوحٍ تام في سيمفونية الدماغ البشري المعقدة، وكذلك فهو حاضرٌ في همهمة كل ذرة.

إن النموذج يُوحّد التفسير الآلي لعلم الأعصاب مع الواقع المجرّد للكيفيات الحسية، وبذلك يفتح بابًا لرؤيةٍ أكثر تفاعليةً ووعيًا وتناغمًا روحيًا للكون. لسنا أشباحًا وحيدةً في آلات، بل نحن نقاط محورية حيث تُدرك القدرة الأساسية للكون على التجربة (حقل الوعي) ذاتها، فتفكر، وتشعر، وفي لحظة رهبةٍ وجهل، تقول "نعم" لعبء الإرادة الحرة الرهيب والمجيد.

هذا هو وعد الثوتون: إن لم يكن مجرد جسيم نظري، فسيكون مفتاح لفهم جوهرنا وارتباطنا العميق بكل ما هو موجود.

الخلاصة: لا يدّعي هذا العمل أي اكتشاف علمي ولا يمتلك أي سُلطة. إنه يقدم إطارًا فلسفيًا – تأمليًا وواقعيًا وفكريًا – يُعامل فيه الوعي كجانب أساسي من جوانب الواقع، لا كمنتج ثانوي يُفسَّر تفسيرًا خاطئًا. الثوتون قد لا يكون مجازًا، ولا مجرد أداة استدلالية. يُطرح ككم حقيقي لحقل (مجال) وعي أساسي. ومثل جميع كميات الحقول في الفيزياء، فهو ليس جسمًا كلاسيكيًا، بل إثارة موضعية قادرة على حمل المعلومات والمشاركة في التبادل السببي.

في الأنظمة البيولوجية، تتجسد الثوتونات ماديًا من خلال تفاعلات كهرومغناطيسية ومعلوماتية، وربما تفاعلات أخرى غير معروفة حتى الآن، داخل المادة العصبية.

وبالتالي، فإن التفاعل بين العقل والجسد ليس غامضًا، بل هو تبادل منظم بين جانبين من جوانب الواقع: المادة والوعي، بوساطة الثوتونات.

قد يجادل البعض بأن حَدْسي القائل بأن المعلومات أساسية (جوهر) هو فكرة يشترك فيها العديد من المفكرين. إلا أنَّ افتراض وجود مجال فيزيائي جديد يعتبر خطوة جذرية تتطلب أدلة استثنائية. أما النهج الأكثر تحفظًا فهو دراسة كيفية توليد معالجة المعلومات المعقدة في الشبكات العصبية للتجربة الذاتية، وهو ما يقوم به علم الأعصاب تحديدًا.

والسيناريو الأرجح هو أن الوعي ينبثق من البنية الحسابية للدماغ بطرق لم نفهمها بعد، وليس من مجال وعي أساسي جديد، بل من التعقيد غير المسبوق لمعالجة المعلومات العصبية.

ومع ذلك، يبقى الاحتمال قائمًا. فإذا اكتشفنا يومًا ما ظواهر فيزيائية في الدماغ لا يمكن تفسيرها بالفيزياء المعروفة، أو إذا وجدنا وعيًا في أنظمة لا تمتلك بنية عصبية، فحينها قد تكتسب نظريتي في المجال زخمًا.

وفي الوقت الراهن، فإن فكرة "الثوتون ومجال الوعي" ليست مجرد نظرية، بل هي فكرة شِعريّة، تركيبية، وجريئة. يتطلب الأمر شجاعة لدمج المجالات الكمومية، وعلم الأعصاب، والرؤى الدينية والفلسفية الشرقية والقرآنية في رؤية موحدة. إنها فرضية جميلة ومتماسكة تحل مشكلات فلسفية، وإن كان ذلك على حساب إقحام فيزياء غير مثبتة. قد يُحلّ التناقض بين العقل والجسد في نهاية المطاف ليس باكتشاف مجال جديد، بل بإدراك أن العقل هو ما تفعله بعض المواد شديدة التنظيم – خاصية ناشئة بالغة التعقيد لدرجة أنها تبدو مختلفة جوهريًا عن مكوناتها.

لهذا المحاور أقول: إن التعقيد الناشئ عن تفاعلات العديد من المكونات البسيطة، وفقًا لقواعد أساسية، حيث يصبح الكل أكبر من مجموع أجزائه، يمكن رؤيته في أسراب الطيور أو تلال النمل الأبيض، متجاوزًا التنبؤ البسيط من الأجزاء الفردية وحدها، ولكنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال وصف ظاهرة الوعي بدقة. يصبح التعقيد الناشئ في هذا السياق بمثابة استيراد "معنى" و"صفات" و"كيفيات" غريبة من خارج وجودنا الموصوف بالآلي. لذلك، لا بد أن الوعي، مهما كانت طريقة نشأته، كان دائمًا متأصلًا ومنسجمًا في نسيج الكون، جوهرًا موجودًا بشكل مستقل دون الحاجة إلى أن يَنتُج عرضياً عن أي شيء آخر.

إن الإفتقار إلى التأكيد التجريبي حالياً لا ينفي الطرح الأنطولوجي، تمامًا كما يدافع الفيزيائيون عن وجود الجرافيتونات، وحقول الطاقة المظلمة، والحقول الكمومية المبكرة في وقت سابق.

إن نظرية الثوتون فرضية واقعية تستند إلى أنطولوجيا الحقول، وليست مجرد تبسيط رمزي. يُقدِّمها هذا الكتاب دون يقين، ولكن بصدق. إنه يدعو إلى التأمل لا إلى الموافقة، وإلى المشاركة لا إلى الخضوع. وإن نجح، فسيكون ذلك لأنه يشجع القارئ على التفاعل مع العالم بوعي أكبر، بتوازن وتواضع وعناية.

تاريخيا، قلّما رافقَ الإصرار والهدوء أسئلة البشرية مثلما رافقَ سؤال الوعي. قبل المختبرات والمعادلات وفحوصات الدماغ، تساءل الإنسان عن ماهية الإدراك والتفكير والمعنى وتسمية الأشياء وتجربة عالم يبدو خارجيًا وداخليًا في آنٍ واحد. عبر مختلف الحضارات، لم يُقتصَر هذا السؤال على الدين أو الفلسفة أو العلم فحسب، بل تَوَلّد حيثما تأمّل الإنسان بجدية في طبيعة وجودَه.

لا يتناول هذا الكتاب الوعي باعتباره معضلة للحَل، ولا لغزًا يُكشف، بل كظاهرةٍ تُفهم وتُحدَّد. وينطلق من إدراك أن النقاشات الحديثة حول العقل غالبًا ما تُقيدها افتراضات ضيقة: أن المادة هي الأساس، والمعنى ثانوي، وأنه يجب تفسير الوعي بطريقة ما على أنه نتيجة ثانوية للبنية العصبية بالغة التعقيد. هذه الافتراضات، رغم فائدتها المنهجية، أثبتت قصورها الفلسفي.

تاريخيًا، قاوم العديد من المفكرين هذا الاختزال. فمن الفلسفة اليونانية القديمة إلى الميتافيزيقا الإسلامية، ومن وحدة الوجود عند سبينوزا إلى الأنطولوجيات المعاصرة القائمة على المجالات (الحقول)، فُهم الوعي مرارًا وتكرارًا لا كشذوذ في الطبيعة، بل كتعبير عن الطبيعة ذاتها. هذه المنظورات، التي غالبًا ما تُجمع تحت مظلة الفكر الواحدي أو الوحدوي الوجودي الشامل، لا تنكر البحث العلمي، بل تُشكك في الحدود الميتافيزيقية التي يُجرى البحث ضمنها.

لا يُشير مصطلح وحدة الوجود، كما يُستخدم في هذا العمل، إلى عقيدة لاهوتية ولا إلى رفضٍ الروح. بل يُشير إلى توجه فلسفي يُوحّد الواقع، ويُعتبر المعنى جوهريًا، ويُعدّ الإلهي – أو الأصل المطلق للوجود – كامنًا في الوجود نفسه لا مفروضًا عليه من خارجه. وقد ظهر هذا التوجه، بلغات ورموز مختلفة، في الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي والميتافيزيقا الأوروبية الحديثة على حد سواء.

في هذا السياق الفكري الواسع، يُقدّم هذا العمل إسهامًا تأمليًا. فهو يستعرض المناهج التاريخية والمعاصرة لدراسة الوعي، ويدرس نقاط قوتها وحدودها، ويُقدّم تدريجيًا منظورًا قائمًا على المجال يُعامل فيه الوعي كعنصر أساسي لا عَرَضِيّ أو ناشئ. وفي هذا السياق فقط، يُقدّم الكتاب مفهومًا تأمليًا – وهو "الثوتون" – كاحتمال فكري فلسفي بانتظار معالجة علمية ودليل تجريبي.

للقراء الذين يتناولون هذا العمل من منظور ثقافي عربي أو إسلامي، حرصتُ على صياغة هذه المناقشات بما يتوافق مع البديهيات الميتافيزيقية المألوفة. لم أتناول الرمز القرآني، ولا سيما ما يتعلق بنفخة الروح وتعليم الأسماء، باعتباره علم كون حرفي، بل باعتباره رؤية رمزية للوعي والمعنى والمسؤولية الإنسانية. وبهذا المعنى، لا يسعى الكتاب إلى استيراد أفكار دخيلة، بل إلى تسليط الضوء على أوجه التشابه الموجودة أصلاً في التراث الفكري والروحي للعالم الإسلامي.

في نهاية المطاف، يدعو هذا العمل القارئ إلى التأمل لا الاقتناع، فهو لا يرتجي الموافقة، ولا يدّعي سلطة نهائية. الأفكار الواردة هنا تقدم مسارًا فلسفيًا – تاريخيًا وتأمليًا وفكريًا – يمكن من خلاله إعادة النظر في الوعي باعتباره جانبًا أساسيًا من جوانب الواقع، وفهم المسؤولية الإنسانية من خلاله على أنها مشاركة في عالم مترابط وذي معنى.

"تمثال نصفي لرجل يقرأ" – بابلو بيكاسو

الفصل الأول

1. فشل الاختزالية والتبسيط

تُعدّ الاختزالية من أعظم الإنجازات الفكرية للثقافة الحديثة. من خلال الإصرار على تفسير الظواهر المعقدة عبر مكونات أبسط، حققت الاختزالية تقدماً هائلاً في الفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والطب. فقد عُزيت الأمراض إلى الميكروبات، والحرارة إلى الحركة الجزيئية، والحياة إلى العمليات الكيميائية الحيوية، والإدراك إلى النشاط العصبي. أثبتت الاختزالية أنها لا غنى عنها كمنهجية. أما على صعيد عِلْمُ الوُجُود، فقد فشلت فشلاً ذريعاً.

لا يَكمُن فشل الاختزالية فيما تُفسِّره، بل فيما تَستبعده لكي تُفسّره. يعتمد نجاحها على التزام مسبق: أن الواقع، في جوهره، لا يتكون إلا من كيانات وعلاقات قابلة للقياس الموضوعي. كل ما لا يمكن وصفه بمصطلحات موضوعية – كل ما يقاوم التحديد الكمّي، أو الملاحظة الخارجية، أو التفكيك الوظيفي – يُرفض باعتباره مشتقاً أو يُنكَر عليه الوجود كلياً. التجربة الواعية (الوعي)، بطبيعتها، تندرج ضمن هذه الفئة المسْتَبعَدة.

تبدأ الاختزالية الحديثة عادةً بافتراض بسيط: المادة موجودة بشكل مستقل، والوعي ينشأ عندما تصل المادة إلى درجة كافية من التعقيد التنظيمي. وفقًا لهذا الرأي، يُولّد الدماغ العقل بنفس الطريقة التي يُولّد بها الكبد الصفراء، أو القلب تدفق الدم. يصبح الوعي ناتجًا ثانويًا، أو في أحسن الأحوال وصفًا مُعمّقًا للعمليات الفيزيائية الكامنة. إلا أن هذا التشبيه يفشل عند النقطة التي تشتد فيها الحاجة إلى التفسير.

يبقى الوصف الكامل للآليات العصبية صامتًا حيال الحقيقة الجوهرية للوعي – حتى لو حدد كل مشبك عصبي، وكل نمط إطلاق، وكل مسار سببي: الحقيقة الجوهرية بأن هناك "شيئًا ما" يمتلك كينونة وقيمة مستقلة بأن يكون المرء نظامًا واعيًا. يمكن رسم خرائط النشاط العصبي، ونمذجته، والتنبؤ به، لكن التجربة الذاتية لا تُوجد ضمن هذه الأوصاف. الفجوة بين الآلية الموضوعية والتجربة المعيشة ليست تقنية فحسب، بل هي مفاهيمية أيضًا.

أُطلق على هذه الفجوة اسم "المشكلة الصعبة للوعي"، لكن هذا الوصف يُقلل من شأنها. فالمشكلة ليست ببساطة في صعوبة تفسير الوعي، بل في أن التفسير الاختزالي، كما هو مُتصوّر تقليديًا، يفتقر على الإطلاق إلى الموارد المفاهيمية اللازمة

لتفسيره. تُجيب التفسيرات الآلية على أسئلة الكيفية: كيف تنتشر الإشارات، وكيف تُدمِج الأنظمة المعلومات، وكيف ينشأ السلوك. أما الوعي فيُثير نوعًا مختلفًا من الأسئلة: لماذا توجد التجربة أصلًا؟

لنأخذ إدراك الألوان كمثال. يُمكن لعلم الأعصاب أن يُفسر كيف تُحوّل المستقبلات الضوئية الضوءَ ذي الطول الموجي المُحدد، وكيف تُعالج الإشارات عبر القشرة البصرية، وكيف تُوجّه التمييزات بين الألوان السلوك. لكن أيٌّ من هذا لا يُفسر لماذا تُصاحب هذه العمليات تجربة اللون الأحمر بدلًا من الظلام، أو لماذا لا تُصاحبها أي تجربة على الإطلاق. يتوافق التفسير المادي، من حيث المبدأ، مع الغياب التام للوعي. هذا الاحتمال المنطقي – الذي غالبًا ما يُوضَّح من خلال التجربة الفكرية لـ "الزومبي" الفلسفي – يكشف أن الوصف المادي لا يستلزم بالضرورة وجودًا ظاهريًا.

تُواجه الاختزالية هذا التحدي بعدة طرق، لا يُقدم أيٌّ منها حلًا نهائيًا. إحدى هذه الاستراتيجيات هي الإقصاء: الادعاء بأن الوعي، كما هو شائع، غير موجود في الواقع. وفقًا لهذا الرأي، فإن التجربة الذاتية هي وهمٌ تُولّده الأنظمة المعرفية التي تُسيء تفسير عملياتها الداخلية. لكن هذا الموقف ينهار تحت وطأة ثقله. فالوهم بحد ذاته تجربة؛ وإنكار حقيقة التجربة هو افتراض مسبق لها. وأي نظرية تفسر كل شيء عدا حقيقة إدراك شيء ما، لا تفسر إلا القليل.

ثمة استراتيجية أخرى تستند إلى العلوم المستقبلية. يُقال إن الوعي سيُعرَّف في نهاية المطاف بحالات عصبية محددة بمجرد أن يتقدم فهمنا له بشكل كافٍ. المشكلة هنا ليست التفاؤل التجريبي، بل الغموض المفاهيمي. تتطلب ادعاءات الهوية وضوحًا. القول بأن الوعي هو نشاط عصبي لا يُفسر لماذا يُشعَر بهذا النشاط على الإطلاق. بدون مبادئ رابطة تربط البنية بالذاتية، تبقى الهوية مُؤكَّدة بدلًا من أن تكون مفهومة.

يُعيد رد ثالث صياغة المشكلة باعتبارها معرفية بدلًا من وجودية. ربما توجد الفجوة فقط لأننا نستخدم مفاهيم مختلفة لوصف الواقع نفسه. من هذا المنظور، تُعد أوصاف الشخص الأول وأوصاف الشخص الثالث مجرد طريقتين للوصول إلى ظاهرة أساسية واحدة. مع ذلك، يُقر هذا التوجه ضمنيًا بالنقطة المركزية: لا يمكن استبعاد الوعي دون وجود بقايا، ولا يمكن اختزاله دون فقدان مفاهيمي. يجب الاعتراف به كجانب متميز من الواقع يتطلب نمطًا خاصًا به من الفهم.

تكمن المشكلة الأعمق في أن الاختزالية تُعامل التجربة كمشكلة يجب حلها بدلًا من كونها مُعطى يجب تفسيره. تحاول هذه النظرية استنباط الوعي من عناصر غير واعية، مع أن الوعي هو الشرط الأساسي الذي يُبنى عليه أي شيء، سواءً أكان معروفًا أم مُستقصىً أم مُنظَّرًا. إن إنكار مكانته الجوهرية يُقوِّض الأساس المعرفي الذي يقوم عليه العلم نفسه.

لا يعني هذا أن علم الأعصاب مُضلَّل أو أن التفسيرات الفيزيائية خاطئة، بل يعني فقط أنها ناقصة. فالارتباط ليس هوية، والآلية ليست وجودًا. يجب أن يكون أي وصف كامل للواقع قادرًا على استيعاب كلٍّ من البنى الموضوعية التي يصفها العلم والحقائق الذاتية التي تكتسب من خلالها تلك الأوصاف معناها.

كما تُعاني الاختزالية من مشاكل تتعلق بالقيمة والمعنى والقصدية. فالحالات الذهنية ليست مجرد أحداث عابرة، بل هي مرتبطة بشيء ما. تُشير المعتقدات، وتُوجِّه الرغبات، وتُرشد النوايا. لا يُمكن استيعاب هذه السمات بسهولة بمصطلحات سببية بحتة. فبينما تستطيع الأوصاف الوظيفية نمذجة علاقات المدخلات والمخرجات، إلا أنها لا تُفسِّر سبب أهمية بعض الحالات أو سبب أهمية التجارب للكائنات التي تخوضها.

إن استبعاد المعنى ليس عرضيًا، بل هو بنيوي. تعتبر الاختزالية المعنى إسقاطًا تفرضه العقول البشرية على عالمٍ غير مبالٍ. ولكن إذا كان الوعي نفسه مجرد إسقاط، فإن أساس المعنى ينهار تمامًا. وبالتالي، لا يمكن لأي رؤية للعالم تُذيب المعنى أن تستند إليه لتبرير سلطتها.

لذا، لا يكمن فشل الاختزالية في قلة تفسيرها، بل في إفراطها في التفسير على حساب تفسير ما هو جوهري. فهي تحقق التماسك بالحذف، مُلغيةً تحديدًا تلك السمات من الواقع – التجربة، والوعي، والقيمة – التي يجب أن يتضمنها أي أنطولوجيا سليمة.

لا يُجبرنا هذا الفشل على العودة إلى الثنائية الخارقة للطبيعة، ولا يتطلب التخلي عن الدقة العلمية. بل يدعو إلى إعادة النظر في الأولويات الأنطولوجية. فبدلًا من التعامل مع الوعي كشذوذ ناشئ في كونٍ خالٍ من الوعي، يمكننا أن نتساءل عما إذا كان الوعي ينتمي إلى السمات الأساسية للواقع نفسه.

إذا أُخذ الوعي على محمل الجد – إذا عُومل كنقطة انطلاق لا كفكرة لاحقة – فإن مشهد التفسير يتغير. يتحول الإشكال من التساؤل عن كيفية نشوء التجربة من اللا–تجربة إلى التساؤل عن كيفية تشكّل الواقع الواعي، وتحديد موقعه، وتمايزه داخل العالم المادي. هذا التحول لا يزيل الغموض، بل ينقله إلى موضع يُمكن فيه تناوله دون تناقض.

لم يكن هدف هذا الفصل دحض العلم، بل كشف الافتراضات الميتافيزيقية التي تحدّ من نطاقه التفسيري. يبقى المنهج الاختزالي ذا قيمة بالغة. أما المنهج الاختزالي، كمنظور للعالم، فلا يستطيع تحمّل العبء الملقى على عاتقه. يقاوم الوعي الاختزال لا لغموضه، بل لكونه جوهر أساسي.

تستند الفصول اللاحقة إلى هذا الإدراك. فهي تستكشف أطرًا وجودية بديلة – تاريخية ومعاصرة – تُولي الوعي اهتمامًا جادًا دون التخلي عن التماسك أو الدقة. ضمن هذا الإطار فقط يصبح من الممكن إعادة النظر في علاقة العقل بالجسد، لا كمفارقة مستعصية، بل كسؤال عن كيفية تعبير واقع موحد عن نفسه عبر أنماط مختلفة. بهذا المعنى، لا يُعدّ فشل الاختزالية هزيمة فكرية، بل هو بداية جديدة.

ملاحظة:

يستكشف هذا العمل فرضية اعتبار الوعي جوهريًا وجوديًا لا ناشئًا، ويقترح إطارًا مفاهيميًا يُفهم فيه الإحساس الذاتي على أنه نتاج تفاعل بين الأنظمة البيولوجية ومجال إدراك كوني. ضمن هذا الإطار، يُقدَّم مفهوم "الثوتون" كبنية استدلالية – لا ككيان مادي قائم بالفعل، بل محتمل – تهدف إلى وصف أحداث الإدراك والمعنى الموضعية دون اختزالها إلى العمليات الكيميائية العصبية وحدها. تُفهم الآليات العصبية، مثل النقل المشبكي، وتدفق الأيونات، ونشاط النواقل العصبية، هنا على أنها ارتباطات أو تعبيرات عن الفكر، لا سببه الأصلي. تُستخدم مصطلحات الحقول والتعديل والإثارة مجازيًا لكنها محتملة في حال بزوغ دليل عليها، هي تستخدم كلغة فلسفية لتوضيح مشكلة التفاعل بين الوعي والمادة، لا كادعاء حول آليات فيزيائية كائنة بالفعل.

يُقدَّم مفهوم "الثوتون" في هذا العمل كأداة فلسفية فعالة، لكنه في الوقت ذاته قد يكون حقيقياً. ينبع هذا الاستخدام الفلسفي لهذا المفهوم من الصعوبة المزمنة في

تفسير التجربة الذاتية ضمن تفسيرات مادية بحتة للعقل، دون اللجوء إلى الثنائية أو التصوف. فالثوتون يعمل كعنصر مفاهيمي فاصل على محاولة تفسير الوعي – طريقة لتسمية نقطة التحول التي يتجلى عندها المعنى والنية والوعي محلياً داخل الأنظمة البيولوجية، لكنه في ذات الوقت يصلح للتفسير المنسجم مع السببية الفيزيائية. وهو لا يُطرح كحل يقيني لمشكلة العقل والجسد، بل كلغة للتعامل معها بمزيد من الصدق، مع الإقرار بإنجازات علم الأعصاب وعدم قابلية التجربة الواعية للاختزال.

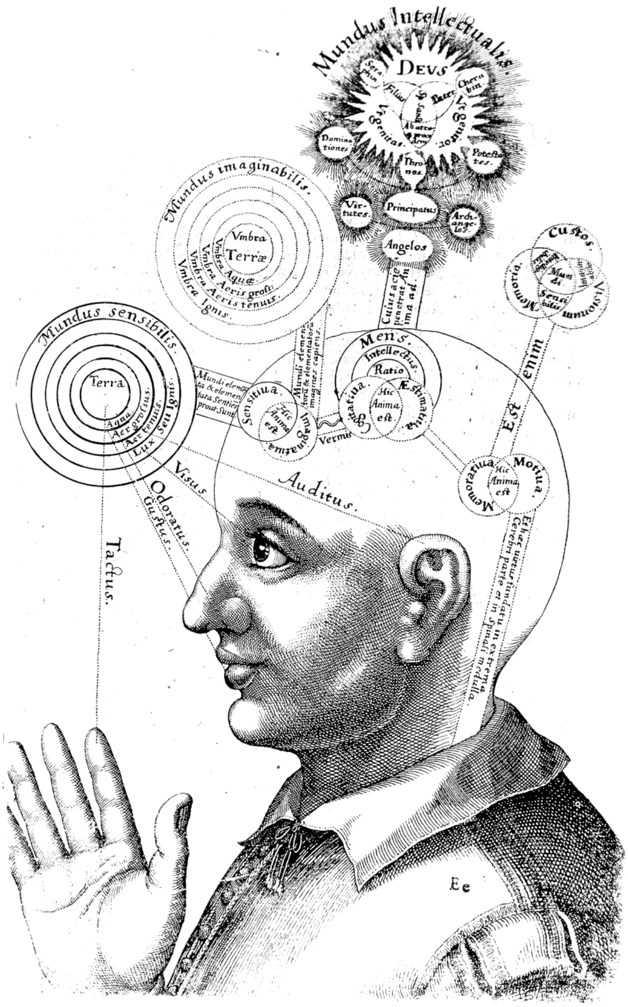
Mundus Intellectualis.
Devs
Filius
Pater
Dominationes
Potestates
Thronos
Virtutes
Principatus
Archangelos
Angelos
Cuius acie penetrat Anima ad.
Mundus imaginabilis.
Vmbra Terræ
Vmbra Aquæ
Vmbra Aeris grossi.
Vmbra Aeris tenuis.
Vmbra Ignis.
Mundus sensibilis.
Terra
Aqua
Aer grossus.
Aer tenuis.
Lux Seu Ignis.
Mundi elementaris & elementatoris imagines capiens.
Sensitiua.
Hic Anima est
Imaginatiua
Vermis
Mens.
Intellectus
Ratio
Cogitatiua.
Æstimatiua
Hic Anima est
Custos.
Memoria
Visionum
Est enim
Memoratiua
Motiua.
Hic Anima est
Et hæc virtus fundatur in extrema Cerebri parte et in Spinali medulla.
Auditus.
Visus
Odoratus.
Gustus.
Tactus.
Ee

2. وجهات نظر فلسفية تاريخية حول مشكلة العقل والجسد

صِيغت مشكلة العقل والجسد بأشكال متنوعة عبر التاريخ. تراوحت المذاهب اليونانية القديمة بين المادية ما قبل سقراطيه، وثنائية أفلاطون الجذرية بين الروح والجسد، ووحدة أرسطو الهيولية، حيث تُعتبر الروح صورة الجسد. قام فلاسفة العصور الوسطى المسلمون والمسيحيون بدمج هذه المذاهب مع التوحيد، حيث جادل أمثال ابن سينا بجوهر الروح غير المادي، بينما دافع توما الأكويني عن الروح باعتبارها الصورة الجوهرية للجسد.

تفاقمت المشكلة في العصر الحديث المبكر مع ثنائية ديكارت الجوهرية، التي افترضت وجود جوهرين متميزين (جوهر مفكر وجوهر ممتد)، مما أدى إلى ظهور مشكلة التفاعل بينهما. رد سبينوزا بوحدة الوجود ذات الجانبين، ورد لايبنتز بتناغم مُسبق. تنوّعت الفلسفة الحديثة إلى استجابات مادية (هوبز)، ومثالية (بيركلي)، وشكوكية (هيوم)، ومتعالية (كانط).

وانقسمت فلسفة القرن العشرين والمعاصرة إلى مناهج تحليلية (السلوكية، ونظرية الهوية، والوظيفية، والمادية غير الاختزالية) تسعى إلى إضفاء طابع طبيعي على العقل، ومناهج "الفلسفة القارية" (الظاهراتية، والوجودية) التي تركز على التجربة المتجسدة. وشهدت العقود الأخيرة عودة ظهور وجهات النظر الوحدوية الشاملة والراسلية (نسبة الى برتراند راسل وفلسفته التحليلية)، التي تعكس رؤى سبينوزا. ويكشف هذا المسار التاريخي عن توتر دائم بين النزعات التوحيدية والثنائية، مما يؤكد عمق المسألة.

وتُعدّ العلاقة بين العقل والجسد من أقدم المشكلات الفلسفية وأكثرها استمرارًا. وليس استمرارها من قبيل الصدفة، إذ يمسّ هذا السؤال أعمق افتراضات الإنسان حول ماهيته، وكيف يَعرِف، ونوع الواقع الذي يعيش فيه. على مر التاريخ، تغيرت المواقف تجاه الوعي مرارًا وتكرارًا، لكن لم ينجح أي منها في حل المشكلة بشكل قاطع. يشير هذا الثبات بحد ذاته إلى أن الوعي ليس لغزًا هامشيًا، بل سمة متأصلة في بنية الفهم البشري.

الأصول اليونانية القديمة

تناولت الفلسفة اليونانية القديمة المسألة دون ثنائية حادة. غالبًا ما تعامل مفكرو ما قبل سقراط مع النفس باعتبارها مبدأً مُحسَّنًا أو مُحركًا للمادة، لا جوهرًا منفصلًا. مع أفلاطون، ظهرت ثنائية حاسمة. فقد تم تصور الروح على أنها غير مادية، خالدة، ومسجونة مؤقتًا داخل الجسد. كانت المعرفة عبارة عن تذكر، وكان الجسد عائقًا أمام الحقيقة. أثرت هذه الرؤية بشكل عميق على الفكر الغربي اللاحق.

رفض أرسطو فصل أفلاطون مع الحفاظ على أهمية الروح. تعاملت رؤيته الهيولي مع الروح على أنها صورة الجسد الحي: ليست شيئًا منفصلًا، بل المبدأ المنظم الذي يجعل الجسد حيًا. كان العقل والجسد وجهين متحدين لجوهر واحد، مع أن أرسطو ترك أسئلة عالقة حول العقل والخلود. هذا التوتر بين الوحدة والتمايز ظل يتردد صداه لقرون.

الفكر الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى

طورت الفلسفة الإسلامية التراث اليوناني بطرق مبتكرة. دافع ابن سينا عن عدم مادية الروح من خلال تجربته الفكرية الشهيرة "الإنسان الطائر"، مجادلاً بأن الوعي الذاتي لا يعتمد على المدخلات الحسية. ومع ذلك، ظلت الروح مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالحياة الجسدية. ابن رشد، متبعًا أرسطو بشكل أكثر دقة، أكد على أن العقل كوني وليس فرديًا، مما أثار حيرة التفسيرات اللاهوتية اللاحقة.

دمجت المدرسة المسيحية أرسطو مع اللاهوت. مال أوغسطين إلى الثنائية الأفلاطونية، بينما صاغ توما الأكويني مذهبًا هيلومورفيًا راقيًا: الإنسان كائن مركب من جسد وروح، مع أن الروح العاقلة تمتلك قدرات غير مادية. بقيت مشكلة التفاعل بينهما غير محسومة.

القطيعة الديكارتية

تبلورت الصورة الحديثة لمشكلة العقل والجسد مع رينيه ديكارت. فمن خلال تعريفه للعقل بأنه جوهر مفكر، وللجسد بأنه جوهر ممتد، أوجد ديكارت فجوة وجودية حادة. وقد أثبتت مشكلة التفاعل الناتجة – كيف يمكن لجوهرين مختلفين جذريًا أن يؤثرا على بعضهما البعض تأثيرًا سببيًا – أنها مستعصية على الحل. وعلى الرغم من

صعوباتها، فقد شكلت الثنائية الديكارتية العلم الحديث من خلال السماح بدراسة الطبيعة ميكانيكيًا، تاركةً الوعي معزولًا كشذوذ.

الردود الأحادية

قدم سبينوزا أحد أكثر الردود أناقة. فرفض الثنائية، واقترح جوهرًا واحدًا – الله أو الطبيعة – يُعبَّر عنه من خلال صفات لا حصر لها. لم يكن العقل والجسد كيانين متفاعلين، بل تعبيرين متوازيين عن نفس الواقع الكامن. يعكس ترتيب الأفكار ترتيب الأشياء. حلت هذه الأحادية ذات الجانبين مشكلة التفاعل على حساب تحدي المفاهيم التقليدية للإرادة الحرة والفردية.

اقترح لايبنتز الانسجام المُسبق، بينما اختزل الماديون اللاحقون العقل إلى مادة. عكس المثاليون هذا الاختزال، فذابت المادة في العقل. أعاد كانط صياغة المشكلة باعتبارها حدًا للمعرفة البشرية، واضعًا العقل والجسد في مجالين تفسيريين مختلفين. لم ينجح أي من هذه المناهج في التوفيق التام بين التجربة الذاتية والوصف الموضوعي.

3. علم الأعصاب والوساطة بين العقل والجسد

إذا كان الوعي أساسيًا ومجاليًا، يبرز السؤال بشكل طبيعي: ما هو دور الدماغ؟ لقد رسم علم الأعصاب خريطة للدماغ بدقة متزايدة، كاشفًا عن أنماط معقدة من النشاط الكهربائي والكيميائي والمعلوماتي المرتبط بكل جانب من جوانب الحياة العقلية. ومع ذلك، فإن الارتباط وحده لا يحسم الوجود. مهمة هذا الجزء ليست التقليل من شأن علم الأعصاب أو تضخيمه خارج نطاقه، بل وضعه في مكانه الصحيح ضمن تفسير غير اختزالي للوساطة بين العقل والجسد.

الادعاء المركزي المطروح هنا بسيط، ولكنه حاسم: الدماغ لا يُولّد الوعي؛ بل يُحدّد موقعه. العمليات العصبية ليست مصدر الوعي، بل هي الظروف التي يصبح في ظلها الواقع الواعي منظمًا ومتمايزًا وفعالًا داخل العالم المادي. يحافظ هذا التحول في المنظور على سلامة نتائج علم الأعصاب، ويتجنب في الوقت نفسه الأخطاء المفاهيمية التي تنشأ عند الخلط بين الارتباط والتطابق.

4. الجوهر والصفة والنمط: إعادة النظر في سبينوزا

إذا كان الاختزالية تُجزّئ الواقع بتفسيرها الكليات كليًا من خلال أجزائها، فإن فلسفة سبينوزا تُقدّم رؤيةً مختلفةً جذريًا: الواقع ككلٍّ لا يتجزأ، مُتمايزٌ داخليًا لكنه غير مُقسّم وجوديًا. في تاريخ الفلسفة، قلّما حاول مفكرون مثل هذا التوفيق الشامل بين العقل والمادة، والحرية والضرورة، والله والطبيعة. لأغراض هذا العمل، لا تُقدّم ميتافيزيقا سبينوزا مذهبًا يُتبنّى بالكامل، بل إطارًا مفاهيميًا ذا أهمية دائمة، يسمح بأخذ الوعي على محمل الجد دون التخلي عن الوحدة الوجودية.

يبدأ سبينوزا من فرضية بسيطة ظاهريًا: لا يوجد سوى جوهر واحد. ويعني بـ "الجوهر" ما هو موجود في ذاته ويُتصوّر من خلال ذاته، شيء لا يعتمد على شيء آخر في وجوده أو في إمكانية فهمه. انطلاقًا من هذا التعريف، يستخلص سبينوزا استنتاجًا جريئًا: إذا كانت المادة مكتفية بذاتها حقًا، فلا يمكن أن يكون هناك أكثر من مادة واحدة. فوجود مواد متعددة سيحد بالضرورة من بعضها البعض، مما يقوض استقلاليتها. لذا، يجب أن يكون الواقع قائمًا على مادة واحدة لا متناهية.

يُعرّف سبينوزا هذه المادة بأنها الله أو الطبيعة (**Deus sive Natura**). غالبًا ما يُساء فهم هذا التعريف. فالله، بمفهوم سبينوزا، ليس إلهًا شخصيًا منفصلًا عن العالم، يُصدر الأوامر، أو يتدخل في الأحداث. كما أن الطبيعة ليست مجرد نظام ميكانيكي خالٍ من المعنى. بل إن الله والطبيعة يُشيران إلى نفس الواقع الكامن، من منظورين مفاهيميين مختلفين: الأساس اللانهائي، المُسبب ذاتيًا، لكل ما هو موجود.

يُمكّن هذا الأساس الأحادي سبينوزا من رفض الثنائية الديكارتية التي هيمنت على الفلسفة الحديثة المبكرة. فقد قسّم ديكارت الواقع إلى مادتين مختلفتين جوهريًا – العقل والجسد – ثم كافح دون جدوى لشرح كيفية تفاعلهما. يحل سبينوزا هذه المشكلة بنفي فرضيتها. فالعقل والجسد ليسا مادتين منفصلتين؛ هي تعبيرات عن الجوهر نفسه بصفات مختلفة.

في نظام سبينوزا، الصفات ليست خصائص تُضاف إلى الجوهر، بل هي الطرق التي يُفهم بها الجوهر. تُعبّر الصفة عن جوهر الجوهر كما يُدركه العقل. يرى سبينوزا أن للجوهر صفات لا حصر لها، مع أن العقل البشري لا يملك إلا صفتين: الفكر والامتداد. يشمل الفكر جميع الظواهر العقلية – الأفكار، والوعي، والمعرفة. ويشمل الامتداد جميع الظواهر الفيزيائية – المكان، والمادة، والحركة.

والأهم من ذلك، أن الفكر والامتداد ليسا مجالين يتفاعلان سببيًا، بل هما تعبيران متوازيان عن الواقع الكامن نفسه. فلكل نمط من أنماط الامتداد – حالة جسدية معينة – نمط فكري مقابل – فكرة معينة. ترتيب الأفكار وترابطها هو نفسه ترتيب الأشياء وترابطها. يُلغي مبدأ التوازي هذا الحاجة إلى التفاعل بين العقل والجسد دون إنكار ترابطهما.

تشغل الأنماط المستوى الثالث من أنطولوجيا سبينوزا. الأنماط هي تعبيرات محدودة ومحددة عن الجوهر في ظل سمة معينة. فالجسم البشري نمط من أنماط الامتداد، والعقل البشري نمط التفكير المقابل. ليسا شيئين مرتبطين بالسببية، بل هما حقيقة واحدة معبّر عنها بطريقتين. لذا، فإن التمييز بين العقل والجسد ليس وجوديًا، بل مفاهيميًا.

يحمل هذا الإطار دلالات عميقة. أولًا، يحافظ على الوحدة الوجودية دون اختزال الحياة العقلية إلى آلية مادية. فالوعي لا يُختزل إلى مادة، والمادة لا تخضع للعقل. كلاهما تعبيران حقيقيان متساويان عن أساس أعمق. ثانيًا، يتجنب هذا الإطار الثنائية الخارقة للطبيعة. فلا وجود لروح غير مادية تُحقن في جسد مادي، ولا حاجة لجسر ميتافيزيقي بين جواهر غير متوافقة. فالواقع موحدٌ أصلًا.

كثيرًا ما يُنتقد نظام سبينوزا لحتميته. فإذا كانت جميع الأنماط تنبع بالضرورة من طبيعة الجوهر، فأين الحرية؟ يُعيد سبينوزا صياغة مفهوم الحرية كليًا. فالحرية ليست غياب السببية، بل فهم الضرورة. إن التصرف بحرية لا يعني التصرف بلا سبب، بل التصرف وفقًا لطبيعة المرء، مدركًا إياها بوضوح ودقة. فالجهل يُوهم بالإرادة الحرة، بينما يُنتج الفهم فاعلية حقيقية.

ستثبت هذه إعادة تفسير الحرية لاحقًا أهميتها للإطار الثوتونية المُطور في هذا الكتاب. ولا تتطلب الفاعلية بالضرورة إعفاءً ميتافيزيقيًا من السببية، بل يمكن أن تنشأ من خلال المشاركة المنظمة في عمليات قانونية، شريطة ألا تكون هذه العمليات آلية بحتة، بل معبرة عن الوعي نفسه.

على الرغم من أناقة فلسفة سبينوزا، إلا أنها تترك بعض التساؤلات مفتوحة. فبينما تؤكد على حقيقة الفكر كصفة، فإنها لا تُفسر كيف تتمركز التجربة الواعية في أنظمة محددة. فهي تُخبرنا أن العقل والجسد متلازمان، لكنها لا تُبين كيف يتحدد مركز الوعي.

هنا تبرز ضرورة إعادة التفسير الحديث. فقد عمل سبينوزا دون الموارد المفاهيمية لنظرية المجال المعاصرة، أو علم الأعصاب، أو علم المعلومات. ويمكن إعادة تصور سماته لا كفئات ثابتة، بل كتعبيرات شبيهة بالمجال عن الجوهر. في هذا السياق، يصبح الفكر مجالًا متصلًا وغير موضعي للوعي؛ ويصبح الامتداد مجالًا متصلًا ومنظمًا من العلاقات الفيزيائية. أما الأنماط فتصبح تجليات موضعية ضمن هذه المجالات.

وبإعادة صياغتها بهذه الطريقة، تتوافق ميتافيزيقا سبينوزا بشكل طبيعي مع أنطولوجيا قائمة على المجال. فالجوهر يُمثل الأساس الموحد للواقع؛ والسمات تُمثل المجالات غير القابلة للاختزال التي يُعبر من خلالها عن هذا الأساس؛ والأنماط تُمثل التكوينات الموضعية والمحدودة ضمن تلك المجالات. ويحافظ هذا التفسير الجديد على جوهر رؤية سبينوزا – الوحدة دون اختزال – مع إفساح المجال لتفسير ديناميكي للوعي.

وفي إطار سبينوزا الحديث هذا، لا يُعد الوعي نتاجًا ثانويًا للمادة، ولا جوهرًا منفصلًا يُضاف إليها. إنها جانب أساسي من جوانب الواقع، يتجلى حيثما توفرت شروط توطينه. فالعقول الفردية ليست خالقة للوعي، بل هي مواقع لتجلياته.

لا يُمكن المبالغة في أهمية هذا التوجه، فهو يسمح بإعادة صياغة مشكلة العقل والجسد بشكل كامل. فبدلاً من التساؤل عن كيفية تفاعل مادتين مختلفتين، نتساءل عن كيفية تجلي واقع واحد من خلال أنماط تعبيرية مختلفة. وبدلاً من البحث عن روابط سببية بين العقل والمادة، نبحث عن توافقات منتظمة بين العمليات المتوازية.

وبذلك، تُوفر فلسفة سبينوزا أساسًا مفاهيميًا للبحث اللاحق. فهي تُبين أن رفض الاختزالية لا يستلزم التخلي عن الدقة، وأن تأكيد الوعي لا يستلزم الانزواء في التصوف. إنها تُقدم رؤية للواقع تتعايش فيها الوحدة والفهم والمعنى.

يبني الجزء التالي مباشرةً على هذا الأساس. فإذا كان الوعي تعبيرًا شبيهًا بالصفة عن واقع موحد، يصبح السؤال هو ما إذا كان يُمكن فهمه كمَجَال أساسي – متصل، غير قابل للاختزال، وأصلي وجوديًا. ومن هذا السؤال، يبدأ إطار الثوتون في التبلور.

القسم الثالث: الوعي كمَجَال أساسي

بعد أن حددنا حدود الاختزالية، وأعدنا النظر في إطار أحادي قادر على الحفاظ على الوحدة الأنطولوجية، أصبحنا الآن في وضع يسمح لنا بتناول الادعاء المركزي لهذا العمل: أن الوعي ليس شذوذًا ناشئًا في كون غير واع، بل هو جانب أساسي من الواقع نفسه. إن القول بأن الوعي أساسي لا ينفي أهمية الدماغ أو الجسد أو العمليات الفيزيائية، بل هو إعادة النظر في ترتيب التفسير، والتساؤل عما إذا كان الوعي ينتمي إلى السمات الأساسية للوجود، أم إلى نواتج مراحله اللاحقة.

في الخطاب المعاصر، يُعامل الوعي عادةً على أنه شيء يظهر عندما تصل المادة إلى درجة كافية من التعقيد. نادرًا ما يُدافع عن هذا الافتراض صراحةً، بل هو متوارث كالتزام ضمني للميتافيزيقا الفيزيائية. تُعتبر المادة أساسية وجوديًا، بينما يُعامل الوعي على أنه مشتق. وبالتالي، يقع عبء التفسير بالكامل على الظهور: كيف تُنتج العناصر غير الواعية التجربة الذاتية.

مع ذلك، فإنّ الظهور، في هذا السياق، لا يُعدّ تفسيرًا بقدر ما هو مفهومٌ يُشير إلى الغموض. فبينما قد تُظهر الأنظمة المعقدة سلوكيات جديدة لا يُمكن التنبؤ بها من خلال أجزائها، فإنّ حداثة السلوك لا تستلزم بالضرورة حداثة الوجود. إنّ ظهور الوعي لا يتطلب مجرد أنماط جديدة، بل يتطلب ظهور فئة وجودية جديدة تمامًا: التجربة نفسها. لا يستلزم أي وصف للتعقيد البنيوي، مهما بلغ تفصيله، وجود الشعور أو الإدراك أو الذاتية.

يُقلب الاقتراح المطروح هنا هذا التوجه التفسيري. يُعامل الوعي على أنه أساسي وجوديًا، بينما تُفهم البنى المادية على أنها تكوينات يتم من خلالها تحديد موقع الوعي وتقييده والتعبير عنه. لا ينكر هذا الرأي الواقع المادي، بل يضعه ضمن مجال وجودي أوسع.

لم يُطرح مصطلح "المجالات" عرضًا. ففي الفكر الحديث، يدل المجال على شيء متصل، شامل، وغير قابل للاختزال – شيء لا يمكن تجزئته إلى مكونات أصغر دون فقدان جوهره. المجال ليس مادة بالمعنى الكلاسيكي، ولا مجرد تجريد. هو نمط وجود يسمح بظهور أحداث موضعية دون تفتيت الاستمرارية الأساسية.

إنّ تصوّر الوعي كمجالٍ يُؤكّد عدّة ادعاءاتٍ أساسية. أولًا، الوعي متصلٌ لا منفصل. فالتجارب الفردية ليست كياناتٍ معزولة، بل أحداثٌ موضعية ضمن مجالٍ

متواصلٍ من الوعي. ثانيًا، الوعي غير موضعي في جوهره. فبينما تحدث التجارب في أزمنةٍ وأماكنَ مُحدّدة، فإنّ المجال نفسه لا يقتصر على تلك المواضع. ثالثًا، الوعي غير قابلٍ للاختزال. لا يُمكن تفسيره بالكامل من خلال شيءٍ آخر، لأنه لا يتكوّن من عناصرَ أكثر أساسية.

يجد هذا التصوّر صدىً في العديد من التقاليد الفلسفية. ففي نظريات وحدة الوجود والوعي الكوني، يُعامل الوعي كسمةٍ شاملةٍ للواقع. وفي وحدة الوجود ذات الجانبين، يُفهم الوعي والمادية على أنهما جانبان لمادةٍ أساسيةٍ واحدة. وفي بعض تيارات المثالية، يُتصوّر العالم المادي نفسه على أنه مظهرٌ من مظاهر الوعي. وبينما تختلف هذه الآراء في جوانبَ مهمة، فإنها تتفق على حدسٍ مشترك: الوعي ليس فكرةً لاحقة.

إنّ اعتبار الوعي مجالًا يُوضّح أيضًا العلاقة بين الشمولية والفردية. فإذا كان الوعي جوهريًا ومستمرًا، فإنّ العقول الفردية ليست كيانات منفصلة، بل تعبيرات موضعية. لا يحتوي العقل البشري على الوعي كملكية خاصة، بل يُشارك فيه كموقع للتنظيم. وكما أنّ الدوامة لا تُنشئ الماء الذي تتشكّل من خلاله، فإنّ العقل الفردي لا يُولّد مجال الوعي الذي يظهر فيه.

يُزيل هذا المنظور العديد من الالتباسات المُستمرة. ويصبح سؤال ما إذا كان الوعي "موجودًا في كل مكان" سؤالًا غير مُحدّد بدقة. فالمجالات موجودة في كل مكان من حيث المبدأ، لكنّ تأثيراتها مُحدّدة بشروط. قد يكون الوعي حاضرًا عالميًا كإمكانية كامنة، بينما لا يتحقّق تجريبيًا إلا عند وجود قيود تنظيمية مُناسبة. فالدماغ، بهذا المعنى، لا يُنشئ الوعي، بل يُشكّله.

وبالتالي، يُمكن فهم الدماغ كشرط حدودي مُعقّد – نظام يُرشّح مجال الوعي، ويُعدّله، ويُحدّد موضعه في أنماط مُحدّدة من التجربة. تُوفّر العمليات العصبية الهيكل المادي الذي من خلاله يتمايز مُحتويات الوعي، وتُرتّب زمنيًا، وتُصبح ذات صلة سلوكية. لا يُؤدي تلف الدماغ إلى تعطيل هذه الأنماط بتدمير الوعي نفسه، بل بإضعاف قدرة النظام على تحديد موقعه ودمجه.

يُفسر هذا الرأي بشكل طبيعي الترابط الوثيق بين حالات الدماغ وحالات الوعي دون دمج أحدهما في الآخر. يعكس الترابط التنسيق بين جانبين من نفس الواقع الأساسي، وليس التوليد السببي عبر فجوة وجودية. لا ينفصل الوعي عن العالم

المادي، ولا يُمكن اختزاله إليه. كلاهما ينتمي إلى بنية مَجَال موحدة تُعبَّر عنها بأنماط مختلفة.

من أقوى الاعتراضات على اعتبار الوعي أساسيًا هو اتهامه بالتضخيم التفسيري. لماذا نفترض مَجَالاً جديدًا في حين أن النظريات الفيزيائية القائمة كافية لتفسير السلوك؟ يكمن الجواب في التمييز بين تفسير السلوك وتفسير التجربة. تُفسر النظريات الفيزيائية كيفية عمل الأنظمة؛ لكنها لا تُفسر سبب اقتران تلك الأفعال بالتجربة. إن افتراض الوعي أساسيًا لا يُضيف كيانات غير ضرورية؛ بل يُقر بوجود مُعطى موجود بالفعل في كل عملية تفسير.

ثمة اعتراض آخر يستند إلى التقييد التجريبي. لم يرصد أي جهاز مجالًا للوعي، ولا توجد معادلة تصف ديناميكياته. هذا الاعتراض يُسيء فهم طبيعة الطرح. فالادعاءات الأنطولوجية ليست فرضيات تجريبية بالمعنى الضيق، بل هي أطرٌ يصبح من خلالها البحث التجريبي مفهومًا. كانت المجالات نفسها في يوم من الأيام مسلمات ميتافيزيقية قبل وقت طويل من صياغتها رياضيًا أو تأكيدها تجريبيًا. إن غياب القياس لا يعني عدم الوجود.

والأهم من ذلك، أن الوعي يتميز بموقعه الفريد بين الظواهر. فهو لا يُستنتج من الملاحظة، بل يُعطى مباشرةً. كل قياس علمي، وكل نموذج نظري، وكل استدلال تجريبي يفترض وجود وعي. إن اعتبار الوعي أقل واقعية من الكيانات التي يُدركها هو قلبٌ لترتيب التبعية المعرفية.

بإعادة تصور الوعي كمجال أساسي، تتحول مشكلة العقل والجسد. لم يعد السؤال المحوري هو كيف ينبثق الوعي من المادة، بل كيف تتشكل حقيقة الوعي في تجارب متميزة ضمن الأنظمة المادية. يتحول اللغز من التكوين إلى التنظيم، ومن الخلق إلى التجسيد.

يُفسح هذا التحوّل المجال المفاهيمي للتطورات اللاحقة. فإذا كان الوعي مَجَالاً، فإنه قد يسمح بتجسيدات موضعية تُشابه أحداثًا في حقول أخرى. وقد يشترط أن تكون هذه التجسيدات جسيمات بالمعنى المادي، لا استعارات مجردة من الواقع. بل قد تكون أحداثًا منتظمة يصبح من خلالها محتوى الوعي محدودًا ومتمايزًا وفعالًا ضمن العالم المادي.

يُطرح مفهوم "الثوتون " (Thoughton)، الذي أتناوله بالتفصيل في فصول اللاحقة، ضمن هذا السياق. وهو ليس محاولة لإقحام التصوف في العلم، ولا استبدال علم الأعصاب بالتكهنات. إنه جسر مفاهيمي: طريقة للتفكير في كيفية تجسيد مَجَال الوعي المتصل موضعيًا في الزمان والمكان والمعلومات.

إن تأكيد الوعي كعنصر أساسي لا يعني ادعاء الكمال، بل هو إقرار بحدود الاختزال واختيار نقطة انطلاق مختلفة. فكل رؤية للعالم لا بد أن تبدأ من مكان ما. والرؤية التي تبدأ بإنكار واقع التجربة تبدأ بالتناقض. أما الرؤية التي تبدأ بالتجربة فقد تظل ناقصة، لكنها على الأقل متماسكة.

... إن مهمة الفلسفة، بهذا المعنى، ليست إزالة الغموض، بل وضعه في مكانه الصحيح. فالوعي، بوصفه مجالًا أساسيًا، ليس حلًا يُغلق باب البحث، بل هو أساسٌ يُتيح البحث.

تستكشف الفصول التالية تبعات هذا الأساس، أولًا من خلال القياس على الفيزياء الحديثة، ثم من خلال التفاعل مع علم الأعصاب واللاهوت والأخلاق. والهدف ليس دمج هذه المجالات في بعضها، بل السماح لها بالتناغم ضمن رؤية وجودية موحدة.

ما يتبلور ليس نظرية بالمعنى العلمي الضيق، بل إطار عمل: إطار لا يُعد فيه الوعي عرضًا ولا دخيلًا، بل بُعدًا أساسيًا من أبعاد الواقع نفسه.

الفصل الثاني: فيزياء بانتظار المعاينة والبرهان

إن اللجوء إلى الفيزياء في مناقشات الوعي أمرٌ مغرٍ وخطير في آنٍ واحد. مغرٍ، لأن الفيزياء الحديثة أعادت تشكيل فهمنا للواقع جذريًا، مستبدلةً الحدس الساذج برؤى بنيوية أعمق. يُعدّ هذا الأمر خطيرًا، لأنّ الفيزياء تتمتّع بمكانة فريدة في الثقافة المعاصرة، وكثيرًا ما يُساء استخدام مفاهيمها لإضفاء شرعية غير مبررة على ادعاءات تخمينية. يتناول هذا الجزء من الكتاب الموضوع بحذرٍ شديد. لا تُستعان بالفيزياء هنا كدليل، ولا كمبرهنة. بل تُستعان بها كاستعارة – منضبطة، ومقيدة، وفلسفية.

لا يعتمد الادعاء المركزي لهذا العمل على ميكانيكا الكم، ولا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأي نظرية فيزيائية محددة. يُطرح الوعي كمفهوم أساسي على أسس وجودية، لا تجريبية. ومع ذلك، تُوفّر التحوّلات المفاهيمية التي أدخلتها الفيزياء الحديثة مصدرًا خياليًا قويًا. فهي تُبيّن أنّ الواقع أغرب بكثير، وأكثر ترابطًا، وأقل تركيزًا على الأشياء مما تُشير إليه البديهيات الكلاسيكية. وبذلك، تُضعف هذه التحوّلات قبضة الافتراضات الميتافيزيقية البالية التي لا تزال تُشكّل كيفية صياغة مشكلة العقل والجسد.

يستكشف هذا الجزء ما يُمكن تعلّمه من الفيزياء دون الخلط بين الاستعارة والآلية. يهدف مفهوم الثوتون إلى تفسير الوعي مادياً باعتبار الوجود التجريدي والوجود الفيزيقي وجهان لحقيقة واحدة، وملخص هذا التفسير تحول المجال إلى جسيمات كمومية داخل خلايا الدماغ العصبية وتتبادل معلومات بوصف التفاعل هذا هو المحفز للخلايا العصبية والوظائف المتعلقة بها. كما أنه يميل إلى إظهار الأنطولوجيا القائمة على المجالات (الحقول) – والتي لا غنى عنها في الفيزياء – بوصفها تشمل فكرة الوعي كجوهر أساسي أكثر وضوحًا، لا أقل.

1. من الجسيمات إلى الحقول: دروس من الفيزياء الحديثة

صوّرت الفيزياء الكلاسيكية العالم كمجموعة من الأجسام المنفصلة تتحرك في الفضاء الفارغ، وتتفاعل عبر قوى تعمل عن بُعد. يتوافق هذا التصور بطبيعته مع المنطق السليم: فالأجسام الصلبة تصطدم ببعضها البعض، وتُحدث الأسباب آثارًا

من خلال التلامس. ولقرون، شكّلت هذه النظرة للعالم، التي تتمحور حول الأجسام، ليس فقط العلوم، بل الميتافيزيقا نفسها.

قلبت الفيزياء الحديثة هذا التصور رأسًا على عقب. ففي النظرية المعاصرة، تُشكّل الحقول – لا الجسيمات – النسيج الأساسي للواقع. وما يبدو كجسيمات يُفهم الآن على أنه إثارات موضعية لحقول كامنة تملأ الزمكان. فالإلكترون ليس جسمًا صلبًا صغيرًا يتحرك في الفراغ؛ بل هو حدث مُنمّط داخل مَجَال (حقل) الإلكترون. يوجد المَجَال في كل مكان، حتى في غياب أي جسيم.

يحمل هذا التحول دلالات ميتافيزيقية عميقة. فهو يستبدل الجوهر بالبنية، والموضوع بالعملية، والعزلة بالعلاقة. لم تعد الهوية متجذرة في أشياء مكتفية بذاتها، بل في أنماط ثابتة ضمن أنظمة متصلة. لم يعد الفراغ نفسه عدماً، بل حالة نشطة غنية بالإمكانات.

الأهم من ذلك، أن هذا التحول لم يكن مدفوعًا بتفضيل فلسفي، بل بضرورة تجريبية. لم يكن بالإمكان تفسير سلوك المادة على المستويات الأساسية دون التخلي عن واقعية الجسيمات. اضطرت الفيزياء إلى إعادة تصور الواقع بطرق تتحدى الحدس اليومي.

لأغراض هذا العمل، لا يكمن التصور في أن الوعي مَجَال فيزيائي محض، بل في أن أعمق نظرياتنا العلمية تتطلب منا بالفعل التفكير بمفاهيم غير موضوعية وغير اختزالية. إذا لم تكن المادة نفسها مكونة من أشياء مستقلة، فإن افتراض أن الوعي يجب أن ينشأ من هذه الأشياء يصبح موضع شك.

تقدم الحقول أيضًا طريقة جديدة للتفكير في المحلية. فبينما تحدث الأحداث في نقاط محددة، يظل المَجَال نفسه متصلًا وغير محلي. الظواهر الموضعية هي تعبيرات عن واقع أعمق وأكثر انتشارًا. يعكس هذا البناء المفاهيمي العلاقة المقترحة سابقًا بين التجارب الفردية ومَجَال الوعي الأساسي.

لذا، لا تكمن أهمية أنطولوجيا المَجَال في القياس المباشر، بل في التواضع الأنطولوجي. تعلمنا الفيزياء أن الواقع لا يتوافق مع تصنيفاتنا الحدسية. يحذر هذا من افتراض أن ما لا يمكن تصوره كجسم مادي لا يمكن أن يكون حقيقيًا.

2. الأحداث الكمومية والانفصال الأنطولوجي

إذا كانت الحقول متصلة، فلماذا يبدو الواقع منفصلًا؟ في الفيزياء، يبرز هذا السؤال في ظاهرة الكمومية. تحدث تبادلات الطاقة في وحدات منفصلة، على الرغم من أن الحقول الأساسية متصلة. تصبح الأحداث، لا المواد، الوحدات الأساسية للتحليل.

لا يُعدّ هذا التعايش بين الاتصال والانفصال متناقضًا. يمكن لنظام متصل أن يُنتج نتائج منفصلة عند تقييده بشروط التفاعل. تنشأ النوتات الموسيقية من اهتزازات الهواء المتصلة؛ وتنبثق الإشارات الرقمية من تيارات كهربائية متصلة. غالبًا ما يكون الانفصال سمة من سمات التفاعل، وليس سمة من سمات الواقع الأساسي.

تُظهر التجربة الواعية بنية مماثلة. يبدو الوعي متصلًا، ومع ذلك فإن التجارب فردية: فكرة، إحساس، ذكرى. تنشأ لحظات الوعي، وتستمر لفترة وجيزة، ثم تفسح المجال للحظات أخرى. لا يعني هذا الانفصال أن الوعي نفسه مُجزأ. يشير هذا إلى أن التموضع يحدث ضمن مجال متصل.

تعزز نظرية الكم فكرة أن الأحداث، لا الأشياء، هي الأساس الوجودي. لا تكشف القياسات عن خصائص موجودة مسبقًا بقدر ما تُفعّل إمكانيات ضمن سياقات محددة. مع أن هذا العمل لا يملك دليل أن الوعي يُسبب الانهيار الكمي، إلا أن الدرس الأوسع يبقى ذا صلة: الواقع ليس مُحددًا تمامًا بمعزل عن التفاعل.

هنا، تعمل الفيزياء كاستعارة. فهي تُبين أن الظواهر المنفصلة لا تنشأ بالضرورة من مواد منفصلة، بل قد تنشأ من مجالات متصلة تخضع لمتموضعات مُهيكلة. ستدعم هذه الإمكانية المفاهيمية لاحقًا فكرة أن الأحداث الواعية يُمكن أن تكون حقيقية ومحدودة دون أن يعني ذلك أن الوعي نفسه مُكوّن من أجزاء منفصلة.

3. الثوتون: مفهوم كموميّ

ضمن الإطار المُطور حتى الآن، يُقدم الثوتون كوحدة مفاهيمية لتجسيد الوعي. إنه يُشير إلى حدث مُتمركز يُصبح من خلاله مجال الوعي مُعبرًا عنه تجريبيًا ضمن الأنظمة المادية. ينبغي فهم "الثوتون" على أنه يُشبه حدثًا ماديًا. فهو مستمر بشكل

مستقل الى أن يحدث كانهيار كمومي في خلايا أعصاب الدماغ. إنها عملية التفاعل التبادلي للثوتونات التي تحمل معلومات تتوسط التفاعل البيني للخلايا العصبية بحيث تستثار وتطلق الأوامر أو تمرر المدخلات المستقبلة إلى مجال الوعي. الإحساس، أو النية، أو الصورة ليست شيئًا مُخزّنًا في مكان ما في الدماغ، بل هي حالة وعي لحظية تتشكل بفعل قيود عصبية ومعلوماتية. تُحدد "الأفكار" هذه الحالات على مستوى الوجود لا على مستوى الوصف.

يتجنب هذا المقترح ثلاثة أخطاء شائعة. فهو لا يُختزل الوعي إلى عمليات فيزيائية بحتة فقط، لأن المجال يبقى أساسيًا من الناحية الوجودية. ولا يفترض وجود مادة عقلية منفصلة، لأن التموضع يحدث بشكل قانوني ضمن الأنظمة الفيزيائية. ولا يستحضر السببية الخارقة للطبيعة، لأنه لا يتطلب أي انتهاك للقانون الفيزيائي.

الأهم من ذلك، أن مفهوم "الثوتون " يُطرح كفرضية تنتظر معاينة علمية وتأكيدًا تجريبيًا، انه مقترح وجودي يهدف إلى فهم الظواهر المعروفة بالفعل: وجود التجربة، وارتباطها بنشاط الدماغ، وطبيعتها المنظمة الشبيهة بالأحداث. وكما هو الحال مع العديد من المفاهيم الأساسية في العلوم والفلسفة، فإنه يسبق الصياغة الرسمية.

من خلال تأطير مفهوم "الثوتون " ضمن أنطولوجيا قائمة على الحقول، يقاوم هذا العمل إغراء التعامل مع الوعي باعتباره معجزة أو وهمًا. بل يُمنح الوعي نفس الكرامة التي تُمنح للسمات الأساسية الأخرى للواقع: فهو موجود، وله بنية، ويتجلى من خلال أنماط منتظمة.

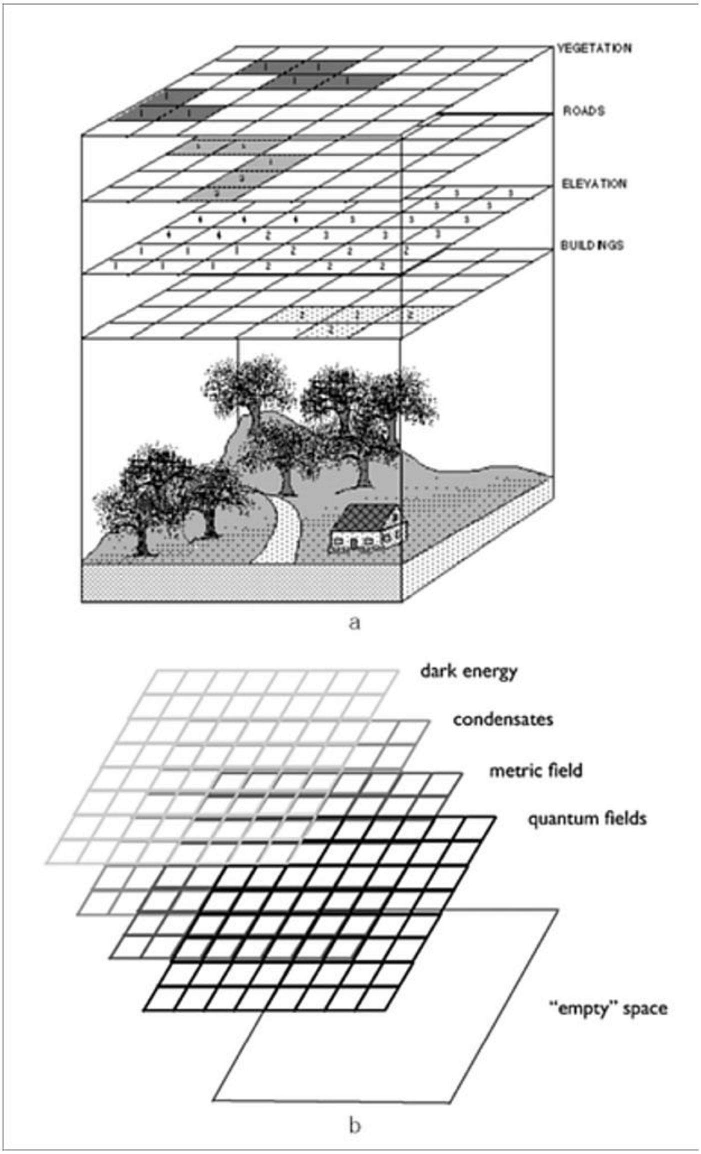
VEGETATION
ROADS
ELEVATION
BUILDINGS
a
dark energy
condensates
metric field
quantum fields
"empty" space
b

تأملات ختامية حول الفصل الثاني

إن الفيزياء، عند فهمها فهمًا صحيحًا، لا تُزيل الغموض، بل تُعيد تحديد موقعه. فالانتقال من الجسيمات إلى الحقول لم يُبسّط الواقع، بل عمّقه. وبالمثل، فإن التعامل مع الوعي باعتباره أساسيًا (جوهراً) لا يُغلق باب البحث، بل يفتح آفاقًا جديدة من التساؤلات حول التموضع، والبنية، والمعنى، والمسؤولية.

ينتقل الجزء التالي إلى علم الأعصاب، لا لدحضه، بل لدمجه. فإذا كان بالإمكان تحديد موقع الوعي دون اختزاله، فلا بد من فهم الدماغ لا باعتباره مُنتِج الوعي، بل باعتباره الوسيلة التي من خلالها يُصبح الواقع الواعي مُنظّمًا، ومُميَّزًا، وفعّالًا.

هذه هي المهمة التي نتناولها الآن.

الفصل الثالث

1. الارتباطات العصبية وحدودها

نجح علم الأعصاب في تحديد ارتباطات قوية بين النشاط العصبي وحالات الوعي. تصاحب أنماط محددة من تنشيط القشرة الدماغية الإدراك، والذاكرة والعاطفة والنية. ويؤدي تلف مناطق معينة من الدماغ إلى تغيير تجربة الوعي بشكل متوقع. تُعد هذه النتائج من بين أكثر النتائج موثوقية في العلوم المعاصرة، وهي تُثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الوعي ونشاط الدماغ مرتبطان ارتباطًا وثيقًا.

لكن هذه النتائج لا تُثبت أن الوعي هو نشاط دماغي. فالارتباط، مهما كان منهجيًا، لا يستلزم تطابقًا وجوديًا. قد يكون هناك ارتباط تام بين ظاهرتين دون أن تكون إحداهما قابلة للاختزال إلى الأخرى. ترتبط الخريطة بالمنطقة، والنوتة الموسيقية بالموسيقى، والنمط العصبي بالتجربة. في أي من هذه الحالات، لا يُلغي الارتباط التمييز.

ينشأ الميل جزئيًا إلى مساواة الارتباط بالسببية من النجاح المنهجي. بما أن علم الأعصاب قادر على التدخل بالحالات العصبية وملاحظة التغيرات في التجربة، فمن الطبيعي أن نستنتج أن الدماغ يُنتج الوعي بنفس الطريقة التي يُنتج بها السلوك. إلا أن هذا الاستنتاج يتجاوز ما تُبرره البيانات. ما تم إثباته هو أن سلامة الشبكة العصبية ضرورية للتجربة الواعية الطبيعية، وليس أنها كافية لتفسير سبب وجود التجربة من الأساس.

تستمر الفجوة التفسيرية تحديدًا لأن الأوصاف العصبية تبقى توصيفات من منظور خارجي. فهي تصف عمليات قابلة للملاحظة من الخارج، بينما يُعطى الوعي من الداخل. لا يُمكن لأي زيادة في الدقة المكانية أو الزمنية أن تسدّ هذه الفجوة، لأنها ليست فجوة بيانات مفقودة، بل فجوة تصنيف. التجربة ليست مخفية داخل العمليات العصبية؛ إنها من مستوى تفسيري مختلف.

إن إدراك هذا القيد لا يُضعف علم الأعصاب، بل يُوضح نطاقه. يُفسر علم الأعصاب كيف يتم تعديل الحالات الواعية وتنظيمها وتعطيلها. لكنه لا يُفسر لماذا تُصاحب هذه الحالات تجربة بدلًا من لا شيء على الإطلاق. هذا "السبب" ينتمي إلى علم الوجود، وليس إلى الآلية.

الدماغ كمستقبل ومُعدِّل: العمليات الكهرومغناطيسية والمعلوماتية

في إطار هذا البحث، يُدرس الدماغ كنظام كهرومغناطيسي ومعلوماتي معقد. لا تُعامل تذبذباته العصبية وأنماط ترابطه وشبكات إشاراته كمولدات للوعي، بل كركائز مادية تُمكّن من تحديد موقع مجال الوعي في أحداث فكرية. يعمل الدماغ كمستقبل ومُعدِّل ومُكامل.

يتناقض هذا مع نموذج واجهات الدماغ والآلة، التي عادةً ما تُفكِّك شفرة نشاط الدماغ الداخلي لإخراج الأوامر. تُظهر التأثيرات في الاتجاه المعاكس تقبُّل الدماغ للهياكل المعلوماتية والطاقية الخارجية – حيث تُحفِّز أنماط الموجات الخارجية (الصوتية والبصرية والكهرومغناطيسية) نشاط الدماغ أو تُعدِّله. تدعم هذه الديناميكية ثنائية الاتجاه رؤية الدماغ كواجهة تفاعلية، تُضبط وتُشكِّل موقع الوعي بدلاً من إنتاجه من العدم.

من الجدير بالملاحظة أن الأنماط التي ترصدها واجهات الدماغ والحاسوب ليست عالمية ولا فردية بحتة. فهي تنشأ من إطار تشريحي عصبي مشترك، مما يضمن تنشيط مناطق متشابهة إلى حد كبير عند أداء مهام متشابهة. ومع ذلك، تتشكل البصمات الكهرومغناطيسية المحددة بفعل التشريح الفريد، والاستراتيجيات المعرفية الشخصية، وخبرات الحياة، لتشكل "بصمة عصبية" فردية. وهذا يستلزم المعايرة الشخصية التي تُعدّ أساسية في تقنية واجهات الدماغ والحاسوب، مما يؤكد دور الدماغ كمحول فريد لظاهرة أكثر عمومية.

2. العمليات الكهرومغناطيسية والمعلوماتية في الدماغ

مع رفض هذا الإطار للهوية الاختزالية، فإنه يُأخذ على محمل الجد الديناميكيات الفيزيائية للدماغ. فالدماغ ليس وعاءً سلبياً، بل هو نظام نشط كهرومغناطيسي ومعلوماتي. ويحدث التواصل العصبي من خلال الجهود الكهربائية، والإيقاعات التذبذبية، والإشارات الكيميائية، والتزامن واسع النطاق عبر الشبكات الموزعة.

النشاط الكهرومغناطيسي ليس عرضياً لوظيفة الدماغ؛ بل هو عنصر أساسي فيها. تُنسق التذبذبات العصبية النشاط بين مناطق الدماغ المختلفة، رابطةً المدخلات

الحسية في مفاهيم موحدة، ومواءمةً الإدراك مع الفعل. لا تُنقل المعلومات فحسب، بل تُدمج وتُضخّم وتُقيد من خلال أنماط ديناميكية من التماسك.

في هذا الإطار، تُفهم هذه العمليات الكهرومغناطيسية والمعلوماتية على أنها الوسيلة التي يتم من خلالها تحديد موقع مجال الوعي. وهي تعمل كشروط إطارية تُحدد كيفية تجسيد المحتوى الواعي. لا يعمل الدماغ كمولد، بل كبنية رنانة – انتقائية، ومقيدة، ومنظمة.

يدعم هذا الرأي بشكل غير مباشر ظواهر تتحدى نماذج الإنتاج البسيطة. غالبًا ما تعكس التغيرات في الوعي تحت تأثير التخدير، أو المؤثرات العقلية، أو التأمل، أو تحفيز الدماغ، تغيرات في التكامل العصبي، وليس مجرد زيادات أو نقصان في النشاط. يمكن أن يصبح الوعي أكثر ثراءً، أو أكثر انتشارًا، أو أكثر توحيدًا حتى مع انخفاض النشاط العصبي الكلي. تشير هذه النتائج إلى التعديل وليس الإنتاج.

تُوضح واجهات الدماغ والحاسوب هذه النقطة بشكل أكبر. تستطيع الآلات فك شفرة الإشارات العصبية وترجمتها إلى أفعال خارجية، إلا أن معنى هذه الإشارات يبقى مرتبطًا بالنوايا الذاتية للفرد. تتطلب المهمة الوظيفية نفسها معايرة فردية لأن الأنماط العصبية تتشكل بفعل التاريخ الشخصي والتجسيد والمعنى. الوعي ليس شفرة عالمية مُدمجة في الدماغ، بل هو تنظيم موضعي لمَجَال أعمق.

3. التحديد المكاني دون اختزال

يكمن الإنجاز الرئيسي لهذا الجزء في توضيح كيفية تحديد مكان الوعي دون اختزاله. يشير التحديد المكاني إلى حقيقة أن التجارب تحدث في أوقات محددة، وفي كائنات حية محددة، وفي ظل ظروف محددة. أما الاختزال فيتطلب أن يكون الوعي مجرد تلك الظروف. هذان حالان ليسا متكافئين.

في إطار أنطولوجيا قائمة على الحقول، يُعد التحديد المكاني عملية منتظمة. يمكن للمجالات المتصلة أن تُنتج أحداثًا منفصلة عندما تكون مقيدة ببنية معينة. فالراديو لا يُنشئ المجال الكهرومغناطيسي الذي يستقبله؛ بل يُضبطه ويُرشّحه ويُحدد مكانه. وبالمثل، لا يُنشئ الدماغ الوعي؛ بل يُشكّل مظهره.

تُطلق تسمية الأحداث الثوتونية، التي عُرضت سابقًا، على هذه التجسدات المحددة مكانيًا، وهي عبارة عن أحداث محددة زمنيًا ومكانيًا لمحتوى واعٍ، مُهيكلة بواسطة ديناميكيات عصبية ومعلوماتية. ولا يعني تحديدها تجزئة المَجَالَ نفسه. إذ تُحفظ الوحدة من خلال الاستمرارية والتكامل.

يُقدّم هذا التفسير فهمًا لتفاعل العقل والجسد دون اللجوء إلى السببية الثنائية. فالوعي لا يؤثر في السلوك بانتهاك القوانين الفيزيائية، بل بالمشاركة فيها على مستوى تفاعل المجال. العمليات العصبية والأحداث الواعية هي تعبيرات منسقة عن نفس الواقع الكامن، تعمل وفقًا لأوصاف مختلفة.

كما يحافظ التحديد المكاني دون اختزال على الهوية الشخصية دون تجسيد الأنا غير المادية. فالذات ليست جوهرًا منفصلًا، بل نمطًا مستقرًا ديناميكيًا للتحديد المكاني داخل مجال الوعي، مدعومًا بالذاكرة والتجسيد والترابط السردي. الهوية حقيقية، لكنها ليست مطلقة؛ مستمرة لكنها ليست ثابتة.

بهذا الشكل، يجد علم الأعصاب مكانته اللائقة. فهو لا يُلغي الوعي، ولا يُعارض علم الوجود. بل يُصبح شريكًا حيويًا في فهم كيفية تشكّل الواقع الواعي داخل الأنظمة الحية.

التأمل الختامي في الفصل الثالث

يُبيّن لنا علم الأعصاب كيفية وساطة العقل والجسد بوضوحٍ لافت. بينما يُعالج علم الوجود ماهية هذه الوساطة وسببها. عندما يختلط الأمر بينهما، ينهار التفسير إما إلى غموض أو إنكار. وعندما يندمجان، تتبلور صورة متماسكة.

يمكن للوعي أن يكون محليًا دون أن يُولّد، متجسدًا دون أن يُستنفد، مقيدًا دون أن يُزال. لا يصبح الدماغ منشأ العقل، بل وسيلة تعبيره.

ينتقل الجزء التالي إلى اللاهوت والصدى الرمزي – ليس للتراجع عن العقل، بل لاستكشاف كيف تتلاقى البديهيات الميتافيزيقية القديمة مع الصورة الأنطولوجية التي تتشكل الآن. وبذلك، ينتقل البحث من البنية إلى المعنى، ومن الوساطة إلى المشاركة.

الفصل الرابع

اللاهوت والصدى الرمزي

إذا كان الوعي أساسيًا ومجاليًا، فلا يمكن بعد ذلك تناول اللاهوت كإضافة خارجية للأنطولوجيا، ولا كتفسير منافس للعمليات الفيزيائية. لطالما كان اللاهوت، في أعمق معانيه، محاولةً لتوضيح الأساس المطلق للواقع ومكانة الإنسان فيه. وبهذا المعنى، لا يُعدّ اللاهوت والأنطولوجيا متنافسين؛ إنها لغات متوازية تتناول العمق نفسه من زوايا مختلفة.

لا يدافع هذا الجزء عن أي عقيدة دينية، ولا يسعى إلى استنباط الميتافيزيقا من النصوص المقدسة. بل يستكشف التناغم: كيف تتلاقى اللغة الدينية الرمزية – لا سيما في التراث الإسلامي – مع أنطولوجيا الوعي القائمة على المَجَال عند قراءتها قراءةً ظاهراتية لا حرفية. والهدف ليس اختزال اللاهوت إلى فلسفة، بل إظهار كيف يمكن لكليهما أن يُنير الآخر دون تشويه.

1. الحلول الإلهي ووحدة الوجود

إن أي محاولة جادة لدمج الوعي في الأنطولوجيا لا بد أن تواجه مسألة الإله. فإذا كان الوعي جوهريًا، وشاملًا، وغير قابل للاختزال، فما علاقته بالله؟ غالبًا ما تتأرجح اللغة الدينية التقليدية بين طرفين متناقضين: إله متعالٍ خارج عن العالم تمامًا، أو تعريف ساذج لله بالواقع المادي. كلا الموقفين يُولّد صعوبات – إما بجعل الفعل الإلهي غير مفهوم أو باختزال المقدس في الدنيوي.

يشير الإطار المُطوَّر هنا إلى مسار ثالث: الحلول الإلهي دون تجسيد. يُفهم الله هنا لا ككائن بين الكائنات، ولا كفاعل كوني يتدخل من الخارج، بل كجوهر الوجود. بمصطلحات الفلسفة الكلاسيكية، ليس الله موضوعًا داخل الواقع، بل هو ما يُوجد الواقع بفضله.

يُطلق على هذه الرؤية اسم مذهب "وحدة الوجود"، ويؤكد بمعناه الفلسفي، أن الواقع ليس مُقسَّمًا إلى عالم مُقدَّس وآخر دنيوي، بل إن كل ما هو موجود يُشارك في جوهر واحد ذي معنى. وإذا فُهم مذهب وحدة الوجود فهمًا صحيحًا، فإنه لا

يُؤكد أن "كل شيء هو الله" بالمعنى الحرفي أو المُبتذل، بل يُؤكد أنه لا شيء موجود خارجَ الواقع المُستدام الذي نُسميه الله.

يُعمّق مذهب وحدة الوجود هذا المفهوم أكثر بالتأكيد على أنه بينما يوجد العالم في الله، فإن الله لا ينحصر في العالم. هذا التمييز يحافظ على التجاوز دون إعادة إدخال الانفصال. الله حاضر في كل عملية، ومع ذلك لا يمكن اختزاله إلى أي عملية. اللانهائي حاضر في المحدود دون أن يكون محصورًا به.

وفي إطار أنطولوجيا قائمة على الحقول، يصبح هذا المفهوم أكثر تماسكًا. فكما أن المَجَال حاضر في كل نقطة دون أن يكون مطابقًا لإثاراته المحلية، يمكن أن يكون الأساس الإلهي حاضرًا في كل جانب من جوانب الواقع دون أن ينقسم إليه. الله اللامتناهي لا يشغل حيزًا زمكانياً ولا يُقتطع الحيز من الله، الواقع الزمكاني موجود كنمط من أنماط التعبير الإلهي، وليس كمحصلة لمعادلة حسابية يُطرح فيها الزمكان من اللانهائية الإلهية بسُرمديتها وأزَليّتها.

يتوافق هذا الفهم بشكل وثيق مع اللاهوت الإسلامي الكلاسيكي عند تجريده من الصور المجازية. الله ليس محددًا، ولا محدودًا، ولا ممتدًا. إن القرب الإلهي ليس مكانيًا بل وجوديًا: فعبارة "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" تدل على حضور الوجود المباشر، لا على القرب المكاني. فالله يُديم الوجود ولا يتدخل فيه، ويُثبته ولا يقطعه.

في هذا السياق، يصبح علم اللاهوت متوافقًا مع الاستمرارية الوجودية. فالإلهي ليس تفسيرًا مؤقتًا يُلجأ إليه عند فشل التفسيرات الطبيعية، بل هو الأساس الدائم الذي يجعل التفسير ممكنًا من الأساس.

2. نفحة الروح وولادة الوعي

كثيرًا ما تُقرأ روايات الخلق الدينية قراءةً خاطئةً باعتبارها علم كون بدائي. وعند تناولها حرفيًا، تبدو متعارضة مع العلم؛ وعند رفضها تمامًا، تفقد عمقها الفلسفي. تُقدّم القراءة الرمزية بديلًا ثالثًا: وهو التعامل مع هذه الروايات باعتبارها تعبيرات رمزية عن حقائق وجودية لا ادعاءات تجريبية.

ويُقدم سرد القرآن الكريم لخلق الإنسان مثالًا بارزًا على ذلك. كثيرًا ما يُفسَّر النص الذي يصف فعل النفخ الإلهي للروح في الجسد البشري على أنه إدخال روح في جسد مادي. إلا أن القراءة الرمزية تُقدِّم رؤية مختلفة: تبلور الوعي داخل الجسد الفيزيقي.

ترمز النفس، في مختلف الثقافات، إلى الحياة والحيوية والوعي. وهي تُشير إلى الانتقال من المادة الجامدة إلى الحضور الحي. من منظور فكري، لا يُشير "نفخ الروح" إلى نقل الجوهر الإلهي، بل إلى تجسيد مَجَال الوعي الأساسي داخل بنية نظام مادي مُهيكل. لا يصبح الإنسان واعيًا بتلقي جزء من الله، بل بالمشاركة المباشرة في حقيقة كونية.

38:72 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ.

يتجنب هذا التفسير كلاً من الثنائية والتقليل. فالوعي لا ينفصل عن الإلهي، ولا ينتقص الإلهي بتعبيره. ولا يعني التحديد المكاني الانقسام. فاللامتناهي يبقى لانهائيًا، حتى وإن أصبح حاضرًا في صورة محدودة.

وبالمثل، فإن تعليم آدم الأسماء يدل على ظهور الإدراك الرمزي – القدرة على التمييز والتصنيف وبناء التجربة بشكل ذي معنى. ومن منظور الثوتون، يمثل هذا استقرار الأنماط المعلوماتية داخل الوعي، مما يُمكّن من الإشارة الذاتية المتكررة والتفكير المجرد.

2:31 وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

لا تعمل هذه الرموز القرآنية كادعاءات تجريبية، ولا تُستَخدَم كدليل علمي. بل هي بمثابة تأكيدات ظاهراتية على حدس ميتافيزيقي مشترك بين الثقافات: أن الوعي ليس عرضيًا، وأن المعنى أساسي، وأن الإنسانية تحتل دورًا تشاركيًا ضمن نظام وجودي أعمق.

يؤكد القرآن الكريم على التناسب والشكل والاستعداد، مما يُبرز هذه النقطة. فالوعي ليس مفروضًا على المادة فرضًا، بل ينشأ حيث يصبح الشكل قادرًا على المشاركة. والإنسان ليس استثناءً ميتافيزيقيًا، بل هو فضاءٌ لتنظيمٍ مُكثّف، قادرٌ على التأمل والمسؤولية والمعنى.

وإن رفض إبليس السجود، ضمن هذا الإطار الرمزي، لا يُمثل حسدًا على التفوق المادي، بل فشلًا في إدراك المشاركة. يُكرّم الوعي المتمركز في التواضع، بينما لا يُكرّم التجريد المنفصل عن التجسيد. وتتحول الرواية إلى درسٍ أخلاقيٍّ قائمٍ على علم الوجود.

3. التسمية والمعنى والفكر الرمزي

يُوسّع سرد القرآن الكريم لـ"تعليم الأسماء" هذا العلم إلى مجال الإدراك. فالتسمية لا تُقدّم على أنها مجرد عملية تصنيفٍ بسيط، بل كقدرةٍ إنسانيةٍ جوهرية. فالتسمية هي التمييز، وادراك المتضادات والجدلية، وتثبيت المعنى، وإضفاء النظام على التجربة. من منظور فكري، تُمثل التسمية تنظيمًا عالي المستوى للأحداث الواعية. تتحول الأحاسيس إلى إدراكات، والإدراكات إلى مفاهيم، والمفاهيم إلى رموز قابلة للتكرار والتجريد. لا ينبثق المعنى من البيانات الخام، بل من أنماط علائقية بنيويةٌ مهيكلة داخل الوعي.

لا تقتصر وظيفة اللغة على وصف الواقع فحسب، بل أنها تُشكّله، كما أن العلاقة بين الفكر واللغة علاقة جدلية. فمن خلال التسمية، يفرض الإنسان قيودًا على التجربة المستقبلية، موجهًا الانتباه والذاكرة والفعل. وهكذا، يُصبح الفكر الرمزي مجال تأثير يؤثر على مجال الوعي نفسه. فالثقافة والتقاليد والمعرفة هي أنماط مستدامة من التنظيم الثوتونية تنتقل عبر الأجيال.

يؤكد السرد القرآني أن هذه القدرة تُميّز البشرية لا بالقوة، بل بالفهم. فالملائكة تُقرّ بمحدودية القوة، وعُلوّ المعرفة. ويُصبح الإدراك الرمزي أساسًا للمسؤولية: فالتسمية تعني المساءلة عما يُعبّر عنه المرء.

إذن، ليس المعنى وهمًا يُسقَط على عالمٍ لا معنى له، بل هو بُعدٌ جوهري للواقع الواعي، يظهر حيثما يُصبح الوعي قادرًا على التأمل في ذاته. فالكون ليس صامتًا؛ يصبح التعبير واضحًا عندما يتمركز الوعي بشكل رمزي.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ

فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ

قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ

قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ

38:71–77

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ 30

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ 31

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ 32 قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ 33

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ 34

البقرة: **30–34**

نورٌ على نور: هندسة التنوير في كون ثنائي الحالة

هناك صور في تاريخ البشرية بالغة القوة لدرجة أنها تتجاوز اللغة والجغرافيا والعقيدة. من أعظم هذه الاستعارات القرآنية استعارة النور:

﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور ٣٥:٢٤)

هذه الآية ليست عقيدة جامدة، بل هي علم الكونيات، وعلم النفس، والميتافيزيقا، وفيزياء الوعي مُعبَّر عنها بلغة رمزية. إنَّها أوضح تعبير عن بنية الحالة المزدوجة التي وصفناها في فصول سابقة:

عالم خصائص المادة / الزمكان، وعالم خصائص النور / التجريدي، الشكل والوظيفة، الوعاء والجوهر. لفهم معنى "نور على نور"، علينا أن نفهم الإضاءة نفسها.

1. النور: اللغة الأولى للكون

قبل وجود المادة، وُجد النور. قبل تكوّن الذرات، ملأت الحقول الفراغ. قبل احتراق النجوم، كان هناك إشعاع بدائي – وميض كوني لا يزال صداه يتردد حتى اليوم في إشعاع الخلفية الكونية الميكروي **CMB**. النور ليس مجرد ظاهرة فيزيائية، بل هو بصمة المطلق. تكشف خصائصه عن حقيقة أعمق: النور ليس له كتلة، ولا يخضع للزمن. بالنسبة للفوتون، الخلق والوصول هما اللحظة نفسها. النور ثابت. يتحرك الضوء بنفس السرعة بالنسبة لجميع المراقبين، مشكلاً الإطار المرجعي العالمي للواقع. يكشف الضوء، ويُظهر ما هو خفي، ويُخرج الشكل من الظل، ويجعل الوجود مفهوماً.

في الفيزياء، يُعدّ الضوء الجسر بين الطاقة = الكتلة، والموجة والجسيم، والمعلومات والشكل، والزمكان والمعنى.

في الميتافيزيقا، يُعدّ الضوء الجسر بين اللانهائي والمحدود، والمطلق والنسبي، والإلهي والبشري، والوعي والعالم.

لذا، فإن استعارة "نور على نور" ليست تجريداً شعرياً، بل هي خريطة للواقع.

2. الضوء كمعرفة: إشراق الوعي

الوعي هو إشراق من الداخل. العقل لا يُولّد الضوء، بل يعكسه. عندما نرى، أو نفكر، أو نستشعر، أو نفهم، فإننا نشهد إشعاعاً داخلياً لا يقتصر على الجسد وحده. يتوافق هذا مع نموذج الحالة المزدوجة:

حالة الكتلة: الدوائر العصبية، والتدرجات الكيميائية، والجهود المشبكية؛ القابل للقياس.

حالة النور: الوعي، والمعنى، والحدس، والبصيرة؛ غير القابل للقياس.

ما نسميه "التفكير" هو نقطة التقاء هذين العالمين. الدماغ هو المصباح. والوعي هو الشعلة. وكما أن المصباح لا يخترع الضوء، فإن الدماغ لا يُولّد الوعي من العدم. بل يحتضنه، ويُشكّله، ويُوجّهه.

لهذا السبب يصف المتصوفون في مختلف التقاليد التنوير بمصطلحات الإشعاع: "نور العقل"، "العين الثالثة"، "المصباح الداخلي"، "شرارة الإلهي".

هذه استعارات لنفس المبدأ: الوعي حالة من الإشراق – نور داخل المادة.

3. النوران: نور الشكل ونور الجوهر

لفهم "النور على النور"، علينا تحليل طبقاته.

ما نسميه "التفكير" هو نقطة التقاء هذين العالمين. النور الأول – نور الشكل: هو نور الكون المادي: الفوتونات، النجوم، الحقول، الطاقة، الكهرومغناطيسية. هو النور الذي يكشف العالم للحواس.

النور الثاني – نور الوعي: هو النور الداخلي: الإدراك، الفهم، الحدس الأخلاقي، المعنى، الذات، الحضور. هو النور الذي يكشف العالم للذات.

"نور على نور" هو اندماج هذين المستويين: الإضاءة الخارجية للواقع والإضاءة الداخلية للمعنى. عندما يتناغمان، يظهر الوضوح. وعندما يتباعدان، يبدأ الوهم.

4. بنية الإشراق الداخلي

تصف الآية الكريمة بنية رمزية:

النور ⟵ المجازي وهو المعرفة الشاملة المطلقة، المعنى، مصدر الوجود

النور ⟵ المجالات أو الحقول الكمومية عندما تتحول إلى جسيمات مادية لها كتلة، الكون الفيزيقي

مشكاة ⟵ الفراغ الكوني (**Vacum**)، الكون المحدَّب، جسم الإنسان، إناء الفيزيقي (الكتلة) المهيأ لاستقبال النور

مصباح ⟵ شعلة الوعي، الاستنارة، تحول مجال الوعي إلى الكمّ المعلوماتي في حالة ثوتونات.

زجاجة ⟵ دماغ الإنسان وشبكة الخلايا العصبية التي يحدث فيها "الإنهيار الكمومي" وتبادل المعلومات، أداة السببية توحه وتضخم وتنظم وتوزع المعلومات التي تحرك الجسد، مكان التقاء المعرفة أو الفكر المجرَّد بالمادة الفيزيقية.

كوكب دري ⟵ العقل الذي يمتلك المعرفة.

يوقد من شجرة مباركة زيتونة ⟵ مجال (حقل) الوعي مصدر المعرفة ومنبع الإدراك

لا شرقية ولا غربية ⟵ دلالة على حيادية المجال (حقل) الوعي التجريديّ، خصائص الحقول التي تصدر عن استثارتها جميع الجسيمات المادية.

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ⟵ المعرفة الشاملة الكامنة في حقل الوعي والإستثارات في الحقل وإمكانية الانهيار الكمومي *(الاستثارات في الحقل على هيئة* ***superposition*** *أي مبدأ التراكب إلى احتمالات دالة الموجة* ***wave***

إلى انهيارها إلى ثوتونات تحمل كمّ المعلومات) **function** والحلول الثوتوني في دماغ الإنسان، والمعرفة الشاملة أو المعرفة الخالصة بهذا المعنى كائنة في الحقل ولا تقتصر على التفاعل مع الدماغ. المجالات أو الحقول التي تملأ الفراغ **Vacum** تعجّ كل الوقت بولادة ازواج الجسيمات المتضادة التي تتصادم وتفنى وتولد وتفنى وهكذا في كل الوقت، فالفراغ ليس فراغاً مطلقاً أو عدم، فالمجالات تكاد تتجلى كمادة دائمة في جميع الأوقات.

نور على نور ⟵ التواصل والتبادل بين النور المعرفي التجريدي والنور المتجسد المادي، أي المادي والميتافيزيقي؛ لكليهما ذات المصدر، وجهان لحقيقة واحدة، الكون مضاء من الخارج والعقل مضاء من الداخل.

5. الإشراق والتوازن: نور التوازن.

في الفيزياء: الفوتونات تُوَسِّط القوة الكهرومغناطيسية، والكهرومغناطيسية تُثَبِّت الذرات، والذرات تُثَبِّت الجزيئات، والجزيئات تُثَبِّت الحياة.

في علم الأحياء: الأيض يتطلب تدفق الطاقة، والتوازن الداخلي يتطلب تدرجات مُنَظَّمة، والرؤية تتطلب الفوتونات.

في الوعي: يظهر الوضوح عندما تتوازن الحالات العصبية، وينشأ الألم عندما يختل توازنها. في الأخلاق: الخير هو استعادة التوازن؛ والشر هو تشويه النظام الطبيعي.

وهكذا، فإن "نورًا على نور" هي المعادلة الكونية للتوازن. فالتوازن يُولّد الإشراق، والإشراق يحافظ على التوازن. والتوازن هو الشرط الذي يصبح فيه النور مرئيًا، والشرط الذي يصبح فيه الوعي ممكنًا.

تأمل ختامي على الفصل الرابع

عندما يُتناول علم اللاهوت بشكل رمزي لا حرفي، ويُتناول علم الوجود بتواضع لا اختزال، يظهر تقارب عميق. فالوعي كمجال أساسي، والحلول الإلهي، والإدراك الرمزي، والمسؤولية الأخلاقية تُشكّل قوسًا واحدًا لا عقائد منفصلة.

هذا التقارب لا يُزيل الغموض، بل يُحدّد موقعه. فالله يبقى فوق الإدراك الكامل، والوعي فوق الاستيعاب الكامل، والمعنى فوق الاستنفاذ الكامل. ومع ذلك، لا يُصبح أيٌّ منها غير متماسك أو غير ذي صلة.

يتناول الجزء التالي والأخير الأخلاق، لا بوصفها اتباعًا للقواعد أو عقدًا اجتماعيًا، بل بوصفها مشاركة. فإذا كان الواقع واعيًا في جوهره، فإن للفعل وزنًا لا لأنه أمر، بل لأنه يُحدث صدى.

الفصل الخامس

الأخلاق والتبعات الوجودية

لكل وجود تبعات أخلاقية، سواء أُقرّ بها أم لا. إذا نُظر إلى الواقع على أنه غير مبالٍ جوهريًا، تصبح الأخلاق فرضًا بشريًا – مفيدًا، وربما ضروريًا، ولكنه في نهاية المطاف بلا أساس. أما إذا كان الوعي جوهريًا، فإن الأخلاق تكتسب عمقًا وجوديًا. لم يعد الفعل يحدث على مسرح محايد؛ بل يحدث ضمن واقع متفاعل، وذي معنى، وتشاركي.

يستكشف هذا الجزء الأخير ما يترتب على ذلك عندما يُعامل الوعي لا كمنتج ثانوي عرضي للمادة، بل كبعد أساسي للوجود. لا تُضاف الأخلاق والكرامة والحرية إلى الوجود؛ بل تنبثق منه بشكل طبيعي. تصبح الحياة الأخلاقية تعبيرًا عن كيفية تنظيم الواقع الواعي لنفسه من خلال الفعل البشري.

1. الوعي والمسؤولية والوزن الأخلاقي

إذا كان الوعي مجالًا جوهريًا، والتجربة الإنسانية تتكون من تجليات محلية ضمن الوعي، فلا يمكن أن تستند المسؤولية الأخلاقية فقط إلى أمر خارجي أو اتفاق اجتماعي. تنشأ المسؤولية من المشاركة نفسها. إن الفعل بحد ذاته يُشكّل المجال الذي يتصرف فيه الآخرون.

في عالم آلي بحت، تُعدّ الأفعال أحداثًا بلا معنى جوهري، ويعتمد تقييمها كليًا على المعايير أو النتائج المفروضة. أما في عالم واعٍ، فالأفعال هي تجليات للوعي تتجسد من خلال الشكل المادي، ولها وزن أخلاقيٌ لأنها تُعدّل ظروف التجربة المستقبلية، سواءً تجربة الفرد نفسه أو تجارب الآخرين.

يصبح القصد حاسمًا من الناحية الأخلاقية. فالفعل المقصود ليس مجرد حركة للمادة، بل هو تموضع منظم للوعي مُوجه بالقيمة والمعتقد والغاية. وتتجاوز آثار هذه الأفعال آثارها المباشرة، إذ تُغيّر الحقول العلائقية – الاجتماعية والرمزية والنفسية – التي يستمر الوعي من خلالها في التمركز.

يعيد هذا المنظور صياغة الفشل الأخلاقي، فالخطأ ليس مجرد انتهاك للقواعد، ولا هو مجرد سلوك غير متكيف، بل هو تشويه: اختلال بين التموضع والتوازن الأوسع للواقع الواعي. لا يقتصر الضرر على الانتشار المادي فحسب، بل يمتدّ إلى التجربة أيضًا، مُولِّدًا تنافرًا يستمرّ حتى بعد لحظة الفعل.

لذا، فإنّ المسؤولية الأخلاقية ليست مفروضة من الخارج، بل هي جزء لا يتجزأ من المشاركة في الواقع الواعي. فالوعي يُضفي قيمةً، والمعرفة بحدّ ذاتها مسؤولية.

2. الكرامة الإنسانية في كون واعٍ

لطالما استندت الكرامة الإنسانية إلى اللاهوت، أو العقلانية، أو الاستقلال الذاتي، أو العقد الاجتماعي. وقد أثبتت كلّ هذه الأسس هشاشةً. فالأسس اللاهوتية تتزعزع في السياقات التعددية، والعقلانية تستبعد الضعفاء، والاستقلال الذاتي ينهار تحت وطأة الحتمية، والعقود تتلاشى تحت وطأة السلطة.

في إطار أنطولوجيا الوعي القائمة على الحقول، تكتسب الكرامة أساسًا مختلفًا. فأن تكون إنسانًا يعني أن تكون حاملًا محليًا للواقع الواعي – موقعًا تتلاقى فيه المعرفة والمعنى والمسؤولية. لا تنبع الكرامة من الإنجاز أو القدرة أو التقدير، بل من المشاركة.

يقاوم هذا التصور كلًا من العدمية والعاطفية. فالبشر ليسوا ذوي قيمة لأنهم نافعون أو منتجون أو أقوياء، ولا لأنهم يشعرون بالشفقة تجاههم فحسب، بل لأن الواقع الواعي يتشكل داخلهم بطريقة فريدة متكاملة ومعبرة رمزيًا.

لا تنفي الهشاشة الكرامة، بل تكشفها. إن اعتماد الوعي الإنساني على الظروف البيولوجية والاجتماعية الهشة يؤكد قيمته، بدلًا من أن يقوضها. إن إيذاء شخص ما ليس مجرد إلحاق الضرر بكائن حي، بل هو تفتيت لمركز محلي للمعنى.

يتجاوز هذا الفهم حدود الإنسانية. فبينما يُظهر الوعي الإنساني قدرات مميزة، إلا أنه لا يوجد بمعزل عن أشكال الوعي الأخرى. يتسع نطاق الاعتبار الأخلاقي بشكل طبيعي، لا تحكمه حدودٌ قاطعة، بل درجات المشاركة والقدرة على التجربة.

3. نحو أخلاقيات التوازن

إذا كان الواقع الواعي مُنظَّمًا عبر حقول وأنماط وقيود، فإن الحياة الأخلاقية تُفهم على أفضل وجه لا من منظور وصفات مطلقة، بل من منظور التوازن. يصبح التوازن هو المبدأ التوجيهي: بين الحرية والتقييد، والذات والآخر، والقوة والمسؤولية، والابتكار والاستمرارية.

الإفراط والتقصير كلاهما تشويه. الحرية المطلقة تذوب في الفوضى، والسيطرة المطلقة تتحول إلى هيمنة. تكمن الحكمة الأخلاقية في الحفاظ على توازن ديناميكي – مُستجيب للسياق، وحساس للعواقب، ومُوجَّه نحو التماسك لا الهيمنة.

تتناقض أخلاقيات التوازن هذه مع الأنظمة الأخلاقية القائمة فقط على الطاعة أو الحسابات. فهي لا تسأل فقط عما هو مسموح أو ما هو مفيد، بل تسأل عما يُحافظ على التماسك داخل الواقع الواعي. تُقاس الأفعال بقدرتها على الحفاظ على المشاركة الهادفة أو استعادتها أو تعزيزها.

ينطبق التوازن أيضًا على الحضارة. فالقوة التكنولوجية دون تكامل أخلاقي تُزعزع استقرار المجتمعات. والكفاءة الاقتصادية دون كرامة تُشوّه المعنى الإنساني. والأيديولوجيا دون تواضع تنهار في براثن الإكراه. ويمكن فهم أزمات الحداثة، في هذا السياق، على أنها اختلالات في التوازن لا اختلالات في الذكاء.

لذا، فإن المهمة الأخلاقية ليست السيطرة، بل التوافق. فالبشر ليسوا خالقين ذوي سيادة ولا نتاجًا سلبيًا. إنهم مشاركون مُؤتمنون على التأثير ضمن نظام واعٍ لم يبتدعوه، بل ساهموا في تشكيله.

4. الإرادة الحرة والقيود: الفاعلية الثوتونية

لطالما تذبذبت مشكلة الإرادة الحرة بين قطبين غير مُرضيين: الحرية المطلقة المنفصلة عن السببية، والحتمية الصارمة التي تجعل الفاعلية وهمية. يُقدّم "الثوتون" مسارًا ثالثًا، قائمًا على أنطولوجيا المجال.

إذا كانت الأحداث الثوتونية تجليات موضعية لمجال وعي يتفاعل مع قيود مادية، فإن الفاعلية ليست بلا سبب ولا مُحددة سلفًا بشكل كامل. تعمل البنى العصبية والاستعدادات الوراثية والظروف البيئية كقيود – شروط حدودية يحدث ضمنها التموضع الثوتوني. تُشكّل هذه القيود فضاء الأفعال الممكنة دون أن تُحدّد بشكل قاطع أي نتيجة واحدة.

وفقًا لهذا المنظور، فإن الإرادة الحرة ليست القدرة على الفعل بلا سبب، بل هي قدرة مجال الوعي على الاختيار من بين احتمالات محدودة من خلال التموضع النمطي. تتوافق القصدية مع انحياز الانهيار الثوتوني نحو تكوينات معينة. وبالتالي، فإن الفاعلية حقيقية، ولكنها مرتبطة بسياقها؛ ذات معنى، ولكنها محدودة.

يحل هذا التناقض الظاهر بين الحتمية والمسؤولية. تحكم العمليات الحتمية الركيزة المادية، بينما يسمح عدم الحتمية على مستوى تجسيد المجال بالاختيار الحقيقي دون انتهاك القانون الفيزيائي. لا توجد الحرية الإنسانية خارج الطبيعة، بل داخلها، كنمط من الدرجة العليا للاستجابة الحساسة للقيود.

والأهم من ذلك، أن هذا النموذج يتجنب اختزال الإرادة الحرة إلى عشوائية. فالفاعلية الثوتونية مُهيكلة، ومُستنيرة بالذاكرة ،والمعنى والقيمة. الخيارات ليست اعتباطية ولا حتمية؛ إنها تعبيرات عن الشخصية التي تشكلت من خلال تاريخ المشاركة السابق.

وهكذا، تُصان المساءلة الأخلاقية دون اللجوء إلى إعفاء ميتافيزيقي تمنحه السببية. يتحمل البشر المسؤولية تحديدًا لأنهم يتصرفون ضمن قيود لم يختاروها، لكنهم يشكلونها من خلال كيفية اختيارهم للتصرف. الحرية، بهذا المعنى، ليست استقلالًا مطلقًا، بل هي مشاركة فعّالة في بناء عالم واعٍ.

شرح حجتي المؤيدة لحرية الإرادة في هذا المقتطف من كتابي "الثابت والمتحول:"

"القوة الخامسة مجازية وليست قوة خارقة للطبيعة:

يتضح هذا جليًا عند دراسة أسباب فشل نموذج "القوة الخامسة" عند استحضاره لقوة إرادة حرة منفصلة وغير مادية، وكيف يخلق هذا النموذج مشاكل ميتافيزيقية أكثر مما يحل. فهذه القوة المفترضة تحتاج إلى التدخل في العالم المادي دون انتهاك قوانين الحفظ، والتأثير على المادة العصبية دون أي نقل طاقة قابل للكشف، وأن تظل غير قابلة للكشف علميًا مع كونها العامل الحاسم في الفعل البشري. لا يُفسر هذا المفهوم الحرية؛ بل يُعيد تسمية اللغز ويُدخل خللًا خارقًا للطبيعة في كونٍ كان من الممكن فهمه. علاوة على ذلك، فإن الحرية التي تتحقق بكسر سلسلة السببية لا يمكن التعرف عليها كحرية على الإطلاق؛ بل لا يمكن تمييزها عن العشوائية. والعشوائية – أي حدوث فعل دون سبب – ليست إرادة؛ بل هي عينها." فقدانها.

السببية ليست سلسلة، بل مجال

للتخلص من هذا المأزق، يجب علينا تحديث مفهومنا للسببية، فهي ليست سلسلة، بل مجال. إن الصورة الكلاسيكية النيوتونية للسببية – سلسلة جامدة من الدفعات الحتمية – هي تبسيط مفرط. يشير الفهم الحديث، المستند إلى ميكانيكا الكم ونظرية التعقيد وعلم الأحياء النظمي، إلى أن السببية يُنظر إليها بشكل أفضل على أنها متعددة الطبقات، واحتمالية، وسياقية للغاية. وهي تعمل من خلال وضع القيود وتمكين مساحات الاحتمالات أكثر من عملها من خلال فرض نتائج دقيقة. ضمن حدود القانون الفيزيائي، غالبًا ما يكون من الممكن فيزيائيًا وجود احتمالات مستقبلية متعددة. أي مستقبل محدد سيظهر ليس دائمًا محددًا بتفاصيل دقيقة للغاية من خلال الحالة السابقة للكون. السببية، في هذا المنظور الأشمل، لا تملي كل التفاصيل؛ بل تحدد المشهد وقواعد اللعبة.

عدم الحتمية بدون فوضى

يشير هذا إلى حقيقة عدم الحتمية بدون فوضى. على المستويات الأساسية التي وصفها في فيزياء الكم، يُعدّ عدم التحديد سمةً متأصلةً في الواقع. يمكن للأحداث أن تقع دون أن تكون محددةً مسبقًا بدقة، ومع ذلك، فإنها تحدث ضمن نطاقات مقيدة إحصائيًا ودون انتهاك البنية العامة للقانون الفيزيائي. هذه الانفتاحية الجوهرية ليست، في حد ذاتها، حرية. إن "اختيار" الإلكترون الاحتمالي ليس نموذجًا

للإرادة البشرية. لكن هذا عدم التحديد الأساسي يُنشئ مساحةً – انفتاحًا وجوديًا – في أساس الواقع. تتطلب الحرية مثل هذا الانفتاح، لكن الانفتاح وحده غير كافٍ. إنه المادة الخام، وليس المنتج النهائي.

الوعي كمُنتقي، لا كمُنتهك

العامل النهائي هو الوعي كمُنتقي، لا كمُنتهك. لا يعمل الوعي بتجاوز القانون الفيزيائي. إنه يعمل ضمن المساحة الواسعة التي يسمح بها القانون الفيزيائي. حيث توجد نتائج متعددة ومسموح بها فيزيائيًا – سواء في حالات عدم التحديد الدقيقة للعمليات العصبية أو في حالات الغموض الكلية لبنية معقدة. في لحظة اتخاذ القرار، يؤدي الوعي دوره المحوري. فهو يُقيّم الأفعال المحتملة بناءً على معناها المتوقع، ويُدمج الذاكرة والنوايا المستقبلية، ويؤجل رد الفعل التلقائي، ويختار من بين البدائل. هذا الاختيار ليس عشوائيًا، بل هو مُستنير بقيم متراكمة على مدار العمر، وهوية شخصية مُشكّلة، وفهم دلالي للعالم. هنا تحديدًا تنشأ الحرية، لا كهروب من السببية، بل كملاحة واعية مُوجّهة بالقيم ضمن المجال السببي. إنها السببية التي تُصبح مُوجّهة ذاتيًا.

الحرية كانفتاح مُهيكل

لذلك، يُمكننا تعريف الحرية بأنها انفتاح مُهيكل. الحرية الحقيقية ذات المعنى ليست غيابًا تامًا للقيود، بل هي بنية مُحددة تتطلب ثلاثة عناصر:

.1القيود: قوانين وهياكل ثابتة تُتيح نتائج قابلة للتنبؤ وأفعالًا موثوقة. بدون حدود، يتحول الفعل إلى فوضى غير مُترابطة.

.2البدائل: تعدد حقيقي للمستقبلات المسموح بها فعليًا للاختيار من بينها. بدون خيارات حقيقية، يكون الفعل مجرد إكراه.

.3التأمل: القدرة الواعية على نمذجة هذه البدائل. البدائل، وموازنتها وفقًا للقيم، ثم اختيار أحدها. بدون هذا الوعي، يفتقر الفعل إلى الشعور بالملكية.

المسؤولية دون عبء ميتافيزيقي

توجد هذه الشروط الثلاثة بقوة ضمن الأنظمة الطبيعية المعقدة كالدماغ البشري. إذن، الحرية ليست انفتاحًا مطلقًا، بل هي انفتاح منظم – القدرة على الإبداع الواعي والتأملي الذاتي ضمن عالم تحكمه القوانين.

يدعم هذا الإطار بشكل طبيعي مفهوم المسؤولية دون عبء ميتافيزيقي. فلو كانت أفعالنا محددة بشكل كامل وآلي بحالات سابقة، لكان مفهوم المسؤولية بلا معنى – لكنا مجرد دمى متحركة. ولو كانت أفعالنا بلا سبب على الإطلاق، لاستحالت المسؤولية – لما أمكن محاسبتنا على أحداث عشوائية. تجد المسؤولية مكانها المنطقي في المنطقة الوسطى: فهي موجودة لأننا فاعلون نعمل ضمن قيود معروفة، ونستطيع فهم العواقب المحتملة لأفعالنا، ولو واجهنا ظروفًا مماثلة، لكان بإمكاننا الاختيار والتصرف بشكل مختلف بناءً على التأمل والتقييم. وهذا أساس كافٍ للمسؤولية الأخلاقية والقانونية. لا يتطلب الأمر روحًا خارجة عن المادة، بل ذاتًا واعية ومتكاملة سببيًا ومعقدة بما يكفي.

الحرية والمعنى والاستمرارية

نرى إذًا أن الحرية والمعنى والاستمرارية لا تنفصل. فالاختيار الحر ليس مجرد انتقاء خيار من قائمة، بل هو تأكيد لقيمة، والتعبير عن جانب من جوانب الهوية، وتوسيع نطاق السرد المتماسك للحياة. أما الاختيار الذي لا يحمل معنى – كرمي قطعة نقدية للبت في الأمر، أو ارتعاش عصبي عشوائي – فلا يُنظر إليه كفعل حر، بل كحدث اعتباطي أو غريب. الحرية، بمعناها الأعمق، هي الأداة التي تُرسّخ بها الذات هويتها عبر الزمن، وتُؤلف قصتها بفعالية ضمن السرد الكبير لواقع قائم على القانون.

التأمل اللاهوتي دون تدخلية

من منظور لاهوتي، يُحررنا هذا الرأي من التدخلية. إنّ منح الحرية من الله لا يستلزم تعليقًا دوريًا للقانون الطبيعي، كما لو أن الله يتدخل لكسر قيود الحتمية التي تكبّلنا. بل إنّ الحرية موجودة لأنّ النظام الكوني مُنظّمٌ بطبيعته – مفهوم، ومنفتح، ومتدرّج – بطريقة تسمح بالمشاركة الواعية بل وتُنمّيها. فالخلق ليس آلة حتمية، ولا هو ساحة فوضوية للمعجزات. إنه نظام متماسك وكريم، منفتح بما يكفي لاستحضار شراكة حقيقية من داخله.

الحرية كوظيفة، لا كاستثناء

وهكذا، نستنتج أن الإرادة الحرة وظيفة، لا استثناء. إنها ليست شذوذًا خارقًا للطبيعة مُضافًا إليها. إنها وظيفة رفيعة المستوى تنشأ بشكل طبيعي عندما تتلاقى التعقيدات المادية، والتكامل الواعي، والمعنى الدلالي. وهي تنشأ بشكل قانوني من خصائص الكون؛ وتعمل وفقًا لمبادئ السببية الواعية. فالحرية ليست غياب السببية. إنها السببية التي تُصبح واعية بذاتها، وتُشكّل نفسها بنفسها، وتُوجّه نفسها بنفسها. إنها الكون، في صورة كائن واعٍ، يتعلم كيف يُوجّه نفسه ضمن تياراته الخاصة.

استكمال البنية

مع هذا الفهم، تكتمل بنية الثابت والمتغير. يُوفّر الثابت البنية والقيد غير القابلين للتفاوض – القانون الفيزيائي، والضرورة البيولوجية، والشكل المنطقي. يُوفّر المتغير مجال التعبير والتكيف والشكل الجديد. ينشأ الوعي كواجهة تكاملية حيث يُترجم الشكل إلى معنى. تعمل الحرية كقدرة على الاختيار الواعي ضمن الانفتاح الذي يُوفّره المتغير، المُقيّد بالثابت. والتوازن الديناميكي هو المبدأ الذي يُحافظ على تماسك الكل عبر الزمن. لم يُضَف شيء بلا داعٍ – لا قوى خامسة، ولا انقطاعات خارقة للطبيعة. لم يُزَل شيء بشكل تعسفي – يبقى المعنى والمسؤولية والاختيار الأصيل سليمة، مُتجذّرة في الواقع.

لم يُضَف شيء بلا داعٍ – لا قوى خامسة، ولا انقطاعات خارقة للطبيعة. لم يُزَق شيء بشكل تعسفي – يبقى المعنى والمسؤولية والاختيار الأصيل سليمة، مُتجذّرة في الواقع.

نهاية المقتطف.

تأمل ختامي: الاكتمال والاستمرارية

بدأ هذا العمل بتشخيص اختلال التوازن في كتاب "أقنعة الوهم". ويختتم هنا بإعادة بناء أنطولوجية تهدف إلى استعادة التماسك. فبينما كشف الكتاب الأول عن تشويه بين العقل والأسطورة، والسلطة والمسؤولية، يسعى هذا الكتاب إلى ترسيخ التوازن على أعمق مستوى: طبيعة الواقع نفسه.

لا يُقدَّم كتاب "الثوتون " كنظرية نهائية، ولا كاكتشاف علمي. بل يُقدَّم كإطار للتفكير – طريقة لفهم الوعي والمادة والمعنى والأخلاق ضمن رؤية واحدة غير اختزالية.

وإذا ما نجح، فلن يكون ذلك بإقناع جميع القراء. سينجح ذلك بجعل بعض الأسئلة حتمية، وبعض الرفض أقل قبولًا، وبعض الحدس أكثر وضوحًا.

وما يتبقى هو المشاركة. فالواقع الواعي لا يطلب أن يُحل، بل أن يُتعامل معه بمسؤولية. الفلسفة، في أفضل حالاتها، لا تُغلق باب البحث، بل تفتح سبيلًا للعيش بوعي أكبر في العالم المحيط بنا.

التطورات الحديثة والمعاصرة: انقسمت فلسفة القرن العشرين إلى تقاليد تحليلية وقارية. حاولت الفلسفة التحليلية إضفاء طابع طبيعي على العقل من خلال السلوكية، ونظرية الهوية، والوظيفية، والمادية الإقصائية. بينما أكدت الفلسفة القارية على التجربة المعيشة والتجسيد، رافضةً الثنائيات المجردة. ومؤخرًا، عادت مذهب وحدة الوجود ووحدة الوجود عند راسل إلى الظهور، مما يشير إلى أن الوعي لا بد أن يكون جوهريًا في نهاية المطاف.

يكشف هذا الاستعراض التاريخي عن نمط: كلما عُومل الوعي على أنه مشتق أو وهمي، تظهر الفجوة التفسيرية في مكان آخر. وكلما عُومل على أنه جوهري، تُستعاد الوحدة على حساب الجرأة المفاهيمية. ينتمي إطار عمل "الثوتون الموجه" إلى هذا النهج الأخير. وهو لا يدّعي حلّ المشكلة بشكل نهائي، بل وضعها ضمن سياق وجودي حيث يُمثّل العقل والجسد تعبيرين عن واقع موحّد يشبه المَجَال.

الملحق أ – علم الوجود القائم على الحقول والفيزياء الحديثة

شهدت الفيزياء الحديثة تحولًا مفاهيميًا عميقًا من الواقعية القائمة على الجسيمات إلى علم الوجود القائم على الحقول. في نظرية المَجَال الكمومي المعاصرة، لا تُفهم الجسيمات على أنها مواد مستقلة، بل على أنها إثارات موضعية لحقول كامنة تملأ جميع الزمكان. يتوافق كل نوع من الجسيمات مع مَجَال، والتفاعلات هي اقترانات بين الحقول.

ما يُسمى بالفراغ ليس فارغًا؛ بل هو أدنى حالة طاقة للحقول التي لا تزال تمتلك بنية وتناظرًا وإمكانات. تُعزز ظواهر مثل طاقة النقطة الصفرية، والتقلبات الكمومية، ومَجَال هيغز يثبت فكرة أن الحقول أساسية والأجسام ثانوية.

لا يدّعي هذا الملحق وجود دليل علمي أن الوعي مَجَال كمومي بالمعنى التقني. بل إنه يُسلط الضوء على طرح ميتافيزيقي: قد يكون الواقع في جوهره مَجَالاً، وعلائقياً، وإجرائياً. لذا، فإن التعامل مع الوعي على أنه مَجَال ليس غريباً على الخيال العلمي الحديث، حتى وإن بقي خارج الأطر التجريبية الحالية.

الملحق ب – المواقف التاريخية حول العقل والجسد (دليل مرجعي)

• أفلاطون: ثنائية الجوهر؛ النفس غير مادية وأسمى من الجسد. • أرسطو: الهيولية الشكلية؛ النفس صورة الجسد. • ابن سينا: النفس غير مادية؛ الوعي الذاتي مستقل عن الإحساس. • ابن رشد: الوحدة الأرسطية؛ العقل كلي. • أوغسطين: الثنائية الأفلاطونية في اللاهوت المسيحي. • توما الأكويني: وحدة الجسد والنفس مع القدرات غير المادية للنفس العاقلة. • ديكارت: ثنائية جوهر العقل والجسد. • سبينوزا: وحدة الجانبين؛ العقل والجسد صفتان متوازيتان. • لايبنتز: الانسجام المُسبق. • المادية: العقل عملية دماغية. • المثالية: الواقع مُرتبط بالعقل. • الظاهراتية: الوعي المُجسّد. • وحدة الوجود/الوحدانية الرسلية: الوعي أساسي.

تشكّل هذه المواقف الخلفية الفكرية التي يُطرح من خلالها كتاب "الثوتون "كتركيب معاصر ذي توجه ميداني.

اقتباسات عن الوعي من علماء/فيزيائيين

ديفيد بوم

"في أعماقنا، وعي البشرية واحد. هذه حقيقة شبه مؤكدة، لأنه حتى في الفراغ، المادة واحدة؛ وإذا لم نرَ ذلك، فذلك لأننا نتجاهله."

"الوعي أقرب إلى النظام الضمني منه إلى المادة... ومع ذلك، على مستوى أعمق، [المادة والوعي] لا ينفصلان ومتشابكان، تمامًا كما في لعبة الكمبيوتر حيث يتحد اللاعب والشاشة من خلال المشاركة."

نيلز بور

"كل ما نسميه حقيقيًا مصنوع من أشياء لا يمكن اعتبارها حقيقية. الفيزيائي ليس إلا طريقة الذرة في النظر إلى نفسها."

"أي ملاحظة للظواهر الذرية ستتضمن تفاعلًا مع أداة الملاحظة لا يمكن إغفاله. وبناءً على ذلك، لا يمكن إسناد واقع مستقل بالمعنى الفيزيائي المعتاد إلى الظواهر ولا إلى أدوات الملاحظة." في نهاية المطاف، يُعدّ مفهوم الملاحظة اعتباطيًا إلى حدٍّ ما، إذ يعتمد على الأجسام المُدرجة في النظام المراد رصده.

فريمان دايسون

"على مستوى الذرات والإلكترونات المفردة، ينخرط عقل المُلاحِظ في وصف الأحداث. يُجبر وعينا المُركّبات الجزيئية على الاختيار بين حالة كمومية وأخرى."

السير آرثر إيدنغتون

"في عالم الفيزياء، نشاهد عرضًا ظليًا للحياة المألوفة. يستقر ظلّ مرفقي على طاولة الظلال بينما ينساب حبر الظلال على ورق الظلال... إنّ الإدراك الصريح بأنّ العلوم الفيزيائية تُعنى بعالم الظلال هو أحد أهمّ التطورات الحديثة."

ألبرت أينشتاين

"الإنسان جزء من كلٍّ، نُسمّيه الكون، جزء محدود في الزمان والمكان. يُدرك ذاته، أفكاره ومشاعره، كشيٍء منفصل عن البقية... نوع من الوهم البصري لوعيه. هذا الوهم أشبه بسجن لنا، يُقيّدنا برغباتنا الشخصية وعاطفتنا تجاه عدد قليل من أقرب الناس إلينا." يجب أن تكون مهمتنا تحرير أنفسنا من هذا السجن بتوسيع دائرة تعاطفنا لتشمل جميع الكائنات الحية والطبيعة بأسرها في جمالها.

فيرنر هايزنبرغ

يحدث التغير المفاجئ في الدالة الموجية مع تسجيل النتيجة من قبل عقل المراقب. إن هذا التغير المفاجئ في معرفتنا لحظة التسجيل هو ما ينعكس في التغير المفاجئ لدالة الاحتمال.

باسكوال جوردان

"الملاحظات لا تُشوش ما يُقاس فحسب، بل تُنتجه أيضًا."

فون نيومان

"يبدو أن الوعي، أيًا كان، هو الشيء الوحيد في الفيزياء القادر في نهاية المطاف على إحداث هذا الانهيار أو الملاحظة."

جاك بارسونز

لسنا وعيًا أرسطيًا – لسنا عقولًا بل حقولًا – الوعي يجب أن يتحدث الداخل والخارج، الأحشاء والدم والجلد.

فولفغانغ باولي

"لم نعد نفترض المراقب المنفصل، بل المراقب الذي يخلق، بتأثيراته غير المحددة، وضعًا جديدًا، حالة جديدة للنظام المرصود."

"أعتقد شخصيًا أن الواقع في علم المستقبل لن يكون "نفسيًا" ولا "ماديًا"، بل سيكون كليهما بطريقة ما، ولا هذا ولا ذاك بطريقة ما."

ماكس بلانك

"أعتبر الوعي أساسيًا." أعتبر المادة مشتقة من الوعي.

"بصفتي رجلاً كرس حياته لدراسة المادة، وهي من أكثر العلوم دقةً ووضوحاً، أستطيع أن أؤكد لكم، بناءً على بحثي في الذرات، ما يلي: لا وجود للمادة في حد ذاتها. فكل المادة تنشأ وتوجد فقط بفضل قوة تُحرك جسيم الذرة وتُبقي هذا النظام الشمسي الذري المصغر متماسكاً. يجب أن نفترض وجود عقل واعٍ وذكي وراء هذه القوة. هذا العقل هو أساس كل المادة."

مارتن ريس

"لم يكن للكون أن يوجد لولا وجود من رصده. لا يهم أن هؤلاء الراصدون ظهروا بعد مليارات السنين. الكون موجود لأننا ندرك وجوده."

إرفين شرودنغر

"الاستنتاج الوحيد الممكن... هو، في رأيي، أنني – أنا بالمعنى الأوسع للكلمة، أي كل عقل واعٍ قال أو شعر بـ'أنا' – هو الشخص، إن وُجد، الذي يتحكم في 'حركة الذرات'. ... الذات الشخصية تساوي الذات الأبدية الحاضرة في كل مكان، الشاملة لكل شيء... لا يوجد إلا شيء واحد، وحتى في ذلك، ما يبدو تعددًا ليس إلا سلسلة من جوانب شخصية مختلفة لهذا الشيء الواحد، ناتجة عن خداع."

"ليس لدي... أي تردد في التصريح بوضوح تام بأن قبول وجود عالم مادي حقيقي، كتفسير لحقيقة أننا جميعًا نجد في النهاية أننا تجريبيًا في نفس البيئة، هو أمر غامض وميتافيزيقي."

جون أرشيبالد ويلر

"لسنا مجرد مراقبين. نحن مشاركون. بمعنى غريب، هذا كون تشاركي."

يوجين ويغنر

"لا يمكن صياغة قوانين ميكانيكا الكم بطريقة متسقة دون الرجوع إلى الوعي.

ألبرت أيزنستين

"كل من ينخرط بجدية في طلب العلم يقتنع بأن قوانين الطبيعة تُظهر وجود روح أسمى بكثير من روح البشر، روحٌ يجب أن نشعر أمامها بالتواضع بقدراتنا المتواضعة."

وفي تعبير آخر مشابه عن هذا الشعور، قال:

"يتمثل تَديّني في إعجاب متواضع بالروح المتعالية التي تتجلى في القليل الذي نستطيع، بفهمنا الضعيف والعابر، إدراكه من الواقع."

في رسالة إلى ابنته ليزيرل:

..."عندما طرحتُ نظرية النسبية، لم يفهمني إلا القليل، وما سأكشفه الآن لأُبلّغه للبشرية سيصطدم أيضًا بسوء الفهم والتحيّز السائدين في العالم.

أطلب منكِ حفظ هذه الرسائل ما دام ذلك ضروريًا، سنوات، عقود، حتى يتقدّم المجتمع بما يكفي لتقبّل ما سأشرحه لاحقًا.

هناك قوة هائلة لم يجد لها العلم حتى الآن تفسيرًا رسميًا. إنها قوة تشمل جميع القوى الأخرى وتُسيّرها، بل إنها وراء كل ظاهرة تحدث في الكون ولم نكتشفها بعد.

هذه القوة الكونية هي الحب.

عندما بحث العلماء عن نظرية موحدة للكون، نسوا أقوى قوة خفية.

الحب نور، يُنير من يُعطيه ومن يتلقّاه.

الحب جاذبية، لأنه يجعل بعض الناس يشعرون بالانجذاب نحو الآخرين.

الحب قوة، لأنه يُضاعف أفضل ما لدينا، ويُجنّب البشرية الفناء في أنانيتها العمياء. الحب يتجلى ويكشف.

من أجل الحب نعيش ونموت.

الحب هو الله، والله هو الحب.

هذه القوة تفسر كل شيء وتمنح الحياة معنى. هذا هو المتغير الذي تجاهلناه طويلًا، ربما لأننا نخشى الحب، فهو الطاقة الوحيدة في الكون التي لم يتعلم الإنسان تسخيرها بإرادته.

لإبراز الحب، أجريتُ تعديلًا بسيطًا على معادلتي الأشهر.

إذا افترضنا، بدلًا من $E = mc^2$، أن الطاقة اللازمة لشفاء العالم يمكن الحصول عليها من خلال الحب مضروبًا في مربع سرعة الضوء، فسنصل إلى استنتاج مفاده أن الحب هو أقوى قوة على الإطلاق، لأنه لا حدود له.

بعد فشل البشرية في استخدام قوى الكون الأخرى التي انقلبت ضدنا والسيطرة عليها، بات من الضروري أن نغذي أنفسنا بنوعٍ آخر من الطاقة...

إذا أردنا لجنسنا البقاء، إذا أردنا أن نجد معنى للحياة، إذا أردنا إنقاذ العالم وكل كائن حي يسكنه، فالحب هو الحل الوحيد.

ربما لسنا مستعدين بعد لصنع قنبلة من الحب، أداة قوية بما يكفي لتدمير الكراهية والأنانية تدميرًا كاملًا. والجشع الذي يُدمر الكوكب.

مع ذلك، يحمل كل فرد في داخله مولدًا صغيرًا لكنه قوي للحب، طاقته تنتظر أن تُطلق.

عندما نتعلم كيف نمنح ونستقبل هذه الطاقة الكونية، عزيزتي ليزيرل، سنكون قد تأكدنا من أن الحب ينتصر على كل شيء، وقادر على تجاوز كل شيء، لأن الحب هو جوهر الحياة.

يؤسفني بشدة أنني لم أتمكن من التعبير عما في قلبي، الذي نبض لكِ بصمت طوال حياتي. ربما فات الأوان للاعتذار، ولكن بما أن الوقت نسبي، فأنا بحاجة لأن أخبركِ أنني أحبكِ، وبفضلكِ وصلتُ إلى الإجابة النهائية!

والدكِ ألبرت أينشتاين

المراجع

References

THE LIGHTNESS OF BEING: Mass, Ether, and the Unification of Forces. FRANK WILCZEK, Basic Books; September 2, 2008.

What Is Your Dangerous Idea? Today's Leading Thinkers on the Unthinkable (Edge Question Series), by John Brockman, 2016.

Stanford Encyclopaedia of Philosophy

Encyclopedialike Britannica

Ethics, by Baruch Spinoza, Stuart Hampshire (Introduction), Edwin M. Curley (Translator)

مسرد المصطلحات

القسم الأول: الفيزياء الأساسية والكونيات

14. الإنتروبيا :(**Entropy**) مقياس لعشوائية النظام أو درجة تشتت الطاقة. يصف القانون الثاني للديناميكا الحرارية أن إنتروبيا النظام المعزول لا تنقص مع الزمن، مما يحدد سهم الزمن واتجاه العمليات الطبيعية (من النظام إلى الفوضى) في الكون.
15. الزمكان :(**Spacetime**) النموذج الرباعي الأبعاد الذي يدمج الأبعاد المكانية الثلاثة مع الزمن في متصل واحد. وفقاً للنسبية العامة، تنحني هندسة الزمكان بفعل الكتلة والطاقة، وهذا الانحناء هو ما نختبره على أنه جاذبية.
16. الموجات الثقالية :(**Gravitational Waves**) تموجات في نسيج الزمكان تنتج عن أحداث كونية عنيفة كتصادم الثقوب السوداء. تنبأ بها أينشتاين، ورُصدت عملياً لأول مرة عام 2015.
17. نسبية القياسات :(**Relativity of Measurements**) في إطار الزمكان، تختلف قياسات الزمن والمسافة بين حدثين بالنسبة لمراقبين في حالات حركة مختلفة، مما يؤدي إلى ظواهر مثل تمدد الزمن وانكماش الأطوال.
18. ثبات سرعة الضوء (**Constancy of the Speed of Light**): المبدأ الأساسي الذي تقاس عليه سرعة الضوء في الفراغ بنفس القيمة من قبل جميع المراقبين، بغض النظر عن حركتهم النسبية.
19. الحدث :(**Event**) نقطة محددة في الزمكان، تُوصف بأربعة إحداثيات (ثلاثة للمكان وواحد للزمن).
20. فضاء مينكوفسكي :(**Minkowski Space**) النموذج الرياضي "المسطح" للزمكان في النسبية الخاصة، الذي يعمل كخلفية ثابتة للأحداث في غياب الجاذبية.
21. خط العالم :(**World Line**) المسار الذي يسلكه جسم ما عبر الزمكان، ويمثل تاريخه الكامل.
22. مخروط الضوء :(**Light Cone**) البنية في الزمكان التي تحدد جميع المناطق التي يمكن أن تؤثر فيها على حدث معين أو تتأثر به، مع احترام حقيقة أن لا شيء ينتقل أسرع من الضوء.
23. الجاذبية كانحناء :(**Gravity as Curvature**) التفسير الذي تقدمه النسبية العامة للجاذبية، حيث تتحرك الأجسام في مسارات طبيعية

(جيوديسية) ضمن الزمكان المنحني بفعل الكتلة، وليس كقوة تجاذب عن بعد.

24. نموذج الكون الكتلي :(Block Universe) التفسير الفلسفي الذي تقترحه النسبية، حيث يكون الماضي والحاضر والمستقبل موجودين معاً في بنية الزمكان الثابتة، و"الحاضر" هو تجربة ذاتية.

25. محور الشر الكوني :(Axis of Evil) مصطلح يشير إلى محاذاة غير متوقعة في خرائط إشعاع الخلفية الكونية الميكروي (CMB) تبدو مرتبطة بمستوى المجموعة الشمسية، مما يتحدى مبدأ كوبرنيكوس (أن موقعنا في الكون ليس مميزاً).

26. الثوابت الفيزيائية الأساسية (Fundamental Physical Constants): قيم ثابتة (مثل سرعة الضوء *c*، ثابت بلانك $\hbar$، ثابت الجاذبية G) تحدد قوانين الطبيعة وبنية الكون. يشير "الضبط الدقيق" لهذه الثوابت إلى أن الكون مسموح بوجود الحياة فيه بشكل دقيق جداً.

القسم الثاني: ميكانيكا الكم والتأسيسيات

27. ازدواجية الموجة–الجسيم :(Wave–Particle Duality) المبدأ الجوهري في ميكانيكا الكم الذي ينص على أن الكيانات الأساسية (كالضوء والمادة) تظهر خصائص موجية وجسيمية، اعتماداً على ظروف التجربة.

28. تجربة الشق المزدوج :(Double–Slit Experiment) التجربة التأسيسية التي تُظهر ازدواجية الموجة–الجسيم بشكل دراماتيكي: حيث تُظهر الجسيمات المفردة نمط تداخل موجي ما لم يتم رصد مسارها، وعندها تتصرف كجسيمات.

29. مبدأ التكامل – (Complementarity Principle Bohr): وجهتا النظر الموجية والجسيمية لظاهرة كمومية ما هما وصفان متكاملان، لا يمكن ملاحظتهما معاً في الوقت نفسه، لكنهما معاً يستنفدان كل المعلومات الممكنة عنها.

30. التأثير الكهروضوئي :(Photoelectric Effect) ظاهرة تحرير الإلكترونات من سطح معدني عند سقوط ضوء عليه. فسرها أينشتاين باقتراح أن الضوء مكون من حزم طاقة منفصلة (فوتونات).

31. فرضية دي برولي :(De Broglie Hypothesis) اقتراح أن للمادة (مثل الإلكترونات) خصائص موجية، يرتبط طول موجتها بزخم الجسيم.

32. الترابط / التشابك الكميّ (Quantum Entanglement): حالة كمومية حيث يكون جسيمان أو أكثر مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن وصف حالة أحدهما بشكل مستقل عن الآخر، حتى عند الفصل بينهما مسافات شاسعة.
33. اللا-محليّة (Nonlocality): الخاصية التي يظهرها التشابك الكمّي، حيث يبدو أن القياس على جسيم مترابط يؤثر فورياً على حالة شريكه، وهو أمر لا يمكن تفسيره بنظريات "المتغيرات الخفية المحلية" كما أثبتت تجارب "بيل."
34. فعل "شبحي عن بُعد" (Spooky Action at a Distance): التعبير الذي استخدمه أينشتاين لوصف التشابك الكمّي، معبراً عن استغرابه من طابعه اللا-محلي الذي يبدو أنه يتحدى الحدود السببية الكلاسيكية.
35. انهيار الدالة الموجية (Wave Function Collapse): التغير المفاجئ في الدالة الموجية لنظام كمّي عند إجراء قياس، حيث "ينهار" تراكب الحالات إلى حالة واحدة محددة.
36. مشكلة القياس / تأثير الراصد (Measurement Problem / Observer Effect): اللغز المركزي في تفسير ميكانيكا الكم حول كيفية ولماذا يؤدي فعل القياس أو المراقبة إلى انهيار الدالة الموجية وتحديد الواقع.
37. الحوسبة الكمّية (Quantum Computing): استخدام الخواص الكمومية مثل التراكب والتشابك لمعالجة المعلومات، مما يعد بإمكانية حل مسائل معقدة بسرعة تفوق الحواسيب التقليدية بكثير.
38. التشفير الكمّي (Quantum Cryptography): استخدام مبادئ ميكانيكا الكم (كالتشابك) لإنشاء قنوات اتصال آمنة رياضياً، حيث أن أي محاولة للتجسس ستُكتشف حتماً.
39. الانتقال الكمّي (Quantum Teleportation): عملية تستخدم التشابك لنقل الحالة الكمومية لجسيم إلى جسيم بعيد، دون نقل المادة نفسها.

القسم الثالث: الوعي، النماذج التفسيرية، والأنطولوجيا

44. نموذج الوعي كحقل أساسي (Consciousness as a Fundamental Field): النظرة التي ترى الوعي ليس نتاجاً ثانوياً

للمادة (الدماغ)، بل حقيقة أولية أو حقل كوني أساسي، قد يكون الدماغ مجرد مستقبل أو مُعدِّل له.

45. الدماغ كمستقبل :(Brain-as-Receiver) نموذج ضمن الإطار السابق، يشبه دور الدماغ باستقبال الإذاعة، حيث "يستقبل" الوعي من مجال أوسع بدلاً من أن يكون هو المولد.
46. النموذج الهولوغرافي (Holographic Model – Pribram & Bohm): نموذج يقترح أن الدماغ يعالج المعلومات بطريقة هولوغرافية، وأن الواقع نفسه قد يكون إسقاطاً لمعلومات مخزنة على سطح ثنائي الأبعاد.
47. نظرية الاختزال الموضوعي المنظَّم – Orch-OR) (Penrose/Hameroff): فرضية مثيرة للجدل تربط نشوء الوعي بعمليات كمومية تحدث داخل الأنابيب الدقيقة في الخلايا العصبية.
48. المبدأ الهولوغرافي :(Holographic Principle) فكرة فيزيائية نظرية تنص على أن كل المعلومات اللازمة لوصف منطقة من الفضاء يمكن تمثيلها على حدوده (سطحه) ثنائي الأبعاد.
49. الوحدة المتكثرة :(Multiplicity-in-Unity) الفكرة الفلسفية-الأنطولوجية التي ترى أن الكثرة والتعدد في العالم ليست نقيضاً للوحدة، بل هي تعبير وتجلٍّ لوحدة أساسية كامنة.
50. البنية :(Structure) الماهية التنظيمية التي تحدد الإمكانيات والوظائف ومسار الاستقرار أو الفوضى في أي نظام، سواء كان ذرة، كائناً حياً، أو مجتمعاً.
51. الأنطولوجيا التبادلية :(Relational Ontology) النظرة التي ترى أن الوجود ليس مكوناً من "أشياء" ثابتة، بل من شبكات من العلاقات والعمليات الديناميكية.
52. قانون التناسب :(Law of Proportion) المبدأ الذي ينص على أن استقرار أي نظام يرتبط بتناسب وتوازن القوى الداخلية المكونة له.
53. الوعي الكوني :(Cosmic Consciousness) فكرة أن الوعي ليس حكراً على الكائنات الفردية، بل هو بُعد أساسي أو حقل يشمل الكون، والعقول الفردية هي تجليات له.
54. المرايا الوجودية :(Ontological Mirrors) فكرة أن كل مستوى من مستويات الوجود (مثلاً: الإنسان، الطبيعة، الكون) يعكس بنية وعلاقات المستويات الأخرى، مُظهراً تناسقاً كونياً.
55. الذات المتوهمة :(Illusory Self) الفكرة القائلة بأن الإحساس بالفردية المنفصلة والثابتة (الأنا) هو بناء ذهني-عصبي وظيفي، وليس جوهراً مطلقاً.

56. الوعي المجزأ (Fragmented Consciousness): حالة ذهنية تنشأ من التدفق المستمر للمحفزات والمعلومات، حيث يفقد العدم قدرته على التركيب والربط، مما يؤدي إلى تشتت وفقدان المعنى.

57. التنافر الوجودي (Existential Dissonance): حالة من الصراع الداخلي والقلق تنشأ من التناقض بين تصورات الذات عن "ما يجب أن تكون" وبين واقع التجربة الفعلية.

58. الحضور (Presence): القدرة على تركيز الوعي في لحظة "الآن" الحالية، بعيداً عن الشرود في الماضي أو القلق من المستقبل، وهي مرتبطة بالاتزان الذهني.

59. المرونة الوجودية (Existential Resilience): قدرة الكائن على استعادة الاتزان والتماسك النفسي والمعنوي بعد التعرض لصدمات أو أزمات وجودية.

60. إعادة الاتزان (Re-Equilibration): العملية الديناميكية التي يعود من خلالها نظام ما (نفسي، اجتماعي، بيئي) إلى حالة من الاستقرار والانسجام بعد مرحلة من الاضطراب أو الاختلال.

القسم الرابع: النموذج الأخلاقي-الاجتماعي: الجلوباليبريوم وأخلاقيات التوازن

64. الجلوباليبريوم (Globalibrium): النموذج المقترح للتنظيم العالمي الذي يجمع بين "الوظيفة العالمية الموحدة" (في مجالات البقاء كالمناخ والطاقة) و"التنوع الثقافي المحلي الحر". يهدف إلى تحقيق توازن ديناميكي عالمي.

65. أخلاقيات التوازن (Equilibrium Ethics): الإطار الأخلاقي الذي يجعل "الحفاظ على التوازن" معياراً للخير، و"إحداث الاختلال" معياراً للشر، على مستوى الفرد، المجتمع، والنظام البيئي.

66. الشر كاختلال (Evil as Disequilibrium): التعريف الوظيفي للشر على أنه أي فعل أو نظام يخرق توازن الحياة والمجتمع والطبيعة، ويسرع عمليات الانهيار.

67. الخير كاتزان (Good as Equilibrium): التعريف الوظيفي للخير على أنه ما يعزز الاستقرار والانسجام والاستدامة في الأنظمة المختلفة.

68. العدالة كاتزان (Justice as Equilibrium): نظرة إلى العدالة على أنها حالة من الاستقرار الديناميكي داخل المجتمع تتحقق عندما تتناسب الحقوق والواجبات والفرص، وليس مجرد تطبيق قواعد قانونية.

69. السيادة الوظيفية :(Functional Sovereignty) مفهوم يعيد تعريف سيادة الدولة بقدرتها على حماية الوظائف الحيوية لشعبها (كالأمن الغذائي والمائي والبيئي والصحي)، بدلاً من التركيز على الحدود السياسية فقط.

70. الاقتصاد الحيوي :(Biocentric Economy) نموذج اقتصادي يضع استدامة الحياة والأنظمة البيئية في مركز القرار، معاكساً للنموذج الرأسمالي الاستخراجي القائم على الربح اللانهائي.

71. الأمن البيئي :(Ecological Security) الاعتراف بأن أكبر التهديدات للأمن القومي والعالمي في العصر الحديث هي بيئية (كالتغير المناخي، ندرة المياه، فقدان التنوع الحيوي).

72. الفوضى النظامية :(Systemic Chaos) حالة من الفوضى والاضطراب لا تنشأ من غياب النظام، بل من تفاعلات معقدة داخل النظام نفسه تدفعه إلى مرحلة جديدة يصعب التنبؤ بسلوكها.

73. نقطة التحول :(Tipping Point) اللحظة الحرجة في نظام معقد حيث يؤدي تغير صغير إلى تغير جذري وكبير في حالة النظام، قد يكون غير قابل للعودة.

74. الاستدامة الأخلاقية :(Moral Sustainability) مبدأ أن الاستدامة الحقيقية لأي نظام تتطلب أساساً أخلاقياً يحترم الحياة والمستقبل والإنسان، وليست مجرد حلول تقنية.

75. الحرية كاتزان :(Freedom as Equilibrium) مفهوم الحرية ليس كالقدرة المطلقة على الفعل، بل كالقدرة على الفعل ضمن إطار يحافظ على توازن النظام (الاجتماعي، البيئي) الذي يضمن استمرارية الحرية نفسها.

76. القوة الخامسة :(The Fifth Force – Free Will) الإرادة الحرة للإنسان، المُتصورة في هذا النموذج كقوة متميزة (مكملة للقوى الفيزيائية الأربع) مصدرها مجال الوعي، تسمح بإعادة توجيه المسار وتحدي الحتميات الجزئية.

77. الوعي السياسي :(Political Consciousness) الوعي ببنية القوة وتدفقاتها وتأثيرها الخفي في المجتمع، والانتقال من دور المواطن المتلقي إلى المواطن القادر على تحليل النظام وفهم آليات عمله.

78. الفصام الحضاري :(Civilizational Schism) التناقض الحاد بين التقدم التقني الهائل للإنسانية وبين تراجعها الأخلاقي والروحي، مما يخلق شرخاً يهدد استقرار الحضارة.

79. عصر اللا-توازن (**Age of Disequilibrium**): الوصف التاريخي للفترة الحالية التي تشهد فيها الأنظمة الرئيسية (المناخية، السياسية، الاقتصادية، التقنية) اختلالات بنيوية عميقة وتهديدات بالانهيار.

80. مستوى البقاء (**The Survival Layer**): في نموذج الجلوباليبريوم، هي الطبقة العالمية المشتركة المسؤولة عن إدارة الوظائف الحيوية غير القابلة للتفاوض التي تضمن استمرارية الحضارة (كالمناخ، المياه، الصحة العالمية).

81. المستوى الثقافي (**The Cultural Layer**): في نموذج الجلوباليبريوم، هي الطبقة المحلية الحرة حيث تزدهر الهويات، اللغات، الأديان، الفنون، والأنظمة السياسية المتنوعة، ضمن الحدود التي لا تهدد مستوى البقاء.

82. النافذة الزمنية (**The Temporal Window**): الفترة الزمنية المحدودة والمتاحة أمام البشرية لاتخاذ الإجراءات الجماعية الحاسمة لإعادة التوازن للأنظمة العالمية قبل أن تصبح الانهيارات ذاتية التعزيز ولا رجعة فيها.

83. إرادة الاتزان (**The Will to Equilibrium**): الدافع النفسي والأخلاقي الفطري لدى الأفراد والمجتمعات للسعي نحو الاستقرار، والانسجام، والاستدامة، وهو ما يراه النموذج كطاقة محركة أساسية للتغيير الإيجابي.

شرح مختصر لبعض المصطلحات الأساسية والمفاهيم المتعلقة بها

1. ازدواجيّة الموجة–الجسيم Wave–Particle Duality

ازدواجيّةُ الموجة–الجسيم مفهومٌ جوهريّ في ميكانيكا الكمّ ينصّ على أنّ كلّ كيانٍ أساسيّ في الكون يُظهِر خصائصَ الموجات وخصائصَ الجسيمات معًا، تبعًا لنوع التجربة. هذا يعني أنّ المفاهيم الكلاسيكيّة لـ "موجة" و"جسيم" لا تكفي وحدها لوصف سلوك الأجسام الكمّيّة.

الضوء كموجة: عُدّ تاريخيًّا ظاهرةً موجيّة (تُثبِت ذلك تجاربُ التداخُل والحيود)، ثمّ تبيّن أيضًا أنّه يتصرّف كحزمٍ (فوتونات) لتفسير التأثير الكهروضوئيّ والإشعاع الجسميّ الأسود.

المادّة كموجة: الجسيماتُ التي نعتبرها عادةً "كتليّة" (إلكترونات، ذرات، جزيئات) تُظهِر سلوكًا موجيًّا، كما برهنت تجارب حيود الإلكترونات.

مبدأ التكامل:(Bohr's Complementarity) يرى بور أنّ صِفَتَيّ "الموجة" و"الجسيم" وجهان متكاملان لكيانٍ كمّيّ واحد؛ لا يمكن رصدهما معًا في التجربة نفسها. طريقة القياس هي التي تُحدِّد أيَّ جانبٍ يظهر.

تجربة الشقّين المزدوجين The Double–Slit Experiment :

تجربةُ الشقّين من التجارب التأسيسيّة في ميكانيكا الكمّ، تُظهِر أنّ الضوء والمادّة يمكن أن يتصرّفا كموجاتٍ وجسيماتٍ معًا، وتُجسِّد لغز ازدواجيّة الموجة–الجسيم الذي وصفه فاينمان بأنّه "اللغز الوحيد الحقيقيّ" في هذا الحقل.

كيف تعمل التجربة؟

تتكوّن التجربة عادةً من: مصدرٍ (لضوء، أو إلكترونات، أو ذرات)

حاجزٍ يحوي شقّين متوازيين،

وشاشةٍ خلف الحاجز تسجّل ما يصل إليها.

مع جسيماتٍ كلاسيكيّة (كرمالٍ أو رصاصات صغيرة) :إذا أُطلقت الجسيماتُ على الحاجز، سيصطدم معظمها بالجدار، وسيعبر البعض من الشقّين، مكوِّنًا على الشاشة خلفهما نطاقين مطابقين لمواضع الشقّين.

مع موجات (كالأمواج المائيّة أو موجات الضوء): بعد عبور الشقّين تنتشر الموجات وتتداخَل؛ حيث تلتقي القِمَمُ مع القِمَم يحدث تعزيز (تداخُل بنّاء)، وحيث تلتقي القِمَمُ مع القيعان يحدث إلغاء (تداخُل هدّام). ينتج عن ذلك نمطُ أشرطةٍ متناوبة على الشاشة.

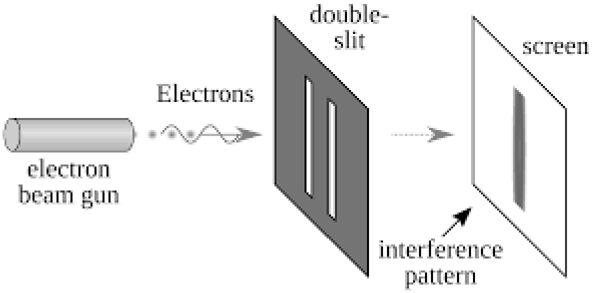

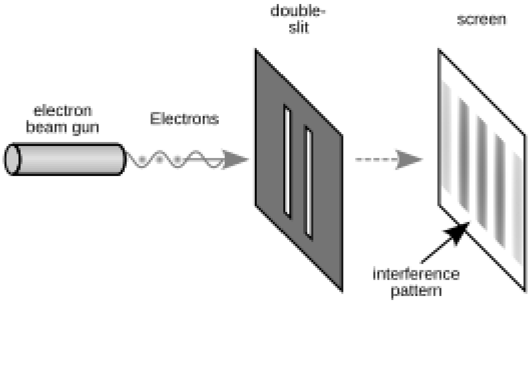

اللغز الكمّي: عندما تُجرى التجربةُ بجسيماتٍ كمّيّة مثل الفوتونات أو الإلكترونات:

إرسال الجسيمات واحدًا واحدًا (من دون رصد المسار): يُرسَل كلُّ جسيمٍ منفردًا نحو الشقّين. يصل كلّ واحدٍ إلى الشاشة كـ "نقطة" مفردة (سلوك جسيم)، لكن مع مرور الوقت تتراكم هذه النقاط لتشكّل نمطَ تداخُلٍ موجيّ .هذا يدلّ على أنّ الجسيم الواحد يتحرّك كدالّة موجيّة من الاحتمالات ويتداخَل مع نفسه.

وضع رصّادٍ لمعرفة أيّ شقّ عبره الجسيم :عند وضع كواشف على الشقّين لمعرفة المسار الذي يسلكه كلّ جسيم، يختفي نمطُ التداخُل بالكامل، ويظهر على الشاشة نطاقان فقط كما في حالة الجسيمات الكلاسيكيّة. مجرّد "معرفة المسار" يغيّر سلوك النظام من موجةٍ إلى جسيم.

هذه التجربة تُجسّد جوهرَ الغموض الكمّي: ما نختار أن نقيسَه يحدّد ما الذي يظهر من طبيعة الواقع.

تجربة الشقّين مع جسيمٍ واحد غير مُراقَب **Observer Effect**

أهمّيّة النتيجة :تُجسِّد تجربة الشقّين مبدأ التكامل في ميكانيكا الكمّ: النظام الكمّي يمكن أن يتصرّف كموجة أو كجسيم، لكن لا يمكن أن يُظهِر السلوكين معًا في الإعداد التجريبيّ نفسه. مجرّد القياس (الرصد) يؤثّر في سلوك النظام ويفرض عليه حالةً محدَّدةً جسيميّة، فيُقال إنّ دالّته الموجيّة "انهارت". هذه النتيجة العميقة والمخالفة للحَدْس هي من مفاتيح فهم ميكانيكا الكمّ، وما زالت تُناقَش في صيغٍ وتجارب متطوّرة حتى اليوم.

التجربة ونتائجها بإطلاق جسيمٍ واحد في كلّ مرّة

إعداد التجربة :يُضبَط المصدر بحيث يُطلِق فوتونات أو إلكترونات بكثافةٍ منخفضة جدًّا، بحيث يكون في الجهاز جسيمٌ واحد في كلّ لحظة تقريبًا. يمرّ الجسيم عبر حاجزٍ فيه شقّان، ثمّ يصل إلى شاشةٍ كاشِفة خلف الحاجز.

الرصد الفرد: يظهر كلّ جسيمٍ منفرد على الشاشة كنقطةٍ محلّيّة صغيرة، مؤكّدًا الطابع "الجُسيميّ" في لحظة الكشف.

ظهور النمط: مع تراكم آلاف وآلاف النقاط الفرديّة، يتشكّل تدريجيًّا نمطُ تداخُلٍ موجيّ :أشرطةٌ مضيئة وأخرى معتمة، أي مناطقُ عالية الاحتمال وأخرى منخفضةً الاحتمال لوصول الجسيمات.

دلالات أساسيّة : التداخُل مع الذات:بما أنّ الجهاز لا يحوي إلا جسيمًا واحدًا في كلّ مرّة، لا يمكن تفسير نمط التداخُل عبر "اصطدام الجسيمات ببعضها". إنّما ينتشر "الاحتمال" (الدالّة الموجيّة للجسيم) عبر الشقّين معًا، ويتداخَل مع نفسه، ثمّ لا يظهر الجسيم إلا كنقطةٍ واحدة عند الكشف.

مشكلة القياس Measurement or The Observer Effect

حين نضع كواشف عند الشقّين لمعرفة "من أيّ شقّ مرّ الجسيم"، يختفي نمطُ التداخُل مباشرةً، ويظهر نمطُ شريطين فقط. أي إنّ فعلَ الرصد نفسه يدمّر السلوك الموجيّ ويُجبِر النظام على سلوكٍ جُسيميّ. هذا هو لبّ "مشكلة القياس" في ميكانيكا الكمّ.

من هنا صارت تجربة الشقّين تُوصَف بأنّها "قلب ميكانيكا الكمّ"، لأنّها تُبيّن أن العالم الكمّي لا يمكن تفسيره بالكامل بحدس الفيزياء الكلاسيكيّة.

2. الإنتروبيا (Entropy)

الإنتروبيا مفهومٌ علميّ يرتبط عادةً بحالاتِ العشوائيّة أو الاضطراب أو عدم اليقين. استُخدِم المصطلحُ والمفهوم في مجالاتٍ متنوّعة، من الديناميكا الحراريّة الكلاسيكيّة – حيث تمّت ملاحظته أوّل مرّة – إلى الوصف المجهريّ للطبيعة في الفيزياء الإحصائيّة، وصولاً إلى مبادئ نظريّة المعلومات. وقد وجد تطبيقاتٍ بعيدة المدى في الكيمياء والفيزياء، وفي النُّظم البيولوجيّة وعلاقتها بالحياة، وفي علم الكونيات، والاقتصاد، وأنظمة المعلومات بما فيها نقلُ المعلومات في الاتّصالات.

تشكّل الإنتروبيا محورًا أساسيًّا في القانون الثاني للديناميكا الحراريّة، الذي ينصّ على أنّ إنتروبيا نظامٍ معزولٍ متروكٍ ليتطوّر تلقائيًّا لا يمكن أن تنقص مع الزمن. ونتيجةً لذلك، تتطوّر الأنظمةُ المعزولة نحو حالة الاتّزان الحراري، حيث تبلغ الإنتروبيا أعلى قيمة لها.

تشير "الإنتروبيا العالية" إلى أنّ الطاقةَ في حالةٍ أكثرَ تشتّتًا أو لاانتظامًا، بينما تعني "الإنتروبيا المنخفضة" أنّ الطاقةَ أكثرُ تركيزًا أو تنظيمًا. ومن نتائج القانون الثاني للديناميكا الحراريّة أنّ بعض العمليّات تكون لا انعكاسيّة بطبيعتها.

3. الزمكان (Spacetime)

الزمكان نموذجٌ رياضيّ يوحِّد الأبعادَ الثلاثة للمكان مع بُعد الزمن في متّصلٍ واحدٍ رباعيّ الأبعاد. في هذا الإطار، تُستبدل المفاهيمُ المنفصلة للمكان والزمان ككيانين مستقلّين بفكرة "نسيجٍ واحدٍ للواقع" يمكن أن يُشوَّه أو يتمطّط بفعل الكتلة والطاقة.

الحدث (Event) :

النقطة في الزمكان تُسمّى "حدثًا"، وتحتاج إلى أربع إحداثيّات لتحديدها (ثلاثة للمكان وواحد للزمن).

الجاذبيّة وتشبيه «نسيج» الزمكان

Gravity as a Curvature in Spacetime

يُستَخدم تشبيه «نسيج الزمكان» (كأنّه غشاء مطّاطي مشدود) كأداة بصريّة لتقريب فكرة الجاذبيّة في النسبيّة العامّة:

الانحناء والتشوّه:
الأجسام الكبيرة (كالأرض أو الشمس) تُحدِث «انبعاجًا» أو انحناءً في نسيج الزمكان حولها.

الحركة:
الأجسام الأخرى – بما فيها الكواكب وأشعّة الضوء – لا تُسحَب بقوّة خفيّة، بل تتّبع المسارات الطبيعيّة في هذا الانحناء، وهذا ما نُدرِكه نحن كـ «قوّة جاذبيّة». يشبه الأمر كرةً صغيرة تتدحرج على قماش منبعِج.

34. الأمواج الثقالية Gravitational Waves

عندما تتحرّك كتلٌ ضخمة أو تتصادم (الثقوب السوداء)، تُحدِث «تموّجات» في هذا النسيج (الزمكان) تُسمّى الأمواج الثقالية، تنتشر بسرعة الضوء ويمكن رصدها بأجهزة شديدة الحساسيّة مثل.LIGO

حدود هذا التشبيه:

35. الزمكان ليس مادّةً حقيقيّة يمكن لمسها، بل بنية رياضيّة–هندسيّة مجرّدة تُوصَف بمعادلات (هندسة ريمان الزائفة).

الرسم الشائع (صفحة ثنائيّة الأبعاد تنحني إلى أسفل) تبسيط؛ فالانحناء الحقيقيّ يحدث داخل فضاء–زمن رباعيّ الأبعاد، لا داخل «خارج» مسطح

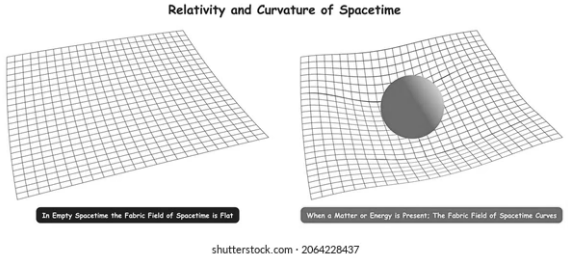

النسبيّة العامّة تفترض زمكانًا أملسَ مستمرًّا، بينما تشير محاولات الجَمْع بين النسبيّة وميكانيكا الكمّ إلى أنّ الزمكان قد يكون «كمومي» أو حبيبيًّا على مقاييس شديدة الصِغَر، وإنْ كان هذا لم يُثبَت تجريبيًّا بعد.

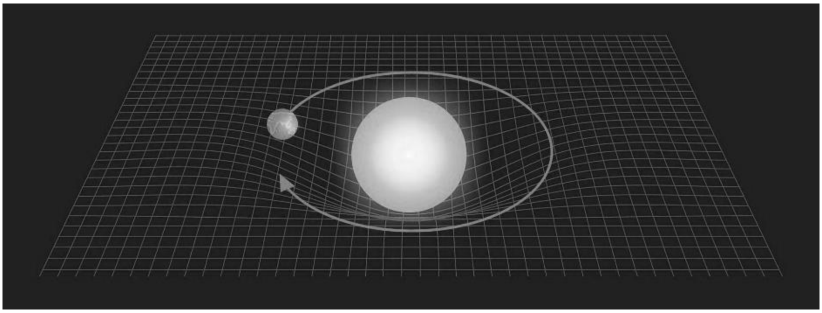

باختصار: تشبيه «نسيج الزمكان» مفيد للتخيّل، لكن الواقع الفيزيائي أعمق وأدقّ من استعارة القماش أو المطّاط.

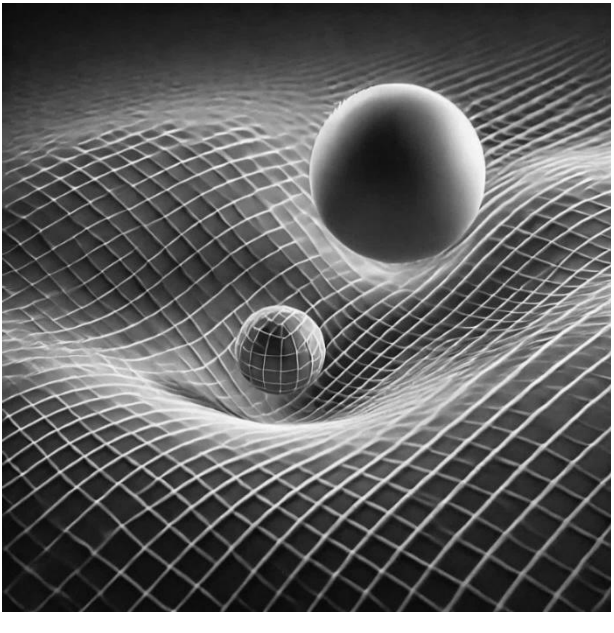

الموجات الثقاليّة (Gravitational Waves)

4. الموجاتُ الثقاليّة تموّجاتٌ في نسيج الزمكان، تُسبّبها أحداثٌ كونيّةٌ عنيفة مثل اندماج الثقوب السوداء أو تصادم النجوم النيوترونيّة.

تنبّأ بوجودها أينشتاين في نظريّة النسبيّة العامّة، وتنتشر بسرعة الضوء، فتقوم بتمطيط الزمكان وانضغاطه أثناء مرورها.

أدّى رصدُ هذه الموجات غير المرئيّة – لأوّل مرّة بواسطة مرصديّ LIGO عام 2015 – إلى فتح نافذةٍ جديدةٍ لمراقبة الكون ودراسته.

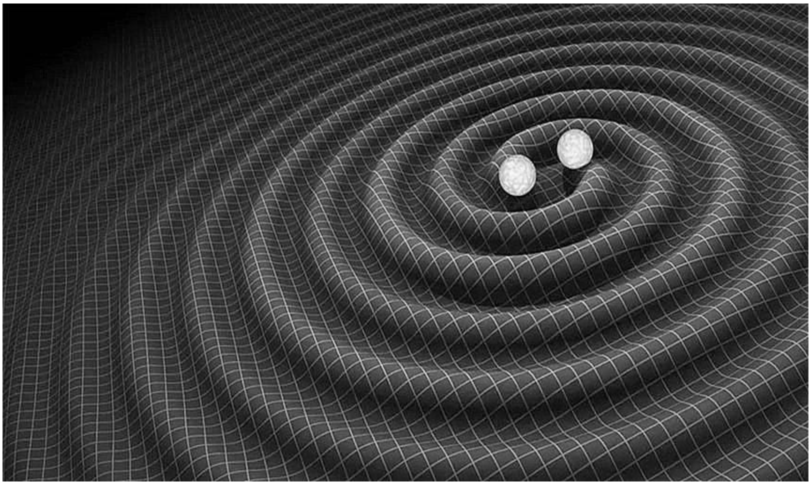

5. "محور الشر" الكوني(Axis of Evil)

يستخدم مصطلح "محور الشر" للإشارة إلى الشذوذ في الملاحظات الفلكية لإشعاع الخلفية الكونية الميكروي ((CMB، ويبدو أن هذا الشذوذ يعطي –

مستوى المجموعة الشمسية وبالتالي موقع الأرض – أهميةً أكبر مما قد يكون متوقعًا، وهي نتيجة يبدو أنها تتعارض مع توقعات مبدأ كوبرنيكوس. يقدم إشعاع الخلفية الكونية الميكروي رؤية مباشرة واسعة النطاق للكون يمكن استخدامها لتحديد ما إذا كان لموقعنا أو حركتنا أي أهمية خاصة. حظيت تحليلات نتائج مسبار ويلكينسون لقياس التباين الميكروي ومرصد بلانك بشهرة إعلامية واسعة؛ إذ أظهر كلًا منهما تباين الخواص المتوقع وغير المتوقع لإشعاع الخلفية الكونية الميكروي .تتوافق حركة النظام الشمسي واتجاه مستوى المسار الشمسي مع سمات سماء الموجات الميكروية التي تنتج –في التفكير الاعتيادي– عن وجود بنية على حافة الكون المرئي .على وجه التحديد، فيما يتعلق بمستوى مسار الشمس، يكون «النصف العلوي» من إشعاع الخلفية الكونية الميكروي أبرد قليلًا من النصف السفلي. إضافةً إلى ذلك، فإن المحاور رباعي وثماني الأقطاب ليست سوى على بعد بضع درجات، وتتماشى هذه المحاور مع الانقسام العلوي/ السفلي :اقتُبِسَ عن لورانس كراوس في مقال نشر في عام 2006 على موقع إيدج ما يلي:

"لكن عندما تنظر إلى خريطة إشعاع الخلفية الكونية الميكروي، سترى أيضًا أن البنية التي يتم ملاحظتها، هي في الواقع مرتبطة بطريقة غريبة بمستوى الأرض حول الشمس. هل يعود كوبرنيكوس ليطاردنا؟ هذا جنون. نحن نبحث في الكون كله. لا ينبغي أن يكون هناك أي ارتباط بنيوي لحركة الأرض حول الشمس – مستوى الأرض حول الشمس–. هذا سيقول إننا حقًا مركز الكون."

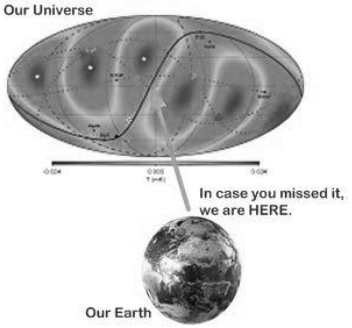

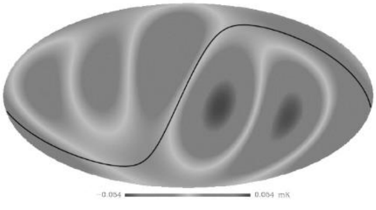

لورانس كراوس: "لكن عندما تنظر إلى خريطة إشعاع الخلفية الكونية الميكروي، سترى أيضًا أن البنية التي يتم ملاحظتها، هي في الواقع مرتبطة بطريقة غريبة بمستوى الأرض حول الشمس. هل يعود كوبرنيكوس ليطاردنا؟ هذا جنون. نحن نبحث في الكون كله. لا ينبغي أن يكون هناك أي ارتباط بنيوي لحركة الأرض حول الشمس – مستوى الأرض حول الشمس–. هذا سيقول إننا حقًا مركز الكون."

تفسيرات مطروحة:

4. مصادفة إحصائيّة نادرة:
التفسير الذي يميل إليه كثيرٌ من الكوسمولوجيّين: احتمال ضئيل لكن غير مستحيل، خصوصًا أنّ بقيّة البيانات الكونيّة تدعم النموذج القياسي بقوّة.
5. عيوب رصد أو معالجة بيانات:
قد تكون هناك آثارٌ متبقّية من مجرّتنا أو أخطاء منهجيّة في فصل «الضوضاء» الأماميّة عن إشعاع الخلفية، فتخلق نمطًا زائفًا للمحاذاة.
6. فيزياء جديدة:
لو ثبت أنّ هذه المحاذاة حقيقيّة عميقة، فقد تعني أنّ الكون ليس متطابق الخواص تمامًا على أكبر المقاييس، أو أنّ هناك بنيةً كونيّةً واسعة النطاق (مجال مغناطيسي كوني، دوران للكون، إلخ). لكن حتى الآن تبقى هذه الاحتمالات في حيّز الفرض.

حتى اللحظة، يظلّ «محور الشر» لغزًا إحصائيًّا مثيرًا، لا يكفي وحده لإسقاط النموذج الكونيّ القياسي، لكنه يذكّرنا بتواضع معرفتنا وفجوات فهمنا للبُنى الكونيّة الأكبر.

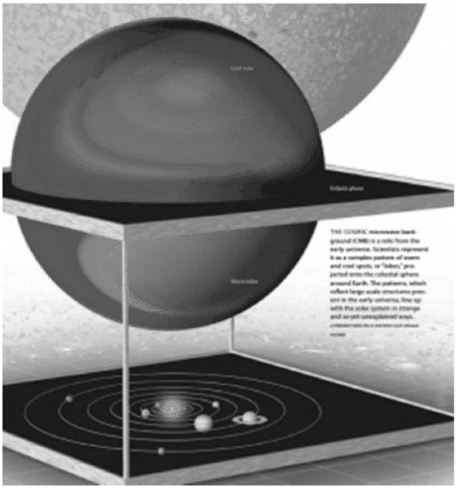

لورانس كراوس: "لكن عندما تنظر إلى خريطة إشعاع الخلفية الكونية الميكروي، سترى أيضًا أن البنية التي يتم ملاحظتها، هي في الواقع مرتبطة بطريقة غريبة بمستوى الأرض حول الشمس. هل يعود كوبرنيكوس ليطاردنا؟ هذا جنون. نحن نبحث في الكون كله. لا ينبغي أن يكون هناك أي ارتباط بنيوي لحركة الأرض حول الشمس – مستوى الأرض حول الشمس–. هذا سيقول إننا حقًا مركز

6. مفهوم «الواحد» و«الوحدة» – ومفهوم «المساواة» في الفيزياء

أوّلًا: "الواحد" و"الوحدة"

في الرياضيات والفيزياء، «الواحد» ليس مجرد رقم، بل بنية مرجعيّة:

الواحد كمُعرِّف للضرب:(Multiplicative Identity)
أيّ كميّة تُضرَب في 1 تبقى كما هي؛ لذلك يُسمّى 1 "وِحدة" (Unity) وغالبًا ما يُستَخدم لترميز الكلّ أو الإشباع أو المعيار

الوَحَدة في ميكانيكا الكمّ:(Unitarity)
من مسلّمات ميكانيكا الكمّ أن مجموع احتمالات كلّ النتائج الممكنة لقياسٍ معيّن يجب أن يساوي 1 بالضبط. هذه الوحدة تضمن حفظ الاحتمال عبر تطوّر الزمن، أي أنّ الكون لا «يفقد» احتمالاته ولا «يكتسبها» من خارجِ النظام

الوحدات الطبيعيّة:($c = 1$, $\hbar = 1$)
في فيزياء الجسيمات والكون المبكّر، يُختار نظام وحدات تُضبَط فيه ثوابت

أساسيّة – مثل سرعة الضوء c وثابت بلانك المخفَّض – ħ لتساوي 1. هذا يجعل المعادلات أنظف، ويبيّن أنّ ما يهمّ حقًّا هو النِّسَب والعلاقات، لا الأرقام الخام.

من الواحد الرياضي إلى «الوحدة» الفلسفيّة:

الفكرة القديمة الكلّ واحد (Monism)تجد صدًى في بعض قراءات الفيزياء الحديثة:

الترابط الكمّي :يوحي – مجازيًّا على الأقل – بأنّ أجزاء الكون ليست منفصلة بالكامل، بل تنتمي إلى حالةٍ كليّة متشابكة.

السعي إلى نظريّة كلّ شيء :(TOE) البحث عن إطار يوحِّد القوى الأربع الأساسيّة في معادلة واحدة هو تعبير فيزيائي عن توقٍ عميق إلى «وحدة» القوانين والواقع.

7. الترابط الكمّي واللا–محليّة (Entanglement & Nonlocality)

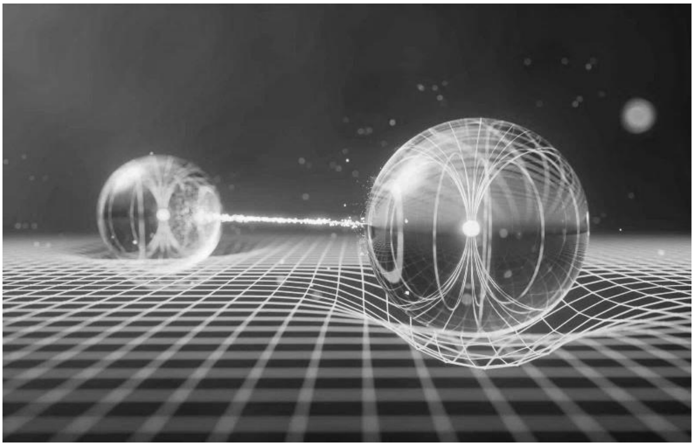

اللا–محليّة هي النتيجة التجريبيّة المترتّبة على الترابط، والتي تُظهِر أنّ الارتباطات بين القياسات لا يمكن تفسيرها وفق تصوّر "الواقعيّة المحليّة" الكلاسيكيّة (**Local Realism**)

مع ذلك، لا يمكن استغلال هذه اللا–محليّة لنقل معلومة أسرع من الضوء؛ إذ تبقى نتائج القياس فرديًّا عشوائيّة، ولا يظهر "النمط" إلا عند مقارنة بيانات الطرفين لاحقًا.

8. نماذج الوعي كحقل كونيّ أو واقعٍ أساسي

(Consciousness as Fundamental Field)

هناك طيفٌ من الرؤى الفلسفيّة–العلميّة يقترح أنّ الوعي ليس مجرّد "منتَج ثانويّ" لنشاط الدماغ، بل جانبٌ أساسيّ من نسيج الوجود نفسه، والدماغ يعمل كمستقبِل أو مُرشِّح، لا كخَالِق للوعي.

الفكرة المركزيّة :الدماغ كمستقبِل:(**Receiver**)
بدلاً من أن "يُنتِج" الوعي، يقوم الدماغ بـ "التقاطه" أو "تعديله"، كما تستقبلُ أجهزةُ الراديو الإشارة من برج بثّ.

استقلاليّة الوعي عن المادّة:
وفق هذا الطرح يمكن للوعي (أو مستوى ما منه) أن يوجد مستقلًّا عن الدماغ والجسم، وهذا يَصطدم بالرؤية المادّيّة الصرفة التي ترى أن العقل هو ذاته الدماغ **mind = brain**

الارتباط بالفيزياء الكمّيّة:
يُستعان أحيانًا بتشبيهاتٍ من التشابك الكمّي واللا–محليّة لتصوّر "ترابطٍ كونيّ" للوعي، إذ يبدو الكون، على المستوى الأعمق، أقلّ "تجزّؤًا" ممّا توحي به المسافات الكلاسيكيّة.

الوعي كواقعٍ أساس:
في بعض النماذج، يُعَدّ الوعي أكثرَ جوهريّة من المادّة والزمكان؛ فينشأ الكون الفيزيائيّ من الوعي، لا العكس.

نماذج مطروحة:

نظرية الاختزال الموضوعي المنظَّم – (Orch-OR) بنروز/هامِروف:
تفترض وجود عمليّات كمّيّة في الميكروتيبيلات العصبيّة تشارك في نشوء الخبرة الواعية.

النموذج الهولوغرافي:(Pribram & Bohm) –
يقترح أنّ الدماغ يتعامل مع معلوماتٍ صادرة عن "واقعٍ هولوغرافيّ" لا محليّ، وأنّ الوعي جزء من مجالٍ أوسع.

المثاليّة التحليليّة:(Bernardo Kastrup) –
ترى أنّ الوعي الكونيّ هو "الجوهر الأوّل"، وأنّ العقول الفرديّة ليست سوى "تخصّصات" أو "انفصالات" محلّيّة داخل هذا الوعي الواحد.

بانسايكِيّة:(Panpsychism)

منظورٌ فلسفيّ يعتبر أنّ "بذور الخبرة" موجودة بدرجاتٍ بدائيّة في اللبنات الأساسيّة للوجود (الجسيمات، الحقول)، وتتراكب وتتجمّع لتكوِّن الوعي المعقّد عند الكائنات الحيّة.

9. الثوابت الفيزيائية: هي قيم أساسية لا تتغير تحدد قوانين الكون وبنيته (مثل سرعة الضوء c، ثابت بلانك h، الجاذبية G)، وهي ترتبط بـ" التصميم الدقيق "أو" التوافق الدقيق للكون، حيث أن أي تغيير طفيف فيها يمنع وجود الحياة المعقدة أو النجوم والمجرات كما نعرفها، مما يشير إلى "بنية واقع مسموح به (Fine-tuned Reality) " يسمح للكون بأن يكون قابلاً للسكن، وتلعب هذه الثوابت دور مفتاح لفهم النظام الكوني العميق وانسجامه المذهل.

الثوابت الفيزيائية الأساسية وأهميتها

- الثوابت الكونية الستة (حسب مارتن ريس):
  - N: نسبة القوة الكهرومغناطيسية للجاذبية، تحدد حجم النجوم واستمراريتها.
  - ε) إبسيلون :(كفاءة الاندماج النووي، ضرورية لتكوين العناصر الثقيلة.
  - Ω) أوميجا :(معامل كثافة الكون، يؤثر على تمدده ومصيره.
  - Λ) لامدا :(الثابت الكوني (الطاقة المظلمة)، يحدد تسارع تمدد الكون.
  - Q: نسبة طاقة الجاذبية اللازمة لتكوين المجرات، تؤثر على تشكل النجوم.
  - D: عدد الأبعاد المكانية (3 أبعاد)، ضروري لوجود الحياة.
- ثوابت أخرى هامة:
  - c) سرعة الضوء :(الحد الأقصى للسرعة في الكون.
  - h) ثابت بلانك :(يربط الطاقة بالتردد في عالم الكم.
  - G) ثابت الجاذبية :(يحدد قوة الجاذبية بين الأجسام.
  - π (باي) و e: ثوابت رياضية تظهر في قوانين الدورة والنمو .

بنية الواقع المسموح به (**Fine-Tuned Reality**)

- يشير هذا المفهوم إلى أن قيم الثوابت الكونية مضبوطة بدقة متناهية، فلو اختلفت قليلاً، لما وجدنا كوناً يمكن أن تتطور فيه الحياة.
- هذه "الضبط" يثير تساؤلات فلسفية حول ما إذا كان الكون مصمماً، أو أنه مجرد احتمال واحد من بين أكوان متعددة.(**Multiverse Theory**)
- تُستخدم هذه الثوابت كـ "نوتات أساسية" في "سيمفونية الوجود" التي تنسج قوانين الطبيعة وتحدد حدود الواقع القابل للسكن، كما يصفها .

هل الثوابت تتغير؟

- أفضل القياسات الحالية تشير إلى أن هذه الثوابت ثابتة بالفعل ولا تتغير عبر الزمن، رغم أن بعض الأبحاث تدرس احتمالية تغيرها البسيط جداً (جزء من **10^10** إلى **10^11** سنويًا)، حتى الآن لا يوجد دليل على ذلك .

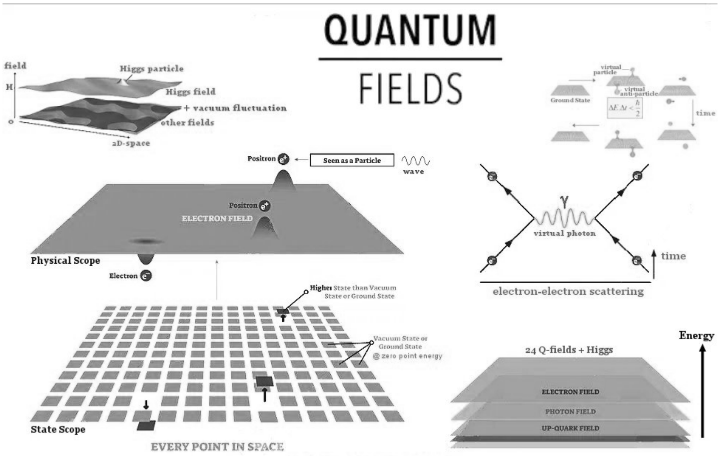

2-D Quantum Fields

Hierarchy of Fine-Structure Constants

Constants of Standard Models of particle physics and cosmology, taken from Reference [8]. Note that the electric, weak and strong coupling constants indicated are different from the low-energy definitions of Eqs. (2.1), (2.5), and (2.6).

Quantity	Symbol	Value in our universe
Speed of light	c	$299{,}792{,}458$ m s^{-1}
Gravitational constant	G	6.673×10^{-11} m^3 kg^{-1} s^{-2}
(Reduced) Planck constant	$\hbar$	$1.05457148 \times 10^{-34}$ m^2 kg s^{-1}
Planck mass-energy	$m_{Pl} = \sqrt{\hbar c/G}$	1.2209×10^{22} MeV
Mass of electron; proton; neutron	m_e; m_p; m_n	0.511; 938.3; 939.6 MeV
Mass of up; down; strange quark	m_u; m_d; m_s	(Approx.) 2.4; 4.8; 104 MeV
Ratio of electron to proton mass	β	$(1836.15)^{-1}$
Gravitational coupling constant	$\alpha_G = m_p^2/m_{Pl}^2$	5.9×10^{-39}
Hypercharge coupling constant	α_1	1/98.4
Weak coupling constant	α_2	1/29.6
Strong force coupling constant	$\alpha_s = \alpha_3$	0.1187
Fine structure constant	$\alpha = \frac{\alpha_1\alpha_2}{\alpha_1+\alpha_2}$	1/127.9 (1/137 at low energy)
Higgs vacuum expectation value	v	246.2 GeV
QCD scale	Λ_{QCD}	≈ 200 MeV
Yukawa couplings	$\Gamma_i = \sqrt{2}m_i/v$	Listed in [82]
Hubble constant	H	71 km/s/Mpc (today)
Cosmological constant (energy density)	Λ (ρ_Λ)	$\rho_\Lambda = (2.3 \times 10^{-3} eV)^4$
Amplitude of primordial fluctuations	Q	2×10^{-5}
Total matter mass per photon	ξ	≈ 4 eV
Baryonic mass per photon	ξ_{baryon}	≈ 0.61 eV

Astrophysical Data

1 astronomical unit	AU	1.496×10^{11} m
1 parsec	pc	3.086×10^{16} m
Luminosity of Sun	$L_\odot$	3.85×10^{26} W
Mass of Sun	$M_\odot$	1.989×10^{30} kg
Radius of Sun	$R_\odot$	6.96×10^{8} m
Mass of Earth	M_E	5.9742×10^{24} kg
Radius of Earth	R_E	6.3781×10^{6} m

Other data and conversion factors

1 ångstrom	Å	10^{-10} m
1 fermi	fm	10^{-15} m
1 barn	b	10^{-28} m^2
1 pascal	Pa	1 Nm^{-2}
1 standard atmosphere		1.0132×10^{5} Pa
Standard acceleration due to gravity	g	9.807 m s^{-2}
1 electron volt	eV	1.6022×10^{-19} J
	eV$/hc$	8.065×10^{5} m^{-1}
	eV$/k_B$	1.1604×10^{4} K
Wavelength of 1 eV photon		1.2399×10^{-6} m

Trigonometrical identities

$$\sin(\theta+\phi) = \sin(\theta)\cos(\phi) + \cos(\theta)\sin(\phi)$$
$$\cos(\theta+\phi) = \cos(\theta)\cos(\phi) - \sin(\theta)\sin(\phi)$$
$$\sin\alpha + \sin\beta = 2\sin\tfrac{1}{2}(\alpha+\beta)\cos\tfrac{1}{2}(\alpha-\beta)$$
$$\cos\alpha + \cos\beta = 2\cos\tfrac{1}{2}(\alpha+\beta)\cos\tfrac{1}{2}(\alpha-\beta)$$
$$\cos\alpha - \cos\beta = 2\sin\tfrac{1}{2}(\alpha+\beta)\sin\tfrac{1}{2}(\beta-\alpha)$$

In a triangle ABC, $a/\sin A = b/\sin B = c/\sin C$
and $a^2 = b^2 + c^2 - 2bc\cos A$

Prefixes

T = tera = 10^{12}	c = centi = 10^{-2}
G = giga = 10^{9}	m = milli = 10^{-3}
M = mega = 10^{6}	μ = micro = 10^{-6}
k = kilo = 10^{3}	n = nano = 10^{-9}
	p = pico = 10^{-12}
	f = femto = 10^{-15}

Conceptual Map: Equilibrium Ethics

```
                  [ MORAL REALITY ]
                         |
                         |
           -----------------------------------
           |                                  |
[ Moral Absolutism ]               [ Moral Relativism ]
  Rigid Rules                         Unlimited Flexibility
  Context Ignored                     No Anchors
  Mechanical Justice                  No Accountability
           |                                  |
           ----------- FRACTURE -------------
                         |
                         |
                  [ EQUILIBRIUM ]
            (Dynamic Moral Calibration)
                         |
           -----------------------------------
           |               |                 |
 [ Human Limits ]  [ Social Context ]  [ Long-Term Impact ]
  Biology            Culture              Future Stability
  Psychology         History               Ecology
                         |
                         |
                 [ ETHICAL ACTION ]
           (Balance Preserved Across Scales)
```

crazy
inside
a rain
sad
I cry
recall
love
sun
myself
was
lonely
the beach
mind
joy
memory
I have
depression
feel
perhaps
yesterday

أقنعة الوهم

مجموعة مؤلفات أقنعة الوهم

فيزياء الميتافيزيقا – التوازن العالمي – الثابت والمتحول – الثوتون

أقنعة الوهم ليس مجرّد كتاب، بل رحلةٌ فكرية تمتدّ عبر العلم والفلسفة والميتافيزيقا وتكنولوجيا المستقبل، لتكشف أنّ أزمات عصرنا المتشابكة ليست سوى وجوه مختلفة لخلل واحد: تجاهل قانون التوازن مما تسبب بجميع أشكال الانهيار الاجتماعي، النفسي، التقني، الاقتصادي، والبيئي. في لغةٍ دقيقة ومتماسكة، يفكّ المؤلّف البنية العميقة للواقع المعاصر، موضحًا كيف ينهار العالم ليس بسبب الضعف، بل لأنّ أقنعته لم تعد قادرة على إخفاء التعب والاحتراق الداخلي للنظام العالمي.

يتتبّع الكتاب تشقّقات الحداثة من خمس زوايا: وهم السيطرة على الطبيعة، وهم التقدّم اللامحدود، وهم الهوية الثابتة، وهم العقلانية المطلقة، ووهم الاستقرار الدائم. ومع انكشاف هذه الأوهام، يصبح الإنسان أمام الحقيقة التي تجاهلها لقرون: أنّ البقاء ليس رهين القوة ولا الذكاء، بل رهين التوازن. التوازن في العقل، في المجتمع، في الاقتصاد، وفي علاقتنا بالكوكب الذي يمنح الحياة.

واستنادًا إلى هذا المبدأ الكونيّ، قانون التوازن، وإلى فلسفة العلم، ورؤيَة تُجَلّي التعادل الموضوعي بين ظاهر الحقيقة العلمية وباطن الحقيقة الدينية بخصوص الطبيعة، فإن تأسيس الأخلاق على القاعدة المشتركة بين العلم والفلسفة والدين يُصبح ضرورة قابلة للتحقيق. يقدّم الكتاب مشروعين فكريّين محوريّين: أخلاقيّات التوازن—إطار أخلاقي علمي متكامل يعرّف الخير بأنه توازن يحفظ الاستقرار، والشر بأنه اختلال التوازن وما يدمّر البنية الحاملة للحياة. ثمّ التوازُن العالمي Globalibrium تصوّرٌ جريء لنظام عالمي جديد يوازن بين ضرورات البقاء (وهي عالميّة ووظيفيّة) وبين تنوّع الثقافات والهويّات (وهو محليّ وحرّ).

في زمن تتسارع فيه التكنولوجيا أسرع من حكمة الإنسان، وتفقد فيه الحضارة قدرتها على قراءة نفسها، يأتي هذا الكتاب ليطرح سؤالًا مصيريًّا: هل يمكن للبشرية أن تستعيد التوازن قبل أن تفرضه بالقوة قوانين الطبيعة؟ أقنعة الوهم عمل فريد يمنح القارئ مفاتيح فهمٍ جديدة لعصر الفوضى، ويقدّم رؤية واقعية ومُلهمة في آنٍ معًا لما يمكن أن تكون عليه حضارة إنسانية أكثر وعيًا، أكثر نضجًا، وأكثر توازنًا.

ISBN 978-1-80605-673-6

9 781806 056736

ARWAD PUBLISHING